التدبر والبيان

في

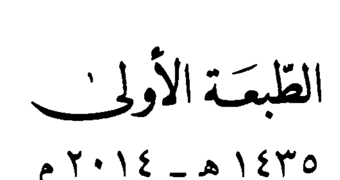
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الأول

الفاتحة - البقرة (١ - ٧٤)



الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨
ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الاستعاذة

أقوال المفسرين في تأويل الاستعاذة

★ **تأويل قوله: «أعوذ»:**

قال أبو جعفر: والاستعاذة: الاستجارة. وتأويل قول القائل: «أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم»: أستجير باللَّه -دون غيره من سائر خلقه- من الشيطان أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي.

★ **تأويل قوله: «الشيطان»:**

قال أبو جعفر: والشيطان في كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء. وكذلك قال ربنا -جل ثناؤه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[1] فجعل من الإنس شياطين، مثل الذي جعل من الجن.

وقال عمر بن الخطاب -رحمة اللَّه عليه- وركب برذونًا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان! ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي[2].

قال أبو جعفر: وإنما سمي المتمرد من كل شيء شيطانًا؛ لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير، وقد قيل: إنه أخذ من قول القائل: شطنت داري من دارك يريد بذلك: بَعُدَتْ. ومن ذلك قول نابغة بني ذبيان:

---

(١) الأنعام: الآية (١١٢).

(٢) قال ابن كثير (١/ ٣١): «إسناده صحيح».

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين

والنوى: الوجه الذي نوته وقصدته. والشطون: البعيد، فكأن الشيطان على هذا التأويل فيعال من شطن. ومما يدل على أن ذلك كذلك، قول أمية ابن أبي الصلت:

أيما شاطن عصاه عَكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

ولو كان فعلان، من شاط يشيط، لقال أيما شائط، ولكنه قال: أيما شاطن، لأنه من «شطن يشطن، فهو شاطن».

★ **تأويل قوله: «الرجيم»:**

وأما الرجيم فهو: فعيل بمعنى مفعول، كقول القائل: كف خضيب، ولحية دهين، ورجل لعين، يريد بذلك: مخضوبة ومدهونة وملعون. وتأويل الرجيم: الملعون المشتوم. وكل مشتوم بقول رديء أو سبٍّ فهو مرجوم. وأصل الرجم الرمي، بقول كان أو بفعل. ومن الرجم بالقول: قول أبي إبراهيم لإبراهيم -صلوات اللّه عليه-: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[1] وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان: رجيم لأن اللّه -جل ثناؤه- طرده من سماواته، ورجمه بالشهب الثواقب[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[3].

ومعنى «استعذ بالله»: امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ، والعياذ، والمعاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قول النبي ﷺ: «**لقد عُذْتِ بمعاذ**»[4]

---

(١) مريم: الآية (٤٦).

(٢) تفسير ابن جرير (١/ ٤٩- ٥٠).

(٣) النحل: الآيات (٩٨- ١٠٠).

(٤) أخرجه من حديث أبي أسيد: أحمد (٣/ ٤٩٨)، والبخاري (٩/ ٤٤٥ - ٤٤٦/ ٥٢٥٥- ٥٢٥٧). وأخرجه من حديث عائشة: البخاري (٩/ ٤٤٥/ ٥٢٥٤)، والنسائي (٦/ ٤٦١/ ٣٤١٧) وابن ماجه (١/ ٢٠٥٠/ ٢٠٥٠).

وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب: «أطيب اللحم عوذه»؛ أي: الذي قد عاذ بالعظم واتصل به. وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها «عوذ» كحمر. ومنه في حديث الحديبية: «معهم العوذ المطافيل»[(١)] والمطافيل: جمع مطفل، وهي الناقة التي معها فصيلها. قالت طائفة -منهم صاحب جامع الأصول-: استعار ذلك للنساء؛ أي: معهم النساء وأطفالهم. ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته؛ أي: قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها[(٢)].

وقال ابن كثير: «ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؛ أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أُمرت به أو يحثني على فعل ما نُهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة:

قوله في الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٣)] فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

وقال تعالى في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[(٥)].

وقال تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا

---

(١) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة بذكر اللفظ: أحمد (٤/ ٣٢٣- ٣٢٦)، والبخاري (٥/ ٤١٢ -٤١٦/ ٢٧٣١- ٢٧٣٢)، وأخرجه دون اللفظ: أبو داود (٢/ ٣٦٤/ ١٧٥٤)، والنسائي (١٨٤/ ٢٧٧٠)، وفي الكبرى (٥/ ١٧٠ - ١٧١/ ٨٥٨١ - ٨٥٨٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٧- ١٤٨).

(٣) الأعراف: الآية (١٩٩).

(٤) الأعراف: الآية (٢٠٠).

(٥) المؤمنون: الآيات (٩٦- ٩٨).

﴿يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الاستعاذة

* عن عدي بن ثابت قال: سمعت سليمان بن صرد -رجلًا من أصحاب النبي ﷺ- قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغيَّر فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد**» فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: «**تعوَّذ باللَّه من الشيطان**» فقال: أترى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب[(٣)].

★ غريب الحديث:

قوله ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد**» جاء في الرواية الأخرى في كتاب الأدب باب الحذر من الغضب: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم**».

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه أن الغضب في غير اللَّه تعالى من نزغ الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيذ فيقول: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم وأنه سبب لزوال الغضب»[(٤)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه: «هل ترى بي من جنون» فهو كلام من لم يفقه في دين اللَّه تعالى، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من نزغات الشيطان، ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب، ولهذا قال النبي ﷺ -للذي قال له: أوصني-: «**لا تغضب**» فردد مرارًا قال:

---

(١) فصلت: الآيات (٣٤-٣٦).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٧٠/ ٦٠٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٠١٥/ ١٦١٠ (١١٠))، وأبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١).
(٤) شرح مسلم (١٦/ ١٣٤).

«**لا تغضب**»[١]، فلم يزده في الوصية على «لا تغضب» مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ منه، ويحتمل أن هذا القائل: «هل ترى بي من جنون» كان من المنافقين أو من جفاة الأعراب، واللَّه أعلم» اهـ[٢].

قوله: «اذهب»: **قال الحافظ**: «هو خطاب من الرجل للرجل الذي أمره بالتعوذ؛ أي: امض في شغلك، وأخلق بهذا المأمور أن يكون كافرًا أو منافقًا، أو كان غلب عليه الغضب حتى أخرجه عن الاعتدال بحيث زجر الناصح الذي دله على ما يزيل عنه ما كان به من وهج الغضب بهذا الجواب السيء، وقيل: إنه كان من جفاة الأعراب وظن أنه لا يستعيذ من الشيطان إلا من جنون، ولم يعلم أن الغضب نوع من شر الشيطان، ولهذا يخرج به عن صورته، ويزين إفساد ماله كتقطيع ثوبه وكسر آنيته أو الإقدام على من أغضبه ونحو ذلك مما يتعاطاه من يخرج عن الاعتدال» اهـ[٣].

* عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل كبَّر ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»، ثم يقول: «**لا إله إلا الله**» ثلاثًا، ثم يقول: «**اللَّه أكبر كبيرًا**» ثلاثًا «**أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم: من همزه ونفخه ونفثه**» **ثم يقرأ**[٤].

★ غريب الحديث:

«**تعالى جدك**»؛ أي: علا جلالك وعظمتك، والجد في اللغة: يأتي بمعنى الحظ والسعادة والغنى.

«**همزه**» جاء تفسيره بالموتة، والموتة: الجنون. والهمز أيضًا: النخس والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته. والهمز أيضًا: الغيبة والوقيعة في الناس، وذكر عيوبهم.

«**نفخه**» فسر بالكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمع نفسه، فيحتاج إلى أن ينفخ.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٦٦)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٦)، والترمذي (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢٠).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ١٣٤).

(٣) الفتح (١٠/ ٥٧٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠) وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥) والترمذي (٢/ ٩- ١٠/ ٢٤٢)، وأخرجه النسائي دون ذكر موضع الشاهد (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨ و٨٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٦٤/ ٨٠٤)، وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٢/ ٥١- ٥٢).

«نفثه» شعره، وذلك لأنه ينفث من الفم.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم» فيه: «دليل على الاستعاذة وأنها بعد التكبيرة، والظاهر أنها أيضًا بعد التوجه بالأدعية لأنها تعوذ القراءة وهو قبلها». قاله الصنعاني[١].

* عن عائشة ﵂: أن ابنة الجون لما أُدخلت على رسول اللَّه ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ باللَّه منك. فقال لها: «**لقد عُذْتِ بعظيم، الحقي بأهلك**»[٢].

* عن أبي العلاء: أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له: خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوَّذْ باللَّه منه واتْفُلْ على يسارك ثلاثًا**» **قال: ففعلت ذلك فأذهبه اللَّه عني**[٣].

* عن خولة بنت حكيم السُّلَمِيَّة قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[٤].

* عن أبي هريرة أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة، قال: «**أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق؛ لم تضرك**»[٥].

---

(١) سبل السلام (٢/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه من حديث أبي أسيد: أحمد (٣/ ٤٩٨)، والبخاري (٩/ ٤٤٥- ٤٤٦/ ٥٢٥٥ - ٥٢٥٧). وأخرجه من حديث عائشة: البخاري (٩/ ٤٤٥/ ٥٢٥٤)، والنسائي (٦/ ٤٦١/ ٣٤١٧)، وابن ماجه (١/ ٢٠٥٠/ ٢٠٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٦)، ومسلم (٤/ ١٧٢٨ -١٧٢٩/ ٢٢٠٣) واللفظ له، ورواه ابن ماجه (٢/ ١١٧٤/ ٣٥٤٨) بغير هذه السياقة.

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣/ ٣٤٣٧)، وأخرجه النسائي دون ذكر موضع الشاهد في الكبرى (٦/ ١٤٤/ ١٠٣٩٤).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١/ ٢٧٠٩).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القرطبي: «وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى، ولما كان ذلك استعاذة بصفات اللَّه تعالى، والتجاء إليه، كان ذلك من باب المندوب إليه، المرغب فيه. وعلى هذا فحق المتعوذ باللَّه تعالى وأسمائه وصفاته أن يصدق اللَّه في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه، ومغفرة ذنبه.

وقوله: «فإنه لا يضره شيء حتى يرتحل منه» هذا خبر صحيح، وقول صادق علمنا صدقه دليلًا وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلًا، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات، فقلت لنفسي -ذامًّا لها وموبخًا- ما قاله ﷺ للرجل الملدوغ: «**أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق؛ لم تضرك**»[1].

صيغ الاستعاذة

قال ابن الجزري: «في صيغتها وفيه مسألتان:

الأولى: أن المختار لجميع القراء من حيث الرواية «أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم» كما ورد في سورة النحل فقد حكى الأستاذ أبو طاهر ابن سوار وأبو العز القلانسي وغيرهما الاتفاق على هذا اللفظ بعينه. وقال الإمام أبو الحسن السخاوي في كتابه «جمال القراء»: إن الذي عليه إجماع الأمة هو: «أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم». وقال الحافظ أبو عمرو الداني: «إنه هو المستعمل عند الحذاق دون غيره» وهو المأخوذ به عند عامة الفقهاء؛ كالشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد وغيرهم، وقد ورد النص بذلك عن النبي ﷺ، ففي الصحيحين من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند رسول اللَّه ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضبًا قد احْمَرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: «**إني أعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده، لو قال: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم**»...

الثانية: دعوى الإجماع على هذا اللفظ بعينه مشكلة والظاهر أن المراد على أنه

---

(١) المفهم (٧/ ٣٦- ٣٧).

المختار فقد ورد تغيير هذا اللفظ والزيادة عليه والنقص منه»[١].

وقال ابن أبي مريم نصر بن علي الشيرازي: «أما الاستعاذة: فالمرضي فيها المتلقى عن السلف الموافق للتنزيل هو: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» جهرًا عند إرادة الابتداء بالقراءة، وإلى هذا ذهب أبو عمرو وعاصم، وروي أيضًا عن كثير من العلماء.

ووجه ذلك: أنا ندبنا إلى ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وليس فيه زيادة على هذا فينبغي ألا يزاد عليه.

وروي أن رجلًا كان يقرأ على أبي بن كعب فقال: أعوذ بالله السميع العليم، فقال له: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» كما أمرك الله حين يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: إذا أردت قراءة القرآن، كما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[٢] أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

ولا يجوز أن يقال: المراد إذا فرغتم من قراءة القرآن؛ لأن الحمل على هذا يبطل المقصود؛ لأن المقصود من الاستعاذة عند القراءة هو أن يعيذنا سبحانه من أن يلقي الشيطان في تلاوتنا باطلًا، أو ما لا يجوز قراءته، أو يشغلنا بوسواسه عن التدبر له أو عن تلاوته، على غير الوجه المأمور به، وهذا بعد الفراغ من القراءة محال.

ويروى عن سليم عن حمزة أنه كان يتعوذ بعد القراءة آخذًا بظاهر اللفظ، وهذه رواية مرغوب عنها.

وروي عن ابن كثير، وروي أيضًا عن نافع: أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

ووجه هذا: أنه غير مقصود به إعادة لفظ القرآن؛ لأنا ما أمرنا إلا بمسألة الله تعالى أن يعيذنا من شر الشيطان، فبأي لفظ، وعلى أي نظم سألناه ذلك أجزأنا، فليس اللفظ بمتعبد به.

وروي عن حمزة: أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونستعيذ أيضًا.

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٤٣- ٢٤٦).
(٢) المائدة: الآية (٦).

ووجهه: أنه تعالى لما قال: (استعذ بالله) فوجه امتثال هذا الأمر على لفظه أن يقال: أستعيذ باللَّه، كما لو قال: سل اللَّه، فقال: أسأل اللَّه.

وعن نافع وابن عامر والكسائي: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم إن اللَّه هو السميع العليم.

ووجه ذلك: أن فيه التمسك بلفظ القرآن وما جاء فيه الأثر، ثم يتلوه ثناء على اللَّه ﷻ، ووصف له بما هو مذكور في القرآن وتصريح بأنه يسمع استعاذته ويعلم نيته، وهذا غير ممنوع جوازه.

وعن قوم آخرين: أعوذ بالسميع العليم، وأعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، ووجهه ما ذكرنا في قراءة ابن كثير»[1].

وقال ابن الجزري: «وأما الزيادة فقد وردت بألفاظ منها ما يتعلق بتنزيه اللَّه تعالى الأولى: «أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم» نص عليها الحافظ أبو عمرو الداني في جامعه، وقال: إن على استعماله عامة أهل الأداء من أهل الحرمين والعراقين والشام، ورواه أبو علي الأهوازي أداء عن الأزرق بن الصباح، وعن الرفاعي عن سليم، وكلاهما عن حمزة ونصًّا عن أبي حاتم. ورواه الخزاعي عن أبي عدي عن ورش أداءً. قلت: وقرأت أنا به في اختيار أبي حاتم السجستاني. ورواية حفص من طريق هبيرة. وقد رواه أصحاب السنن الأربعة وأحمد عن أبي سعيد الخدري بإسناد جيد[2].

وتقدم في حديث أبي سعيد الخدري في فضل الاستعاذة صيغة أخرى وهي «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[3].

حكم الاستعاذة

قال ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في حكم الاستعاذة استحبابًا ووجوبًا:

وهي مسألة لا تعلق للقراءات بها، ولكن لما ذكرها شراح الشاطبية لم يخل

---

(١) الموضح في وجوه القراءات وعللها (١/ ٢٢١- ٢٢٣).

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠) وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥) والترمذي (٢/ ٩- ١٠/ ٢٤٢)، وأخرجه النسائي دون ذكر موضع الشاهد (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨ و٨٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٦٤/ ٨٠٤)، وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٢/ ٥١- ٥٢).

كتابنا من ذكرها لما يترتب عليها من الفوائد. وقد تكفل أئمة التفسير والفقهاء بالكلام فيها، ونشير إلى ملخص ما ذكر فيها في مسائل:

الأولى: ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة مستحبة في القراءة بكل حال: في الصلاة وخارج الصلاة وحملوا الأمر في ذلك على الندب، وذهب داود ابن علي وأصحابه إلى وجوبها حملًا للأمر على الوجوب، كما هو الأصل حتى أبطلوا صلاة من لم يستعذ. وقد جنح الإمام فخر الدين الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى القول بالوجوب، وحكاه عن عطاء بن أبي رباح، واحتج له بظاهر الآية من حيث الأمر. والأمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة النبي ﷺ عليها ولأنها تدرأ شر الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط، وهو أحد مسالك الوجوب، وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته. حكى هذا من القولين شيخنا الإمام عماد الدين ابن كثير -رحمه اللَّه تعالى- في تفسيره.

الثانية: الاستعاذة في الصلاة للقراءة لا للصلاة، وهذا مذهب الجمهور كالشافعي وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل. وقال أبو يوسف: هي للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيدين بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، ثم إذا قلنا بأن الاستعاذة للقراءة فهل قراءة الصلاة قراءة واحدة فتكفي الاستعاذة في أول ركعة أو قراءة كل ركعة مستقلة بنفسها فلا يكفي: قولان للشافعي، وهما روايتان عن أحمد. والأرجح الأول؛ لحديث أبي هريرة في الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة ولم يسكت[1]، ولأنه لم يتخلل القراءتين أجنبي بل تخللها ذكر فهي كالقراءة الواحدة حمد لله أو تسبيح أو تهليل أو نحو ذلك. ورجح الإمام النووي وغيره الثاني.

وأما الإمام مالك فإنه قال: لا يستعاذ إلا في قيام رمضان فقط. وهو قول لا يعرف لمن قبله، وكأنه أخذ بظاهر الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها كان رسول اللَّه ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين[2]. ورأى أن هذا دليل على ترك التعوذ فأما قيام رمضان فكأنه رأى أن الأغلب عليه جانب

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤١٩/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣١)، ومسلم (١/ ٣٥٧- ٣٥٨/ ٤٩٨)، وأبو داود (١/ ٤٩٤- ٤٩٥/ ٧٨٣)، وابن ماجه (١/ ٢٦٧/ ٨١٢).

القراءة، والله أعلم.

الثالثة: إذا قرأ جماعة جملة[١] هل يلزم كل واحد الاستعاذة أو تكفي استعاذة بعضهم؟ لم أجد فيها نصًا، ويحتمل أن تكون كفاية وأن تكون عينًا على كل من القولين بالوجوب والاستحباب، والظاهر الاستعاذة لكل واحد لأن المقصود اعتصام القارئ والتجاؤه بالله تعالى عن شر الشيطان كما تقدم، فلا يكون تعوذ واحدٍ كافيًا عن آخر كما اخترناه في التسمية على الأكل وذكرناه في غير هذا الموضع وأنه ليس من سنن الكفايات، والله أعلم.

الرابعة: إذا قطع القارئ القراءة لعارض من سؤال أو كلام يتعلق بالقراءة لم يعد الاستعاذة، وذلك بخلاف ما إذا كان الكلام أجنبيًّا ولو ردًّا للسلام؛ فإنه يستأنف الاستعاذة وكذا لو كان القطع إعراضًا عن القراءة كما تقدم، والله أعلم. وقيل: يستعيذ، واستدل له بما ذكره أصحابنا[٢].

وقال القرطبي: «هذا الأمر على الندب في قول الجمهور في كل قراءة في غير الصلاة، واختلفوا فيه في الصلاة. حكى النقاش عن عطاء: أن الاستعاذة واجبة. وكان ابن سيرين والنخعي وقوم يتعوذون في الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله في الاستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعي يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة. ومالك لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة ويراه في قيام رمضان[٣].

وقال: «قال المهدوي: أجمع القراء على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أَسَرَّها. وروى السدي عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة. وذكر أبو الليث السمرقندي عن بعض المفسرين أن التعوذ فرض، فإذا نسيه القارئ وذكره في بعض الحزب قطع وتعوذ، ثم ابتدأ من أوله. وبعضهم

---

(١) إذا كان ابن الجزري يقصد القراءة الجماعية بلفظ واحد، وعلى لسان واحد، فهذا أمر مبتدع لا أصل له في الكتاب ولا في السنة، ولم يعرف عن أحد من السلف ممن يقتدى به، بل أنكره مالك واعتبره أمرًا محدثًا.
وأما إن كان يقصد المدارسة وقراءة كل فرد على حدة فهذا أمر لا خلاف فيه.

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٥٧- ٢٥٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٦).

يقول: يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذي وقف فيه؛ وبالأول قال أسانيد الحجاز والعراق، وبالثاني قال أسانيد الشام ومصر»[١].

فائدة الاستعاذة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلًّا خاليًا، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولًا فأول، فكلما أحس بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ باللَّه منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر اللَّه ملحظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف، وهو محصلة للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال النبي ﷺ: «**تلك الملائكة**»[٢]، والشيطان ضد الملك وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من اللَّه مباعدة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٧- ٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨١) والبخاري (٩/ ٧٧/ ٥٠١٨).

عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارئ مناجٍ لله بكلامه «والله تعالى أشد أذنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[1]. والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته واستماع قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخبط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه فهمه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله منه عند القراءة.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، ويدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن شيطانًا تفلّت علي البارحة، فأراد أن يقطع علي صلاتي...**» الحديث[2]. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٩- ٢٠) وابن ماجه (١/ ٤٢٥/ ١٣٤٠) وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده حسن». وابن حبان (الإحسان ٣/ ٣١/ ٧٥٤)، والحاكم (١/ ٥٧٠- ٥٧١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «بل هو منقطع». وضعفه الشيخ الألباني، انظر الضعيفة (٢٩٥١).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٩٨) والبخاري (١/ ٧٢٩/ ٤٦١)، ومسلم (١/ ٣٨٤/ ٥٤١).

حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟**»[1].

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير... فهو بالرصد، ولاسيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ باللَّه منه أولًا، ثم يأخذ في السير كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام اللَّه، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة[2].

وقال القرطبي: «فإن قيل: فما الفائدة في الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا: فائدتها امتثال الأمر، وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها في امتثالها أمرًا أو اجتنابها نهيًا، وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[3]»[4].

قلت: ما قاله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظر، والصحيح أن يقال: إن من أوامر الشريعة ونواهيها، ما ظهرت الحكمة فيه واضحة؛ كأضرار الخمر والزنى، والنهي عن كثير من المأكولات؛ كالميتة والخنزير، وذي ناب من السباع، ومخلب من الطير. وهذا باب واسع جدًّا يعرفه من تتبع أحوال الطب، وكذلك فوائد المأمورات؛ مثل الصيام

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٣٢٩- ٣٣٠/ ٣١٣٤) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٥٣/ ٤٥٩٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٨- ١٥٢).

(٣) الحج: الآية (٥٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٨).

الذي ظهرت منافعه للعقلاء، وأهل الفطرة السليمة، وكذلك الحج فيه منافع كثيرة، وهكذا معظم العبادات منافعها ظاهرة وأحكامها بادية وواضحة. وما خفي علينا أمره آمنا به، وتلقيناه بالقبول والتصديق، هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

استعمالات الاستعاذة

١- عند قراءة القرآن:

لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(١)].

ولحديث أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**» ثم يقول: «**لا إله إلا الله**» ثلاثًا، ثم يقول: «**الله أكبر كبيرًا**» ثلاثًا «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم: من همزه ونفخه ونفثه**» **ثم يقرأ**[(٢)].

٢- في الصلاة إذا عرض لك الشيطان:

لحديث أبي العلاء: أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له: خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثًا**». **قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني**[(٣)].

٣- عند نباح الكلب ونهاق الحمير:

لحديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**أَقِلُّوا الخروج بعد هدوء الليل، فإن لله دواب يبثهن، فمن سمع نباح الكلب، أو نهاق حمار، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنهم يرون ما لا ترون**»[(٤)].

---

(١) النحل: الآية (٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠) وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥)، والترمذي (٢/ ٩- ١٠/ ٢٤٢)، وأخرجه النسائي دون ذكر موضع الشاهد (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨ و٨٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٦٤/ ٨٠٤) وحسنه الألباني في الإرواء (٢/ ٥١-٥٢)..

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٦) ومسلم (٤/ ١٧٢٨- ١٧٢٩/ ٢٢٠٣) واللفظ له، ورواه ابن ماجه (٢/ ١١٧٤/ ٣٥٤٨) بغير هذه السياقة.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٦) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٣) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٣٣٢/ ٥١٠٣) وصححه ابن حبان: الإحسان (١٢/ ٣٢٦/ ٥٥١٧)، والحاكم (٤/ ٢٨٣- ٢٨٤) وسكت عنه الذهبي.

٤- عند الغضب:

لقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

ولحديث عدي بن ثابت قال: سمعت سليمان بن صرد -رجلًا من أصحاب النبي ﷺ - قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد**» فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: «**تعوذ بالله من الشيطان**» فقال: أترى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهبْ[٢].

٥- في الرؤيا المكروهة:

لحديث أبي قتادة: أن النبي ﷺ قال: «**إن الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليبصق عن شماله ثلاث مرات، وليتعوذ بالله من الشيطان، فإنها لا تضره**»[٣].

ذكر الحافظ ابن حجر الحكمة من الاستعاذة من الشيطان عند حدوث الرؤيا المكروهة قال: «وأما الاستعاذة من الشيطان فلما وقع في بعض طرق الحديث أنها منه، وأنه يخيل بها، لقصد تحزين الآدمي والتهويل عليه»[٤].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٧٠/ ٦٠٤٨) ومسلم (٤/ ٢٠١٥/ ١٦١٠ (١١٠))، وأبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٠٠) واللفظ له، والبخاري (٦/ ٤١٦- ٤١٧/ ٣٢٩٢)، ومسلم (٤/ ١٧٧١/ ٢٢٦١).

(٤) فتح الباري (١٢/ ٤٥٩).



سورة الفاتحة

مقدمة فيما تضمنته سورة الفاتحة من المعاني

قال ابن القيم -رحمه اللَّه تعالى-: «اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت على التعريف بالمعبود -تبارك وتعالى- بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: (الله)، و(الرب)، و(الرحمن) وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة. فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها. وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يليق به أن يترك عباده سدًى هملًا، لا يُعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما. فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة

عبادته إلا من طريق رسله .

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه اليوم الذي يدين اللَّه العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيئات. وما كان اللَّه ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن ما يُعبَد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه -وعبادته: وهي شكره وحبه وخشيته: فطري ومعقول للعقول السليمة. لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل، ولم يؤمن به، ولهذا جعل اللَّه سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه. وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما. وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلًا وإجمالًا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يُعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثلما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها-: وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدي في هذه الدار إلى صراط اللَّه المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذه الصراط الذي نصبه اللَّه لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردس في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسئول، وهو الصراط المستقيم. ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين

---

(١) النمل: الآية (٩٠).

(٢) فصلت: الآية (٤٦).

نقطتين. وكلما تعوج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط: تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[(١)]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة؛ لكونهم أهل سلوكه، وهو المنصوب لهم، وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق، أو جاهلًا به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملًا بموجبه أو مخالفًا له. فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة. فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[(٣)]. والعالِم به المتبع هواه هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق: هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هاهنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم... والجاهل بالحق أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به»[(٤)].

وقال -رحمه الله تعالى-: «للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية.

وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها.

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٢) الشورى الآيتان (٥٢ و٥٣).
(٣) الشمس: الآية (٩).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٧- ١١).

فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها؛ إخلاصًا وصدقًا ونصحًا، وإحسانًا ومتابعة وشهودًا لمنته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته. فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية، فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية، فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم (الله) و(الرب) و(الرحمن).

فاسم (الله) متضمن لصفات الألوهية، واسم (الرب) متضمن لصفات الربوبية، واسم (الرحمن) متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو

فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا وذلك من موجبات إلهيته فهو الإله الحق، وإن جحده الجاحدون، وعدل به المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة، الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين. والله المستعان»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الفاتحة

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداها**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم**»[٣].

* عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾**». ثم قال لي: «**لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد**» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: ألم تقل: «**لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن**»؟ قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) الفوائد (ص٢٩- ٣١).

(٢) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢) وأخرجه البيهقي (٢/ ٤٥)، وقال الحافظ في التلخيص (١/ ٢٣٣): «وهذا الإسناد رجاله ثقات وصحح غير واحد من الأئمة وقفه على رفعه... لكنه في حكم المرفوع، إذ لا مدخل للاجتهاد في عد آي القرآن».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٨) والبخاري (٨/ ٤٨٦/ ٤٧٠٤) وأبو داود (٢/ ١٤٩- ١٥٠/ ١٤٥٧)، والترمذي (٥/ ٢٧٧/ ٣١٢٤) وقال: «حسن صحيح».

﴿ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ **هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»**[١].

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ خرج على أبي بن كعب فقال: **«يا أبي»** -وهو يصلي- فالتفت أبي فلم يجبه. فصلى أبي فخفف، ثم انصرف إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟»** فقال: يا رسول اللَّه، إني كنت في الصلاة. قال: **«أفلم تجد فيما أوحى اللَّه إلي أن** ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[٢]؟» قال: بلى، ولا أعود إن شاء اللَّه. قال: **«أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؟»** قال: نعم يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«كيف تقرأ في الصلاة؟»** فقرأ بأم القرآن، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، وإنها السبع من المثاني -أو: السبع المثاني- والقرآن العظيم الذي أعطيته»**[٣].

* عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال: **«هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»**[٤].

⋆ غريب الحديث:

«سمع نقيضًا»: النقيض، ونقيض المعامل: صوتها. ونقيض السقف: تحريك خشبه.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٠)، و(٤/ ٢١١)، والبخاري (٨/ ١٩٨/ ٤٤٧٤)، وأبو داود (٢/ ١٥٠/ ١٤٥٨) والنسائي (٢/ ٤٧٦- ٤٧٧/ ٩١٢) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٤/ ٣٧٨٥).

(٢) الأنفال: الآية (٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٢- ٤١٣) والترمذي (٥/ ١٤٣/ ٢٨٧٥) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن خزيمة (١/ ٢٥٢/ ٥٠٠)، والحاكم (١/ ٥٥٧)، وقال: «على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٦)، والنسائي (٢/ ٤٧٥ -٤٧٦/ ٩١١).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن كثير: «واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار من المالكية.

وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام اللَّه، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلًا، نقله القرطبي عن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم بن حبان البستي ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك أيضًا»[1] اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذه المسألة مبنية على أصل: وهو أن القرآن هل يتفاضل في نفسه، فيكون بعضه أفضل من بعض؟ وهذا فيه للمتأخرين قولان مشهوران، منهم من قال: لا يتفاضل في نفسه، لأنه كله كلام اللَّه، وكلام اللَّه صفة له، قالوا: وصفة اللَّه لا تتفاضل، لاسيما مع القول بأنه قديم، فإن القديم لا يتفاضل، كذلك قال هؤلاء في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[2] قالوا: فـ(خير) إنما يعود إلى غير الآية، مثل نفع العباد وثوابهم.

والقول الثاني: أن بعض القرآن أفضل من بعض، وهذا قول الأكثرين من الخلف والسلف، فإن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح في الفاتحة: «**إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها**» فنفى أن يكون لها مثل، فكيف يجوز أن يقال: إنه متماثل؟ وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال لأبي ابن كعب: «**يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب اللَّه أعظم؟** قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[3] فضرب بيده في صدره وقال له: **ليهنك العلم أبا المنذر**»[4]. فقد بين أن هذه الآية أعظم آية في القرآن، وهذا بين أن بعض الآيات أعظم من بعض.

وأيضًا فإن القرآن كلام اللَّه والكلام يشرف بالمتكلم به، سواء كان خبرًا أو أمرًا، فالخبر يشرف بشرف المخبر، وبشرف المخبر عنه، والأمر يشرف بشرف الآمر، وبشرف المأمور به، فالقرآن وإن كان كله مشتركًا، فإن اللَّه تكلم به، لكن

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٤). (٢) البقرة: الآية (١٠٦). (٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤١- ١٤٢) ومسلم (١/ ٥٥٦/ ٨١٠) وأبو داود (٢/ ١٥١/ ١٤٦٠).

منه ما أخبر اللَّه به عن نفسه، ومنه ما أخبر به عن خلقه، ومنه ما أمرهم به؛ فمنه ما أمرهم فيه بالإيمان، ونهاهم فيه عن الشرك، ومنه ما أمرهم به بكتابة الدين، ونهاهم فيه عن الربا.

ومعلوم أن ما أخبر به عن نفسه: كـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أعظم مما أخبر به عن خلقه، كـ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، وما أمر فيه بالإيمان وما نهى فيه عن الشرك أعظم مما أمر فيه بكتابة الدين ونهى فيه عن الربا، ولهذا كان كلام العبد مشتركًا بالنسبة إلى العبد، وهو كلام لمتكلم واحد، ثم إنه يتفاضل بحسب المتكلم فيه، فكلام العبد الذي يذكر به ربه ويأمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، أفضل من كلامه الذي يذكر فيه خلقه، ويأمر فيه بمباح أو محظور، وإنما غلط من قال بالأول؛ لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام، وهي جهة المتكلم به، وأعرض عن الجهة الأخرى وهي جهة المتكلم فيه، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل.

قالوا: ومن أعاد التفاضل إلى مجرد كثرة الثواب أو قلته من غير أن يكون الكلام في نفسه أفضل؛ كان بمنزلة من جعل عملين متساويين، وثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر، مع أن العملين في أنفسهما لم يختص أحدهما بمزية، بل كدرهم ودرهم تصدق بهما رجل واحد، في وقت واحد، ومكان واحد، على اثنين متساويين في الاستحقاق، ونيته بهما واحدة، ولم يتميز أحدهما على الآخر بفضيلة، فكيف يكون ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر، بل تفاضل الثواب والعقاب دليل على تفاضل الأعمال في الخير والشر. وهذا الكلام متصل بالكلام في اشتمال الأعمال على صفات بها كانت صالحة حسنة، وبها كانت فاسدة قبيحة. وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وقول من قال: صفات اللَّه لا تتفاضل ونحو ذلك، قول لا دليل عليه، بل هو مورد النزاع، ومن الذي جعل صفته التي هي الرحمة لا تفضل على صفته التي هي الغضب وقد ثبت عن النبي ﷺ: «**إن اللَّه كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**» وفي رواية: «**تسبق غضبي**»[1].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٤٢- ٢٥٨)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤) ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٤٧٥٠) وابن ماجه (١/ ٦٧- ١٨٧).

وصفة الموصوف من العلم والإرادة والقدرة والكلام والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات تتفاضل من وجهين:

أحدهما: أن بعض الصفات أفضل من بعض، وأدخل في كل الموصوف بها، فإنا نعلم أن اتصاف العبد بالعلم والقدرة والرحمة أفضل من اتصافه بضد ذلك، لكن اللَّه تعالى لا يوصف بضد ذلك، ولا يوصف إلا بصفات الكمال، وله الأسماء الحسنى يدعى بها، فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى، وأسماؤه متضمنة لصفاته، وبعض أسمائه أفضل من بعض، وأدخل في كمال الموصوف بها، ولهذا في الدعاء المأثور: «أسألك باسمك العظيم الأعظم، الكبير الأكبر»[1]، و «**لقد دعا اللَّه باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[2]. وأمثال ذلك. فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات.

والثاني: أن الصفة الواحدة قد تتفاضل، فالأمر بمأمور يكون أكمل من الأمر بمأمور آخر، والرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم، والرحمة لهم أكمل من الرحمة لغيرهم، وتكليم اللَّه لبعض عباده أكمل من تكليمه لبعض، وكذلك سائر هذا الباب، وكما أن أسماءه وصفاته متنوعة، فهي أيضًا متفاضلة، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل، وإنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها، وذلك يرجع إلى نفي الصفات، كما يقوله الجهمية لما ادعوه من التركيب، وقد بينا فساد هذا مبسوطًا في موضعه» اهـ[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أسماء الفاتحة

سورة الفاتحة من السور ذوات الأسماء الكثيرة، أنهاها بعض أهل العلم إلى نيف وعشرين، بين أسماء ثبتت في السنة الصحيحة، وبين ألقاب وصفات جرت

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٣٠/ ٩) والطبراني في الدعاء (٢/ ٨٣٤/ ١١٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٨/ ٣٨٥٩) وضعفه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٨) والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥) وأبو داود (٢/ ١٦٧- ١٦٨/ ١٤٩٥)، والترمذي (٥/ ٥١٤/ ٣٥٤٤)، والنسائي (٣/ ٥٩- ٦٠/ ١٢٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٨/ ٣٨٥٨) وصححه ابن حبان (٣/ ١٧٥- ١٧٦/ ٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣- ٥٠٤) ووافقه الذهبي.

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٠٨- ٢١٢).

على ألسنة القراء والمفسرين من عهد السلف ﷺ، وهذا جرد لما صح منها وبيان وجه التسمية بها.

الأول: حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرءوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها**»(١). وقد تقدم في فضل الفاتحة.

تضمن هذا الحديث أربعة أسماء للفاتحة وهي: الحمد، أم القرآن، أم الكتاب، والسبع المثاني.

أما وجه تسميتها بالحمد: قال القرطبي: «لأن فيها ذكر الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها»(٢).

ووجه تسميتها بأم القرآن: قال الطبري: «وسميت أم القرآن لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها، وتأخر ما سواها خلفها في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة الكتاب، وإنما قيل لها لكونها كذلك، أم القرآن، لتسمية العرب كل جامع أمرًا، أو مقدمًا لأمر، إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع أمًّا»(٣).

وقال ابن حجر: «وقيل: سميت أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على اللَّه تعالى والتعبد بالأمر والنهي والوعد والوعيد وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش»(٤).

ووجه تسميتها بأم الكتاب: قال البخاري في صحيحه: «وسميت أم الكتاب أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة(٥).

وقال ابن كثير: «وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته»(٦).

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: الدارقطني (١/ ٣١٢) والبيهقي (٢/ ٤٥)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ٢٣٣): «وهذا الإسناد رجاله ثقات وصحح غير واحد من الأئمة وقفه على رفعه.. لكنه في حكم المرفوع، إذ لا مدخل للاجتهاد في عد آي القرآن». وانظر الصحيحة (١١٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٧٩).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٧).

(٤) الفتح (٨/ ١٩٧).

(٥) الفتح (٨/ ١٩٧).

(٦) التفسير (١/ ٢١).

ووجه تسميتها بالسبع المثاني: قال الطبري: «وأما تأويل اسمها أنها السبع، فإنها سبع آيات، لا خلاف بين الجميع من القراء والعلماء في ذلك وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات.. وأما وصف النبي ﷺ آياتها السبع بأنهن مثان، فلأنها تثنى في قراءتها في كل صلاة تطوع ومكتوبة، وكذلك كان الحسن البصري يتأول ذلك»[١].

وقال القرطبي: «وقيل: سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرًا لها»[٢].

وذكر الرازي في سبب تسميتها بالمثاني وجوهًا نذكر منها ما زاد على ما ذكرناه ووافقناه فيه: قال: «الأول: أنها مثنى: نصفها ثناء العبد للرب، ونصفها عطاء الرب للعبد... السابع: سميت مثاني لأنها أثنية على اللَّه تعالى ومدائح له»[٣].

الثاني: حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم**»[٤].

زاد في هذا الحديث تسميتها بالقرآن العظيم.

قال القرطبي: «سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على اللَّه ﷻ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين»[٥].

الثالث: حديث ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال: «**هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر**

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٨).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٨٠).
(٣) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٨١- ١٨٢).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٨) والبخاري (٨/ ٤٨٦/ ٤٧٠٤)، وأبو داود (٢/ ١٤٩- ١٥٠/ ١٤٥٧) والترمذي (٥/ ٢٧٧/ ٣١٢٤) وقال: «حسن صحيح».
(٥) تفسير القرطبي (١/ ٨٠).

بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(١).

في تسميتها بفاتحة الكتاب: قال الطبري: «وسميت فاتحة الكتاب لأنها يفتح بكتابتها المصاحف، ويقرأ بها في الصلوات فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن، في الكتابة والقراءة»(٢).

الرابع: حديث أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال اللَّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. **قال اللَّه تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. **قال اللَّه تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. **قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. **قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»**(٣).

استفيد منه تسمية الفاتحة بالصلاة.

قال القاري في المرقاة: «وسميت صلاة لما فيها من القراءة وكونها جزءًا من أجزائها»(٤).

وقال ابن كثير: «فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها»(٥).

وقال ابن عبد البر: «فإن قيل: كيف تكون: قسمت الصلاة عبارة عن السورة، وهو يقول: قسمت الصلاة ولم يقل قسمت السورة؟ قيل: معلوم أن السورة القراءة، وقد يعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٦) والنسائي (٢/ ٤٧٥- ٤٧٦/ ٩١١).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٤٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٥) ومسلم (١/ ٢٩٦/ ٣٩٥) وأبو داود (١/ ٥١٢- ٥١٤/ ٨٢١) والترمذي (٥/ ١٨٤- ١٨٦/ ٢٩٥٣) والنسائي (٢/ ٤٧٣- ٤٧٤/ ٩٠٨) وأخرجه ابن ماجه (١/ ٢٧٣- ٢٧٤/ ٨٣٨) مختصرًا.
كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة به.

(٤) المرقاة (٢/ ٥٤٩).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٧).

كَانَ مَشْهُودًا﴾[(١)] أي: قراءة صلاة الفجر» اهـ[(٢)].

الخامس: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء. فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، واللَّه إني لأرقي، ولكن واللَّه لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جعلًا. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول اللَّه ﷺ فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا**» فضحك رسول اللَّه ﷺ[(٣)].

استفيد من هذا الحديث تسمية الفاتحة بالرقية.

قال النووي: «فيه التصريح بأنها رقية فيستحب أن يقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نزولها وعدد آياتها

* عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال: «**هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر**

---

(١) الإسراء: الآية (٧٨).
(٢) فتح البر (٤/ ٦٣٨).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢- ١٠- ٤٤) والبخاري (٤/ ٥٧١/ ٢٢٧٦)، ومسلم (٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠١)، وأبو داود (٣/ ٧٠٣/ ٣٤١٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٨/ ٢٠٦٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٤- ٢٥٥/ ١٠٨٦٦).
(٤) شرح مسلم (١٤/ ١٥٧).

بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[١].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداها»**[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد، لما رواه مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل. . . فذكر الحديث. قال ابن عطية: وليس كما ظن، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي ﷺ معلمًا به وبما ينزل معه، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها، واللَّه أعلم.

قلت: الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبي ﷺ بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[٣] وهذا يقتضي جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة، واللَّه أعلم. وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبي. وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، ولله الحمد والمنة»[٤].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾[٥] من سورة الحجر: «والقول الثاني أنها الفاتحة وهي سبع آيات. روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٦) والنسائي (٢/ ٤٧٥- ٤٧٦/ ٩١١).

(٢) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢) وأخرجه البيهقي (٢/ ٤٥)، وقال الحافظ في التلخيص (١/ ٢٣٣): «وهذا الإسناد رجاله ثقات وصحح غير واحد من الأئمة وقفه على رفعه. . . لكنه في حكم المرفوع، إذ لا مدخل للاجتهاد في عد آي القرآن».

(٣) الشعراء: الآية (١٩٣).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٨٢- ٨٣).

(٥) الحجر: الآية (٨٧).

خصكم اللَّه بها. وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد اللَّه بن عبيد بن عمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد، وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل قراءة وفي رواية في كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك»[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ستة وهذا شاذ. وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على عده ثماني آيات وهذا شاذ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، وقوله: «قسمت الصلاة» يرد هذين القولين.

وأجمعت الأمة أيضًا على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت قرآنًا لأثبتها عبد اللَّه بن مسعود في مصحفه، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده.

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبي قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال: أظنه عن إبراهيم قال: قيل لعبد اللَّه بن مسعود: لِمَ لَمْ تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة. قال أبو بكر: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة.

الثانية: اختلفوا أهي مكية أم مدنية؟ فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي -واسمه رفيع- وغيرهم: هي مكية. وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء ابن يسار والزهري وغيرهم: هي مدنية. ويقال: نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة. حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره. والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ والحجر مكية بإجماع،

---

(١) التفسير (٤/ ٤٦٥).

ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة. وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل على هذا قوله ﷺ: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**» وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٨١- ٨٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استعمالات الفاتحة

١- قراءتها في الصلاة:

* عن عبادة بن الصامت: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[١].

* عن أبي هريرة: أمرني رسول اللَّه ﷺ أن أنادي أنه: «**لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد**»[٢].

* عن أبي سعيد قال: «أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر»[٣].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج -ثلاثًا- غير تمام**» فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام. فقال: اقرأ بها في نفسك. فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال اللَّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال اللَّه تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال اللَّه تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢١) والبخاري (٢/ ٣٠١/ ٧٥٦) ومسلم (١/ ٢٩٥/ ٣٩٤) وأبو داود (١/ ٥١٤/ ٨٢٢) والترمذي (٢/ ٢٥/ ٢٤٧) والنسائي (٢/ ٤٧٤/ ٩٠٩) وابن ماجه (١/ ٢٧٣/ ٨٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٨) وأبو داود (١/ ٥١٢/ ٨١٩- ٨٢٠) وابن حبان (٥/ ٩١- ٩٤/ ١٧٩١) والحاكم (١/ ٢٣٩) وقال: «هذا حديث صحيح لا غبار عليه» ووافقه الذهبي.
وصححه الشيخ الألباني بشاهديه من حديث عبادة المتقدم وحديث أبي سعيد وسيأتي، انظر صحيح أبي داود (١/ ٤٠٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥)، وأبو داود (١/ ٥١١- ٥١٢/ ٨١٨) وابن حبان (٥/ ٩٢/ ١٧٩٠)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ٢٣٢): «إسناده صحيح».

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٥)، ومسلم (١/ ٢٩٦/ ٣٩٥)، وأبو داود (١/ ٥١٢- ٥١٤/ ٨٢١) والترمذي (٥/ ١٨٤- ١٨٦/ ٢٩٥٣) والنسائي (٢/ ٤٧٣- ٤٧٤/ ٩٠٨) وأخرجه ابن ماجه (١/ ٢٧٣- ٢٧٤/ ٨٣٨) مختصرًا. كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة به.

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، فقال مالك وأصحابه: هي متعينة للإمام والمنفرد في كل ركعة. قال ابن خويز منداد البصري المالكي: لم يختلف قول مالك أنه من نسيها في صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه. واختلف قوله فيمن تركها ناسيًا في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية، فقال مرة: يعيد الصلاة، وقال مرة أخرى: يسجد سجدتي السهو. وهي رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك. قال ابن خويز منداد: وقد قيل: إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام، قال ابن عبد البر: الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتي بركعة بدلًا منها، كمن أسقط سجدة سهوًا، وهو اختيار ابن القاسم. وقال الحسن البصري وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني: إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة في الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهي تامة لقوله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**» وهذا قد قرأ بها.

قلت: ويحتمل: لا صلاة لمن لم يقرأ بها في كل ركعة، وهو الصحيح على ما يأتي. ويحتمل: لا صلاة لمن لم يقرأ بها في أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي: إن تركها عامدًا في صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك. وقال أبو يوسف ومحمد ابن الحسن: أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين. وعن محمد بن الحسن أيضًا قال: أسوغ الاجتهاد في مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة، نحو: «الحمد لله» ولا أسوغه في حرف لا يكون كلامًا.

وقال الطبري: يقرأ المصلي بأم القرآن في كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها. قال ابن عبد البر: وهذا لا معنى له؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها، ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود

إليها، كسائر المفروضات المتعينات في العبادات»[١].

مبحث: قراءتها خلف الإمام

هذه المسألة الخلاف فيها قديم، وقد تناولها كثيرمن العلماء، وذكروا أقوال المختلفين وأدلتهم، وقد أفردها الإمام البخاري رحمه الله برسالة استوفى فيها الأدلة على وجوب القراءة خلف الإمام، بل ذهب البخاري إلى أبعد من ذلك فرأى أن المأموم إذا أدرك الإمام في الركوع ولم يدرك قراءة الفاتحة وجب عليه إعادة الركعة، وقد قال بقوله جماعة من العلماء، وكذلك الإمام البيهقي رحمه الله، ألف رسالة ذكر فيها الأدلة وطرقها على وجوب القراءة خلف الإمام، كما أطنب في البحث حافظ المغرب ابن حزم رحمه الله في كتابه «المحلى»، فذكر الأدلة، دليلًا دليلًا، وناقشها ورد على المخالفين في وجوب القراءة خلف الإمام بما لا مزيد عليه، وبما لا يوجد مثله في كتاب آخر فيما أعلم[٢]. وكذلك النووي في «المجموع»[٣] وغيرهم ممن يذكر خلاف أهل العلم، ومذاهب علماء الأمصار، وارتأيت أن أنقل خلاصة ذلك من كتاب الحافظ ابن عبد البر «التمهيد» الذي رتبته على أبواب الفقه وسميته «فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر».

والذي يظهر لي ويترجح وأدين الله به: هو وجوب القراءة خلف الإمام في الصلاة السرية والجهرية، للأدلة الواضحة في ذلك والتي لا تفرق بين إمام ومأموم، وما عارضها من عمومات يتمسك بها من لا يرى وجوب القراءة، فالجمع بينها ممكن، بل هو الواجب، حتى لا تتضارب النصوص، وتصبح السنة عرضة للتعارض والتناقض. وهذا الذي نهى عنه ﷺ كما في حديث القدر[٤].

وإليك خلاصة ما ذكره الحافظ ابن عبد البر رحمه الله:

قال: «وهذا موضوع اختلفت فيه الآثار عن النبي ﷺ، واختلف فيه العلماء من

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٨٣- ٨٤).

(٢) انظر المحلى (٣/ ٢٣٦- ٢٤٣/ ٣٦٠).

(٣) انظر المجموع شرح المهذب (٣/ ٢٩٥- ٢٩٩).

(٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو: أحمد (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه (١/ ٣٣/ ٨٥) وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».

الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين على ثلاثة أقوال: نذكرها ونبين وجوهها بعون الله إن شاء الله. فقال منهم قائلون: لا يقرأ لا فيما أسر ولا فيما جهر، وقال آخرون: يقرأ معه فيما أسر فيه، ولا يقرأ فيما جهر فيه إلا بأم القرآن خاصة دون غيرها، وسنبين أقوالهم واعتلالهم في هذا الباب إن شاء الله، ونبين الحجة لكلا الفريقين وعليهم بما يحضرنا ذكره بعون الله. وقال آخرون: يقرأ مع الإمام فيما أسر فيه ولا يقرأ فيما جهر فيه، وهو قول سعيد بن المسيب، وعبيد الله بن عبد الله، وسالم بن عبد الله بن عمر، وابن شهاب، وقتادة، وبه قال مالك وأصحابه وعبد الله بن المبارك وأحمد وإسحاق وداود بن علي، والطبري، إلا أن أحمد بن حنبل قال: إن سمع لم يقرأ، وإن لم يسمع قرأ، ومن أصحاب داود من قال: لا يقرأ فيما قرأ إمامه وجهر، ومنهم من قال: يقرأ، وأوجبوا كلهم القراءة فيما إذا أسر الإمام، وروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود على اختلاف عنهم: القراءة فيما أسر الإمام دون ما جهر، وعن عثمان بن عفان وأبي بن كعب وعبد الله بن عمر مثل ذلك، وهو أحد قولي الشافعي كان يقوله بالعراق، وهذا هو القول المختار عندنا وبالله توفيقنا، فمن الحجة لمن ذهب هذا المذهب قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1] وهذا عند أهل العلم عند سماع القرآن في الصلاة، فأوجب -تبارك وتعالى- الاستماع والإنصات على كل مصلٍّ جهر إمامه بالقراءة، ليسمع القراءة. ومعلوم أن هذا في صلاة الجهر دون صلاة السر؛ لأنه مستحيل أن يريد بالإنصات والاستماع ممن لا يجهر إمامه، وكذلك مستحيل أن تكون منازعة القرآن في صلاة السر؛ لأن المُسر إنما يسمع نفسه دون غيره، فقول رسول الله ﷺ: «**ما لي أنازع القراءة**»[2] يضاهي ويطابق قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

قال أبو عمر: في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ مع إجماع أهل العلم أن مراد الله من ذلك في الصلوات المكتوبة أوضح الدلائل على

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٤).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٤٠ - ٢٨٤- ٢٨٥) وأبو داود (١/ ٥١٦- ٥١٧/ ٨٢٦- ٨٢٧) والترمذي (٢/ ١١٨- ١١٩/ ٣١٢)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩/ ٩١٨) وابن ماجه (١/ ٢٧٧- ٢٧٩/ ٨٤٨- ٨٤٩)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٥/ ١٥١/ ١٨٤٣).

أن المأموم إذا جهر إمامه في الصلاة أنه لا يقرأ معه بشيء، وأن يستمع له وينصت. وفي ذلك دليل على أن قول رسول اللَّه ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب**»(١) مخصوص في هذا الموضوع وحده، إذا جهر الإمام بالقراءة لقول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ وما عدا هذا الموضوع وحده، فعلى عموم الحديث، وتقديره: لا صلاة؛ يعني: لا ركعة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب؛ إلا لمن صلى خلف إمام يجهر بالقراءة فإنه يستمع وينصت.

وقال آخرون: لا يترك أحد من المأمومين قراءة فاتحة الكتاب خلف إمامه فيما جهر فيه الإمام بالقراءة، لأن قول رسول اللَّه ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» عام لا يخصه شيء، لأن رسول اللَّه ﷺ لم يخص بقوله ذلك مصليًا من مصلٍّ. قالوا: وقول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ خاص واقع على ما سوى فاتحة الكتاب، وكذلك قوله: «**ما لي أنازع القرآن**»(٢) وقوله: «**وإذا قرأ فأنصتوا**»(٣) أراد بعد فاتحة الكتاب، وممن ذهب إلى هذه الجملة الأوزاعي، والليث بن سعد، وهو قول الشافعي بمصر، وعليه أكثر أصحابه منهم المزني، والبويطي، وبه قال أبو ثور، وروي ذلك عن عبادة بن الصامت وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وعبد اللَّه بن عباس، واختلف فيه عن أبي هريرة، وهو قول عروة بن الزبير، وسعيد بن جبير، ومكحول، والحسن البصري. . .

قال أبو عمر: من حجة من ذهب مذهب الأوزاعي في هذا الباب ما حدثناه سعيد بن نصر -وذكر سنده إلى- عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**» قالوا بهذا على عمومه في الإمام والمأموم؛ لأنه لم يخص إمامًا من مأموم ولا منفرد.

قالوا: ولما لم ينب ركوع الإمام ولا قيامه ولا إحرامه ولا سجوده، ولا تسليمه عن ركوع المأموم، ولا عن قيامه، ولا عن سجوده، ولا عن إحرامه، ولا عن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٢٠) وأبو داود (١/ ٤٠٤- ٤٠٥/ ٦٠٤) والنسائي (٢/ ٤٨٠/ ٩٢١) وابن ماجه (١/ ٢٧٦/ ٨٤٦) وصححه مسلم ولم يخرجه في صحيحه (١/ ٣٠٤/ ٦٣).

تسليمه، فكذلك لا تنوب قراءته في أم القرآن عن قراءته . . .

وقال آخرون منهم سفيان الثوري وابن عيينة وابن أبي ليلى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حيي: لا يقرأ مع الإمام لا فيما أسر ولا فيما جهر، وهو قول جابر بن عبد اللّه وجماعة من التابعين بالعراق، وروي ذلك أيضًا عن زيد بن ثابت وعلي وسعد، هؤلاء ثبت ذلك عنهم من جهة الإسناد، واحتج من ذهب هذا المذهب بأن قال: قول رسول اللّه ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب**» خاص وواقع على من صلى وحده أو كان إمامًا فأما من صلى وراء إمام فإن قراءة الإمام له قراءة، واستدلوا على صحة قولهم بأن الجمهور قد أجمعوا على أن الإمام إذا لم يقرأ من خلفه لم تنفعهم قراءتهم، فدل على أن قراءة الإمام قراءة لهم»[1].

٢- قراءتها في صلاة الجنازة:

* عن طلحة قال: صليت خلف ابن عباس رضي الله عنهما على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب، قال: «لتعلموا أنها سنة»[2].

* عن أبي أمامة بن سهل قال: السنة في الصلاة على الجنازة أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافتة ثم يكبر ثلاثًا والتسليم في الآخرة[3].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «واختلف العلماء في القراءة بفاتحة الكتاب على الجنازة، فروي عن ابن مسعود وابن الزبير وابن عباس وعثمان بن حبيب وأبي أمامة ابن سهل بن حنيف أنهم كانوا يقرءون فاتحة الكتاب على ظاهر حديث ابن عباس، وهو قول مكحول والحسن البصري، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق، قالوا: ألا ترى قول ابن عباس: «لتعلموا أنها سنة» والصاحب إذا قال: سنة فإنما يريد سنة رسول اللّه ﷺ.

---

(١) التمهيد: فتح البر (٥/ ١٠٨- ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٦١/ ١٣٣٥) وأبو داود (٣/ ٥٣٧- ٥٣٨/ ٣١٩٨) والترمذي (٣/ ٣٤٦/ ١٠٢٧) والنسائي (٤/ ٣٧٧- ٣٧٨/ ١٩٨٦- ١٩٨٧).

(٣) أخرجه النسائي (٤/ ٣٧٨/ ١٩٨٧). وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٦٢): «إسناده صحيح».

وذكر أبو عبيد في فضائل القرآن عن مكحول قال: أم القرآن قراءة ومسألة ودعاء. وممن كان لا يقرأ على الجنازة وينكر ذلك: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عمر وأبو هريرة، ومن التابعين: عطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وابن سيرين وسعيد ابن جبير والشعبي والحكم، وبه قال مالك والثوري وأبو حنيفة وأصحابه»(١).

قلت: والقول بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة هو الموافق للسنة عندنا لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «لتعلموا أنها سنة» والله أعلم.

٣- قراءتها في الرقية:

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء. فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء. فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جعلًا. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبَة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا**» فضحك رسول الله ﷺ(٢).

★ غريب الحديث:

«**فلدغ**»: بضم اللام على البناء للمجهول، واللدغ -بالدال المهملة والغين

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ٣١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢- ١٠- ٤٤) والبخاري (٤/ ٥٧١/ ٢٢٧٦)، ومسلم (٤/ ١٧٢٧/ ٢٢٠١) وأبو داود (٣/ ٧٠٣/ ٣٤١٨) والترمذي (٤/ ٣٤٨/ ٢٠٦٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٤- ٢٥٥/ ١٠٨٦٦).

المعجمة- وهو اللسع وزنًا ومعنى، وأما اللذع -بالذال المعجمة والعين المهملة- فهو الإحراق الخفيف، واللدغ المذكور في الحديث هو ضرب ذات الحمة من حية أو عقرب وغيرهما، وأكثر ما يستعمل في العقرب» اهـ من الفتح.

«**يتفل**»: قال الحافظ: «بضم الفاء وبكسرها وهو نفخ معه قليل من بزاق» اهـ[(١)].

«**فكأنما نشط**»: «بضم النون وكسر المعجمة من الثلاثي، قال الخطابي: وهو لغة، والمشهور نشط إذا عقد، وأنشط إذا حل، وأصله الأنشوطة -بضم الهمزة والمعجمة بينهما نون ساكنة- وهي الحبل. وقال ابن التين: حكى بعضهم أن معنى أنشط: حل، ونشط: أقيم بسرعة، ومنه قولهم: رجل نشيط، ويحتمل أن يكون معنى نشط: فزع، ولو قرئ بالتشديد لكان له وجه؛ أي: حل شيئًا فشيئًا» اهـ من الفتح.

«**من عقال**»: بكسر المهملة بعدها قاف، هو الحبل الذي يشد به ذراع البهيمة» اهـ من الفتح.

«**وما به قَلَبَة**»: «بحركات أي علة، وقيل للعلة: قلبة لأن الذي تصيبه يقلب من جنب إلى جنب ليعلم موضع الداء، قال ابن الأعرابي: ومنه قول الشاعر: «وقد برئت فما في الصدر قلبة». وفي نسخة الدمياطي بخطه: قال ابن الأعرابي: القلبة داء مأخوذ من القلاب يأخذ البعير فيألم قلبه فيموت من يومه.

«**رقية**»: الرقية: العوذة التي يرقى بها صاحب الحمى والصرع وغير ذلك من الآفات. قاله ابن الأثير.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء فيهم لديغ -أو سليم- فعرض لهم رجل من أهل الماء قال: هل فيكم من راق؟ إن في الماء رجلًا لديغًا -أو سليمًا- فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب اللَّه أجرًا، حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول اللَّه، أخذ على كتاب اللَّه أجرًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**»[(٢)].

---

(١) الفتح (٤/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٢٤٤/ ٥٧٣٧) وابن حبان (الإحسان ١١/ ٥٤٦/ ٥١٤٦).

* عن خارجة بن الصلت عن عمه أنه مر بقوم فأتوه فقالوا: إنك جئت من عند هذا الرجل بخير فارقِ لنا هذا الرجل، فأتوه برجل معتوه في القيود، فرقاه بأم القرآن ثلاثة أيام غدوة وعشية وكلما ختمها جمع بزاقه ثم تفل فكأنما أنشط من عقال، فأعطوه شيئًا، فأتى النبي ﷺ فذكره له، فقال النبي ﷺ: **«كُلْ فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق»**[١].

★ **فوائدالأحاديث:**

قال القاضي عياض: «فيه جواز الرقية بأم القرآن لما فيها من الإخلاص والعبودية لله والثناء عليه، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به» اهـ[٢].

قال النووي: «فيه التصريح بأنها رقية، فيستحب أن يقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات»[٣].

قال الحافظ: «وفي الحديث جواز الرقية بكتاب اللَّه، ويلتحق به ما كان بالذكر والدعاء المأثور، وكذا غير المأثور مما لا يخالف ما في المأثور» اهـ[٤].

وقال ابن أبي جمرة: «وفيه دليل على فضيلة أم القرآن يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية».

وفيه دليل على فضيلة الصحابة -رضوان اللَّه عليهم-، يؤخذ ذلك من تعظيمهم الكتاب العزيز، وجعلهم الخير كله فيه، لأنهم جعلوها رقية، ولا تكون الرقية إلا بشيء مقطوع فيه بالبركة، ولا شيء أبرك من كلام اللَّه تعالى، فلتعظيمهم ذلك حتى خالط ذلك الاعتقاد المبارك ضمائرهم كلما طلب لهم من الخير؛ جعلوا القرآن سببه، كما فعل هؤلاء بالفاتحة، وهم لم يسبق لهم في ذلك علم إلا ما في قلوبهم من التعظيم لحرمات اللَّه ﷻ التي هي من تقوى القلوب، كما أخبر هو جل جلاله»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١١) وأبو داود (٣/ ٧٠٦/ ٣٤٢٠) (٤/ ٢٢٠- ٢٢١- ٢٢٣/ ٣٨٩٧- ٣٩٠١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦/ ١٠٨٧١) والحاكم (١/ ٥٥٩- ٥٦٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والبيهقي في الدلائل (٧/ ٩١- ٩٢) وابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٧٤/ ٦١١٠).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ١٠٧).

(٣) شرح مسلم (١٤/ ١٥٧).

(٤) الفتح (٤/ ٥٧٧).

(٥) بهجة النفوس (٢/ ٢٢٨- ٢٢٩).

وقال ابن القيم: «وحق لسورة تشتمل على هذين الشفائين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن اللَّه وكلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًّا اختصها به من معاني هذه السورة، وسنبين إن شاء اللَّه تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان: فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة: فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب، فلم يقروهم، ولم يضيفوهم، فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلًا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قلبة. فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ فأتيناه، فذكرنا له ذلك فقال: «**ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم**».

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه. فأغنته عن الدواء. وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء، هذا مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلًا.

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم، وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سمية نارية، يحصل بها اللدغ. وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها. فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه، وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحدًا من بني جنسه، ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره، فيبرد عند ذلك أنينه، وتسكن نفسه ويصيبه في ذلك

نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع، فيسوء خلقه، وتثقل نفسه حتى يقضي وطره. هذا في قوة الشهوة وذاك في قوة الغضب، وقد أقام اللَّه تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس ا لغضبية، فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1] وأباح اللَّه بلطفه ورحمته- لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود: أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويسقط الحبل، ومن هذا نظر العائن، فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده، وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس. وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له، فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومنكر هذا ليس معدودًا من بني آدم إلا بالصورة والشكل، فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على اللَّه، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده؛ دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء، فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشيء بمثله، فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقًا وأمرًا. ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة وقبول من الطبيعة المنفعلة فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن اللَّه ﷻ. ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرقى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع. وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله، واللَّه أعلم.

---

(١) البقرة: الآية (٢٥١).

وأما شهادة التجارب بذلك: فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جربت ذلك مرارًا عديدة»[١].

ويتفرع عن هذا الباب: مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية به، والأحاديث المتقدمة في باب قراءة الفاتحة في الرقية يستفاد منها جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن.

- **وثبتت أحاديث أخرى في المنع منها:**

* عن أبي الدرداء: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أخذ على تعليم القرآن قوسًا قلده اللَّه قوسًا من نار يوم القيامة**»[٢].

* عن عمران بن حصين: أنه مَرَّ على قاص يقرأ، ثم سأل فاسترجع، ثم قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من قرأ القرآن فليسأل اللَّه ﷻ به فإنه سيجيء قوم يقرءون القرآن يسألون الناس به**»[٣].

* عن أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ قال: «**تعلموا القرآن، وسلوا اللَّه به الجنة، قبل أن يتعلمه قوم، يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله**»[٤].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٤- ٥٨).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٦/ ١٢٦) وجود إسناده ابن التركماني في الجوهر النقي وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٢٥٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٢- ٤٣٣ و٤٣٩) والترمذي (٥/ ١٦٤/ ٢٩١٧) وقال: «هذا حديث حسن ليس إسناده بذاك». وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم٢٥٧): «وإنما حسن الترمذي هذا الحديث مع ضعف إسناده لما له من الشواهد الكثيرة، وذلك اصطلاح منه نص عليه في العلل التي في آخر السنن».

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري: ابن نصر في قيام الليل (ص١٦٣) والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٣٩/ ١١٨٢) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢/ ٣/ ٣٤٨).

وأخرجه من طرق أخرى وبلفظ آخر: أحمد (٣/ ٣٨- ٣٩) والحاكم (٤/ ٥٤٧) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٢٥٨).

* عن جابر بن عبد الله: عن رسول الله ﷺ قال: «**اقرءوا فكلٌّ حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه، ولا يتأجلونه**»(١).

* عن سهل بن سعد الساعدي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن نقترئ فقال: «**الحمد لله كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر، وفيكم الأبيض، وفيكم الأسود، اقرءوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم يتعجل أجره ولا يتأجله**»(٢).

* عن عبد الرحمن بن شبل: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن، فإذا قرأتموه فلا تستكثروا به، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به**، وقال: **إن النساء هم أهل النار**، فقال رجل: يا رسول الله، ألسن أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا؟ فذكر كفرهن لحق الزوج، وتضييعهن لحقه»(٣).

★ فوائد الأحاديث:

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديث -أي: حديث ابن عباس المتقدم- دليل على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وجواز شرطه، وإليه ذهب عطاء والحكم وبه قال مالك والشافعي وأبو ثور، قال الحكم: ما سمعت فقيهًا يكرهه.

وفيه دليل على جواز الرقية بالقرآن، وبذكر الله، وأخذ الأجرة عليه؛ لأن القراءة والفقه من الأفعال المباحة، وفيه إباحة أجر الطبيب والمعالج.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن أخذ الأجرة والعوض على تعليم القرآن غير مباح، وهو قول الزهري، وأبي حنيفة، وإسحاق، وقال منصور عن إبراهيم: إنه كره أجر المعلم. وقال جابر بن زيد: لا بأس به ما لم يشترط. واحتجوا بما روي عن عبادة بن الصامت قال: قلت: يا رسول الله رجل أهدى إلي قوسًا ممن كنت أعلمه

---

(١) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله: أحمد (٣/ ٣٥٧، ٣٩٧) وأبو داود (١/ ٥٢٠/ ٨٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٢٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٨) وأبو داود (١/ ٥٢٠/ ٨٣١) وابن حبان (الإحسان ٣/ ٣٦/ ٧٦٠)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٨، ٤٤٤) والطحاوي في شرح المعاني (٣/ ١٨) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٧٢-٢٧٣/ ٢٥٩٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣١٤): «رواه الطبراني في الأوسط وله طرق رواها أحمد وغيره ورجاله ثقات».

الكتاب والقرآن، وليس بمال، فأرمي عليها في سبيل الله؟ قال: «**إن كنت تحب أن تطوق طوقًا من نار فاقبلها**»[(١)].

ومن أباحه تأول الحديث على أنه كان تبرع به، ونوى الاحتساب فيه، ولم يكن قصده وقت التعليم إلى طلب عوض ونفع، فحذره النبي ﷺ إبطال أجره وحسبته، كما لو رد ضالة إنسان حسبة لم يكن له أن يأخذ عليه عوضًا، فأما إذا لم يحتسب، وطلب عليه الأجرة، فجائز بدليل حديث ابن عباس.

وذهب قوم إلى أنه لا بأس بأخذ المال ما لم يشرط، وهو قول الحسن، وابن سيرين، والشعبي.

وقال بعض أهل العلم: أخذ الأجرة على تعليم القرآن له حالان: فإذا كان في المسلمين غيره ممن يقوم به حل له أخذ الأجرة على تعليم القرآن، لأنه غير متعين عليه، وإن كان في حال أو موضع لا يقوم به غيره، لم يحل له أخذ الأجرة عليه، وتأول على هذا اختلاف الأخبار فيه»[(٢)].

وقال ابن رشد: «وأما الاستئجار على تعليم القرآن فقد اختلفوا فيه أيضًا، وكرهه قوم، وأجازه آخرون، والذين أباحوه قاسوه على سائر الأفعال، واحتجوا بما روي عن خارجة بن الصامت[(٣)] عن عمه، قال: أقبلنا من عند رسول اللَّه ﷺ فأتينا على حي من أحياء العرب فقالوا: إنكم جئتم من عند هذا الرجل فهل عندكم دواء أو رقية، فإن عندنا معتوهًا في القيود، فقلنا لهم: نعم، فجاءوا به، فجعلت أقرأ عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية أجمع بريقي ثم أتفل عليه، فكأنما أنشط من عقال فأعطوني جعلًا، فقلت: لا، حتى أسأل رسول اللَّه ﷺ، فسألته فقال: «**كُلْ فلعمري لمن أكل برقية باطلًا فلقد أكلت برقية حق**».

وبما روي عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ كانوا في غزاة، فمروا بحي من أحياء العرب، فقالوا: هل عندكم من راق فإن سيد الحي قد لدغ أو قد عرض له، قال: فرقى رجل بفاتحة الكتاب فبرأ، فأعطي قطيعًا من الغنم، فأبى

---

(١) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت: أحمد (٥/ ٣١٥) وأبو داود (٣/ ٧٠١ - ٧٠٢/ ٣٤١٦) وابن ماجه (١/ ٧٢٩- ٧٣٠/ ٢١٥٧) والحاكم (٢/ ٤١- ٤٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) شرح السنة (٨/ ٢٦٨- ٢٦٩).

(٣) الصواب: خارجة بن الصلت.

أن يقبلها، فسأل عن ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: «بم رقيته؟» قال: بفاتحة الكتاب. قال: «**وما يدريك أنها رقية؟**» قال: ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «**خذوها واضربوا لي معكم بسهم**».

وأما الذين كرهوا الجُعْل على تعليم القرآن فقالوا: هو من باب الجعل على تعليم الصلاة. قالوا: ولم يكن الجعل المذكور في الإجارة على تعليم القرآن وإنما كان على الرقى، وسواء كان الرقي بالقرآن أو غيره، الاستئجار عليه عندنا جائز كالعلاجات. قالوا: وليس واجبًا على الناس، وأما تعليم القرآن فهو واجب على الناس»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسأله ﷺ عبادة بن الصامت، فقال: رجل أهدى إلي قوسًا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل اللَّه، فقال: «**إن كنت تحب أن تطوق طوقًا من نار فاقبلها**»[2].

ولا ينافي هذا قوله: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**»[3] في قصة الرقية؛ لأن تلك جعالة على الطب، فطبه بالقرآن، فأخذ الأجرة على الطب، لا على تعليم القرآن، وههنا منعه من أخذ الأجرة على تعليم القرآن، فإن اللَّه تعالى قال لنبيه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾[6] فلا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الإسلام والقرآن»[7].

قلت: والذي ينبغي الذهاب إليه هو التفصيل الذي ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في فتاواه، إذ إن له فيها كلامًا طيبًا مفصلًا، وهو كما قيل: «قطعت جهيزة قول كل خطيب»، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة، فهو أفضل الأعمال، وأحبها إلى اللَّه، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام.

والصحابة والتابعون وتابعو التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه، إنما كانوا يعلِّمون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يُعلِّم بأجرة أصلًا. فإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا،

---

(١) البداية (٣/ ٤٢٧- ٤٢٩). (٢) تقدم تخريجه قريبًا. (٣) تقدم تخريجه.
(٤) الأنعام: الآية (٩٠). (٥) سبأ: الآية (٤٧). (٦) يسٓ: الآية (٢١).
(٧) إعلام الموقعين (٤/ ٣٣٣).

وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر. والأنبياء صلوات الله عليهم إنما كانوا يعلمون العلم بغير أجرة. كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم. وكذلك قال خاتم الرسل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[٢].

وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح، فضلًا عن أن يكون جائزًا، بل هو من فروض الكفاية، فإن تعليم العلم الذي بينه فرض على الكفاية، كما قال النبي في الحديث الصحيح: «**بلغوا عني ولو آية**»[٣]. وقال: «**ليبلغ الشاهد الغائب**»[٤].

وإنما تنازع العلماء في جواز الاستئجار على تعليم القرآن والحديث والفقه. على قولين مشهورين، هما روايتان عن أحمد: إحداهما: -وهو مذهب أبي حنيفة وغيره-: أنه لا يجوز الاستئجار على ذلك. والثانية -وهو قول الشافعي-: أنه يجوز الاستئجار. وفيها قول ثالث في مذهب أحمد: أنه يجوز مع الحاجة، دون الغنى، كما قال تعالى في ولي اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٥]. ويجوز أن يعطى هؤلاء من مال المسلمين على التعليم، كما يعطى الأئمة والمؤذنون والقضاة، وذلك جائز مع الحاجة»[٦].

* * *

(١) الشعراء: الآية (١٢٧).

(٢) الفرقان: الآية (٥٧).

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أحمد (٢/ ١٥٩) والبخاري (٦/ ٦١٤/ ٣٤٦١) والترمذي (٥/ ٣٩/ ٢٦٦٩).

(٤) أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٥/ ٧٣) والبخاري (١٣/ ٣٢/ ٧٠٧٨) ومسلم (٣/ ١٣٠٥ - ١٣٠٦/ ١٦٧٩) وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٣).

(٥) النساء: الآية (٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢٠٤-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل البسملة

قال ابن جرير الطبري: «إن اللَّه -تعالى ذكره وتقدست أسماؤه- أدب نبيه محمدًا ﷺ بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدم إليه في وصفه بها قبل جميع مهماته، وجعل ما أدبه به من ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها، فبه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل: «بسم الله» على ما بطن من مراده الذي هو محذوف. وذلك أن الباء من «بسم الله» مقتضية فعلًا يكون لها جالبًا، ولا فعل معها ظاهر، فأغنت سامع القائل: «بسم الله» معرفته بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مراده قولًا. إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرًا، قد أحضر منطقه به إما معه، وإما قبله بلا فصل- ما قد أغنى سامعه عن دلالة شاهدة على الذي من أجله افتتح قيله به. فصار استغناء سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظير استغنائه إذا سمع قائلًا قيل له: «ما أكلت اليوم؟» فقال: «طعامًا» عن أن يكرر المسئول مع قوله: «طعامًا»، «أكلت» لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدم مسألة السائل إياه عما أكل، فمعقول إذًا أن قول القائل إذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتح تاليًا سورة، أن إتباعه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تلاوة السورة ينبئ عن معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. ومفهوم به أنه مريد بذلك: أقرأ باسم اللَّه الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: «بسم الله» عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله: «بسم الله»، وأنه أراد بقيله: «بسم الله»، أقوم باسم اللَّه، وأقعد باسم اللَّه. وكذلك سائر الأفعال[1].

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٥٠).

وقال أيضًا: فإن قال لنا قائل: فإن كان تأويل قول: «بسم الله» ما وصفت، والجالب الباء في «بسم الله» ما ذكرت، فكيف قيل: «بسم الله» بمعنى أقرأ باسم اللَّه، أو أقوم أو أقعد باسم الله؟ وقد علمت أن كل قارئ كتاب اللَّه، فبعون اللَّه وتوفيقه قراءته، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعل فعلًا فباللَّه قيامه وقعوده وفعله. وهلا -إذ كان ذلك كذلك- قيل: (باللَّه الرحمن الرحيم) ولم يقل: «بسم الله»؟» فإن قول القائل: أقوم وأقعد باللَّه الرحمن الرحيم، أو أقرأ باللَّه أوضح معنى لسامعه من قوله: «بسم الله» إذ كان قوله: أقوم أو أقعد «بسم الله» يوهم سامعه أن قيامه وقعوده بمعنى غير اللَّه.

قيل له -وباللَّه التوفيق-: إن المقصود إليه من معنى ذلك غير ما توهمته في نفسك، وإنما معنى قوله: «بسم الله»: أبدأ بتسمية اللَّه وذكره قبل كل شيء، أو أقرأ بتسميتي اللَّه، أو أقوم وأقعد بتسمية اللَّه وذكره لا أنه يعني بقوله: «بسم الله» أقوم باللَّه أو أقرأ باللَّه، فيكون قول القائل: أقرأ باللَّه، أو أقوم أو أقعد باللَّه -أولى بوجه الصواب في ذلك من قوله: «بسم الله».

فإن قال: فإن كان الأمر في ذلك على ما وصفت فكيف قيل: «بسم الله» وقد علمت أن الاسم اسم، وأن التسمية مصدر من قولك سميت؟

قيل: إن العرب قد تخرج المصادر المبهمة على أسماء مختلفة كقولهم: أكرمت فلانًا كرامة. وإنما مصدر (أفعلت) إذا أخرج على فعله (الإفعال). وكقولهم: أهنت فلانًا هوانًا، وكلمته كلامًا. وبناء مصدر: (فعلت) التفعيل، ومن ذلك قول الشاعر:

أكفرًا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المئة الرتاعا

يريد: إعطائك. ومنه قول الآخر:

وإن كان هذا البخل منك سجية لقد كنت في طول رجائك أشعبا

يريد: في إطالتي رجاءك. ومنه قول الآخر:

أظليم إن مصابكم رجلًا أهدى السلام تحية ظلم

يريد: إصابتكم.

والشواهد في هذا المعنى تكثر، وفيما ذكرنا كفاية لمن وفق لفهمه. فإذ كان الأمر على ما وصفنا من إخراج العرب مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها كثيرًا،

وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، تبين بذلك صواب ما قلنا من التأويل في قول القائل: «بسم الله» أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية اللَّه قبل فعلي أو قبل قولي، وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية اللَّه، أو أبتدئ قراءتي بتسمية اللَّه، فجعل (الاسم) مكان (التسمية) كما جعل الكلام مكان التكليم، والعطاء مكان الإعطاء.

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة أن قائلًا لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام: (بالله) ولم يقل: (باسم الله) أنه مخالف بتركه قيل: (باسم الله) ما سن له عند التذكية من القول. وقد علم بذلك أنه لم يرد بقوله: (باسم الله) (بالله) كما قال الزاعم أن اسم اللَّه في قوله الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هو اللَّه. لأن ذلك لو كان كما زعم، لوجب أن يكون القائل عند تذكيته ذبيحته (بالله) قائلًا ما سن له من القول على الذبيحة، وفي إجماع الجميع على أن قائل ذلك تارك ما سن له من القول على ذبيحته إذ لم يقل: «بسم الله» دليل واضح على فساد ما ادعى من التأويل في قول القائل: (باسم الله)، أنه مراد به (بالله) وأن اسم الله هو الله[1].

• **الاسم**:

قال القرطبي: «اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين: فقال البصريون هو مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، فقيل: اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، وقيل: لأن الاسم يسمو بالمسمى، فيرفعه عن غيره... وقال الكوفيون: إنه مشتق من السمة والعلامة؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا وسم، والأول أصح لأنه يقال في التصغير: سمي وفي الجمع: أسماء، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فلا يقال: وسيم ولا أوسام، ويدل على صحته أيضًا فائدة الخلاف؛ وهي: فإن من قال: الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل اللَّه سبحانه موصوفًا قبل وجود الخلق، وبعد وجودهم، وعند فنائهم، ولا تأثير في أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة، ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان اللَّه في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات،

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٥١- ٥٢).

فإذا أفناهم بقي بلا اسم وصفة، وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما اجتمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطأ من قولهم: إن كلامه مخلوق. تعالى اللَّه عن ذلك»[١].

- **الله:**

قال القرطبي: «هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم اللَّه الأعظم، ولم يتسم به غيره. ولذلك لم يثن ولم يجمع وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[٢] أي: تسمى باسمه الذي هو اللَّه، فاللَّه اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه. وقيل: معناه: الذي يستحق أن يُعبد. وقيل: معناه: واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد»[٣].

وقال ابن كثير: «اللَّه عَلَمٌ على الرب -تبارك وتعالى-، يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٤] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[٦] وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا؛ مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**»[٧]»[٨].

وقال ابن القيم: «فعلم أن اسمه اللَّه مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم اللَّه، واسم اللَّه دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٠١). (٢) مريم: الآية (٦٥). (٣) تفسير القرطبي (١/ ١٠٢).

(٤) الحشر: الآيات (٢٢-٢٤). (٥) الأعراف: الآية (١٨٠). (٦) الإسراء: الآية (١١٠).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٦٧) والبخاري (١١/ ٢٥٦/ ٦٤١٠) ومسلم (٤/ ٢٠٦٢/ ٢٦٧٧) والترمذي (٥/ ٤٩٧/ ٣٥٠٨). (٨) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥).

مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله»[١].

- **الرحمن الرحيم:**

قال الطبري: «أما الرحمن فهو فعلان من رحم، والرحيم فعيل منه، والعرب كثيرًا ما تبني الأسماء من فعل يفعل على فعلان، كقولهم من غضب غضبان، ومن سكر سكران، ومن عطش عطشان، فكذلك قولهم: رحمن من رحم، لأن فعل منه رحم يرحم، وقيل: رحيم وإن كانت عين فعل منها مكسورة لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء إذا كان فيها مدح أو ذم على فعيل، وإن كانت عين فعل منها مكسورة أو مفتوحة كما قالوا: من علم عالم وعليم، ومن قدر قادر وقدير، وليس ذلك منها بناء على أفعالها، لأن البناء من فَعَل يفعل وفَعِل يفعل فاعل، فلو كان الرحمن والرحيم خارجين على بناء أفعالهما؛ لكانت صورتهما الراحم. فإن قال قائل: فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجه تكرير ذلك وأحدهما مؤد عن معنى الآخر؟ قيل له: ليس الأمر في ذلك على ما ظننت، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها، فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما فصارت إحداهما غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟ قيل: أما من جهة العربية فلا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب أن قول القائل: الرحمن عن أبنية الأسماء من فعل يفعل أشد عدولًا من قوله: الرحيم، ولا خلاف مع ذلك بينهم أن كل اسم كان له أصل في فعل ويفعل، ثم كان عن أصله من فعل ويفعل أشد عدولًا؛ أن الموصوف به مفضل على الموصوف بالاسم المبني على أصله من فعل ويفعل، إذا كانت التسمية به مدحًا أو ذمًّا فهذا ما في قول القائل: الرحمن من زيادة المعنى على قوله: الرحيم في اللغة، وأما من جهة الأثر والخبر ففيه بين أهل التأويل اختلاف.. فعن العرزمي قال: الرحمن الرحيم قال: الرحمن بجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين... واختلاف معنى الكلمتين وإن اختلفا في معنى ذلك الفرق فدل أحدهما على أن ذلك في الدنيا، ودل الآخر على

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢- ٣٣).

أنه في الآخرة. فإن قال: فأي هذين التأويلين أولى عندك بالصحة؟ قيل: لجميعهما عندنا في الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل: أيهما أولى بالصحة؟ وذلك أن المعنى الذي في تسمية اللَّه بالرحمن دون الذي في تسميته بالرحيم، هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال وإما في بعض الأحوال، فلا شك إذا كان ذلك كذلك؛ أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه في الدنيا، كان ذلك أو في الآخرة أو فيهما جميعًا، فإذا كان صحيحًا ما قلنا من ذلك، وكان اللَّه -جل ثناؤه- قد خص عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم في توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله واتباع أمره واجتناب معاصيه، مما خذل عنه من أشرك به فكفر وخالف ما أمره به، وركب معاصيه، وكان مع ذلك قد جعل -جل ثناؤه- ما أعد في آجل الآخرة في جناته من النعيم المقيم، والفوز المبين، لمن آمن به وصدق رسله، وعمل بطاعته خالصًا دون من أشرك وكفر به، كان بينًا أن اللَّه قد خص المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمهم به والكفار في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم في البسط في الرزق وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض وصحة الأجسام والعقول وسائر النعم التي لا تحصى التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون، فربنا -جل ثناؤه- رحمن جميع خلقه في الدنيا والآخرة، ورحيم المؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة، فأما الذي عم جميعهم به في الدنيا من رحمته فكان رحمانًا لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1] وأما في الآخرة فالذي عم جميعهم به فيها من رحمته فكان لهم رحمانًا، تسويته بين جميعهم -جل ذكره- في عدله وقضائه، فلا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[2] وتوفى كل نفس ما كسبت، فذلك معنى عمومه في الآخرة جميعهم برحمته الذي كان به رحمانًا في الآخرة، وأما ما خص به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته الذي كان به رحيمًا لهم فيها كما قال -جل

(١) إبراهيم: الآية (٣٤). (٢) النساء: الآية (٤٠).

ذكره- : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[(١)] فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم فخصهم به دون من خذله من أهل الكفر به، وأما ما خصهم به في الآخرة فكان به رحيمًا لهم دون الكافرين، فما وصفنا آنفًا مما أعد لهم دون غيرهم من النعيم والكرامة التي تقصر عنها الأماني»[(٢)].

وقال ابن القيم: «استبعد قوم أن يكون الرحمن نعتًا لله تعالى من قولنا: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، وقالوا: الرحمن علم والأعلام لا ينعت بها، ثم قالوا: هو بدل من اسم اللَّه، قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص باللَّه تعالى لا يشاركه فيه غيره، فليس هي كالصفات التي هي العليم والقدير والسميع والبصير، ولهذا تجري على غيره تعالى، قالوا: ويدل عليه أيضًا وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ و﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهذا شأن الأسماء المحضة؛ لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف.

قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع، وكذلك عطف البيان، لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها، ولهذا قالوا: وما الرحمن؟ ولم يقولوا وما الله؟ ولكنه وإن جرى مجرى الأعلام فهو وصف يراد به الثناء، وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة، كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون، كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف، وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر، فكان اللفظ مضارعًا للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة ألا ترى أنهم أيضًا قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا: الحكمان والعلمان، وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد فقالوا: اشترك باب فعلان وباب التثنية ومنه قول فاطمة: يا حسنان يا حسينان، برفع النون لابنيها، ولمضارعة التثنية امتنع جمعه، فلا يقال غضابين، وامتنع تأنيثه فلا يقال: غضبانة، وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثنى، فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعته إياها لفظًا ومعنى. وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة

---

(١) الأحزاب: الآية (٤٣).

(٢) تفسير ابن جرير (١/ ٥٥- ٥٧).

وآجلة، وخاصة وعامة. تم كلامه.

قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم اللَّه، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم. ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع، كمجيء اسم اللَّه كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم اللَّه تعالى، فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجئ قط تابعًا لغيره، بل متبوعًا وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة، فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة، لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا، وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفة والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[١]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها»[٣].

وقال ابن كثير: «والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم اللَّه والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم اللَّه، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولًا إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص»[٤].

وقال القرطبي: «أكثر العلماء على أن الرحمن مختص باللَّه ﷻ، لا يجوز أن يسمى به غيره ألا تراه قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ فعادل الاسم الذي لا يشركه فيه غيره، وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) الأحزاب: الآية (٤٣).
(٢) التوبة: الآية (١١٧).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ٢٣- ٢٤).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦).

﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[١] فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة -جل وعز- . وقد تجاسر مسيلمة الكذاب لعنه اللَّه، فتسمى برحمان اليمامة، ولم يتسم به حتى قرع مسامعه نعت الكذاب، فألزمه اللَّه تعالى نعت الكذاب لذلك، وإن كان كل كافر كاذبًا، فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علمًا يعرف به ألزمه اللَّه إياه»[٢].

ومن الإيمان بهذين الاسمين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أن نؤمن بأنهما يدلان على صفة من صفات اللَّه تعالى، وهي صفة الرحمة نثبتها لله ﷻ، صفة كمال لائقة بذاته كغيرها من صفاته العلى، من غير نفي ولا تعطيل. وقد نحى بها بعض المفسرين الخلفيين منحى المجاز في حق اللَّه تعالى: فجعلوها: إرادة الإنعام والإحسان والخير، وهو مذهب المتأولة، من أشعرية ومعتزلة وغيرهما. وقد أشبع الرد على هذا التأويل **الإمام ابن القيم قال**: «مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، واللَّه منزه عنها، وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا: إن نسبتها إلى اللَّه تعالى محال. وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة، وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣] فأنكروا حقيقة اسمه الرحمن أن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم الرحمن من الإحسان، فإن أحدًا لم ينكر إحسان اللَّه إلى خلقه.

فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم الرحيم لأن المعنى واحد.

قيل: إنما لم ينكروا الرحيم لأن ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم. ولهذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٤]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٥]، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٦]، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٧]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٨].

وإنما جاء الرحيم مقيدًا كقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[٩]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١٠] ومقرونًا باسم الرحمن كما في الفاتحة أو باسم آخر نحو: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأيضًا فالرحمن جاء على بناء فعلان، الدال على الصفة الثابتة اللازمة

---

(١) الزخرف: الآية (٤٥). (٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٦). (٣) الفرقان: الآية (٦٠).
(٤) طه: الآية (٥). (٥) الفرقان: الآية (٥٩). (٦) مريم: الآية (٤٥). (٧) النبأ: الآية (٣٧).
(٨) الرحمن: الآيتان (١و٢). (٩) الأحزاب: الآية (٤٣). (١٠) التوبة: الآية (١١٧).

الكاملة، كما يشعر به هذا البناء نحو غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أو لا، فإن كان الأول فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمة القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما لا يليق به.

وبالجملة: فالذي أنكر أن يكون اللَّه رحمانًا على الحقيقة هو جهم بن صفوان وشيعته، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[1].

ومن أعظم الإلحاد في أسمائه: إنكار حقائقها ومعانيها والتصريح بأنها مجازات، وهو أنواع هذا أحدها.

الثاني: جحدها وإنكارها بالكلية.

الثالث: تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم ويجعلونها مقالة لبعض الناس، وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من الطوائف ألبتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلًا، ويجعلون التشبيه لازم قولهم، ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم»[2].

وسيأتي مزيد بيان ما يتعلق بهذه الصفة في تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل البسملة واستعمالاتها

قال ابن علان: «قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: أفعال العباد على ثلاثة أقسام: ما سنت فيه التسمية كالوضوء والغسل والتيمم وذبح المناسك، وقراءة

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠). (٢) مختصر الصواعق (٣٤١-٣٤٢). (٣) الأعراف: الآية (١٥٦).

القرآن، ومنه أيضًا مباحات كالأكل والشرب والجماع، وما لم تسن فيه كالصلاة والأذان والحج والعمرة والأذكار والدعوات، وما تكره وهي المحرمات، لأن الغرض من التسمية التبرك في الفعل المشتمل عليه، والحرام لا يراد كثرته وبركته، وكذلك المكروه، قال: والفرق بين ما سنت فيه البسملة من القربات وما لم تسن فيه عسر.

فإن قيل: إنما لم تسن مع ذلك القسم لكونه بركة في نفسه فلا يحتاج إلى التبرك.

قلنا: هذا مشكل بما سنت فيه من قراءة القرآن مع أنه بركة في نفسه، ولو بسمل في ذلك القسم لجاز، وإنما الكلام في كونه سنة، ولو كان سنة لنقل عن النبي ﷺ والسلف الصالح كما نقل غيره من السنن والنوافل»[١].

قال القرطبي: «ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر إلى غير ذلك من الأفعال»[٢].

* عن رجل قال: كنت رديف رسول اللَّه ﷺ فعثرت الدابة، فقلت: تعس الشيطان، فقال: «**لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي. ولكن قل: باسم الله؛ فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب**»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم اللَّه عليه**»[٤].

---

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (١/ ٢٩٩). (٢) أحكام القرآن (١/ ٩٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٩، ٣٦٥) وأبو داود (٥/ ٢٦٠/ ٤٩٨٢) والحاكم (٤/ ٢٩٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والرجل المبهم هو الصحابي الجليل أسامة بن عمير بن الأقيشر الهذلي والد أبي المليح جاء التصريح به عند الحاكم.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٨) وأبو داود (١/ ٧٥/ ١٠١) وابن ماجه (١/ ١٤٠/ ٣٩٩) والحاكم (١/ ١٤٦) وقال: «صحيح الإسناد».

قال المنذري في الترغيب (١/ ١٦٤): «وليس كما قال فإنهم رووه عن يعقوب بن سلمة الليثي عن أبيه عن أبي هريرة، وقد قال البخاري وغيره: لا يعرف لسلمة سماع من أبي هريرة، ولا ليعقوب سماع من أبيه. انتهى، وأبوه سلمة أيضًا لا يعرف، ما روى عنه غير ابنه يعقوب، فأين شرط الصحة؟» ويشهد له حديث رباح بن عبد الرحمن بن أبي سفيان بن حويطب عن جدته عن أبيها قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم اللَّه عليه» أخرجه أحمد (٤/ ٧٠) و(٥/ ٣٨١- ٣٨٢) والترمذي (١/ ٣٧- ٣٨/ =

* عن ابن عباس، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لم يضره**»: بفتح الراء وضمها.

قال ابن حجر: «واختلف في الضرر المنفي بعد الاتفاق على ما نقل عياض على عدم الحمل على العموم في أنواع الضرر، وإن كان ظاهرًا في الحمل على عموم الأحوال من صيغة النفي مع التأبيد، وكان سبب ذلك ما تقدم في بدء الخلق «**إن كل بني آدم يطعن الشيطان في بطنه حين يولد إلا من استثني**»(٢)، فإن في هذا الطعن نوع ضرر في الجملة، مع أن ذلك سبب صراخه، ثم اختلفوا فقيل: المعنى لم يسلط عليه من أجل بركة التسمية، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(٣)... وقيل: المراد: «لم يطعن في بطنه» وهو بعيد لمنابذته ظاهر الحديث المتقدم، وليس تخصيصه بأولى من تخصيص هذا، وقيل: المراد: لم يصرعه، وقيل: لم يضره في بدنه، وقال ابن دقيق العيد: يحتمل ألا يضره في دينه أيضًا، ولكن يبعده انتفاء العصمة، وتعقب بأن اختصاص من خص بالعصمة بطريق الوجوب، لا بطريق الجواز، فلا مانع أن يوجد من لا يصدر منه معصية عمدًا، وإن لم يكن ذلك واجبًا له. وقال الداودي: معنى لم يضره أي: لم يفتنه عن دينه إلى الكفر، وليس المراد عصمته منه عن المعصية، وقيل: لم يضره بمشاركة أبيه في جماع أمه كما جاء عن مجاهد: «إن الذي يجامع ولا يسمي يلتف الشيطان على إحليله فيجامع معه». ولعل هذا أقرب الأجوبة، ويتأيد الحمل على الأول بأن الكثير ممن يعرف هذا الفضل العظيم يذهل عنه عند إرادة المواقعة، والقليل الذي

= ٢٥) وقال: «قال محمد بن إسماعيل: أحسن شيء في هذا الباب حديث رباح بن عبد الرحمن». وابن ماجه (١/ ١٤٠/ ٣٩٨)، قال الحافظ المنذري في الترغيب (١/ ١٦٤): «ولا شك أن الأحاديث التي وردت فيها وإن كان لا يسلم شيء منها عن مقال، فإنها تتعاضد بكثرة طرقها وتكتسب قوة واللَّه أعلم».

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٦- ٢١٧ و٢٢٠ و٢٨٣ و٢٨٦) والبخاري (١٣/ ٤٦٨/ ٧٣٩٦) ومسلم (٢/ ١٠٥٨/ ١٤٣٤) وأبو داود (٢/ ٦١٧/ ٢١٦١) والترمذي (٣/ ٤٠١/ ١٠٩٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٧/ ٩٠٣٠- ٩٠٣١) وابن ماجه (١/ ٦١٨/ ١٩١٩).

(٢) البخاري (٦/ ٤١٥/ ٣٢٨٦).

(٣) الحجر: الآية (٤٢).

قد يستحضره ويفعله لا يقع معه الحمل، فإذا كان ذلك نادرًا لم يبعد» اهـ.

قال الحافظ: «وفي الحديث من الفوائد أيضًا: استحباب التسمية والدعاء والمحافظة على ذلك حتى في حالة الملاذ كالوقاع..

وفيه الاعتصام بذكر اللَّه ودعائه من الشيطان، والتبرك باسمه والاستعاذة به من جميع الأسواء»[1].

* عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ أتي بطعام فقال: «... **يا بني، سم اللَّه ﷻ، وكل بيمينك وكل مما يليك**»[2]. قال: فما زالت أكلتي بعد.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رحمه الله: «في هذا الحديث بيان ثلاث سنن من سنن الأكل، وهي التسمية والأكل باليمين... والثالثة الأكل مما يليه»[3] اهـ.

قوله: (سم الله) هذا هو الأدب الأول من آداب الأكل وهو التسمية في أول الأكل، وصفتها هي (باسم الله)، قال ابن حجر رحمه الله: «المراد بالتسمية على الطعام قول: باسم اللَّه في ابتداء الأكل»[4] اهـ.

ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود[5]، والترمذي[6]، وابن ماجه[7]، والحاكم[8]، وابن حبان[9] عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إذا أكل أحدكم فليذكر اسم اللَّه، فإن نسي أن يذكر اسم اللَّه في أوله فليقل: باسم اللَّه أوله وآخره**».

وأصرح من ذلك رواية الترمذي وابن ماجه: «إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: باسم الله».

وأما القول بوجوب التسمية فقد نقل الحافظ ابن حجر عن الإمام النووي أنه قال: «أجمع العلماء على استحباب التسمية على الطعام في أوله».

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٨٥- ٢٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦) والبخاري (٩/ ٦٥٤/ ٥٣٧٧ و٥٣٧٨) ومسلم (٣/ ١٥٩٩/ ٢٠٢٢) وأبو داود (٤/ ١٤٤- ١٤٥/ ٣٧٧٧) والترمذي (٤/ ٢٥٣- ٢٥٤/ ١٨٥٧) وابن ماجه (٢/ ١٠٨٧/ ٣٢٦٥ و٣٢٦٧).

(٣) شرح مسلم (١٣/ ١٦٣).

(٤) فتح الباري (٩/ ٦٥١).

(٥) (٤/ ١٤٠/ ٣٧٦٧).

(٦) (٤/ ٢٥٤/ ١٨٥٨).

(٧) (٢/ ١٠٨٧/ ٣٢٦٤).

(٨) (٤/ ١٠٨).

(٩) (١٢/ ١٣/ ٥٢١٤).

وتعقبه الحافظ فقال: «وفي نقل الإجماع على الاستحباب نظر، إلا إن أريد بالاستحباب أنه راجح الفعل، وإلا فقد ذهب جماعة إلى وجوب ذلك، وهو قضية القول بإيجاب الأكل باليمين، لأن صيغة الأمر بالجميع واحدة» اهـ[(١)].

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: باسم الله**»[(٢)].

أخذ بعض العلماء بعموم هذا الحديث في التسمية عند نزع الثوب كما هو صنيع ابن السني في «عمل اليوم والليلة».

وللبسملة استعمالات أخرى منها: حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «**أغلق الباب، واذكر اسم اللَّه، فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم اللَّه، وخَمِّر إناءك، ولو بعود تعرضه عليه، واذكر اسم اللَّه، وأَوْكِ سقاءك، واذكر اسم الله**»[(٣)].

وعند دخول البيت: من حديث جابر عند مسلم[(٤)] وفيه أن الرجل إذا دخل بيته فلم يذكر اسم اللَّه قال الشيطان: «أدركتم المبيت».

وعند الخروج من البيت: من حديث أنس بن مالك عند أبي داود[(٥)] والترمذي وقال: حسن صحيح[(٦)]، ومن حديث أم سلمة رضي الله عنها أيضًا[(٧)].

وعند الصباح والمساء: لحديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قال صباح كل يوم ومساء كل ليلة ثلاثًا ثلاثًا: باسم اللَّه الذي لا يضر مع اسمه شيء**

---

(١) فتح الباري (٩/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: الترمذي (٢/ ٥٠٣- ٥٠٤/ ٦٠٦) وابن ماجه (١/ ١٠٩/ ٢٩٧)، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بذاك القوي».
والحديث أورد له الشيخ الألباني شواهد من حديث أنس وأبي سعيد الخدري وابن مسعود ومعاوية بن حيدة، ثم قال: «والحديث صحيح بمجموع طرقه» انظر الإرواء (١/ ٨٧- ٩٠).

(٣) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٣١٩) والبخاري (٦/ ٤٣١/ ٣٣٠٤) ومسلم (٣/ ١٥٩٤/ ٢٠١٢) وأبو داود (٤/ ١١٧/ ٣٧٣١).

(٤) (٣/ ١٥٩٨/ ٢٠١٨).

(٥) (٥/ ٣٢٨/ ٥٥٩٨).

(٦) (٥/ ٤٥٦ -٤٥٧/ ٣٤٢٦).

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٦) وأبو داود (٥/ ٣٢٧/ ٥٠٩٤) والترمذي (٥/ ٤٥٧/ ٣٤٢٧) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٢٧٨/ ٣٨٨٤).

في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. لم يضره شيء»[١].

وعند الإيواء إلى الفراش: لحديث حذيفة ﷺ: كان رسول اللَّه ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «**باسمك اللهم أموت وأحيا**»[٢].

ولحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه، وليُسَمِّ الله؛ فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه**»[٣].

وفي الرقية: لحديث عائشة ﷺ[٤]، ولحديث عثمان بن أبي العاص الثقفي عند مسلم[٥] وغيره، ولحديث أبي سعيد في رقية جبريل عليه السلام للنبي ﷺ عند مسلم[٦] وغيره.

وعند وضع الميت في قبره: لحديث ابن عمر[٧].

وعند الركوب: لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[٨] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٩].

ولحديث علي ﷺ في الركوب[١٠].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٦٢- ٦٣) والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٠) وأبو داود (٥/ ٣٢٤- ٣٢٥/ ٥٠٨٨) والترمذي (٥/ ٤٣٤/ ٣٣٨٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٣/ ٣٨٦٩) وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ١٣٢/ ٨٥٢) والحاكم (١/ ٥١٤) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٥) والبخاري (١١/ ٤٣٦/ ٦٣١٢) وأبو داود (٥/ ٣٠٠/ ٥٠٤٩)، والترمذي (٥/ ٤٤٨- ٤٤٩/ ٣٤١٧) وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٧٧/ ٣٨٨٠) دون ذكر الشاهد.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٤- ٢٠٨٥/ ٢٧١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٩٣) والبخاري (١٠/ ٢٥٣/ ٥٧٤٤) ومسلم (٤/ ١٧٢٤/ ٢١٩٤) وأبو داود (٤/ ٢١٩- ٢٢٠/ ٣٨٩٥) وابن ماجه (٢/ ١١٦٣/ ٣٥٢١).

(٥) (٤/ ١٧٢٨/ ٢٢٠٢).

(٦) (٤/ ١٧١٨/ ٢٦٨٠).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧) وأبو داود (٣/ ٥٤٦/ ٣٢١٣) والترمذي (٣/ ٣٦٤/ ١٠٤٦) وحسنه، وابن ماجه (١/ ٤٩٤- ٤٩٥/ ١٥٥٠).

(٨) هود: الآية (٤١).

(٩) الزخرف: الآيات (١٢- ١٤).

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ٩٧) وأبو داود (٣/ ٧٧/ ٢٦٠٢) والترمذي (٥/ ٤٦٧/ ٣٤٤٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٤٨/ ٨٨٠٠) وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/ ٤١٥/ ٢٦٩٨)=

وفي افتتاح الكتب والرسائل: كما في حديث هرقل[١].

وعند إرسال كلب الصيد أو السهم: لأحاديث ثبتت في ذلك منها حديث عدي بن حاتم وفيه: «**إذا أرسلت كلبك وسميت فكُلْ**»[٢].

وفي ابتداء الغزو: لحديث بريدة قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه بتقوى اللَّه وبمن معه من المسلمين خيرًا، فقال: «**اغزوا باسم اللَّه في سبيل اللَّه. . .**»[٣].

وإذا أصيب المرء في جسده: يقول: باسم الله؛ لحديث جابر بن عبد اللَّه أن طلحة بن عبيد اللَّه لما ضُرب فقطعت أصابعه في أحد، قال: حس، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لو قلتَ: باسم اللَّه لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**»[٤].

وعند الدخول إلى المسجد والخروج منه: لحديث فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل المسجد يقول: «**باسم اللَّه، والسلام على رسول اللَّه، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك**» وإذا خرج قال: «**باسم اللَّه والسلام على رسول اللَّه، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك**»[٥].

وعند قراءة سورة من سور القرآن: كما في حديث أنس في نزول سورة الكوثر وقد تقدم.

وعند الذبح: لأحاديث ثبتت في ذلك، منها حديث جابر وفيه: وأُتي بكبش فذبحه رسول اللَّه ﷺ وقال: «**باسم اللَّه واللَّه أكبر، هذا عني وعمن لم يضح**

= والحاكم (٢/ ٩٨- ٩٩) ووافقه الذهبي.

(١) سيأتي تخريجه في الباب الموالي.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦) والبخاري (٩/ ٧٥٣/ ٥٤٧٦) ومسلم (٣/ ١٥٢٩/ ١٩٢٩) وأبو داود (٣/ ٢٦٨- ٢٦٩/ ٢٨٤٧) والترمذي (٤/ ٥٦- ٥٧/ ١٤٧٠) والنسائي (٧/ ٢٠٣- ٢٠٤/ ٤٢٧٤) وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٠٧٢/ ٣٢١٤) مختصرًا.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٨) ومسلم (٣/ ١٣٥٧/ ١٧٣١ (٣)) وأبو داود (٣/ ٨٣- ٨٥/ ٢٦١٢) والترمذي (٤/ ١٣٨- ١٣٩/ ١٦١٧) وابن ماجه (٢/ ٩٥٣- ٩٥٤/ ٢٨٥٨).

(٤) أخرجه: النسائي (٦/ ٣٣٧- ٣٣٨/ ٣١٤٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٣٦- ٢٣٧) وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٧٩٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٨٣) وابن ماجه (١/ ٢٥٣- ٢٥٤/ ٧٧٤) والترمذي (٢/ ١٢٧- ١٢٨/ ٣١٤) وقال: «حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهرًا». وحسنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٢٨٠).

قال ابن قدامة: «فإن التسمية هي قول: (باسم الله) لا يقوم غيرها مقامها، كالتسمية المشروعة على الذبيحة، وعند أكل الطعام وشرب الشراب، وموضعها بعد النية قبل أفعال الطهارة كلها؛ لأن التسمية قول واجب في الطهارة، فيكون بعد النية، لتشمل النية جميع واجباتها، وقبل أفعال الطهارة ليكون مسميًا على جميعها، كما يسمى على الذبيحة قبل ذبحها» اهـ[٢].

قلت: وهناك أعمال السنة فيها قول: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» تامة.

عند افتتاح قراءة سورة من سور القرآن.

وفي افتتاح الكتب والرسائل كما كان يفعل النبي ﷺ في كتبه ورسائله[٣]، وكما فعل نبي اللَّه سليمان عليه السلام في كتابه إلى بلقيس.

مبحث: هل البسملة آية من الفاتحة أم لا؟

قال ابن تيمية: «فأما صفة الصلاة: ومن شعائرها مسألة البسملة، فإن الناس اضطربوا فيها نفيًا وإثباتًا، في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنفت من الطرفين مصنفات يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم، مع أن الخطب فيها يسير.

وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها، فمن شعائر الفُرقة والاختلاف الذي نهينا عنها، إذ الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المفترقة بين الأمة، وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جدًّا، لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار شعار الفرقة.

فأما كونها آية من القرآن، فقالت طائفة كمالك: ليست من القرآن، إلا في سورة النمل، والتزموا أن الصحابة أودعوا المصحف ما ليس من كلام اللَّه على سبيل

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢) وأبو داود (٣/ ٢٤٠/ ٢٨١٠) والترمذي (٤/ ٨٥/ ١٥٢١) والحاكم (٤/ ٢٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) المغني (١/ ١٤٦- ١٤٧).

(٣) كما في كتابه ﷺ إلى هرقل: أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢- ٢٦٣) والبخاري (١/ ٤٢/ ٧) ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣) مطولًا، والترمذي (٥/ ٦٥- ٦٦/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٥/ ٨٨٤٥).

التبرك، وحكى طائفة من أصحاب أحمد هذا رواية عنه، وربما اعتقد بعضهم أنه مذهبه.

وقالت طائفة منهم الشافعي: ما كتبوها في المصحف بقلم المصحف مع تجريدهم للمصحف عما ليس من القرآن إلا وهي من السورة، مع أدلة أخرى.

وتوسط أكثر فقهاء الحديث كأحمد ومحققي أصحاب أبي حنيفة فقالوا: كتابتها في المصحف تقتضي أنها من القرآن للعلم بأنهم لم يكتبوا فيه ما ليس بقرآن، لكن لا يقتضي ذلك أنها من السورة، بل تكون آية مفردة أنزلت في أول كل سورة، كما كتبها الصحابة سطرًا مفصولًا، كما قال ابن عباس: كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[(١)] فعند هؤلاء هي آية من كتاب الله في أول كل سورة، كتبت فيه. وليست من السور، وهذا هو المنصوص عن أحمد في غير موضع. ولم يوجد عنه نقل صريح بخلاف ذلك، وهو قول عبد الله بن المبارك، وغيره، وهو أوسط الأقوال وأعدلها»[(٢)].

قلت: بل أعدلها أن البسملة آية من القرآن حيث كتبت، وأنها مع ذلك ليست من السور، بل كتبت في كل سورة آية مفردة للفصل بين السورة والسورة التي تليها إلا سورة الفاتحة، فإنها آية منها لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأتم الحمد لله، فاقرءوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إحداها**»[(٣)].

وسورة الكوثر لحديث أنس عند مسلم قال: «**أنزلت علي آنفًا سورة**» فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٤٩٩/ ٧٨٨) والحاكم (١/ ٢٣١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٠٥- ٤٠٦).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة: الدارقطني (١/ ٣١٢) والبيهقي (٢/ ٤٥)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ٢٣٣): «وهذا الإسناد رجاله ثقات وصحح غير واحد من الأئمة وقفه على رفعه.. لكنه في حكم المرفوع، إذ لا مدخل للاجتهاد في عد آي القرآن». وانظر الصحيحة (١١٨٣).

(٤) سيأتي تخريجه قريبًا.

مبحث: ذكر الخلاف في تلاوة البسملة في الصلاة

* عن نعيم المجمر قال: كنت وراء أبي هريرة فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: آمين. وقال الناس: آمين. ويقول كلما سجد: اللَّه أكبر، وإذا قام من الجلوس قال: اللَّه أكبر، ويقول إذا سلَّم: والذي نفسي بيده، إني لأشبهكم صلاةً برسول اللَّه ﷺ[1].

* عن أم سلمة أنها ذكرت (أو كلمة غيرها) قراءة رسول اللَّه ﷺ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقطع قراءته آية آية[2].

* عن أنس بن مالك: أنه سئل عن قراءة رسول اللَّه ﷺ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ويمد ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ ويمد ﴿الرَّحِيمِ﴾[3].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي آنفًا سورة» فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا:

---

(١) أخرجه النسائي (٢/ ٤٧١-٤٧٢/ ٩٠٤) والدارقطني (١/ ٣٠٥) والبيهقي (٢/ ٤٦) وقال: «إسناد صحيح»، والحاكم (١/ ٢٣٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (الإحسان ٥/ ١٠٠/ ١٧٩٧) وابن خزيمة (١/ ٢٥١/ ٤٩٩)، وأخرجه مالك (فتح البر ٤/ ٥٠٤) ومن طريقه: أحمد (٢/ ٢٣٦، ٥٠٢) والبخاري (٢/ ٣٤٢/ ٧٨٥) ومسلم (١/ ٢٩٣/ ٣٩٢) والنسائي (٢/ ٥٨٥/ ١١٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٢) وأبو داود (٤/ ٢٩٤/ ٤٠٠١) والترمذي (٥/ ١٧٠/ ٢٩٢٧) وقال: «هذا حديث غريب، وبه يقول أبو عبيد ويختاره، هكذا روى يحيى بن سعيد الأموي وغيره عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة. وحديث الليث أصح، وليس في حديث الليث، وكان يقرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾». والحاكم (٢/ ٢٣١- ٢٣٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي، والدارقطني (١/ ٣٠٧) والبيهقي (٢/ ٤٤)، وفي شعب الإيمان (٢/ ٤٣٥/ ٢٣١٩) وابن خزيمة (١/ ٢٤٧/ ٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١١١/ ٥٠٤٦) وأبو داود (٢/ ١٥٤/ ١٤٦٥) والترمذي في الشمائل (رقم٢٦٩-المختصر) والنسائي (٢/ ٥٢١/ ١٠١٣) وابن ماجه (١/ ٤٣٠/ ١٣٥٣).

اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول: رب! إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك**»[١].

★ **غريب الحديث:**

«**أغفى إغفاءة**»: أي: نام، قال في عون المعبود: «قال في فتح الودود: الإغفاء -بغين معجمة وفاء-: النوم الخفيف وهي حالة الوحي غالبًا» اهـ.

«**آنفًا**»: أي: الآن.

«**شانئك**»: مبغضك.

«**الأبتر**»: الذي لا عقب له، وقيل: المنقطع عن كل خير.

«**فيختلج**»: أي: يجتذب ويقتطع.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين[٢].

* عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين[٣].

* عن أبي هريرة قال: كان رسول اللَّه ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة إسكاتة -قال: أحسبه قال: هنية- فقلت: بأبي وأمي يا رسول اللَّه، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «**أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد**»[٤].

---

(١) أخرجه من حديث أنس: أحمد (٣/ ١٠٢) ومسلم (١/ ٣٠٠/ ٤٠٠) وأبو داود (٥/ ١١٠/ ٤٧٤٧) والنسائي (٢/ ٤٧١/ ٩٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣١) ومسلم (١/ ٣٥٧- ٣٥٨/ ٤٩٨) وأبو داود (١/ ٤٩٤- ٤٩٥/ ٧٨٣) وابن ماجه (١/ ٢٦٧/ ٨١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٠١) والبخاري (٢/ ٢٨٨/ ٧٤٣) ومسلم (١/ ٢٩٩/ ٣٩٩) وأبو داود (١/ ٤٩٤/ ٧٨٢) والترمذي (٢/ ١٥/ ٢٤٦) والنسائي (٢/ ٤٧٠/ ٩٠١ و٩٠٢) و(٢/ ٤٧٢/ ٩٠٥ و٩٠٦) وابن ماجه (١/ ٢٦٧/ ٨١٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١) والبخاري (٢/ ٢٨٨/ ٧٤٤) ومسلم (١/ ٤١٩/ ٥٩٨) وأبو داود (١/ ٤٩٣/ =

* عن ابن عبد اللَّه بن مغفل قال: سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال لي: أي بني محدث؟ إياك والحدث قال: ولم أر أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كان أبغض إليه الحدث في الإسلام، يعني: منه، قال: وقد صليت مع رسول اللَّه ﷺ ومع أبي بكر، ومع عمر ومع عثمان فلم أسمع أحدًا منهم يقولها، فلا تقلها، إذا أنت صليت فقل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على حديث عائشة رضي الله عنها: «استدل به مالك وغيره ممن يقول إن البسملة ليست من الفاتحة، وجواب الشافعي -رحمه اللَّه تعالى- والأكثرين القائلين بأنها من الفاتحة أن معنى الحديث أنه يبتدئ القرآن بسورة الحمد لله رب العالمين، لا بسورة أخرى، فالمراد بيان السورة التي يبتدأ بها» اهـ[٢]

قوله: (بالحمدُ لله رب العالمين): بضم الدال على الحكاية، ووقع الاختلاف في بيان المراد من ذلك:

أ- قول من أثبت البسملة في أولها، قال: المعنى: كانوا يفتتحون القراءة بالفاتحة، ودليله أن تسمية الفاتحة بهذه الجملة ثابت كما أخرج ذلك الإمام البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن**» فذكر الحديث وفيه قال: «**الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني**»[٣].

ب- قول من نفى قراءة البسملة، قال: المعنى: كانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين من دون بسملة.

قال ابن حجر: «لكن لا يلزم من قوله كانوا يفتتحون بالحمد أنهم لم يقرءوا (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) سرًّا، وقال: ويؤيده رواية من رواه عنه بلفظ: «فلم

= ٧٨١) والنسائي (٢/ ٤٦٦/ ٨٩٤) وابن ماجه (١/ ٢٦٤ - ٢٦٥/ ٨٠٥).

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (١/ ٣٥٩- ٣٦٠/ ٤١٢٨) والترمذي (٢/ ١٢- ١٣/ ٢٤٤) وقال: «حديث عبد اللَّه بن مغفل حديث حسن»، والنسائي (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣/ ٩٠٧) وابن ماجه (١/ ٢٦٧/ ٨١٥) والبيهقي (٢/ ٥٢).

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٨٠).

(٣) تقدم تخريجه في ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الفاتحة.

يكونوا يجهرون ببسم اللَّه الرحمن الرحيم» قال: «فطريق الجمع بين هذه الألفاظ حمل نفي القراءة على نفي السماع، ونفي السماع على نفي الجهر. قال: وأصرح من ذلك رواية الحسن عن أنس عند ابن خزيمة بلفظ: «كانوا يسرون ببسم اللَّه الرحمن الرحيم»[(١)]»[(٢)].

وقدح في صحته بأن أنسًا سئل عن هذه المسألة فقال: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه أو ما سألني أحد قبلك[(٣)].

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب تقديم ما دل عليه حديث أنس من شرعية الإسرار بالبسملة، لصحته وصراحته في هذه المسألة، وكونه نسي ذلك ثم ذكره، لا يقدح في روايته كما علم ذلك في الأصول والمصطلح. وتحمل رواية من روى الجهر بالبسملة على أن النبي ﷺ كان يجهر بها في بعض الأحيان، ليعلم من وراءه أنه يقرؤها، وبهذا تجتمع الأحاديث، وقد وردت أحاديث صحيحة تؤيد ما دل عليه حديث أنس من شرعية الإسرار بالبسملة، واللَّه أعلم»[(٤)].

قال الحافظ: «واستدل به المالكية على ترك دعاء الافتتاح، وحديث أبي هريرة الذي بعده يرد عليه [يقصد حديث دعاء النبي ﷺ في افتتاحه الصلاة بقوله: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب...**» الحديث]، وكأن هذا هو السر في إيراده، وقد تحرر أن المراد بحديث أنس بيان ما يفتتح به القراءة، فليس فيه تعرض لنفي دعاء الافتتاح» اهـ[(٥)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك الأمر في تلاوتها في الصلاة:

طائفة لا تقرؤها لا سرًّا ولا جهرًا، كمالك والأوزاعي.

وطائفة تقرؤها جهرًا كأصحاب ابن جريج والشافعي.

والطائفة الثالثة المتوسطة جماهير فقهاء الحديث، مع فقهاء أهل الرأي يقرءونها سرًّا، كما نقل عن جماهير الصحابة، مع أن أحمد يستعمل ما روي عن الصحابة في هذا الباب، فيستحب الجهر بها لمصلحة راجحة، حتى إنه نص على

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة (١/ ٢٥٠/ ٤٩٨). (٢) فتح الباري (٢/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٦)، والدارقطني (١/ ٣١٦).

(٤) هامش فتح الباري (٢/ ٢٩١). (٥) فتح الباري (٢/ ٢٩١).

أن من صلى بالمدينة يجهر بها ، فقال بعض أصحابه : ، لأنهم كانوا ينكرون على من يجهر بها .

ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا ، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب ، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متمًّا . وقال : الخلاف شر .

وهذا وإن كان وجهًا حسنًا ، فمقصود أحمد أن أهل المدينة كانوا لا يقرءونها فيجهر بها ليبين أن قراءتها سنة ، كما جهر ابن عباس بقراءة أم الكتاب على الجنازة ، وقال : لتعلموا أنها سنة ، وكما جهر عمر بالاستفتاح غير مرة ، وكما كان النبي ﷺ يجهر بالآية أحيانًا في صلاة الظهر والعصر .

ولهذا نقل عن أكثر من روي عنه الجهر بها من الصحابة المخافتة ، فكأنهم جهروا لإظهار أنهم يقرءونها كما جهر بعضهم بالاستعاذة أيضًا ، والاعتدال في كل شيء استعمال الآثار على وجهها ، فإن كون النبي ﷺ يجهر بها دائمًا -وأكثر الصحابة لم ينقلوا ذلك ، ولم يفعلوه- ممتنع قطعًا . وقد ثبت عن غير واحد منهم نفيه عن النبي ﷺ ولم يعارض ذلك خبر ثابت إلا وهو محتمل ، وكون الجهر بها لا يشرع بحال -مع أنه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة- نسبة للصحابة إلى فعل المكروه ، وإقراره مع أن الجهر في صلاة المخافتة يشرع لعارض ، كما تقدم .

وكراهة قراءتها مع ما في قراءتها من الآثار الثابتة عن الصحابة المرفوع بعضها إلى النبي ﷺ وكون الصحابة كتبتها في المصحف وأنها كانت تنزل مع السورة ، فيه ما فيه ، مع أنها إذا قرئت في أول كتاب سليمان ، فقراءتها في أول كتاب اللَّه في غاية المناسبة ، فمتابعة الآثار فيها الاعتدال والائتلاف والتوسط الذي هو أفضل الأمور»[1] .

وسئل شيخ الإسلام : عن حديث نعيم المجمر قال : كنت وراء أبي هريرة فقرأ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ بأم الكتاب ، حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٠٧- ٤٠٨).

قال: آمين، وقال الناس: آمين، ويقول كلما سجد: اللَّه أكبر، فلما سلَّم قال: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول اللَّه ﷺ»[١]. وكان المعتمر بن سليمان يجهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها، ويقول: ما آلو أن أقتدي بصلاة أبي، وقال أبي: ما آلو أن أقتدي بصلاة أنس، وقال أنس: ما آلو أن أقتدي بصلاة النبي ﷺ، فهذا حديث ثابت في الجهر بها. ذكر الحاكم أبو عبد الله: أن رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات. فهل يحمل ما قاله أنس، وهو: «صليت خلف رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدًا منهم يذكر بسم اللَّه الرحمن الرحيم»[٢] على عدم السماع؟ وما التحقيق في هذه المسألة والصواب؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. أما حديث أنس في نفي الجهر فهو صريح لا يحتمل هذا التأويل، فإنه قد رواه مسلم في صحيحه فقال فيه: «صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، لا يذكرون بسم اللَّه الرحمن الرحيم، في أول قراءة ولا في آخرها» وهذا النفي لا يجوز إلا مع العلم بذلك، لا يجوز بمجرد كونه لم يسمع مع إمكان الجهر بلا سماع.

واللفظ الآخر الذي في صحيح مسلم: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدًا منهم يجهر أو قال يصلي ببسم اللَّه الرحمن الرحيم، فهذا نفى فيه السماع، ولو لم يروِ إلا هذا اللفظ لم يجز تأويله، بأن النبي ﷺ كان يقرأ جهرًا، ولا يسمع أنس لوجوه:

أحدها: أن أنسًا إنما روى هذا ليبين لهم ما كان النبي ﷺ يفعله، إذ لا غرض للناس في معرفة كون أنس سمع أو لم يسمع، إلا ليستدلوا بعدم سماعه على عدم المسموع، فلو لم يكن ما ذكره دليلًا على نفي ذلك لم يكن أنس ليروي شيئًا لا فائدة لهم فيه، ولا كانوا يروون مثل هذا الذي لا يفيدهم.

الثاني: أن مثل هذا اللفظ صار دالًّا في العرف على عدم ما لم يدرك، فإذا قال: ما سمعنا، أو ما رأينا، لما شأنه أن يسمعه ويراه كان مقصوده بذلك نفي وجوده،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وذكر نفي الإدراك دليل على ذلك. ومعلوم أنه دليل فيما جرت العادة بإدراكه.

وهذا يظهر بالوجه الثالث وهو أن أنسًا كان يخدم النبي ﷺ من حيث قدم النبي ﷺ المدينة إلى أن مات، وكان يدخل على نسائه قبل الحجاب، ويصحبه حضرًا وسفرًا وكان حين حج النبي ﷺ تحت ناقته يسيل عليه لعابها أفيمكن مع هذا القرب الخاص، والصحبة الطويلة ألا يسمع النبي ﷺ يجهر بها، مع كونه يجهر بها هذا مما يعلم بالضرورة بطلانه في العادة.

ثم إنه صحب أبا بكر وعمر وعثمان، وتولى لأبي بكر وعمر ولايات، ولا كان يمكن مع طول مدتهم أنهم كانوا يجهرون، وهو لا يسمع ذلك، فتبين أن هذا تحريف لا تأويل. لو لم يرو إلا هذا اللفظ، فكيف والآخر صريح في نفي الذكر بها، وهو يفصل هذه الرواية الأخرى، وكلا الروايتين ينفي تأويل قوله: يفتتحون الصلاة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنه أراد السورة، فإن قوله: يفتتحون بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة، ولا في آخرها، صريح أنه في قصد الافتتاح بالآية، لا بسورة الفاتحة التي أولها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذ لو كان مقصوده ذلك لتناقض حديثاه.

وأيضًا فإن افتتاح الصلاة بالفاتحة قبل السورة، هو من العلم الظاهر العام الذي يعرفه الخاص والعام، كما يعلمون أن الركوع قبل السجود، وجميع الأئمة غير النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان يفعلون هذا، ليس في نقل مثل هذا فائدة، ولا هذا مما يحتاج فيه إلى نقل أنس، وهم قد سألوه عن ذلك، وليس هذا مما يسأل عنه، وجميع الأئمة من أمراء الأمصار والجيوش، وخلفاء بني أمية، وبني الزبير وغيرهم ممن أدركه أنس كانوا يفتتحون بالفاتحة، ولم يشتبه هذا على أحد، ولا شك، فكيف يظن أن أنسًا قصد تعريفهم بهذا، وأنهم سألوه عنه. وإنما مثل ذلك مثل أن يقال: فكانوا يصلون الظهر أربعًا، والعصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، أو يقول: فكانوا يجهرون في العشاءين والفجر، ويخافتون في صلاتي الظهرين، أو يقول: فكانوا يجهرون في الأوليين دون الأخيرتين.

ومثل حديث أنس حديث عائشة الذي في الصحيح أيضًا: أن النبي ﷺ كان يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. إلى آخره» وقد

روي: «يفتح القراءة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾» وهذا صريح في إرادة الآية، لكن مع هذا ليس في حديث أنس نفي لقراءتها سرًّا؛ لأنه روي «فكانوا لا يجهرون ببسم اللَّه الرحمن الرحيم» وهذا إنما نفى هنا الجهر.

وأما اللفظ الآخر (لا يذكرون) فهو إنما ينفي ما يمكنه العلم بانتفائه وذلك موجود في الجهر، فإنه إذا لم يسمع مع القرب، علم أنهم لم يجهروا.

وأما كون الإمام لم يقرأها فهذا لا يمكن إدراكه إلا إذا لم يكن له بين التكبير والقراءة سكتة يمكن فيها القراءة سرًّا، ولهذا استدل بحديث أنس على عدم القراءة، من لم ير هناك سكوتًا، كمالك وغيره، لكن قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه قال: يا رسول اللَّه، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة، ماذا تقول؟ قال: «أقول: كذا وكذا» إلى آخره[١].

وفي السنن من حديث عمران وأبي وغيرهما: أنه كان يسكت قبل القراءة[٢].

وفيها: أنه كان يستعيذ.

وإذا كان له سكوت لم يمكن أنسًا أن ينفي قراءتها في ذلك السكوت، فيكون نفيه للذكر، وإخباره بافتتاح القراءة بها إنما هو في الجهر، وكما أن الإمساك عن الجهر مع الذكر سرًّا يسمى سكوتًا، كما في حديث أبي هريرة، فيصلح أن يقال: لم يقرأها، ولم يذكرها، أي جهرًا، فإن لفظ السكوت ولفظ نفي الذكر والقراءة مدلولهما هنا واحد.

ويؤيد هذا حديث عبد اللَّه بن مغفل الذي في السنن أنه سمع ابنه يجهر بها فأنكر عليه وقال: يا بني إياك والحدث، وذكر أنه صلى خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يجهرون بها[٣]، فهذا مطابق لحديث أنس، وحديث عائشة اللذين في الصحيح.

وأيضًا فمن المعلوم أن الجهر بها مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله فلو كان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٤٩١- ٤٩٢/ ٧٧٧) وابن ماجه (١/ ٢٧٥/ ٨٤٤).

(٣) تقدم تخريجه.

النبي ﷺ يجهر بها كالجهر بسائر الفاتحة لم يكن في العادة ولا في الشرع ترك نقل ذلك، بل لو انفرد بنقل مثل هذا الواحد والاثنان لقطع بكذبهما، إذ التواطؤ فيما تمنع العادة والشرع كتمانه كالتواطؤ على الكذب فيه، ويمثل هذا بكذب دعوى الرافضة في النص على علي في الخلافة وأمثال ذلك.

وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ليس في الجهر بها حديث صريح، ولم يرو أهل السنن المشهورة كأبي داود والترمذي والنسائي شيئًا من ذلك، وإنما يوجد الجهر بها صريحًا في أحاديث موضوعة يرويها الثعلبي والماوردي، وأمثالهما في التفسير. أو في بعض كتب الفقهاء الذين لا يميزون بين الموضوع وغيره، بل يحتجون بمثل حديث الحميرا.

وأعجب من ذلك أن من أفاضل الفقهاء من لم يعز في كتابه حديثًا إلى البخاري إلا حديثًا في البسملة، وذلك الحديث ليس في البخاري، ومن هذا مبلغ علمه في الحديث كيف يكون حالهم في هذا الباب، أو يرويها من جمع هذا الباب كالدارقطني والخطيب، وغيرهما، فإنهم جمعوا ما روي وإذا سئلوا عن صحتها قالوا بموجب علمهم، كما قال الدارقطني لما دخل مصر، وسئل أن يجمع أحاديث الجهر بها فجمعها، فقيل له: هل فيها شيء صحيح؟ فقال: أما عن النبي ﷺ فلا، وأما عن الصحابة فمنه صحيح، ومنه ضعيف.

وسئل أبو بكر الخطيب عن مثل ذلك فذكر حديثين حديث معاوية لما صلى بالمدينة، وذكر الخطيب أنه أقوى ما يحتج به، وليس بحجة. كما يأتي بيانه.

فإذا كان أهل المعرفة بالحديث متفقين على أنه ليس في الجهر حديث صحيح، ولا صريح، فضلًا أن يكون فيها أخبار مستفيضة أو متواترة، امتنع أن النبي ﷺ كان يجهر بها، كما يمتنع أن يكون كان يجهر بالاستفتاح والتعوذ ثم لا ينقل.

فإن قيل: هذا معارض بترك الجهر بها، فإنه مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، ثم هو مع ذلك ليس منقولًا بالتواتر، بل قد تنازع فيه العلماء، كما أن ترك الجهر بتقدير ثبوته كان يداوم عليه، ثم لم ينقل نقلًا قاطعًا، بل وقع فيه النزاع.

قيل: الجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أن الذي تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة، ويجب نقله شرعًا

هو الأمور الوجودية، فأما الأمور العدمية فلا خبر لها، ولا ينقل منها إلا ما ظن وجوده، أو احتيج إلى معرفته، فينقل للحاجة، ولهذا قالوا: لو نقل ناقل افتراض صلاة سادسة، أو زيادة على صوم رمضان، أو حجًّا غير حج البيت، أو زيادة في القرآن، أو زيادة في ركعات الصلاة، أو فرائض الزكاة، ونحو ذلك، لقطعنا بكذبه، فإن هذا لو كان لوجب نقله نقلًا قاطعًا عادة وشرعًا، وأن عدم النقل يدل على أنه لم ينقل نقلًا قاطعًا عادة وشرعًا، بل يستدل بعدم نقله مع توافر الهمم والدواعي في العادة والشرع على نقله، أنه لم يكن.

وقد مثل الناس ذلك بما لو نقل ناقل: أن الخطيب يوم الجمعة سقط من المنبر، ولم يصلِّ الجمعة أو أن قومًا اقتتلوا في المسجد بالسيوف فإنه إذا نقل هذا الواحد والاثنان والثلاثة دون بقية الناس علمنا كذبهم في ذلك؛ لأن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة، وإن كانوا لا ينقلون عدم الاقتتال ولا غيره من الأمور العدمية. يوضح ذلك أنهم لم ينقلوا الجهر بالاستفتاح والاستعاذة، واستدلت الأمة على عدم جهره بذلك، وإن كان لم ينقل نقلًا عامًّا عدم الجهر بذلك، فبالطريق الذي يعلم عدم جهره بذلك، يعلم عدم جهره بالبسملة وبهذا يحصل الجواب عما يورده بعض المتكلمين على هذا الأصل، وهو كون الأمور التي تتوافر الهمم والدواعي على نقلها يمتنع ترك نقلها، فإنهم عارضوا أحاديث الجهر والقنوت والأذان والإقامة، فأما الأذان والإقامة فقد نقل فعل هذا وهذا، وأما القنوت فإنه قنت تارة وترك تارة، وأما الجهر فإن الخبر عنه أمر وجودي، ولم ينقل فيدخل في القاعدة.

الوجه الثاني: أن الأمور العدمية لما احتيج إلى نقلها نقلت، فلما انقرض عصر الخلفاء الراشدين وصار بعض الأئمة يجهر بها كابن الزبير ونحوه، سأل بعض الناس بقايا الصحابة كأنس، فروى لهم أنس ترك الجهر بها، وأما مع وجود الخلفاء فكانت السنة ظاهرة مشهورة ولم يكن في الخلفاء من يجهر بها، فلم يحتج إلى السؤال عن الأمور العدمية حتى ينقل.

الثالث: أن نفي الجهر قد نقل نقلًا صحيحًا صريحًا في حديث أبي هريرة، والجهر بها لم ينقل نقلًا صحيحًا صريحًا مع أن العادة والشرع يقتضي أن الأمور

الوجودية أحق بالنقل الصحيح الصريح من الأمور العدمية.

وهذه الوجوه من تدبرها، وكان عالمًا بالأدلة القطعية قطع بأن النبي ﷺ لم يكن يجهر بها، بل ومن لم يتدرب في معرفة الأدلة القطعية من غيرها يقول أيضًا: إذا كان الجهر بها ليس فيه حديث صحيح صريح، فكيف يمكن بعد هذا أن النبي ﷺ كان يجهر بها ولم تنقل الأمة هذه السنة، بل أهملوها وضيعوها؟ وهل هذه إلا بمثابة أن ينقل ناقل: أنه كان يجهر بالاستفتاح والاستعاذة، كما كان فيهم من يجهر بالبسملة، ومع هذا فنحن نعلم بالاضطرار أن النبي ﷺ لم يكن يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان يجهر بالفاتحة، كذلك نعلم بالاضطرار أن النبي ﷺ لم يكن يجهر بالبسملة، ، كما كان يجهر بالفاتحة، ولكن يمكن أنه كان يجهر بها أحيانًا، وأنه كان يجهر بها قديمًا ثم ترك ذلك، كما روى أبو داود في مراسيله عن سعيد بن جبير، ورواه الطبراني في معجمه عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان يجهر بها بمكة، فكان المشركون إذا سمعوها سبوا الرحمن، فترك الجهر فما جهر بها حتى مات»[1] فهذا محتمل.

وأما الجهر العارض: فمثل ما في الصحيح أنه كان يجهر بالآية أحيانًا، ومثل جهر بعض الصحابة خلفه بقوله: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ومثل جهر عمر بقوله: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» ومثل جهر ابن عمر وأبي هريرة بالاستعاذة، ومثل جهر ابن عباس بالقراءة على الجنازة ليعلموا أنها سنة. ويمكن أن يقال: جهر من جهر بها من الصحابة كان على هذا الوجه، ليعرفوا أن قراءتها سنة، لا لأن الجهر بها سنة.

ومن تدبر عامة الآثار الثابتة في هذا الباب علم أنها آية من كتاب اللَّه، وأنهم قرءوها لبيان ذلك، لا لبيان كونها من الفاتحة، وأن الجهر بها سنة، مثل ما ذكر ابن وهب في جامعه قال: أخبرني رجال من أهل العلم عن ابن عباس، وأبي هريرة، وزيد بن أسلم، وابن شهاب مثله بغير هذا الحديث عن ابن عمر، أنه كان يفتتح

---

(١) رواه عن سعيد بن جبير بسند ضعيف: أبو داود في المراسيل (٨٩/ ٣٤)، ورواه عن ابن عباس: الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٤٣٩- ٤٤٠/ ١٢٢٤٥) وفي المعجم الأوسط (٥/ ٣٨٩- ٣٩٠/ ٤٧٥٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٠٨): «ورواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثوقون».

القراءة ببسم اللَّه الرحمن الرحيم .

قال ابن شهاب: يريد بذلك أنها آية من القرآن فإن اللَّه أنزلها ، قال : وكان أهل الفقه يفعلون ذلك فيما مضى من الزمان ، وحديث ابن عمر معروف من حديث حماد بن زيد ، عن أيوب عن نافع ، عن ابن عمر ، أنه كان إذا صلى جهر بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإذا قال : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهذا الذي ذكره ابن شهاب الزهري هو أعلم أهل زمانه بالسنة يبين حقيقة الحال . فإن العمدة في الآثار في قراءتها ، إنما هي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر . وقد عرف حقيقة حال أبي هريرة في ذلك ، وكذلك غيره رضي اللَّه عنهم أجمعين . ولهذا كان العلماء بالحديث ممن يروي الجهر بها ليس معه حديث صريح ، لعلمه بأن تلك أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول اللَّه ﷺ وإنما يتمسك بلفظ محتمل ، مثل اعتمادهم على حديث نعيم المجمر عن أبي هريرة المتقدم . وقد رواه النسائي فإن العارفين بالحديث يقولون : إنه عمدتهم في هذه المسألة ولا حجة فيه .

فإن في صحيح مسلم عن أبي هريرة أظهر دلالة على نفي قراءتها من دلالة هذا على الجهر بها ، فإن في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « «**يقول الله : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد** : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . **قال اللَّه : حمدني عبدي . وإذا قال** : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ . **قال اللَّه تعالى : أثنى علي عبدي . وإذا قال** : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ . **قال : مجدني عبدي** . -أو قال : **فوض إلي عبدي**- ، **فإذا قال** : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . **قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال** : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قال : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل**»[1] .

وقد روى عبد اللَّه بن زياد بن سليمان -وهو كذّاب- أنه قال في أوله : «فإذا قال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، قال : ذكرني عبدي» ولهذا اتفق أهل العلم على

(١) سيأتي تخريجه .

كذب هذه الزيادة، وإنما كثر الكذب في أحاديث الجهر؛ لأن الشيعة ترى الجهر، وهم أكذب الطوائف، فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم، ولهذا يوجد في كلام أئمة السنة من الكوفيين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنة المسح على الخفين، وترك الجهر بالبسملة، كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر ونحو ذلك؛ لأن هذا كان من شعار الرافضة.

ولهذا ذهب أبو علي بن أبي هريرة أحد الأئمة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها، قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين، كما ذهب من ذهب من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور؛ لأن التسطيح صار من شعار أهل البدع.

فحديث أبي هريرة دليل على أنها ليس من القراءة الواجبة، ولا من القراءة المقسومة، وهو على نفي القراءة مطلقًا أظهر من دلالة حديث نعيم المجمر على الجهر؛ فإن في حديث نعيم المجمر أنه قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ: أم القرآن، وهذا دليل على أنها ليست من القرآن عندهم، وحديث أبي هريرة الذي في مسلم يصدق ذلك فإنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج؛ فهي خداج» فقال له رجل: يا أبا هريرة! أنا أحيانًا أكون وراء الإمام فقال: اقرأ بها في نفسك يا فارسي، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال اللَّه تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**. . .» الحديث[1]. وهذا صريح في أن أم القرآن التي يجب قراءتها في الصلاة عند أبي هريرة هي القراءة المقسومة التي ذكرها مع دلالة قول النبي ﷺ على ذلك، وذلك ينفي وجوب قراءتها عند أبي هريرة فيكون أبو هريرة وإن كان قرأ بها قرأ بها استحبابًا لا وجوبًا.

والجهر بها مع كونها ليست من الفاتحة قول لم يقل به أحد من الأئمة الأربعة؛ وغيرهم من الأئمة المشهورين، ولا أعلم به قائلًا، لكن هي من الفاتحة وإيجاب قراءتها مع المخافتة بها قول طائفة من أهل الحديث، وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ وإذا كان أبو هريرة إنما قرأها استحبابًا لا وجوبًا، وعلى هذا القول لا تشرع المداومة على الجهر بها؛ كان جهره بها أولى أن يثبت دليلًا على أنه ليعرفهم استحباب قراءتها؛ وأن قراءتها مشروعة، كما جهر عمر بالاستفتاح، وكما جهر

---

(١) سيأتي تخريجه.

ابن عباس بقراءة فاتحة الكتاب على الجنازة، ونحو ذلك، ويكون أبو هريرة قصد تعريفهم أنها تقرأ في الجملة، وإن لم يُجهر بها وحينئذ فلا يكون هذا مخالفًا لحديث أنس الذي في الصحيح؛ وحديث عائشة الذي في الصحيح، وغير ذلك.

هذا إن كان الحديث دالًّا على أنه جهر بها، فإن لفظه ليس صريحًا بذلك من وجهين:

أحدهما: أنه قال: قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ: (أم القرآن) ولفظ القراءة محتمل أن يكون قرأها سرًّا، ويكون نعيم علم ذلك بقربه منه، فإن قراءة السر إذا قويت يسمعها من يلي القارئ، ويمكن أن أبا هريرة أخبره بقراءتها، وقد أخبر أبو قتادة بأن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب، وسورة، وفي الأخيرتين بفاتحة الكتاب، وهي قراءة سر، كيف وقد بين في الحديث أنها ليست من الفاتحة، فأراد بذلك وجوب قراءتها فضلًا عن كون الجهر بها سنة، فإن النزاع في الثاني أضعف.

الثاني: أنه لم يخبر عن النبي ﷺ أنه قرأها قبل أم الكتاب، وإنما قال في آخر الصلاة: إني لأشبهكم صلاة برسول اللَّه ﷺ، وفي الحديث أنه أَمَّن وكبر في الخفض والرفع، وهذا ونحوه مما كان يتركه الأئمة، فيكون أشبههم برسول اللَّه ﷺ من هذه الوجوه التي فيها ما فعله رسول اللَّه ﷺ وتركوه هم، ولا يلزم إذا كان أشبههم بصلاة رسول اللَّه ﷺ أن تكون صلاته مثل صلاته من كل وجه، ولعل قراءتها مع الجهر أمثل من ترك قراءتها بالكلية عند أبي هريرة، وكان أولئك لا يقرءونها أصلًا، فيكون قراءتها مع الجهر أشبه عنده بصلاة رسول اللَّه ﷺ، وإن كان غيره ينازع في ذلك...

وحينئذ الخلاف أيضًا في قراءتها في الصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها واجبة وجوب الفاتحة، كمذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين، وطائفة من أهل الحديث، بناء على أنها من الفاتحة.

والثاني: قول من يقول: قراءتها مكروهة سرًّاوجهرًا، كما هو المشهور من مذهب مالك.

والقول الثالث: أن قراءتها جائزة، بل مستحبة، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه. وأكثر أهل الحديث، وطائفة من هؤلاء يسوي بين قراءتها وترك

قراءتها، ويخير بين الأمرين معتقدين أن هذا على إحدى القراءتين وذلك على القراءة الأخرى.

ثم مع قراءتها هل يسن الجهر أو لا يسن؟ على ثلاثة أقوال:

قيل: يسن الجهر بها كقول الشافعي، ومن وافقه.

وقيل: لا يسن الجهر بها، كما هو قول الجمهور من أهل الحديث والرأي، وفقهاء الأمصار.

وقيل: يخير بينهما، كما يروى عن إسحاق، وهو قول ابن حزم وغيره.

ومع هذا فالصواب أن ما لا يجهر به قد يشرع الجهر به لمصلحة راجحة، فيشرع للإمام أحيانًا لمثل تعليم المأمومين، ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحيانًا، ويسوغ أيضًا أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب، واجتماع الكلمة خوفًا من التنفير عما يصلح كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم، لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية، وخشي تنفيرهم بذلك ورأى أن مصلحة الاجتماع والائتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم.

وقال ابن مسعود لما أكمل الصلاة خلف عثمان، وأنكر عليه فقيل له في ذلك، فقال: الخلاف شر، ولهذا نص الأئمة كأحمد وغيره على ذلك بالبسملة، وفي وصل الوتر، وغير ذلك مما فيه العدول عن الأفضل إلى الجائز المفضول، مراعاة ائتلاف المأمومين أو لتعريفهم السنة وأمثال ذلك، والله أعلم»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤١٠- ٤٣٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

★ **غريب الآية:**

الحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى، والفرق بين الحمد والشكر أن الحمد نقيض الذم، كما أن المدح نقيض الهجاء. والشكر نقيض الكفران. والحمد قد يكون من غير نعمة والشكر يختص بالنعمة، إلا أن الحمد يوضع موضع الشكر. ويقال: الحمد لله شكرًا، فينصب «شكرًا» على المصدر، ولو لم يكن الحمد في معنى الشكر لما نصبه، فإذا كان الحمد يقع موقع الشكر، فالشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم ويكون بالقلب وهو الأصل، ويكون أيضًا باللسان. وإنما يجب باللسان لنفي تهمة الجحود والكفران، وأما المدح فهو القول المنبئ عن عظم حال الممدوح مع القصد إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو جعفر الطبري: «ومعنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر خالصًا لله -جل ثناؤه- دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم. فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا»[1].

وقال ابن تيمية: «قال اللَّه ﷻ في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٩).

فبدأ بهذين الاسمين: اللَّه، والرب. و(الله) هو الإله المعبود، فهذا الاسم أحقُّ بالعبادة؛ ولهذا يقال: اللَّه أكبر، الحمد لله، سبحان اللَّه، لا إله إلا اللَّه، و(الرب) هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة.

ولهذا يقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾[١]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢]، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾[٣]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾[٤]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٥]، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم (الرب).

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه، وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله، وهو عبادة اللَّه. والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يربيه ويتولَّاه، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية، والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا. والاسم (الرحمن) يتضمن كمال التعلقين، وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٦]، فذكر هنا الأسماء الثلاثة: (الرحمن، و(ربي)، و(الإله) وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ كما ذكر الأسماء الثلاثة في (أم القرآن)؛ لكن بدأ هناك باسم اللَّه، ولهذا بدأ في السورة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة؛ لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية، فإنها علة فاعلية للعلة الغائية، وقد بسطت هذا المعنى في مواضع؛ في أول «التفسير» وفي «قاعدة المحبة والإرادة» وفي غير ذلك»[٧].

وقال ابن القيم: «وقد نبَّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما

---

(١) نوح: الآية (٢٨).
(٢) الأعراف: الآية (٢٣).
(٣) القصص: الآية (١٦).
(٤) آل عمران: الآية (١٤٧).
(٥) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٦) الرعد: الآية (٣٠).
(٧) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٢- ١٤).

لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف إلى عباده، ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبب إليهم بذلك ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٥]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٧]، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[٨]، وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٩]. وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[١٠]، و﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١١]، وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟

(١) الفاتحة: الآيات (٢-٤).
(٢) الأنعام: الآية (١).
(٣) الكهف: الآيتان (١ و٢).
(٤) سبأ: الآية (١).
(٥) فاطر: الآية (١).
(٦) القصص: الآية (٧٠).
(٧) غافر: الآية (٦٥).
(٨) الروم: الآيتان (١٧ و١٨).
(٩) الزمر: الآية (٧٥).
(١٠) الأعراف: الآية (٤٣).
(١١) يونس: الآية (١٠).

بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[(١)]، وقال: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٢)]، وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه لا كما تقول الجبرية، وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام، فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به، ويخبر عنه به، فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمد أولًا وآخرًا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده.

فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء.

والنوع الثاني: حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال، ومن غير استحقاق بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصته وعباده إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن

---

(١) القصص: الآيتان (٧٤ و٧٥).

(٢) الملك: الآية (١١).

يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبب إليهم بنعمه مع غناه، وتبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كله فاتخذ لهم دارًا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدًّا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرًا، وإن أساءوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكرهم بآلائه وتعرف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحسانًا لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلًا منه عليهم، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرفهم الأسباب التي تُدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم»[١].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لم يذكر لحمده هنا ظرفًا مكانيًّا ولا زمانيًّا، وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية السموات والأرض في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[٣]، وقال في سورة سبأ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٤]» اهـ[٥].

---

(١) طريق الهجرتين (ص١٣٠- ١٣٣).
(٢) الروم: الآية (١٨).
(٣) القصص: الآية (٧٠).
(٤) سبأ: الآية (١).
(٥) أضواء البيان (١/ ٣٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الحمد

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر**»[١].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الذكر: لا إله إلا اللَّه، وأفضل الدعاء: الحمد لله**»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لأن أقول: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[٣].

* عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان اللَّه والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[٤].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الطيبي: «قال المظهر: إنما كان التهليل أفضل الذكر؛ لأنه لا يصح الإيمان إلا به، وإنما جعل (الحمد لله) أفضل الدعاء؛ لأن الدعاء عبارة عن ذكر اللَّه، وأن يطلب منه حاجته، و(الحمد لله) تشملهما؛ فإن من حمد اللَّه إنما يحمده على نعمته، والحمد على النعمة طلب مزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٥]» اهـ[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢) والترمذي (٥/ ٢٨٨- ٢٨٩/ ٣١٤٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣١/ ٣٣٨٣) وقال: «هذا حديث غريب»، والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم٨٣١) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٩/ ٣٨٠٠) والحاكم (١/ ٤٩٨) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٢٦/ ٨٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٢/ ٢٦٩٥) والترمذي (٥/ ٥٣٩/ ٣٥٩٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٢) ومسلم (١/ ٢٠٣/ ٢٢٣) والترمذي (٥/ ٥٠١/ ٣٥١٧) وقال: «هذا حديث صحيح»، والنسائي (٥/ ٨/ ٢٤٣٦) وابن ماجه (١/ ١٠٢- ١٠٣/ ٢٨٠).

(٥) إبراهيم: الآية (٧).

(٦) شرح الطيبي (٦/ ١٨٢٥- ١٨٢٦).

وقال ابن عبد البر: «وقد اختلف العلماء في أفضل الذكر فقال منهم قوم: أفضل الكلام: (لا إله إلا الله)، واحتجوا بهذا الحديث، وأنها كلمة الإسلام، وكلمة التقوى.

وقال آخرون: أفضل الذكر: (الحمد لله رب العالمين)، ففيه معنى الشكر والثناء، وفيه من الإخلاص ما في (لا إله إلا الله)، وأنه افتتح اللَّه به كلامه وختم به، وهو آخر دعوى أهل الجنة.

ولكل واحد من القولين وجه وآثار تدل على ما ذهب إليه من قال به»[1].

وقال القرطبي: «وقوله: «لأن أقول: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»؛ أي: من أن تكون له الدنيا بكليتها، فيحتمل أن يكون هذا على جهة الإغياء على طريقة العرب في ذلك، ويحتمل أن يكون معنى ذلك: أن تلك الأذكار أحب إليه من أن تكون له الدنيا فينفقها في سبيل اللَّه، -وفي أوجه البر والخير- وإلا فالدنيا من حيث هي دنيا لا تعدل عند اللَّه جناح بعوضة، وكذلك هي عند أنبيائه، وأهل معرفته، فكيف تكون أحب إليه من ذكر أسماء اللَّه وصفاته التي يحصل بها ذلك الثواب العظيم، والحظ الجزيل» اهـ[2].

وقال ابن رجب الحنبلي: «وأما (سبحان الله) ففي رواية مسلم: «سبحان اللَّه، والحمد لله، تملأ -أو تملآن- ما بين السماء والأرض»، فشكّ الراوي في الذي يملأ ما بين السماء والأرض؛ هل هو الكلمتان أو إحداهما؟ وفي رواية النسائي وابن ماجه: «التسبيح والتكبير ملء السماء والأرض»، وهذه الرواية أشبه، وهل المراد أنهما معًا يملآن ما بين السماء والأرض، أو أن كلًّا منهما يملأ ذلك؟ هذا محتمل. وفي حديث أبي هريرة والرجل الآخر أن التكبير وحده يملأ ما بين السماء والأرض.

وبكل حال فالتسبيح دون التحميد في الفضل كما جاء صريحًا في حديث علي وأبي هريرة، وعبد اللَّه بن عمرو، والرجل من بني سُليم أن التسبيح نصف الميزان،

---

(١) فتح البر (٨/ ٥٩٠).

(٢) المفهم (٧/ ٢٢- ٢٣).

والحمد لله تملؤه، وسبب ذلك أن التحميد إثبات المحامد كلها لله، فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها، والتسبيح هو تنزيه اللَّه عن النقائص والعيوب والآفات، والإثبات أكمل من السلب، ولهذا لم يرد التسبيح مجردًا، لكن مقرونًا بما يدل على إثبات الكمال، فتارة يُقرَن بالحمد، كقول: سبحان اللَّه وبحمده، وسبحان اللَّه والحمد لله، وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال، كقوله: سبحان اللَّه العظيم، فإن كان حديث أبي مالك يدل على أن الذي يملأ ما بين السماء والأرض هو مجموع التسبيح والتكبير، فالأمر ظاهر، وإن كان المراد أن كلًّا منهما يملأ ذلك، فإن الميزان أوسع مما بين السماء والأرض، فما يملأ الميزان هو أكبر مما يملأ ما بين السماء والأرض، ويدل عليه أنه صح عن سلمان ﷺ أنه قال: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا ربِّ لمن تزن هذا؟ فيقول اللَّه تعالى: لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك». وخرَّجه الحاكم مرفوعًا وصححه[١]، ولكن الموقوف هو المشهور»[٢].

وقال: «والحمد يتضمن إثبات جميع أنواع الكمال لله، فيدخل فيه التوحيد»[٣].

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما أنعم اللَّه على عبده نعمة فقال: (الحمد لله) إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذه»**[٤].

* عن عائشة ﷺ قالت: كان إذا رأى ما يحب قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**» وإذا رأى ما يكرهه قال: «**الحمد لله على كل حال**»[٥].

* عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله حَمْدًا كثيرًا**

(١) أخرجه من حديث سلمان: الحاكم (٤/ ٥٨٦) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٧- ١٨).
(٣) جامع العلوم الحكم (٢/ ٢٠).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠/ ٣٨٠٥) وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد حسن».
(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠/ ٣٨٠٣) والحاكم (١/ ٤٩٩) وابن السني (٨٧٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». وتعقبه الشيخ الألباني وصححه بشواهده في الصحيحة (٢٦٥).

طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»[(١)].

⋆ غريب الحديث:

«**غير مكفي**»: أي غير مردود ولا مقلوب، والضمير راجع إلى الطعام. وقيل: مكفي، من الكفاية، فيكون من المعتل، يعني أن اللَّه هو المُطعِم والكافي، وهو غير مُطعِم ولا مكفي، فيكون الضمير راجعًا إلى اللَّه.

«**ولا مودع**»: أي: غير متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده.

* عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أكل طعامًا، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه»**[(٢)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»**[(٣)].

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه تعالى: يا ملك الموت، قبضتَ ولد عبدي، قبضتَ قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حَمِدكَ واسترجع. قال: ابنوا له بيتًا في الجنة، وسمُّوه بيت الحمد»**[(٤)].

* عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**ربنا لك الحمد، ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيتَ ولا معطي لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»**[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢ و٢٥٦ و٢٦١ و٢٦٧) والبخاري (٩/ ٧٢٣/ ٥٤٥٨) وأبو داود (٤/ ١٨٦- ١٨٧/ ٣٨٤٩) وابن ماجه (٢/ ١٠٩٢/ ٣٢٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩) وأبو داود (٤/ ٣١٠/ ٤٠٢٣) والترمذي (٥/ ٤٧٤/ ٣٤٥٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب» وابن ماجه (٢/ ١٠٩٣/ ٣٢٨٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٠) ومسلم (٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٤) والترمذي (٤/ ٢٣٣/ ١٨١٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٠٢/ ٦٨٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٥) والترمذي (٣/ ٣٤١) وابن حبان (٧/ ٢١٠- ٢١١/ ٢٩٤٨)، وللحديث طرق ذكرها الشيخ الألباني في الصحيحة (١٤٠٨) وقال: «فالحديث بمجموع طرقه حسن على أقل الأحوال».

(٥) أخرج مسلم (١/ ٣٤٧/ ٤٧٧) وأبو داود (١/ ٥٢٩/ ٤٤٧) والنسائي (٢/ ٥٤٤- ٥٤٥/ ١٠٦٧).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا لفظ الحديث «أحقُّ» أفعلُ التفضيل. وقد غلط فيه طائفة من المصنفين، فقالوا: «حقٌّ ما قال العبد» وهذا ليس لفظ الرسول، وليس هو بقول سديد، فإن العبد يقول الحق والباطل، بل حقٌّ ما يقوله الرب، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾[١]. ولكن لفظه: «**أحقُّ ما قال العبدُ**» خبر مبتدأ محذوف، أي: الحمدُ أحقُّ ما قال العبدُ، أو هذا -وهو الحمد- أحقُّ ما قال العبد.

ففيه بيان أن الحمد لله أحق ما قاله العبد، ولهذا أوجب قوله في كل صلاة، وأن تفتتح به الفاتحة، وأوجب قوله في كل خطبة، وفي كل أمر ذي بال»[٢].

قال ابن القيم: «ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتمّ بناء هذين الأصلين، وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبَّح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[٣] وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربَّنا ولك الحمد، ملء السماء وملء الأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**» فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأض، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء اللَّه أن يملأ بحمده. وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه اللَّه بعد السموات والأرض، والمعنى: أن الحمد ملء ما خلقته وملء ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى: ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك؛ أي: يقدر مملوءًا بحمدك وإن لم يكن موجودًا. ولكن يقال: المعنى الأول أقوى لأن قوله:

---

(١) (ص): الآية (٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣١٢).
(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

«ما شئت من شيء بعد» يقتضي أنه شيء يشاؤه، وما شاء كان، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له. فتأمله. لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلابد أن يكون شيئًا موجودًا يملؤه حمده، وأيضًا فإن قوله: «من شيء بعد» يقتضي أنه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة ومابعدها. ولو أريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك؛ لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضًا فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد؛ بل قال: ما شئت، والعبد قد حمد حمدًا أخبر به، وأنشأه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاؤه بعد ذلك. وأيضًا فقوله: «وملء ما شئت من شيء بعد» يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك، وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وقد لا تتعلق. وأيضًا فإذا قيل: «ما شئت من شيء بعد ذلك» كان الحمد مالئًا لما هو موجود يشاؤه الرب دائمًا، ولا ريب أن له الحمد دائمًا في الأولى والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: «ملء ما لا يتناهى» فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودًا مقدرًا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها فهذا كله مما يشاؤه بعد. وأيضًا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وإما ظاهرة في مخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها فلا محامد فيه البتة، فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد ولا مذامَّ، فجعل الحمد مالئًا له لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما: فقالت طائفة على جهة التمثيل: أي: لو كان أجسامًا لملأ السموات والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام، والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالئ والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماءً،

وامتلأت الجفنة طعامًا، فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلأت الدار رجالًا، وامتلأت المدينة خيلًا ورجالًا، فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطورًا، فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا أو ذمًّا لفلان، فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف: «أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له». وقال عمر بن الخطاب في عبد اللَّه بن مسعود: «كنيف ملئ علمًا» ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا. وكان يقال: ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علمًا. ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وطبق الآفاق، وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رعبًا، وهذا أكثر من أن تستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه وجعل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك اللفظي، وليس هذا موضع تقرير هذه المسألة»[١].

وقال: «والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية. وما يقضيه من طاعة ومعصية، واللَّه تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر، أما حمد المدح فاللَّه محمود على كل ما خلق إذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين، وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الإحسان، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة، والطاعة من أجلّ نعمه، وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للرب سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا أضل راحلته بأرض دوية مهلكة، عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها في أصل شجرة فجاء حتى أخذها، فاللَّه أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته، فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحب إليه سبحانه من

(١) طريق الهجرتين (ص١١٢- ١١٤).

عدمه، وله أسباب ولوازم لا بد منها، وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبًا له فهذا الفرح أحب إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع، فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة. هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه، وأما بالإضافة إلى العبد فإنه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفًا على أسباب لا تحصل بدونها، فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه، والرب سبحانه محمود على الأمرين، فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه، من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية، وإن لم يتصل به ذلك، فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه، وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملأ الأعلى. ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها، فلابد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل، فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهيأة له ولا يليق بها سواه، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضًا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كل أحد قابلًا لنعمته تعالى، فحمده وحكمته تقتضي ألا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه في محل غير قابل لها»[1].

مبحث: أي النعمتين أفضل: النعمة في ذاتها أم الحمد عليها؟

قال ابن رجب: «وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: إني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت، إن الله لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ

(١) طريق الهجرتين (ص١١٨ - ١١٩).

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(١)]، وقال الله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[(٢)]، وأي نعمة أفضل من دخول الجنة؟».

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في «كتاب الشكر» عن بعض العلماء أنه صوَّب هذا القول (أعني قول من قال: إن الحمد أفضل من النعم) وعن ابن عيينة أنه خطأ قائله، قال: ولا يكون فعل العبد أفضل من فعل الرب ﷻ.

ولكن الصواب قول من صوبه، فإن المراد بالنعم: النعم الدنيوية، فالعافية والرزق والصحة، ودفع المكروه، ونحو ذلك والحمد هو من النعم الدينية، وكلاهما نعمة من الله، لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإن النعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكر، كانت بلية كما قال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، فإذا وفق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيرًا من تلك النعم وأحب إلى الله ﷻ منها، فإن الله يحب المحامد ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلبًا للثناء، والله ﷻ أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها، وذكرها، والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكرًا عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم لكنه يحب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه. ومن فضله أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضه، ومدحهم بإعطائه، والكل ملكه، ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك»[(٣)].

وأشار إلى ذلك الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جواب في صيغ الحمد»: «فإن أريد به أن حمد الله والثناء عليه وذكره أجل وأفضل من النعم التي أنعم بها على العبد من

---

(١) النمل: الآية (١٥).

(٢) الزمر الآيتان (٧٣ و ٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٨٢- ٨٣).

رزقه وعافيته وصحته والتوسعة عليه في دنياه فهذا حق يشهد له قوله ﷺ: «**ما أنعم اللَّه على عبد بنعمة فقال: الحمد لله، إلا كان ما أعطى أفضل مما أخذ**» رواه ابن ماجه[1]. فإن حمده لولي الحمد نعمة أخرى هي أفضل وأنفع له وأجدى عائدة من النعمة العاجلة فإن أفضل النعم وأجلها على الإطلاق نعمة معرفته تعالى وحمده وطاعته، فإن أريد أن فعل العبد يكون كفؤ النعم ومساويًا لها بحيث يكون مكافئًا للمنعم عليه وما قام به من الحمد ثمنًا لنعمه، قيامًا منه بشكر ما أنعم عليه به، وتوفية له، فهذا من أمحل المحال، فإن العبد لو أقدره اللَّه على عبادة الثقلين لم يقم بشكر أدنى نعمة عليه»[2].

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جواب في صيغ الحمد (٢٧- ٢٨).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

«**الرب**»: اختلف في اشتقاقه على أربعة أقوال:

١- أنه مشتق من المالك، نحو قول النبي ﷺ لرجل: «**أرب غنم أم رب إبل؟**»[(١)] فقال: من كل ما آتاني الله فأكثر وأطيب.

ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

قد ناله رب الكلاب بكفه ... بيض رهاب ريشهن مقزع

أي: صاحب الكلاب.

٢- أنه مشتق من السيد المطاع؛ لأن السيد يسمى ربًّا، قال تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾[(٢)] يعني: سيده.

قال لبيد:

وأهلكن قدما رب كندة وابنه ... ورب معد بين خبث وعرعر

أي: سيدَ كِندة.

٣- أنه مشتق من التربية، يقال: ربيته ورببته بمعنى، وفلان يرب صنيعته إذا كان ينميها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[(٣)]، فسمى ولد الزوجة ربيبة، لتربية الزوج لها.

٤- أنه الرب المدبر، يقال للمرأة: ربة الدار؛ لأنها تدبر شئونها، فالله ﷻ هو مدبر أمور الخلائق كلها دنيا وآخرة.

---

(١) أخرجه من حديث أبي الأحوص عن أبيه: أحمد (٤/ ١٣٦- ١٣٧) مطولًا، وأخرجه مختصرًا دون ذكر محل الشاهد: النسائي (٧/ ١١/ ٣٧٩٧) وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٩).

(٢) يوسف: الآية (٤١).

(٣) النساء: الآية (٢٣).

وهذا الاسم لا يطلق إلا على اللَّه ﷻ، ويقيد في حق غيره، فيقال: رب البيت ورب الضيعة[١].

«العالمين»: جمع عالَم والعالَم جمع لا واحد له من لفظه كالنفر والجيش وغيرهما، واشتقاقه من العلامة لأنه يدل على صانعه. وقيل: إنه من العلم لأنه اسم يقع على ما يعلم. وهو في عرف اللغة عبارة عن جماعة من العقلاء لأنهم يقولون: جاءني عالَم من الناس، ولا يقولون جاءني عالَم من البقر. وفي المتعارف بين الناس هو عبارة عن جميع المخلوقات وتدل عليه الآية ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[٢] وقيل: إنه اسم لكل صنف من الأصناف، وأهل كل قرن من كل صنف يسمى عالَمًا، ولذلك جمع فقيل: عالمون لعالم كل زمان، وهذا قول أكثر المفسرين كابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم. وقيل: العالَم نوع ما يعقل وهم الملائكة والجن والإنس. وقيل: الجن والإنس لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]، وقيل: هم الإنس لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فإن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم اللَّه والرب والرحمن، فاسم اللَّه متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر. ومعاني أسمائه تدور على هذا»[٥].

وقال الشنقيطي: «وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٦٢) وتهذيب اللغة (١٥/ ١٧٦) وتفسير الماوردي (١/ ٥٤) والمفردات: مادة: (رب).

(٢) الشعراء الآيتان (٢٣ و٢٤).

(٣) الفرقان: الآية (١).

(٤) الشعراء: الآية (١٦٥).

(٥) الفوائد (١/ ٣٠).

بَيْنَهُمَآ﴾(١) الآية»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير لفظ «الرب» وحماية جناب التوحيد

* عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يقل أحدكم. أطعم ربك وضِّئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه نهي العبد أن يقول لسيده: ربي، كذلك نهي غيره فلا يقول له أحد: ربك، ويدخل في ذلك أن يقول السيد ذلك عن نفسه، فإنه قد يقول لعبده: اسق ربك، فيضع الظاهر موضع الضمير على سبيل التعظيم لنفسه، والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك والقائم بالشيء فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى»(٤).

وقال الخطابي: «إنما منع ﷺ أن يقال: أطعِمْ ربك، اسقِ ربك؛ لأن الإنسان مربوب مُتعبَّد، بإخلاص التوحيد لله ﷻ، وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة بالاسم، لئلا يدخل في معنى الشرك، والحر والعبد في هذا بمنزلة واحدة، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوان والجماد، فلا بأس بإطلاق هذا الاسم عليه عند الإضافة، كقولك: رب الدابة، ورب الدار، والثوب، ونحوها»(٥).

وقال ابن بطال: «وأما (الرب) فهي كلمة وإن كانت مشتركة، وتقع على غير الخالق للشيء كقولهم: رب الدار، ورب الدابة، يراد صاحبهما فإنها لفظة تختص باللَّه في الأغلب والأكثر، فوجب ألا تستعمل في المخلوقين، لنفي الشركة بينهم وبين اللَّه، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال لأحد غير الله: إله، ولا رحمن، ويجوز أن

---

(١) الشعراء: الآيتان (٢٣ و٢٤). (٢) أضواء البيان (١/ ٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦) والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢) ومسلم (٤/ ١٧٦٤/ ٢٢٤٩ [١٥]).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢٢٤). (٥) أعلام الحديث (٢/ ١٢٧١).

يقال له: رحيم، ؛ لاختصاص اللَّه بهذين الاسمين، فكذلك الرب لا يقال لغير الله»[١].

وتعقبه ابن حجر فقال: «والذي يختص باللَّه تعالى إطلاق (الرب) بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٢]، وقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٣] وقوله -عليه الصلاة والسلام- في أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربها**»[٤] فدل على أن النهي في ذلك محمول على الإطلاق، ويحتمل أن يكون النهي للتنزيه، وما ورد من ذلك فلبيان الجواز. وقيل: هو مخصوص بغير النبي ﷺ ولا يرد ما في القرآن، أو المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة»[٥].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «هذه الألفاظ المنهي عنها، وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك، لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن اللَّه تعالى هو رب العباد جميعهم. فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية، التي هي وصف اللَّه تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ. وهذا من أحسن مقاصد الشريعة؛ لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: «سيدي ومولاي»، وكذا قوله: «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**»؛ لأن العبيد عبيد اللَّه، والإماء إماء اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[٦] ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير اللَّه

---

(١) شرح صحيح البخاري (٧/ ٦٨).

(٢) يوسف: الآية (٤٢). (٣) يوسف: الآية (٥٠).

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٤٢٦) والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠) ومسلم (١/ ٣٩/ ٩) والنسائي (٨/ ٤٧٥- ٤٧٦/ ٥٠٠٦) وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤).

(٥) فتح الباري (٥/ ٢٢٥). (٦) مريم: الآية (٩٣).

تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى، وأدبًا وبعدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: «فتاي وفتاتي وغلامي» وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق»[1].

* * *

(١) فتح المجيد (ص٥٦٩- ٥٧٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

تقدم تفسير ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملة.

* * *

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

«**مالك**»: قال في «اللسان»: «الملِك هو اللَّه، تعالى وتقدّس، ملك الملوك، له الملك، وهو مالك يوم الدين، وهو مليك الخلق؛ أي: ربهم ومالكهم، وفي التنزيل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ . . . ومالك يوم الدين، يملك إقامة يوم الدين، ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[1].

والمُلك معروف، وهو يذكر ويؤنث، كالسلطان. ومُلك اللَّه تعالى وملكوته: سلطانه وعظمته، ولفلان ملكوت العراق؛ أي: عزّه وسلطانه وملكه. . والمَلْكُ والمَلِكُ والمَليكُ والمالكُ: ذو المُلْك. ومَلْك ومَلِكٌ: مثال فَخْذٍ وفَخِذٍ، كأن المَلْكَ مخفف من مَلِك. والمَلِكُ مقصور من مالك أو مليك. وجمع المَلْكِ: مُلوكٌ، وجمع المَلِكِ: أملاكٌ، وجمع المَليكِ: مُلَكاء، وجمع المَالِكِ: مُلَّكٌ ومُلَّاكٌ، والأملوك: اسم للجمع، ورجلٌ مَلِكٌ، وثلاثةٌ أملاكٌ، إلى العشرة، والكثير: مُلوكٌ، والاسم: المُلْكُ، والموضع: مَمْلَكَةٌ»[2].

الدِّين: معناه في الآية الجزاء. قال الشاعر:

واعلم بأن كما تدين تدان

هو قول سعيد بن جبير وقتادة، وقيل: الدين الحساب، وهو المروي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر وابن عباس.

والدين: الطاعة، قال عمرو بن كلثوم:

---

(١) آل عمران: الآية (٢٦).

(٢) اللسان (١٠/ ٤٩١- ٤٩٢).

وأيـــام لـــنـــا غـــر طـــوال   عصينا الملك فيها أن ندينا

والدين: العادة، قال الشاعر:

تـقـول إذا درأت لـهـا وضـيـنـي   أهـــذا ديـــنـــه أبـــدًا وديـــنـــي

والدين: القهر والاستعلاء، قال الأعشى:

هـو دان الـربـاب إذ كـرهـوا الـد   يـن دراكـا بـغـزوة واحـتـيـال

ثـم دانـت بـعـد الـربـاب وكـانـت   كـعـذاب عـقـوبـة الأقـوال

ويدل على أن المراد به الجزاء والحساب قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1]، و﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأويل قراءة من قرأ ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أن لله الملك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء اللَّه يوم الدين أنهم الصغرة الأذلة. وأن له دونهم ودون غيرهم الملك والكبرياء والعزة والبهاء كما قال -جل ذكره وتقدست أسماؤه- في تنزيله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[3]، فأخبر تعالى أنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في المعاد إلى خسار»[4].

قال البخاري في صحيحه: «والدين: الجزاء في الخير والشر، كما تدين تدان. وقال مجاهد: (بالدين): بالحساب. (مدينين): محاسبين».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: (الدين: الجزاء في الخير والشر. كما تدين تدان) هو كلام أبي عبيدة أيضًا قال: الدين: الحساب والجزاء، يقال في المثل: كما تدين تدان، انتهى.

---

(١) غافر: الآية (١٧).
(٢) الجاثية: الآية (٢٨).
(٣) غافر: الآية (١٦).
(٤) جامع البيان (١/ ٦٥).

وقد ورد هذا في حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ بهذا وهو مرسل رجاله ثقات. ورواه عبد الرزاق بهذا الإسناد أيضًا عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفًا. وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء. وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه. قوله: (وقال مجاهد: بالدين: بالحساب، مدينين: محاسبين) وصله عبد بن حميد في التفسير من طريق منصور عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾[1] قال: بالحساب. ومن طريق ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[2] غير محاسبين. والأثر الأول جاء موقوفًا عن ناس من الصحابة أخرجه الحاكم من طريق السدي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: هو يوم الحساب ويوم الجزاء. وللدين معان أخرى: منها العادة والعمل والحكم والحال والخلق والطاعة والقهر والملة والشريعة والورع والسياسة، وشواهد ذلك يطول ذكرها»[3].

قال الفخر الرازي: «الحكم الثاني من أحكام كونه تعالى ملكًا: أنه ملك لا يشبه سائر الملوك لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم، وقلت خزائنهم؛ أما الحق ﷻ فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان، بل يزداد، بيانه أنه تعالى إذا أعطاك ولدًا واحدًا لم يتوجه حكمه إلا على ذلك الولد الواحد، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازمًا على الكل، فثبت أنه تعالى كلما كان أكثر عطاء كان أوسع ملكًا.

الحكم الثالث من أحكام كونه ملكًا: كمال الرحمة، والدليل عليه آيات:

إحداها: ما ذكر في هذه السورة من كونه ربًّا رحمانًا رحيمًا.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]، ثم قال بعده: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾[5] ثم ذكر بعده كونه قدوسًا عن الظلم والجور، ثم ذكر بعده كونه سلامًا، وهو الذي سلم

---

(١) الانفطار: الآية (٩).

(٢) الواقعة: الآية (٨٦).

(٣) الفتح (٨/ ١٩٨).

(٤) الحشر: الآية (٢٢).

(٥) الحشر: الآية (٢٣).

عباده من ظلمه وجوره، ثم ذكر بعده كونه مؤمنًا، وهو الذي يؤمن عبيده عن جوره وظلمه، فثبت أن كونه ملكًا لا يتم إلا مع كمال الرحمة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾(١) لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحمانًا، يعني: إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل على كمال القهر، فكونه رحمانًا يدل على زوال الخوف وحصول الرحمة.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾(٢) فذكر أولًا كونه ربًا للناس ثم أردفه بكونه ملكًا للناس، وهذه الآيات دالة على أن الملك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة، فيا أيها الملوك اسمعوا هذه الآيات وارحموا هؤلاء المساكين ولا تطلبوا مرتبة زائدة في الملك على ملك اللَّه تعالى.

الحكم الرابع للملك: أنه يجب على الرعية طاعته فإن خالفوه ولم يطيعوه وقع الهرج والمرج في العالم وحصل الاضطراب والتشويش ودعا ذلك إلى تخريب العالم وفناء الخلق، فلما شاهدتم أن مخالفة الملك المجازي تفضي آخر الأمر إلى تخريب العالم وفناء الخلق؛ فانظروا إلى مخالفة ملك الملوك كيف يكون تأثيرها في زوال المصالح وحصول المفاسد؟ وتمام تقريره أنه تعالى بين أن الكفر سبب لخراب العالم، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾(٣) وبين أن طاعته سبب للمصالح قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٤) فيا أيها الرعية كونوا مطيعين لملوككم، ويا أيها الملوك كونوا مطيعين لملك الملوك حتى تنتظم مصالح العالم.

الحكم الخامس: أنه لما وصف نفسه بكونه ملكًا ليوم الدين أظهر للعالمين كمال عدله فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٥) ثم بين كيفية العدل فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾(٦) فظهر بهذا أن كونه ملكًا حقًّا ليوم الدين إنما يظهر بسبب العدل، فإن كان الملك المجازي عادلًا كان ملكًا حقًّا

---

(١) الفرقان: الآية (٢٦).
(٢) الناس: الآيتان (١و٢).
(٣) مريم: الآيتان (٩٠ و٩١).
(٤) طه: الآية (١٣٢).
(٥) فصلت: الآية (٤٦).
(٦) الأنبياء: الآية (٤٧).

وإلا كان ملكًا باطلًا ؛ فإن كان ملكًا عادلًا حقًّا حصل من بركة عدله الخير والراحة في العالم، وإن كان ملكًا ظالمًا ارتفع الخير من العالم»[١].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لم يبينه هنا. وبينه في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾[٢] الآية والمراد بالدين في الآية الجزاء. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾[٣] أي: جزاء أعمالهم بالعدل»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن التسمي بملك الملوك وبقاضي القضاة حماية لجناب التوحيد

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن أخنع اسم عند اللَّه رجل تسمى ملك الأملاك؛ لا مالك إلا الله**»[٥].

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يقبض اللَّه الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك. أين ملوك الأرض؟**»[٦].

★ **غريب الحديثين:**

«**أخنع الأسماء**»: أي: أذلها وأوضعها، والخانع الذليل الخاضع.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن أخسَّ الأسماء وأرذلها عند اللَّه يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك، والكلام عليه من وجوه: منها: هل هذا التحقير للاسم يلحق منه للذي يسمى به شيء خلاف هذا أم لا؟. ومنها: هل هذا لعلة أو لغير علة؟ فإن كان لعلة، فهل نطرد الحكم حيث وجدنا العلة أو لا؟. وما

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١/ ٢٤٣-٢٤٤). (٢) الانفطار: الآيات (١٧- ١٩).
(٣) النور: الآية (٢٥). (٤) أضواء البيان (١/ ٣٤).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤) والبخاري (١٠/ ٧١٩/ ٦٢٠٦) ومسلم (٣/ ١٦٨٨/ ٢١٤٣) وأبو داود (٥/ ٢٤٥/ ٤٩٦١) والترمذي (٥/ ١٢٣/ ٢٨٣٧).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤) والبخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٢) ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧- ٤٤٨/ ١١٤٥٥) وابن ماجه (١/ ٦٨- ٦٩/ ١٩٢).

الحكمة في قوله: «يوم القيامة»؟

فأما قولنا: هل يلحق للمسمى بهذا الاسم زيادة على تحقير الاسم أو لا؟

فنقول: إنما جعل ترفيع الأسماء يوم القيامة للدلالة على ترفيع أهلها، وما لهم في ذلك اليوم من الخير والسرور، وكذلك ضده دالٌّ على ضده؛ لأن ذلك يوم حق ليس فيه مجاز ولا تلبيس.

وأما قولنا: هل ذلك لعلة أو لا؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث؛ وإن قلنا لعلة، فما هي؟

فنقول -واللَّه أعلم-: لتشبهه باسم مَنْ ليس كمثله شيء؛ لأن هذا الاسم لا يكون حقيقة إلا لله ﷻ، فإن كانت العلة ما ذكرنا، فيجوز تعدي الحكم، مثل أن يتسمى بسلطان السلاطين، وكذلك قاضي القضاة، وإن كانت العلة بهذا الاسم (أعني: قاضي القضاة)، وقد تقدمت بسنين لاسيما في جهة المشرق، وقد ذكر عن الثوري من أهل التحقيق أنه جاء يزوره من كان يتسمى بهذا الاسم في زمانه فلما دخل عليه قال له بعض من جاء معه: هذا قاضي القضاة، وكان معهم قاعدًا منبسطًا، فلما سمع كلامه قام دهشان مسرعًا وهو يقول: هذا قاضي القضاة، فهذا يوم الفصل والقضاء، فأين الميزان؟ فأين الصراط؟ وجعل يعدد من أحوال يوم القيامة ما شاء اللَّه تعالى، فحصل من كلامه في النفوس حال عجيب. وقد حدثني بعض من لقيته من السادة أن دولة الموحدين، وكانت دار مملكتهم في غرب العدوة مراكش أن القاضي الذي كان يتولى بها كان يدعى بقاضي الجماعة؛ لأن الفقهاء إذ ذاك كانوا هناك متوافرين، وكان الغالب عليهم الدين، فلم يأخذوا من الأسماء وجميع الأشياء إلا الذي ليس فيه شيء من المكروه، ولا يحتاجون فيه إلى شيء من التأويل، وهذه طريقة السلف ﷺ ولم يسمع هذا الاسم في السلف الصالح أيضًا، فنعوذ باللَّه من قلة الاهتمام بأمور الدين والتهاون به.

وأما قولنا: ما الحكمة في قوله: «يوم القيامة»؟

لأنه يوم تظهر فيه الأمور على ما هي عليه حقيقة، ليس فيها زغل ولا عناد ولا تجاوز ولا مجاز، إلا حقائق ظاهرة، وهذه الدار فيها التلوينات والاختلاطات، وقد يكون ظاهر الأمر يوافق باطنه والضد وفي تلك الأعمال على

إبراز الضمائر وتحقيق الحقائق ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾[(١)].

وفيه تنبيه على أن الأدب في الدين مطلوب جدًّا، يؤخذ ذلك من كونه لما تسمى هذا المسكين بهذا الاسم، وهو محتمل إن أراد ملك ملوك الأرض، وكان ذلك ملكًا له، واحتمل أن يسمى به اختيارًا مثل ما يتسمى بعض نساء العرب وغيرهن في الوقت، وقيل: هذا الوقت سنة العرب والناس أجمعين يعلمون أن ذلك ليس بحقيقة. وكما يسمى بعض الناس بسيد الناس، وهذا مقطوع أيضًا أنه ليس كذلك، وهذا الاسم أيضًا يدخله المنع بالتعليل المتقدم وما هو في معناه؛ لأن العلة فيه موجودة لكن غفلات توالت، وعوائد سوء اتخذت، راح الأمر عليها على ما قدر له بما قدر، واحتمل أن يكون يسمى بذلك تمردًا وتجبرًا لكن ليس في الحديث ما يدل على واحد من هذه خصوصًا، فالكل محتمل، والمحتمل ينبغي أن يبقى كل محتملاته لاسيما في مواضع الخوف. لكن صيغة اللفظ في الحديث العموم؛ لأنه قال: «تسمى» فيكون معناه: تسمى بهذا الاسم على أي وجه وقع هذا الاسم فصاحبه بتلك الحالة الذميمة والمخزاة العظيمة فبهذا يزداد الحض على طلب الأدب في الدين.

وفيه إرشاد إلى علم السنة وإيثاره على غيره؛ لأن هذا وأمثاله -وهي مواضع عديدة وقد نبهنا عليها في مواضع من الكتاب- لا تعلم إلا من طريق علم السنة والاهتمام به، وقد غفل عن ذلك كثير من الناس وأوقعهم ذلك في المهالك وهم لا يعلمون، ويكون حالهم كما أخبر تعالى في كتابه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[(٢)] فمنهم من جهله جملة واحدة، ومنهم من اشتغل به وكان علمه به لأثرة غيره عليه، ويجعل ذلك نبلًا وكيسًا وهو غي وحرمان، أعاذنا اللَّه من ذلك بمنه، ولذلك كانت وصية من لقيته من أهل التوفيق بالعلم والسنة أن يقول: الرجل يكون محاسبًا مراقبًا، فكنت أقول: ما معنى قولكم: محاسبًا مراقبًا؟ فكان جوابه على ذلك: أن يكون محاسبًا يحاسب نفسه في هذه الدار لقوله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم

(١) يونس: الآية (٣٠).

(٢) الكهف: الآية (١٠٤).

قبل أن تحاسبوا»[1] فإن رأى على نفسه دركًا أخذ في خلاصها، ومراقبًا يجعل قلبه أمام رأيه، فإن خطر له قول أو فعل نظره بلسان العلم فإن كان جائزًا فعل أو قال، وإن كان ممنوعًا أو مكروهًا أمسك؛ لأن ترك الذنب أولى من طلب المغفرة، وإلا كان كتاجر ينفق ولا يعلم فيصبح وقد أفلس، وإن لم يعرف ذلك الذي خطر له من أي الوجوه هو، توقَّف حتى يسأل أهل العلم الذين هم على السنة واتباع السنن، فإن المؤمن وقَّاف، جعلنا اللَّه من المؤمنين حقًّا الملطوف بهم بمنِّه لا ربّ سواه، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[2].

وقال ابن القيم: «ولمَّا كان المُلك الحق لله وحده، ولا مَلك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضعَه عند اللَّه، وأغضبه له اسم (شاهان شاه) أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير اللَّه، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، واللَّه لا يحب الباطل.

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا (قاضي القضاة) وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن. فيكون.

ويلي هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب: سيد الناس، وسيد الكل، وليس ذلك إلا رسول اللَّه ﷺ خاصة، كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[3] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: إنه سيد الناس، وسيد الكل، كما لا يجوز أن يقول: إنه سيد ولد آدم»[4].

وقال ابن حجر: «وقيل: يلتحق به أيضًا من تسمى بشيء من أسماء اللَّه الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار. وهل يلتحق به من تسمى (قاضي القضاة) أو (حاكم الحكَّام)؟ اختلف العلماء في ذلك فقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿أَحَكَمُ

---

(١) ذكره الترمذي في سننه بصيغة التمريض (٤/ ٥٥٠/ ٢٤٥٩)، وأخرجه عبد اللَّه بن المبارك (في الزهد (ص١٠٣) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٥٧) عن عمر بن الخطاب موقوفًا. انظر السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٤٦/ ١٢٠١).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ١٨٥- ١٨٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) زاد المعاد (٢/ ٣٤٠- ٣٤١).

﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[١] أي: أعدل الحكّام وأعلمهم، إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، قال: ورُبَّ غريق في الجهل والجور من مقلدي زماننا قد لقب أقضى القضاة، ومعناه: أحكم الحاكمين، فاعتبر واستعبر، وتعقبه ابن المنير بحديث: «أقضاكم علي» قال: فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاضٍ يكون أعدل القضاة وأعلمهم في زمانه أقضى القضاة أو يريد إقليمه أو بلده، ثم تكلم في الفرق بين قاضي القضاة وأقضى القضاة، وفي اصطلاحهم على أن الأول فوق الثاني وليس من غرضنا هنا. وقد تعقب كلام ابن المنير علم الدين العراقي، فصوب ما ذكره الزمخشري من المنع، ورد ما احتج به من قضية علي بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ومن يلتحق بهم، فليس مساويًا لإطلاق التفضيل بالألف واللام، قال: ولا يخفى ما في إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب، ولا عبرة بقول من ولي القضاء فنعت بذلك فلذَّ في سمعه فاحتال في الجواز فإن الحق أحق أن يتبع»[٢].

* * *

---

(١) هود: الآية (٤٥).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٧٢١).

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

«**نعبد**»: العبادة في اللغة: الخضوع والذلة. يقال: طريق معبد؛ أي: مذلل بكثرة الولاء وسمي العبد عبدًا لذلته وانقياده لسيده، قال طرفة:

تباري عناقًا ناجيات وأتبعت وظيفًا وظيفًا فوق مور معبد

«**نستعين**»: الاستعانة: طلب المعونة. يقال: استعنته، واستعنت به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **كلام بديع تحت هذه الآية قال**: «وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل اللَّه مائة كتاب وأربعة كتب؛ جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين: فنصفها له تعالى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفها لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء اللَّه في موضعه.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد؛ أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًا

خاضعًا، ومن هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم، بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم: منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ إلى قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[3]. ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به، لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

. . . وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله)، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب). فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب فكان من الشطر الأول الذي هو ثناؤه على الله تعالى لكونه أولى به، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته. فكانت العبادة أكمل وأتم. ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، لأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن

---

(١) الزخرف: الآية (٨٧). (٢) لقمان: الآية (٢٥).

(٣) المؤمنون: الآيات (٨٤- ٨٩).

غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته. ولأن العبادة شكر نعمته عليك، واللَّه يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك. فإذ التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من اللَّه له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا حتى يقضي العبد نَحْبَه، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع اللَّه بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر. فهو في قوة (لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك)، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا، وسيبويه نص على الاهتمام ولم ينف غيره. ولأنه يقبح من القائل أن يعتق عشرة أعبد مثلًا، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت. ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[1]، ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾[2]، كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي! وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

---

(١) البقرة: الآية (٤٠). (٢) البقرة: الآية (٤١).

هو في قوة: (لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك)، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق، ولا عبرة بجدل من قل فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير (إياك) من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي (إياك قصدت، وأحببت) من الدلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك، وإياك أعني: فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن هاهنا قال من قال من النحاة: إن (إيا) اسم ظاهر، مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يرد عليه بردٍّ شاف.

ولولا أنا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون اللَّه.

وفي إعادة (إياك) مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلًا: إياك أحب، وإياك أخاف كان في اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

إذا عرفت هذا: فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام: أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة باللَّه عليها، فعبادة اللَّه غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب -تبارك وتعالى- الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «**يا معاذ، واللَّه إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[1].

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس اللَّه روحه-[2]: تأملت أنفع الدعاء: فإذا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هذا الدعاء غير وارد في المرفوع أو المأثور.

هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن اللَّه وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته، كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولابدّ.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة اللَّه لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بخلًا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن اللَّه لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه اللَّه، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها. كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فواللَّه لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي؟ والأمر ليس إلي، والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال؛ تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[1] أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد اللَّه سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليه، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[2].

وقال: «وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه اللَّه ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر اللَّه سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

---

(١) الفجر: الآيات (١٥- ١٧).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٧٤- ٨٠).

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضا به وعنه والموالاة فيه، والمعاداة فيه والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى اللَّه من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى اللَّه بها.

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد اللَّه وعبادته، من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[١]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[٤].

واللَّه تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[٥]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

(١) الأعراف: الآية (٥٩).
(٢) النحل: الآية (٣٦).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٥١ و٥٢).
(٥) النساء: الآية (١٧٢).

﴿عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[1]. وهذا يبين أن الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] هاهنا ثم يبتدئ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3] فهما جملتان تامتان مستقلتان؛ أي: إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته؛ يعني: لا يأنفون عنه ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون، يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا، بل عبادتهم وتسبيحهم كالنَّفَس لبني آدم، فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[4] إلى آخر السورة. وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[5]. وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾[6]. وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾[7]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[8]، وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[9]. وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[10]. فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[11]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[12] وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[13]. فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[14]. فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[15] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت**

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٦).
(٢) الأنبياء: الآية (١٩).
(٣) الأنبياء الآيتان (١٩ و٢٠).
(٤) الفرقان: الآية (٦٣).
(٥) الإنسان: الآية (٦).
(٦) ﴿صٓ﴾: الآية (١٧).
(٧) ﴿صٓ﴾: الآية (٤١).
(٨) ﴿صٓ﴾: الآية (٤٥).
(٩) ﴿صٓ﴾: الآية (٣٠).
(١٠) الزخرف: الآية (٥٩).
(١١) البقرة: الآية (٢٣).
(١٢) الفرقان: الآية (١).
(١٣) الكهف: الآية (١).
(١٤) الجن: الآية (١٩).
(١٥) الإسراء: الآية (١).

النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد اللَّه ورسوله»[١]. وفي الحديث: «**أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد**»[٢]. وفي صحيح البخاري عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول اللَّه، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»[٣].

وجعل اللَّه سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[٤] وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[٥]. وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٦]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[٧].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل -وقد سأله عن الإحسان-: «أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٨] » اهـ[٩].

وقال: «ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣ و٢٤ و٢٧ و٥٥) والبخاري (٦/ ٥٩١/ ٣٤٤٥) والدارمي (٢/ ٣٢٠) والبغوي (١٣/ ٢٤٦/ ٣٦٨١) من طرق عن الزهري عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٤٧- ٢٤٨/ ٣٦٨٣) بإسناد ضعيف وله شواهد رقت به إلى الصحة ذكرها الشيخ الألباني في الصحيحة (٥٤٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٤٣١/ ٢١٢٥).

(٤) الزمر: الآيتان (١٧ و١٨).

(٥) الزخرف: الآيتان (٦٨ و٦٩).

(٦) الحجر: الآية (٤٢).

(٧) النحل: الآيتان (٩٩ و١٠٠).

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٢٧- ٢٨، ٦٢) ومسلم (١/ ٣٦/ ١) وأبو داود (٥/ ٦٩/ ٤٦٨٥) والترمذي (٥/ ٨/ ٢٦١٠) والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٥) وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) كلهم من حديث عمر رضي الله عنه.

(٩) مدارج السالكين (١/ ١٠٠- ١٠٣).

عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح، فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق، والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه. والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: ألا يكون المطلوب منقسمًا.

والصدق: ألا يكون الطلب منقسمًا.

فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب. واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة. وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه؛ وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له، وأصل هذا واجب، وكماله مرتبة المقربين. وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين، وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة قال الإمام أحمد: ذكر اللَّه الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية، والقولان

لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب. واحتجوا بأثر: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سواي»[١].

ومن قال: هو مستحب قال: لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة بخلاف الصبر فإن اللَّه أمر به في مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل قال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[٢]. وأمر بالإنابة. فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[٣]. وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]، وكذلك الخوف كقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[٦]. وقوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٧]، وكذلك الصدق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٨]. وكذلك المحبة، وهي أفرض الواجبات؛ إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدح أهله، والثناء عليهم، لا الأمر به. قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي لا يحتج به... قالوا: وأما قولكم: (لا خلاص من السخط إلا به) فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا: وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به. وهو أوسطها. فالأولى للمقربين السابقين، والثالثة للمقتصدين، والثانية: للظالمين. وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر. وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم وظن أنهما متباينان، وليس كما ظنه، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راضٍ

---

(١) ضعيف: رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٨/ ٢٠٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٧): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه سهيل بن أبي حزم وثقه ابن معين وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات». وانظر السلسلة الضعيفة (٧٤٧).

(٢) يونس: الآية (٨٤).

(٣) الزمر: الآية (٥٤).

(٤) البينة: الآية (٥).

(٥) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٦) البقرة: الآية (١٥٠).

(٧) البقرة: الآية (٤٠).

(٨) التوبة: الآية (١١٩).

بها. فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به. وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربًّا وإلهًا والرضا بأمره الديني، فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلمًا إلا بهذا الرضا (أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا)، ومن هذا أيضًا اختلافهم في الخشوع في الصلاة وفيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه. ولم يوجبها أكثر الفقهاء واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله: «**إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، -لما لم يكن يذكر- حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى**»(١).

ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه، كما قال النبي ﷺ: «**إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، ربعها** - حتى بلغ: **عشرها**»(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال: (صلاة صحيحة) مع أنه لا يثاب عليها فاعلها. والقصد: أن هذه الأعمال -واجبها ومستحبها- هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائمًا بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٤١) والبخاري (٣/ ١٣٤- ١٣٥/ ١٢٣٢) ومسلم (١/ ٢٩١/ ٣٨٩ (١٩)) وأبو داود (١/ ٢٢٤ -٢٢٥/ ١٠٣٠) والنسائي (٣/ ٣٦/ ١٢٥١).

(٢) أخرجه من حديث عمار بن ياسر: أحمد (٤/ ٣٢١) وأبو داود (١/ ٥٠٣/ ٧٩٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٢١١/ ٦١٢).

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة اللَّه، واليأس من روح اللَّه، والأمن من مكر اللَّه، والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم اللَّه من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهي فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب، وإن تركها عجزًا عن بذله مقدوره في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل؛ لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: هذا القاتل يا رسول اللَّه، فما بال المقتول؟! قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1]. فنزله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

---

(١) أخرجه من حديث أبي بكرة: أحمد (٥/ ٤٣) والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١) ومسلم (٤/ ٢٢١٣- ٢٢١٤/ ٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨) والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣).

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر اللَّه بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال وأمر بالتشهد وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر اللَّه، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه اللَّه ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث اللَّه به رسولَه، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على اللَّه بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه، وقد اختلف السلف هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره.

أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور وهو «**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر اللَّه وما والاه**»(١).

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرًا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح،

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه الترمذي (٤/ ٥٢٥- ٥٢٦/ ٢٤١٢) وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥/ ٣٩٧٤)، انظر السلسلة الضعيفة (١٣٦٦).

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة؛ لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: «**اتق اللَّه فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[١]. وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي اللَّه ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة فتأمله.

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة: هو واجب، مع أن وسيلته، وهو النذر مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة، وهذا كثير جدًّا، فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا: إذ الحواس خمسة؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات:

---

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري: الترمذي (٤/ ٥٢٣- ٥٢٤/ ٢٤٠٧) وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه»، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٣/ ٩٣).

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه اللَّه ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة؛ من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه، ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر اللَّه، واستماع كل ما يحبه اللَّه، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة كنظر الخاطب، والمستام، والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا،

والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات اللَّه المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولها إلى فضولٍ عَزَّ التخلص منها، وأعيى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة، ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرًا، بنص رسول اللَّه ﷺ في الحديث المتفق على صحته[1]، وإن ضعفه بعض الفقهاء لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: «أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٢٦٦) ومسلم (٣/ ١٦٩٩/ ٢١٥٨) وأبو داود (٥/ ٣٦٦/ ٥١٧٢).

طعام المتبارين»(١). وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة اللَّه ﷻ مما أذن اللَّه فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوم ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، وشم العبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة اللَّه ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الريح، خفيف المحمل**»(٢).

والمكروه: كشم طيب الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من اللَّه ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس: أبو داود (٤/ ١٣٢/ ٣٧٥٤) وقال: «أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس، وهارون النحوي ذكر فيه ابن عباس أيضًا، وحماد بن زيد لم يذكر ابن عباس»، والحاكم (٤/ ١٢٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٢٠) ومسلم (٤/ ١٧٦٦/ ٢٢٥٣) وأبو داود (٤/ ٤٠٠/ ٤١٧٢) والنسائي (٨/ ٥٧٤/ ٥٢٧٤).

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مرتبة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه، لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم اللَّه قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما إن كسبت عليه مالًا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1]. وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم اللَّه ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

---

(١) البقرة: الآية (٧٩).

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك، ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلًا مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم اللَّه ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية اللَّه، وهو من رجل الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية اللَّه فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا: فواجبة في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبة: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية اللَّه ﷻ.

---

(١) الإسراء: الآية (٦٤).

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة»[١].

وقال: «والتوكل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلان وهما التوكل والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾[٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٥].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٦] فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٧].

قال ابن تيمية: «فاللَّه سبحانه هو المستحق أن يعبد لذاته، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٨]، فذكر (الحمد) بالألف واللام التي تقتضي الاستغراق لجميع المحامد، فدل على أن الحمد كله لله، ثم حصره في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٩]، فهذه تفصيل لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فهذا يدل على أنه

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٩- ١٢٢).

(٢) هود: الآية (٨٨).

(٣) هود: الآية (١٢٣).

(٤) الممتحنة: الآية (٤).

(٥) المزمل: الآيتان (٨ و٩).

(٦) الرعد: الآية (٣٠).

(٧) مدارج السالكين (١/ ٧٥).

(٨) الفاتحة: الآية (٢).

(٩) الفاتحة: الآية (٥).

لا معبود إلا اللَّه، وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته: من المحبة والخوف، والرجاء، والأمر، والنهي. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم؛ لأن الرب ﷻ هو المالك. وفيه أيضًا معنى الربوبية والإصلاح، والمالك الذي يتصرف في ملكه كما يشاء.

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد اللَّه تعالى قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] فلا يرى نفعًا، ولا ضرًّا، ولا حركة ولا سكونًا، ولا قبضًا، ولا بسطًا، ولا خفضًا، ولا رفعًا، إلا واللَّه ﷻ فاعله، وخالقه، وقابضه، وباسطه، ورافعه، وخافضه. فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات... وهو علم صفة الربوبية، والأول هو علم صفة الإلهية وهو كشف سر الكلمات التكليفيات.

فالتحقيق بالأمر والنهي، والمحبة والخوف والرجاء، يكون عن كشف علم الإلهية.

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم يكون بعد كشف علم الربوبية، وهو علم التدبير الساري في الأكوان، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]. فإذا تحقق العبد لهذا المشهد، ووفقه لذلك، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته، فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين، فإن جميع مشاهد الرحمة واللطف والكرم، والجمال داخل في مشهد الربوبية.

ولهذا قيل: إن هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي، والمحبة والخوف والرجاء، كما ذكرنا، وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم، وترك الاختيار، وجميع العبوديات داخلة في ذلك.

---

(١) الملك: الآية (١).

(٢) النحل: الآية (٤٠).

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول، ورأى قيام اللَّه ﷻ على جميع الأشياء وهو القيام على كل نفس بما كسبت، وتصرفه فيها، وحكمه عليها، فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه، وإرادته القدرية، فغاب بما لا حظ عن التمييز والفرق، وعطل الأمر والنهي والنبوات، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرَّمِيَّةِ.

وإن كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله، لقوة سلطانه الوارد، وضعف قوة البصيرة، أن يجمع بين المشهدين، فهذا معذور منقوص إلا من جمع بين المشهدين: الأمر الشرعي ومشهد الأمر الكوني الإرادي. وقد زلت في هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين؛ لقلة معرفتهم بما بعث اللَّه به المرسلين، وذلك لأنهم عبدوا اللَّه على مرادهم منه، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق ﷻ منهم؛ لأن الحق يغني بمراده ومحبوبه ولو عبدوا اللَّه على مراده منهم لم ينلهم شيء من ذلك؛ لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظًا لأمر سيده، لا يغيب بعبادته عن معبوده، ولا بمعبوده عن عبادته، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما إلى المعبود كأنه يراه؛ كما قال ﷺ لما سئل عن الإحسان: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)]. والأخرى ينظر بها إلى أمر سيده، ليوقعه على الأمر الشرعي الذي يحبه مولاه ويرضاه»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحقيق العبودية ونفي الشرك

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «**يا معاذ، أتدري ما حق اللَّه على العباد، وما حق العباد على الله؟**» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على اللَّه ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، قلت: يا رسول اللَّه أبشر الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٨٩- ٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٢) والبخاري (٦/ ٧٢- ٧٣/ ٢٨٥٦) ومسلم (١/ ٥٠/ ٢٩) والترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤٣) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥- ١٤٣٦/ ٤٢٩٦)، من طرق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

★ **فوائد الحديث:**

وجه الشاهد من الحديث تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقوله ﷺ: «**حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» وهاهنا شيئان: تحقيق التوحيد لله تعالى، ونفي الشرك به.

قال ابن تيمية: «واعلم أن فقر العبد إلى اللَّه أن يعبد اللَّه لا يشرك به شيئًا، ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد قلبه، وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها اللَّه الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير اللَّه فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والْتَذَّ غير منعم له ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[١]، وكان أعظم آية في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[٢]، وقد بسطت الكلام في معنى (القيوم) في موضع آخر، وبينا أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين:

أحدهما: على أن نفس الإيمان باللَّه وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم: أن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة

---

(١) الأنعام: الآية (٧٦). (٢) البقرة: الآية (٢٥٥).

وغيرهم، فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس، واللَّه سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾[١] الآية.

وقال ﷺ لعائشة: «**أجرك على قدر نصبك**»[٢] فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب ليس هذا موضعها، وهذا يفسر في موضعه.

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح: أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[٤]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[٥] أي: وإن وقع في الأمر تكليف، فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفًا، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب، ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه اللَّه والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدًا، قال اللَّه تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[٦] فهذا أصل.

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام، ونحوهم أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق: من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق ﷻ، كما في الدعاء المأثور: «**اللهم إني أسألك لذة النَّظرِ إلى وجهك، والشَّوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضلة**»[٧] رواه النسائي وغيره. وفي صحيح

---

(١) التوبة: الآية (١٢٠).

(٢) أخرجه من حديث عائشة: أحمد (٦/ ٤٣) والبخاري (٣/ ٧٧٨- ٧٧٩/ ١٧٨٧)، ومسلم (٢/ ٨٧٦- ٨٧٧/ ١٢١١ (١٢٧)).

(٣) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٤) النساء: الآية (٨٤).

(٥) الطلاق: الآية (٧).

(٦) مريم: الآية (٦٥).

(٧) أخرجه من حديث عمار بن ياسر: أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٦٢- ٦٣/ ١٣٠٤) وابن حبان (٥/ ٣٠٤- ٣٠٥/ ١٩٧١) وصححه الحاكم (١/ ٥٢٤) ووافقه الذهبي.

مسلم وغيره، عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند اللَّه موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُبَيِّضْ وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرنا من النار؟! -قال-: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه سبحانه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»[١]. وهو الزيادة.

فبين النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم اللَّه في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره. فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم.

وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال اللَّه تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢] فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان»[٣].

وقال أيضًا: وتحرير ذلك: أن العبد يراد به المُعبَّد الذي عبده اللَّه فذلّله ودبره وصرفه، وبهذا الاعتبار المخلوقون كلهم عباد اللَّه، من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٤].

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق

---

(١) أخرجه من حديث صهيب: أحمد (٤/ ٣٣٢- ٣٣٣) ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨١) والترمذي (٥/ ٢٦٧/ ٣١٠٥) وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٢- ٣٦٣/ ١١٢٣٤).

(٢) المطففين: الآيتان (١٥ و١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤- ٢٧).

(٤) آل عمران: الآية (٨٣).

إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به، بخلاف من كان جاهلًا بذلك، أو جاحدًا له مستكبرًا على ربه لا يقر ولا يخضع له، مع علمه بأن اللَّه ربه وخالقه.

فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابًا على صاحبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3].

فإن اعترف العبد أن اللَّه ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية اللَّه، وهذا العبد يسأل ربه، فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره، وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام.

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمنًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[4]، فإن المشركين كانوا يقرون أن اللَّه خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[5] وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[6].

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها، يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية، التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار. قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[7]. وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[8]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[9]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾[10]،

---

(١) النمل: الآية (١٤).
(٢) البقرة: الآية (١٤٦).
(٣) الأنعام: الآية (٣٣).
(٤) يوسف: الآية (١٠٦).
(٥) لقمان: الآية (٢٥)، والزمر: الآية (٣٨).
(٦) المؤمنون: الآيات (٨٤- ٨٩).
(٧) الحجر: الآية (٣٦).
(٨) الحجر: الآية (٣٩).
(٩) ﴿صٓ﴾: الآية (٨٢).
(١٠) الإسراء: الآية (٦٢).

وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن اللَّه ربه وخالقه وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾[2].

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته، وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء اللَّه، وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

ومن ظن أن الخضر وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة، ونحو ذلك كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين باللَّه ورسوله، حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابدًا لله لا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه، وهذه العبادة متعلقة بإلهيته، ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا اللَّه، بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر، فالإله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها اللَّه ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله.

وأما العبد، بمعنى المعبَّد، سواء أقر بذلك أو أنكره، فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر. وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة اللَّه ودينه وأمره الشرعي، التي يحبها ويرضاها، ويوالي أهلها، ويكرمهم بجنته، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر التي من اكتفى بها، ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين، والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض، أو في مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله، بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدعين التحقيق، والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلا اللَّه

---

(١) المؤمنون: الآية (١٠٦).

(٢) الأنعام: الآية (٣٠).

الذي يعلم السر والإعلان»[١].

وقال الحافظ: «والمراد هنا ما يستحقه اللَّه على عباده مما جعله محتمًا عليهم، وقال القرطبي: حق اللَّه على العباد هو ما وعدهم به من الثواب وألزمهم إياه بخطابه.

قوله: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي، وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون اللَّه ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفي ذلك، وتقدم أن الجملة حالية والتقدير: يعبدونه في حال عدم الإشراك به، وقال ابن حبان: عبادة اللَّه إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب: «فما حق العباد إذا فعلوا ذلك» فعبر بالفعل ولم يعبر بالقول»[٢].

وذكر ابن أبي جمرة تحت هذا الحديث فوائد، قال: «حق اللَّه على عباده وحق العباد على اللَّه صفتان متغايرتان، فحق اللَّه على عباده حق واجب حتم لا انفكاك للعبد عنه، وحق العباد على اللَّه حق تفضل وامتنان لا حق وجوب محتوم؛ لأن ذلك في حقه ﷻ مستحيل.

وفيه دليل على أن الحق يطلق على ما كان من طريق الوجوب، وعلى ما كان من طريق التفضل إذا علم المخاطب ذلك، ولا يجوز أن يطلق ذلك لمن لا يعلمه؛ لأن النبي ﷺ أخبر بذلك معاذًا لكونه كان عالمًا بسياق الحديث وما المراد منه لما تقرر عنده قبل من العلم الذي كان لديه فأجمل له في الإخبار ومنع ﷺ الإخبار به للغير.

.. فيه دليل على أن الجهل بالحق لا يسقطه إذا عمل موجبه؛ لأن المؤمنين قد حصل لهم الحق بمقتضى ما أخبر بالعمل ومنع ﷺ إخبارهم بالحق الذي لهم.

.. فيه دليل لأهل السنة حيث يقولون بوجوب الإيمان قبل النظر والاستدلال، وأن النظر والاستدلال شرط كمال لا شرط صحة؛ لأنه قد صح لعامة المؤمنين هذا الحق المذكور في الحديث بمجرد الإيمان، ومعلوم أن عامة المؤمنين لم يكن إيمانهم بالنظر والاستدلال وإنما كان بالتسليم والاستسلام كما قال عمر رضي الله عنه:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٤- ١٥٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٢).

ديننا هذا دين العجائز؛ أي: في العجز والاستسلام، فإذا حصل لهم الإيمان فقد حصل لهم ما وعدوا عليه، والعلم بعد ذلك بالدليل على المعبود، أو بالعلم بالموعود على العمل، لا ينقص مما قد يحصل من أحد المطلوبين شيئًا إيمان أو عمل، بل ذلك زيادة فضيلة وترقٍّ»(١).

وقال: «فيه دليل على أن حق اللَّه على عباده ما أشرنا إليه في الأحاديث المتقدمة وهو الجمع بين امتثال الحكمة وحقيقة التوحيد؛ لأنه ﷺ شرط ذلك هنا بقوله: «**حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» **فأشار** ﷺ بقوله: «أن يعبدوه» إلى امتثال الحكمة في الأمر والنهي، وأشار بقوله: «ولا يشركوا به شيئًا» إلى حقيقة التوحيد.

وفيه دليل على أن من حصل له الجمع بين تينك الحالتين لا يُعذَّب؛ لأنه ﷺ قال: «وحق العباد على اللَّه ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا» ومن لا يشرك به شيئًا هو الذي أتى بتينك الحالتين المطلوبتين قبل، ومن اقتصر على إحداهما وترك الأخرى لم يتم له قدم بعد في الإيمان، ولم يأت بما هو المطلوب منه على الكمال»(٢).

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أصاب أحدًا قطُّ همٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيتَ به نفسك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب اللَّه همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا» قال: فقيل: يا رسول اللَّه، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلا ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(٣).

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ١٢٠).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٢١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١- ٤٥٢) وابن حبان (٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢) والحاكم (١/ ٥٠٩- ٥١٠) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد اللَّه عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه»، وتعقَّبه الذهبي قال: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». وجزم العلّامة الألباني أنه موسى بن عبد اللَّه الجهني الذي يكنى بأبي سلمة. وله تحقيق في المسألة في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٨٤)، وقال عن الانقطاع الذي أشار إليه الحاكم وأقره عليه الذهبي: «هو سالم منه، فقد ثبت سماعه منه بشهادة جماعة من الأئمة منهم سفيان الثوري، وشريك القاضي، وابن معين، والبخاري،=

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «فتضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية: منها أن الداعي به صدَّر سؤاله بقوله: «إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك» وهذا يتناول مَن فوقه مِن آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملُّق له واستخذاء بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلَّى عنه هلك، ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة، فتحت هذا الاعتراف: أني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي مَن أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبَّر مأمور منهي إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار. وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[(٢)]، ومَن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[(٣)]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[(٤)]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[(٥)].

وفي التحقيق بمعنى قوله: «إني عبدك»: التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وألا يتعلق قلبه بغيره محبة

= وأبو حاتم، وروى البخاري في التاريخ الصغير بإسناد لا بأس به عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: (لما حضر عبد الله الوفاة، قال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت! أوصني، قال: إبك من خطيئتك) فلا عبرة بعد ذلك بقول من نفى سماعه منه؛ لأنه لا حجة لديه على ذلك إلا عدم العلم بالسماع، ومن علم حجة على من لم يعلم» (السلسلة الصحيحة ١/ ٣٨٥).

(١) الحجر: الآية (٤٢).

(٢) الفرقان: الآية (٦٣).

(٣) البقرة: الآية (٢٣).

(٤) الإسراء: الآية (١).

(٥) الجن: الآية (١٩).

وخوفًا ورجاءً.

وفيه أيضًا: إني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافًى ومبتلًى بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: إن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا: إنك أنت الذي مننتَ عليّ بكل ما أنا فيه من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا: إني لا أتصرف فيما خوّلتَني من مالي ونفسي إلا بأمركَ، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فإن صح له شهود ذلك فقد قال: إني عبدك حقيقة. ثم قال: «ناصيتي بيدك» أي: أنت المتصرف فيّ تصرفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي، وكيف يكون له في نفسه تصرف مَنْ نفسُه بيد ربه وسيده، وناصيتُه بيده، وقلبه بين إصبعين من أصابعه، وموته وحياته، وسعادته وشقاوته، وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد اللَّه وحده، يصرفهم كيف يشاء، لم يَخَفْهُم بعد ذلك ولم يَرْجُهُم ولم يُنزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناسَ كذلك لم يفتقر إليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولهذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]». اهـ[٢].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام إني**

---

(١) هود: الآية (٥٦).

(٢) الفوائد (ص٣٣- ٣٥).

أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله»:

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن السؤال لله هو دعاؤه والرغبة إليه، و«الدعاء هو العبادة» كذا روي عن النبي ﷺ من حديث النعمان بن بشير، وتلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢] خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه[٣]. . . فتضمَّن هذا الكلام أن يُسأل اللَّه ﷻ، ولا يُسأل غيره، وأن يُستعان باللَّه دون غيره. فأما السؤال، فقد أمر اللَّه بمسألته، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[٤].

وفي الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا: «**من لا يسأل اللَّه يغضب عليه**»[٥].

وفي حديث آخر: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع**»[٦].

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة، وقد بايع النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٤/ ٥٧٥- ٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) غافر: الآية (٦٠).

(٣) أخرجه من حديث النعمان بن بشير: أحمد (٤/ ٢٦٧) وأبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩) والترمذي (٥/ ١٩٤- ١٩٥ / ٢٩٦٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤) وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ١٧٢/ ٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٢)، ووافقه الذهبي.

(٤) النساء: الآية (٣٢).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٤٤٢) والترمذي (٥/ ٤٢٦- ٤٢٧/ ٣٣٧٣) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٧) بلفظ: «من لم يدع اللَّه. . .» والحاكم (١/ ٤٩١).

(٦) أخرجه: الترمذي كما في تحفة الأشراف (١/ ١٠٧/ ٢٧٦)، وقد سقط من الطبعة التي اعتنى بها أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٤٨/ ٨٦٦).

جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا: منهم أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه[١]. . . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ «أن اللَّه ﷻ يقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»[٢]. . . واعلم أن سؤال اللَّه تعالى دون خلقه هو المتعين؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسئول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صُنتَ وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه، كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[٣] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[٤].

واللَّه سبحانه يحب أن يُسأل ويرغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك كله: يكره أن يُسأل ويحب ألا يُسأل، لعجزه وفقره وحاجته»[٥].

وقال أيضًا في قوله: «وإذا استعنت فاستعن بالله»: «لما أمر ﷺ بحفظ اللَّه والتعرف إليه في الرخاء. . . أرشد بعد ذلك إلى الاستعانة باللَّه وحده، وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي كلمة عظيمة جامعة يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.

---

(١) أخرجه من حديث عوف بن مالك الأشجعي: أحمد (٦/ ٢٧) ومسلم (٢/ ٧٢١/ ١٠٤٣) وأبو داود (٢/ = = ٢٩٤- ٢٩٥/ ١٦٤٢) والنسائي (١/ ٢٤٨/ ٤٥٩) وابن ماجه (٢/ ٩٥٧/ ٢٨٦٧).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٤٨٧) والبخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥) ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨) وأبو داود (٢/ ٧٦- ٧٧/ ١٣١٥) والترمذي (٥/ ٤٩٢/ ٣٤٩٨).

(٣) يونس: الآية (١٠٧).

(٤) فاطر: الآية (٢).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧٨- ٤٨١).

وفي استعانة اللَّه وحده فائدتان:

إحداهما: إن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا اللَّه ﷻ، فمن أعانه اللَّه فهو المُعان، ومن خذله اللَّه فهو المخذول.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن باللَّه ولا تعجز**»[(١)]... وفي دعاء القنوت الذي كان يدعو به عمر وغيره: «**اللهم إنّا نستعينك**»[(٢)].

وأمر معاذَ بنَ جبل ألا يدَعَ في دُبُر كل صلاة أن يقول: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٣)].

وكان من دعائه ﷺ: «**يا ربِّ أعنِّي ولا تُعن عليَّ**»[(٤)].

فالعبد محتاج إلى الاستعانة باللَّه في فعل المأمورات، وفي ترك المحظورات، وفي الصبر على المقدورات، كما قال يعقوب ﵇ لبنيه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[(٥)].

ولهذا قالت عائشة هذه الكلمة لما قال أهل الإفك ما قالوا، فبرَّأها اللَّه مما قالوا[(٦)].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٦٦) ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٣١/ ٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢١٤- ٢١٥) والبيهقي في السنن (٢/ ٢١٠- ٢١١) وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (٢/ ١٧٠/ ٤٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٤- ٢٤٥، ٢٤٧) وأبو داود (٢/ ١٨٠- ١٨١/ ١٥٢٢) والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٢) وابن حبان (الإحسان ٥/ ٣٦٤- ٣٦٦/ ٢٠٢٠ -٢٠٢١) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩/ ٧٥١) والحاكم (١/ ٢٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٢٣٥): «قال النووي في الخلاصة: إسناده صحيح» اهـ.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس: أحمد (١/ ٢٢٧) وأبو داود (٢/ ١٧٥- ١٧٦/ ١٥١٠) والترمذي (٥/ ٥١٧- ٥١٨/ ٣٥٥١) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩/ ٣٨٣٠) والحاكم (١/ ٥١٩- ٥٢٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (٣/ ٢٢٧- ٢٢٨/ ٩٤٧).

(٥) يوسف: الآية (١٨).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٥٩- ٦٠) والبخاري (٥/ ٣٣٨- ٣٤١/ ٢٦٦١) ومسلم (٤/ ٢١٢٩- ٢١٣٧/ ٢٧٧٠) والترمذي (٥/ ٣١٠- ٣١٤/ ٣١٨٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥- ٤١٨/ ١١٣٦٠).

وقال موسى لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾[١].

وقال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٢].

ولما بَشَّر ﷺ عثمانَ بالجنة على بلوى تصيبه، قال: اللَّه المستعان[٣]، ولما دخلوا على عثمان وضربوه جعل يقول -والدماء تسيل عليه-: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعين بك عليهم، أستعينك على جميع أموري، وأسألك الصبر على ما ابتليتني. . .

فالعبد محتاج إلى الاستعانة باللَّه في مصالح دينه ودنياه، كما قال الزبير في وصيته لابنه عبد اللَّه بقضاء دينه: إن عجزت فاستعن بمولاي. فقال له: يا أبت من مولاك؟ قال: اللَّه، قال: فما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير! اقض عنه دينه، فيقضيه[٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أول خطبة خطبها على المنبر: ألا إن العرب جمل آنف قد أخذت بخطامه، وإني حامله على المحجة ومستعين باللَّه عليه.

وكذلك يحتاج العبد إلى الاستعانة باللَّه على أهوال ما بين يديه من الموت وما بعده.

لما احتضر خالد بن الوليد قال رجل ممن حوله: واللَّه إنه ليسوءه، يعني: الموت. فقال خالد: أجل فأستعين اللَّه عز وجل.

وبكى عامر بن عبد اللَّه بن الزبير عند موته وقال: إنما أبكي على حر النهار وبرد القيام -يعني: صيام النهار وقيام الليل- وقال: وإني أستعين اللَّه على مصرعي هذا بين يديه.

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٢) الأنبياء: الآية (١١٢).

(٣) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري: أحمد (٤/ ٤٠٦) والبخاري (١٠/ ٧٢٩/ ٦٢١٦) ومسلم (٤/ ١٨٦٧/ ٢٤٠٣) والترمذي (٥/ ٥٨٩/ ٣٧١٠) وليس عند الترمذي الشاهد.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٨٠- ٢٨١/ ٣١٢٩).

ومن كلام بعض المتقدمين: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك! عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك!.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز -رحمهما الله-: لا تستعن بغير اللَّه فيكلك اللَّه إليه.

وقال بعضهم: فاستغن باللَّه واستعنه فإنه خير مستعان»[1].

* * *

(١) نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس (ص١٦٦- ١٧٠).

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾

★ **غريب الآية:**

«**اهدنا**»: الهداية الإرشاد والدلالة على الشيء. يقال لمن يتقدم القوم ويدلهم على الطريق: هاد؛ أي: دال مرشد. قال طرفة:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدي ساقه قدمه

والهداية التوفيق قال:

فلا تعجلن هداك المليك فإن لكل مقام مقالا

أي: وفقك.

«**الصراط**»: الطريق الواضح المتسع سمي بذلك لأنه يسرط المارة أي يبتلعها.

«**المستقيم**»: المستوي الذي لا اعوجاج فيه، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

★ **فائدة:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما المسألة السابعة وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف (إلى) فجوابها أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة وبحرف (إلى) تارة وباللام تارة، والثلاثة في القرآن، فمن المعدى بنفسه هذه الآية وقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[1]، ومن المعدى بـ(إلى) قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2]،

(١) الفتح: الآية (٢). (٢) الشورى: الآية (٥٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]. ومن المعدى باللام قوله في قول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٣]. والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدة نشير إلى الفرق وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو: رغبت عنه، ورغبت فيه، وعدلت إليه، وعدلت عنه، ملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له، وهديته إلى كذا، وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه، هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه -رحمه اللَّه تعالى-، وطريقة حذاق أصحابه، يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[٤]. فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي، فيعدونه بالباء التي تطلبها فيكون في ذلك دليل على الفعلين، أحدهما: بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن. وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري، وأن يقال يروي بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بخلاف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾[٥]، وفعل الإرادة

---

(١) الأنعام: الآية (١٦١).
(٢) الأعراف: الآية (٤٣).
(٣) الإسراء: الآية (٩).
(٤) الإنسان: الآية (٦).
(٥) الحج: الآية (٢٥).

لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران، فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ (إلى) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام، فالقائل إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو طالب من اللَّه أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردًا معدًّى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها»[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو جعفر: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن (الصراط المستقيم)، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

يريد: على طريق الحق. ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب:

صبحنا أرضهم بالخيل حتى ... تركناها أدق من الصراط

ومنه قول الراجز:

فصد عن نهج الصراط القاصد

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا.

ثم تستعير العرب (الصراط) فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠- ٢٢).

اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أن يكون معنيًّا به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل عبد لله صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الصراط

* عن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، على كنفي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2] فالأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف ستر الله، والذي يدعو من فوقه واعظ الله ﷻ**»[3].

* عن جابر بن عبد الله في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ قال: «هو الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض»[4].

* عن عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ قال: «هو كتاب الله»[5].

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٧٣- ٧٤). (٢) يونس: الآية (٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٢- ١٨٣) والترمذي (٥/ ١٣٣/ ٢٨٥٩) وقال: «حديث حسن غريب» كما في تحفة الأشراف (٩/ ٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦١/ ١١٢٣٣) والحاكم (١/ ٧٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن جرير (١/ ١٧٣/ ١٧٨) (بتحقيق شاكر)، والحاكم (٢/ ٢٥٨- ٢٥٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه ابن جرير (١/ ١٧٣/ ١٧٧) (تحقيق شاكر) والحاكم (٢/ ٢٥٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

* قال ابن مسعود: «خط لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، وقال: **هذا سبيل اللَّه**، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: **هذه سبل وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه**، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن القيم -رحمه اللَّه تعالى-: «فصل: ما هو الصراط المستقيم؟ فنذكر فيه قولًا وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته؛ وحقيقته شيء واحد: وهو طريق اللَّه الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلًا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول، وهذا معنى قول بعض العارفين[٣]: (إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته). وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا اللَّه، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥) والطيالسي (رقم ٢٤٤) وابن حبان (الإحسان ١/ ١٨٠- ١٨١/ ٧-٨) والحاكم (٢/ ٣١٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه من حديث جابر: أحمد (٣/ ٣٩٧) وابن ماجه (١/ ٦/ ١١).

(٣) هذه المصطلحات التي يذكرها الإمام ابن القيم وغيره الأولى أن يُعدل عنها إلى ما عبر به العلماء الذين تضلعوا بعلم الكتاب والسنة، وهم ولله الحمد عدد كثير، فينبغي أن يقال: قال العلماء بدل هذا المصطلح الذي استعمله المتصوفة المنحرفون عن منهاج الكتاب والسنة، فاللَّه تبارك وتعالى جعل الخشية للعلماء، وذكرهم بوصفهم الحقيقي، وكل أحاديث الرسول ﷺ فيها لفظ العلماء فهم أهل الخشية وأهل المعرفة، فوصف غيرهم بذلك نوع من النشوز والتأثر بمنهاج غير المنهاج السلفي، وقد نبه على هذه اللفظة الشيخ بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية، أثابه اللَّه.

ما بعث اللَّه به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول اللَّه ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملًا، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره، وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها، فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له، بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم، واللَّه أعلم»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام وتعريفًا بالإضافة. وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٢)]، فوحد لفظ الصراط وسبيله. وجمع السبل المخالفة له، وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، وقال: هذا سبيل اللَّه، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٣)]. وهذا لأن الطريق الموصل إلى اللَّه واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل باللَّه، موصل إلى اللَّه. قال اللَّه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[(٤)]، قال الحسن: معناه: صراط إلي مستقيم. وهذا يحتمل أمرين:

أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة (على) مقام (إلى).

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف. أي صراط

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٠- ٤١).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٤) الحجر: الآية (٤١).

موصل إليّ وقال مجاهد: الحق يرجع إلى اللَّه، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ما قيل في الآية، وقيل: (علي) فيه للوجوب، أي: علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين في آية النحل. وهي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد -وهو المستقيم المعتدل- يرجع إلى اللَّه ويوصل إليه، قال طفيل الغنوي:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم صرف المنايا بالرجال تشقلب

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو علي طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة (إلي) التي هي للانتهاء، لا أداة (علي) التي هي للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[2]. وقال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[3]، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾[4]، وقال لما أراد الوجوب: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[5]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[6]. نظائر ذلك.

قيل: في أداة (على) سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[7]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[8]. واللَّه ﷻ هو الحق وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه واستقامته إليه.

---

(١) النحل: الآية (٩).
(٢) الغاشية الآيتان (٢٥ و٢٦).
(٣) لقمان: الآية (٢٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٠٨).
(٥) القيامة: الآية (١٧).
(٦) هود: الآية (٦).
(٧) البقرة: الآية (٥).
(٨) النمل: الآية (٧٩).

فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[2]، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[4]، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[5]. فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلًا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[6] قول ثالث: وهو قول الكسائي: إنه على التهديد والوعيد نظير قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[7]. كما يقال: طريقك علي، وممرك علي، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز. والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله. فإنه قاله مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[8]. فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم. فقرر اللَّه ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم. فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط علي. ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ باللَّه، فلا يصل عدو اللَّه إلى أهله.

فليتأمل العارف[9] هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا لمعنى ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين. وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف.

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[10]، فلا يخفى الفرق بينهما سياقًا ودلالة. فتأمله، ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم علي، لمن لا يسلكه. وليست سبيل المهدَّد مستقيمة. فهو غير مهدَّد بصراط اللَّه المستقيم

---

(١) التوبة: الآية (٤٥).
(٢) الأنعام: الآية (٣٩).
(٣) المؤمنون: الآية (٥٤).
(٤) هود: الآية (١١٠).
(٥) سبأ: الآية (٢٤).
(٦) الحجر: الآية (٤١).
(٧) الفجر: الآية (١٤).
(٨) الحجر: الآيتان (٣٩ و٤٠).
(٩) قد مضى التنبيه على هذا التعبير.
(١٠) الفجر: الآية (١٤).

وسبيله التي هو عليها ليس مستقيمة على الله. فلا يستقيم هذا القول ألبتة.

وأما من فسره بالوجوب؛ أي: على بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح. لكن في كونه هو المراد بالآية نظر؛ لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولًا عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة؛ فإنه حذف مألوف معروف؛ حتى إنه لا يذكر ألبتة. فإذا قلت: له درهم علي؛ كان الحذف معروفًا مألوفًا. فلو أردت علي نقده، أو علي وزنه وحفظه، ونحو ذلك وحذفت؛ لم يسغ. وهو نظير: علي بيانه المقدر في الآية مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق وأجلّ المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية ﷺ **يقول**: وهما نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾[1]، قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[2] إلا معنى الوجوب، أي: علينا بيان الهدى من الضلال. ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في الحجر الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل. واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث»[3].

⋆ الهداية وأنواعها:

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «اعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِيَ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4] أي: أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به كما

---

(١) الليل: الآيتان (١٢ و١٣).
(٢) الليل: الآية (١).
(٣) مدارج السالكين (١/ ١٤- ١٨).
(٤) طه: الآية (٥٠).

أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به فهدى الرِّجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له. وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك اللَّه رب العالمين، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء، ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم. وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني -الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه- مهملًا وسدى معطلًا لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته، بل يتركه معطلًا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه، وهل هذا إلا منافٍ لحكمته، ونسبته له مما لا يليق بجلاله، ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه فقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾[1]، فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك، ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2] بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من

(١) المؤمنون الآيتان (١١٥ و١١٦).
(٢) الأنعام: الآية (٣٨).
(٣) الأنعام: الآية (٣٧).

لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا لا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[١] أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[٤]، وفي قول النبي ﷺ: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[٥].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٦] فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٧].

الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلها إليهما، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٨]. وقال أهل الجنة فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[٩]. وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[١٠]. إذا عرف هذا؛ فالهداية المسئولة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام، فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟ قيل: هذه هي المسألة الثامنة

---

(١) فصلت: الآية (١٧).
(٢) الشورى: الآية (٥٢).
(٣) النحل: الآية (٩٣).
(٤) النحل: الآية (٣٧).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) القصص: الآية (٥٦).
(٧) الشورى: الآية (٥٢).
(٨) يونس: الآية (٩).
(٩) الأعراف: الآية (٤٣).
(١٠) الصافات: الآيتان (٢٢ و٢٣).

عشرة وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية، ولقد أجاب وما أجاب وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها، ونحن نبين بحمد اللَّه أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول اللَّه.

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور؛ وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًّا له، فيؤثره. وكونه مبغوضًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء، نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب اللَّه منه أن يفعله عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهى اللَّه عنه عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلًا، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملًا، فإن نقص من إرادته لذلك شيء؛ نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه، فهذه ثلاثة، هي أصول في الهداية، ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها؛ فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها فهو محتاج إلى الاستمرار على الهداية والدوام عليها، فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

ويتعلق بالماضي أمر سابع: وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال

تثبيت ودوام، -فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده -ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق اللَّه فاعلية فيه- فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا، وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملًا، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات. وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نَفَس في جميع ما يأتيه ويذره أصلًا وتفصيلًا وتثبيتًا، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام، فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية. فنسأل اللَّه أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا على دينه»[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٣٥- ٣٩).

قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إبانة عن الصراط المستقيم، أي الصراط هو؟ إذ كان كل طريق من طرق الحق صراطًا مستقيمًا. فقيل لمحمد ﷺ: قل يا محمد: اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين. وذلك نظير ما قال ربنا -جل ثناؤه- في تنزيله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾[١].

قال أبو جعفر: فالذي أُمر محمدٌ ﷺ وأمتُه أن يسألوا ربهم من الهداية للطريق المستقيم؛ هي الهداية للطريق الذي وصف اللَّه -جل ثناؤه- صفته. وذلك الطريق هو طريق الذين وصفهم اللَّه بما وصفهم به في تنزيله، ووعد من سلكه فاستقام فيه طائعًا لله ولرسوله ﷺ أن يورده مواردهم، واللَّه لا يخلف الميعاد»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل: ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه اللَّه سبحانه على الرفيق في

---

(١) النساء: الآيات (٦٦- ٦٩).

(٢) جامع البيان (١/ ٧٥- ٧٦).

هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[١] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم اللَّه عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم اللَّه عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق. واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من اللَّه شيئًا. وإذا صاحوا بك في طريق سير، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك، وقد ضربت لذلك مثلين، فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه فوقف ورد عليه وتماسكا فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة. وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز[٢] بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت: «**اللهم اهدني فيمن هديت**»[٣] أي:

---

(١) النساء: الآية (٦٩).

(٢) سرعة السير والعدو.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٩٩- ٢٠٠) وأبو داود (٢/ ١٣٣- ١٣٤/ ١٤٢٥) والترمذي (٢/ ٣٢٨/ ٤٦٤) وحسنه، والنسائي (٣/ ٢٧٥/ ١٧٤٤- ١٧٤٥) وابن ماجه (١/ ٣٧٢- ٣٧٣/ ١١٧٨) وصححه ابن خزيمة (٢/ ١٥١-=

أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى اللَّه بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى اللَّه بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق علي في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل: وأما إضافته إلى الموصول المبهم دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد:

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا، فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط، فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢]، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾[٤]، وهذا الباب مطرد، فالإتيان بالاسم موصولًا على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

الفائدة الثانية: فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من اللَّه عليه، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله؛ أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم

= ١٥٢/ ١٠٩٥) وابن حبان (٣/ ٢٢٥/ ٩٤٥) والحاكم (٣/ ١٧٢) كلهم من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢١- ٢٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٧٤).

(٣) الزمر: الآية (٣٣).

(٤) الأحقاف: الآية (١٣).

خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم، فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسئول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسئول، ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه، وقرنه بأنفاسه، فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه اللَّه على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

فصل: أنه قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل المنعم عليهم كما قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيه فوائد عديدة:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى اللَّه ﷻ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى اللَّه أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في الإحسان: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. ونظيره قول إبراهيم الخليل -صلوات اللَّه وسلامه عليه-: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى اللَّه تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[2]، فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنوا الفعل للمفعول، ومنه قول الخضر -عليه الصلاة والسلام- في السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾

---

(١) الشعراء: الآيات (٧٨- ٨٠).

(٢) الجن: الآية (١٠).

فأضاف العيب إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[٢]. فحذف الفاعل وبناه للمفعول وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٣]؛ لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه ألا يقترن بالتصريح بالفاعل ومنه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾[٤]، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٥] إلى آخرها. ومنه -وهو ألطف من هذا وأدق- معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾[٦]، إلى آخرها ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾[٧]، وتأمل قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[٨]، كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾.

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٩].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد، فيقال: أنعمت عليهم، أي: أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه

---

(١) الكهف: الآية (٨٢).
(٢) البقرة: الآية (١٨٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٤) المائدة: الآية (٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٥١).
(٦) النساء: الآية (٢٣).
(٧) النساء: الآية (٢٤).
(٨) النساء: الآية (١٦٠).
(٩) البقرة: الآية (١٥٢).

النعمة، وأما الغضب فإن اللَّه سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه، ويرضى عمن رضي عنه، فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضب اللَّه عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب وقال ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب اللَّه عليه، بخلاف الإنعام فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم، وإذا ثبت هذا فالألف واللام في «المغضوب» وإن كانتا بمعنى «الذين» فليس مثل «الذين» في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: «الذين فعلوا» معناه «القوم الذين فعلوا»، وقولك: «الضاربون والمضروبون» ليس فيه ما في قولك: «الذين ضَرَبوا أو ضُرِبوا» فتأمل ذلك.

فـ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم، فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم، والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم»[1].

قال أبو جعفر: «وفي هذه الآية دليل واضح على أن طاعة اللَّه -جل ثناؤه-، لا ينالها المطيعون إلا بإنعام اللَّه بها عليهم، وتوفيقه إياهم لها، أو لا يسمعونه يقول: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم؟

فإن قال قائل: وأين تمام هذا الخبر؟ وقد علمت أن قول القائل لآخر: (أنعمت عليك) مقتض الخبر عما أنعم به عليه، فأين ذلك الخبر في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؟ وما تلك النعمة التي أنعمها عليهم؟

قيل له: قد قدمنا البيان -فيما مضى من كتابنا هذا- عن اجتزاء العرب في منطقها

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧- ٢٠).

ببعض من بعض، إذا كان البعض الظاهر دالًّا على البعض الباطن وكافيًا منه. فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من ذلك؛ لأن أمر اللَّه -جل ثناؤه- عباده بمسألته المعونة، وطلبهم منه الهداية للصراط المستقيم، لما كان متقدمًا قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذي هو إبانة عن الصراط المستقيم وإبدال منه كان معلومًا أن النعمة التي أنعم اللَّه بها على من أمرنا بمسألته الهداية لطريقهم، هو المنهاج القويم والصراط المستقيم، الذي قد قدمنا البيان عن تأويله آنفًا، فكان ظاهر ما ظهر من ذلك -مع قرب تجاور الكلمتين- مغنيًا عن تكراره.

كما قال نابغة بني ذبيان:

كأنك من جمال بني أقيش … يقعقع خلف رجليه بشن

يريد: كأنك من جمال بني أقيش، جمل يقعقع خلف رجليه بشن، فاكتفى بما ظهر من ذكر (الجمال) الدال على المحذوف، من إظهار ما حذف.

وكما قال الفرزدق بن غالب:

ترى أرباقهم[1] متقلديها … إذا صدئ الحديد على الكماة

يريد: متقلديها هم، فحذف (هم) إذ كان الظاهر من قوله أرباقهم، دالًّا عليها. والشواهد على ذلك من شعر العرب وكلامها أكثر من أن تحصى. فكذلك ذلك في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[2].

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم. وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[3].

★ تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق ﷺ؛ لأنه داخل فيمن أمرنا اللَّه في السبع المثاني والقرآن العظيم -أعني: الفاتحة- بأن نسأله

---

(١) الأرباق جمع، واحده: الربق، وهو الحبل والحلقة تشد بها الغنم الصغار لئلا ترضع.

(٢) جامع البيان (١/ ٧٦- ٧٧).

(٣) النساء: الآية (٦٩).

أن يهدينا صراطهم، فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم.

وذلك في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين، وقد بين ﷺ أن أبا بكر ﵁ من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم اللَّه عليهم، الذين أمرنا اللَّه أن نسأله الهداية إلى صراطهم، فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق ﵁ على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق.

الثاني: قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم اللَّه عليهم، وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[١] الآية -وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو لا؟

الجواب: أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة، وهي: هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل؟ فذهب قوم إلى أنهن يدخلن في ذلك، وعليه: فمريم داخلة في الآية واحتج أهل هذا القول بأمرين:

الأول: إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع.

والثاني: ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها، كقوله تعالى في مريم نفسها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[٢] وقوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٣] وقوله في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٤] وقوله فيما كالجمع المذكر السالم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾[٥] الآية فإنه تدخل فيه حواء إجماعًا.

---

(١) المائدة: الآية (٧٥).

(٢) التحريم: الآية (١٢).

(٣) يوسف: الآية (٢٩).

(٤) النمل: الآية (٤٣).

(٥) البقرة: الآية (٣٨).

وذهب كثير إلى أنهن لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل، واستدلوا على ذلك بآيات كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾[٢]، ثم قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٣] الآية. فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن، وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع. وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكر ونحوه عند الإطلاق. وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها، إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه، وعلى هذا القول: فمريم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في مراقي السعود بقوله:

وما شمول مَنْ للأنثى جنف   وفي شبيه المسلمين اختلفوا»[٤]

* * *

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٥).

(٢) النور: الآية (٣٠).

(٣) النور: الآية (٣١).

(٤) أضواء البيان (١/ ٤٢- ٤٤).

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

★ **غريب الآية:**

«**المغضوب**»: الغضب في اللغة: الشدة، ورجل غضوب: أي: شديد الخلق. والغَضوب: الحية الخبيثة لشدتها، وأما الغضب في حق اللّٰه تعالى فهو صفة ثابتة له ﷻ على الوجه اللائق به، وهي من صفاته الفعلية.

«**الضالين**»: جمع ضال، والضلال خلاف الهدى، وهو الحيرة والعدول عن الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثَمَّ مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى، وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غَيْرِ﴾ هاهنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعًا لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر:

كأنَّك من جِمال بني أقيش   يُقَعْقَعُ خلف رِجْليْهِ بشَنٍّ

أي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط المغضوب عليهم، اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ومنهم من زعم أن «لا» في قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ زائدة وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد ببيت العجاج:

في بئْر لا حُورٍ سرى وما شَعَر

أي: في بئر حور. والصحيح ما قدمناه.

فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي؛ لئلا يتوهم أنه معطوف على ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وللفرق بين الطريقتين، لتجتنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار، وذلك واضح بين»[١].

وقال شيخ الإسلام: «وقد دل كتاب اللَّه على معنى هذا الحديث، قال اللَّه سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾[٢] والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام. وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾[٣] وهم المنافقون الذين تولوا اليهود، باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه.

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٤]، وذلك في «آل عمران» قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾[٥] إلى قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٦].

وهذا خطاب للنصارى كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢- ٥٣).
(٢) المائدة: الآية (٦٠).
(٣) المجادلة: الآية (١٤).
(٤) آل عمران: الآية (١١٢).
(٥) المائدة: الآية (٧٣).
(٦) المائدة: الآية (٧٧).

مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾[1] الآية.

واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه، فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال، فله أسباب ظاهرة وباطنة، ليس هذا موضعها.

وجماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من اللَّه، ويقولون على اللَّه ما لا يعلمون.

ولهذا كان السلف: سفيان بن عيينة وغيره يقولون: إن من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى» اهـ[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال والتحذير من التشبه بهم

* عن عبد اللَّه بن شقيق قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له، وسأله رجل من بني القين فقال: مَن المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «**اليهود**» قال: فمَن الضالون؟ قال: «**النصارى**»[3].

* عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلَّال**»[4].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصل: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود،

---

(١) النساء: الآية (١٧١). (٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٦٦- ٦٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (١/ ٣٧) ومن طريقه: أحمد (٥/ ٣٢- ٣٣) وابن جرير (١/ ١٨٧/ ١٩٨- تحقيق شاكر)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٠- ٣١١) وقال: «رواه كله أحمد ورجال الجميع رجال الصحيح».

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨- ٣٧٩) والترمذي (٥/ ١٨٦- ١٨٧/ ٢٩٥٣- ٢٩٥٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٣٩- ١٤٠/ ٦٢٤٦).

والضالين بالنصارى مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

(فالجواب): أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١).

وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾(٢)، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(٣).

وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٤)، فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ -إلى قوله-: ﴿وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(٥)، فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولًا، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم...

فكانوا أدخل في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين، والذي يحقق

---

(١) البقرة: الآية (٩٠).
(٢) المائدة: الآية (٦٠).
(٣) المائدة الآيات (٧٨- ٨٠).
(٤) المائدة: الآية (٧٧).
(٥) المائدة: الآيات (٧٢- ٧٧).

ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول اللَّه كما يعرفون أبناءهم، ولهذا لم يوبخهم اللَّه تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق، فالشقاء والكفر ينشأ عن عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل به أخرى يتركب منهما، فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته، فلم يكن ضلالًا محضًا، وكفر النصارى نشأ عن جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين، ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل اللَّه تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم، تعريفًا وبيانًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة، فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى. وهذا كما قالوا، فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل اللَّه إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه اللَّه من فضله، وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود من الكفر واللَّيِّ والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل فهذا شبهه باليهود ظاهر، وأما من فسد من العُبَّاد فعبد اللَّه بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ، وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر. فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد، ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس، لأن غاية ما يقدر بفرتهما

موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد.

فنسأل اللَّه أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين، إنه قريب مجيب»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر مجموعة من الأحاديث، فيها بيان أن بعض هذه الأمة ستتبع سنن وطرق اليهود، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة:

«فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم مستمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء اللَّه سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا.

وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم، التي ابتليت بها هذه الأمة، ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين، قال اللَّه سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[٢].

فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم.

وقد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه اللَّه بعلم نافع أو عمل صالح، وهو خُلُق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم.

وقال اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٣]، فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم، والبخل بالمال، وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر، وكذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية، مثل قوله تعالى:

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٩- ٣٢).
(٢) البقرة: الآية (١٠٩).
(٣) النساء: الآيتان (٣٦ و٣٧).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾[2] الآية. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾[3] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلًا به، وتارة اعتياضًا عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفًا أن يحتج عليهم بما أظهروه منه.

وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين للعلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلًا به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضًا عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل.

ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم.

وليس الغرض تفصيل ما يجب أو يستحب في ذلك، بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[5] بعد أن قال: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[6].

فوصف اليهود: أنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به، والداعي إليه. فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له. وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم.

---

(١) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٢) البقرة: الآيتان (١٥٩ و١٦٠).
(٣) البقرة: الآية (١٧٤).
(٤) البقرة: الآية (٧٦).
(٥) البقرة: الآية (٩١).
(٦) البقرة: الآية (٨٩).

وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين، من المتفقهة، أو المتصوفة، أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين -غير النبي ﷺ- فإنهم لا يقبلون من الدين رأيًا ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم، ثم إنهم لا يعلمون ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقًا: رواية ورأيًا، من غير تعيين شخص أو طائفة -غير الرسول ﷺ-.

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾(١).

ووصفهم بأنهم: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢). والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل، وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل فكثير جدًّا، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة، وأما تحريف التنزيل فقد وقع في كثير من الناس، يحرفون ألفاظ الرسول، ويروون الحديث بروايات منكرة.

وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك وربما يطّاول بعضهم إلى تحريف التنزيل وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم: «وكلَّمَ اللهَ موسَى تكليمًا».

وأما ليُّ الألسنة بما يظن أنه من عند اللّه، فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول اللّه ﷺ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمها كثير لمن تدبر في كتاب اللّه وسنة رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث.

وقال سبحانه عن النصارى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(٤) إلى غير ذلك من المواضع.

ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلَّال المتعبدة والمتصوفة، حتى خالط كثيرًا منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول

---

(١) النساء: الآية (٤٦).
(٢) آل عمران: الآية (٧٨).
(٣) النساء: الآية (١٧١).
(٤) المائدة: الآية (١٧)، والآية (٧٢).

النصارى أو مثله أو دونه.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾(١) وفسره النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه بأنهم: «**أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم**»(٢).

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظَّمين عنده في كل ما يأمر به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال. وقال سبحانه عن الضالين: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾(٣).

وقد ابتلي طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة بما اللَّه به عليم.

وقال اللَّه سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾(٤) فكان الضالون -بل والمغضوب عليهم- يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وقد نهى رسول اللَّه ﷺ أمته عن ذلك في غير موطن حتى في وقت مفارقته الدنيا - بأبي هو وأمي.

ثم إن هذا قد ابتلي به كثير من هذه الأمة.

ثم إن الضالين تجد عامة دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة، والصور الجميلة، فلا يهتمون بأمر دينهم بأكثر من تلحين الأصوات. ثم تجد قد ابتليت هذه الأمة من اتخاذ السماع المطرب، بسماع القصائد، وإصلاح القلوب والأحوال به، ما فيه مضاهاة لبعض حال الضالين.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(٥) فأخبر أن كل واحدة من الأمتين تجحد كل ما الأخرى عليه.

وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة، إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا ولا يعدهم إلا جهَّالًا ضلالًا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة، والمتفقرة(٦) لا يرى الشريعة ولا العلم شيئًا، بل يرى أن

---

(١) التوبة: الآية (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٩- ٢٦٠/ ٣٠٩٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب». كما في تحفة الأحوذي).

(٣) الحديد: الآية (٢٧).

(٤) الكهف: الآية (٢١).

(٥) البقرة: الآية (١١٣).

(٦) هم طائفة من دراويش الصوفية يظهرون الفقر ويتكلفونه.

المتمسك بها منقطع عن اللَّه وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند اللَّه شيئًا .

وإنما الصواب : أن ما جاء به الكتاب والسنة ، من هذا وهذا : حق . وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا : باطل .

وأما مشابهة فارس والروم ، فقد دخل في هذه الأمة من الآثار الرومية ، قولًا وعملًا ، والآثار الفارسية ، قولًا وعملًا ، ما لا خفاء به على مؤمن عليم بدين الإسلام ، وبما حدث فيه . وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة ، مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين ، وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفورًا لصاحبه : إما لاجتهاد أخطأ فيه ، أو لحسنات محت السيئات ، أو غير ذلك .

وإنما الغرض أن نبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم ، وأن ينفتح باب إلى معرفة الانحراف»[(١)] .

❋ عن الشريد قال : «مر بي رسول اللَّه ﷺ وأنا جالس هكذا ، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري ، واتكأت على إلية يدي ، قال : **أتقعد قعدة المغضوب عليهم؟**»[(٢)] .

⋆ غريب الحديث:

«**الإلية**» : اللحمة التي في أصل الإبهام .

«**قِعدة**» : بكسر القاف : اسم للهيئة .

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي : «والمراد بالمغضوب عليهم : اليهود ، وفي التخصيص بالذكر فائدتان :

إحداهما : أن هذه القعدة مما يبغضه اللَّه تعالى ، **والأخرى** : أن المسلم ممن أنعم اللَّه عليه ، فينبغي أن يجتنب التشبه بمن غضب اللَّه عليه ولعنه» اهـ[(٣)] .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٠- ٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٨) وأبو داود (٥/ ١٧٦- ١٧٧/ ٤٨٤٨) وابن حبان (الإحسان ١٢/ ٤٨٨/ ٥٦٧٤) والحاكم (٤/ ٢٦٩) وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٠٧٦) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلاله

* قال ﷺ في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

فيه إثبات صفة الغضب، وقد دل عليها الكتاب والسنة، وإجماع السلف أهل السنة والجماعة.

قال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في عقيدته**: «والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى».

قال ابن أبي العز في شرحه على الطحاوية: «ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضا، والعداوة، والولاية، والحب والبغض، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية -ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين. وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء كيف قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وروي أيضًا عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا عليها، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ[٢]، وكذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما تقدم: (من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه). ويأتي في كلامه: (أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل) فقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا كأحد من الورى) نفى التشبيه. ولا يقال: إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام -فإن هذا نفي للصفة.

وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٤٣٥- ٤٣٦) والبخاري (٨/ ٥٠٤/ ٤٧١٢) ومسلم (١/ ١٨٤- ١٨٥/ ١٩٤) والترمذي (٤/ ٥٣٧- ٥٣٩/ ٢٤٣٤).

(٢) لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ وقد ذهب الشيخ الألباني إلى أن الصواب وقفه على مالك أو أم سلمة قال: والأول أشهر. شرح الطحاوية (٣١٤).

ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده. فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده، ويكره ويسخط لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلابد أن يقول: إن الغضب غليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة، وذلك لا يليق باللَّه تعالى! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه الغضب. ويقال له أيضًا: وكذلك الإرادة والمشيئة فينا، هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده، وينتقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قال: (الإرادة) التي يوصف اللَّه بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة؟ قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذي يوصف اللَّه به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه، لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضًا من تعطيل معنى أسماء اللَّه تعالى وصفاته بلا موجب. فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام، ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقول إن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر!

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات اللَّه تعالى، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لابد أن يثبت شيئًا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به، ووجود الباري تعالى كما يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته، مثل (الحي) و(العليم) و(القدير) أو سمى به بعض صفاته، كالغضب والرضا، وسمى به بعض صفات عباده، فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق اللَّه تعالى، وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أيضًا معاني هذه الأسماء في حق المخلوق، ونعقل أن بين المعنيين قدرًا مشتركًا، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركًا، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركًا

إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معينًا مختصًا، فيثبت في كل منهما كما يليق به. بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلًا لكيفية غضب الآدميين؛ لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه. فغضب اللَّه أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف اللَّه به نفسه، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقالوا: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، ليس هو في نفسه متصفًا بشيء من ذلك!! وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف اللَّه بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلًا، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته، قديمة أزلية، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت. كما قال في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»[1] وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ: «إن اللَّه تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[2]. فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانًا لا يتعقبه سخط» اهـ[3].

* * *

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٥٩٦/ ٧٥١٨) ومسلم (٤/ ٢١٧٦/ ٢٨٢٩) والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٥).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٤٦٣- ٤٦٦).

«آمين»

قال القرطبي: «معنى (آمين) عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب لنا؛ وضع موضع الدعاء... وفي (آمين) لغتان: المد على وزن (فاعيل) كياسين، والقصر على وزن يمين. قال الشاعر في المد:

يا رب لا تسلبني حبها أبدًا ... ويرحم اللَّه عبدًا قال آمينا

وقال آخر:

آمين آمين لا أرضى بواحدة ... حتى أبلغها ألفين آمينا

وقال آخر في القصر:

تباعد مني فُطْحُلٌ إذ سألته ... أمين فزاد اللَّه ما بيننا بعدا

وتشديد الميم خطأ. قاله الجوهري. وقد روي عن الحسن وجعفر الصادق التشديد؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ مِن (أَمَّ) إذا قصد، أي: نحن قاصدون نحوك، ومنه قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[1] حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري. قال الجوهري: وهو مبني على الفتح مثل «أين» و«كيف»؛ لاجتماع الساكنين. وتقول منه: أَمَّنَ فلان تأمينًا»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التأمين وأحكامه

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[3].

---

(١) المائدة: الآية (٢). (٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩٠).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٧٨) وأحمد (٢/ ٢٣٣ و٢٧٠) والبخاري (٢/ ٣٣٣/ ٧٨٠) ومسلم (١/ ٣٠٧/ ٤١٠) وأبو داود (١/ ٥٧٦/ ٩٣٦) والترمذي (٢/ ٣٠/ ٢٥٠) والنسائي (٢/ ٤٨٢/ ٩٢٧) وابن ماجه (١/ ٢٧٧/ ٨٥١ - ٨٥٢).

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: (آمين)، فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[(١)].

* عن وائل بن حجر الحضرمي قال: «سمعت رسول اللَّه ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: (آمين) يمد بها صوته»[(٢)].

* عن أبي موسى الأشعري قال: إن رسول اللَّه ﷺ خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا. فقال: «**إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبّر فكبِّروا، وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: (آمين) يجبكم اللَّه...**» **الحديث**[(٣)].

* قال البخاري: وقال عطاء: (آمين) دعاء. أمن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة[(٤)].

* عن أبي رافع: أن أبا هريرة كان يؤذن لمروان بن الحكم فاشترط ألا يسبقه بـ(الضالين) حتى يعلم أنه قد دخل في الصف فكان إذا قال مروان: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال أبو هريرة: (آمين) يمد بها صوته. وقال: إذا وافق تأمين أهل الأرض تأمين أهل السماء غفر لهم[(٥)].

* عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٩) والبخاري (٢/ ٣٣٨- ٣٣٩/ ٧٨٢) ومسلم (١/ ٣٠٧/ ٤١٠ [٧٦]) وأبو داود (١/ ٥٧٥/ ٩٣٥) والنسائي (٢/ ٤٨٢- ٤٨٣/ ٩٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٥ و٣١٦ و٣١٨) وأبو داود (١/ ٥٧٤/ ٩٣٢) والترمذي (٢/ ٢٧/ ٢٤٨) وحسنه، والنسائي (٢/ ٤٥٩/ ٨٧٨) وابن ماجه (١/ ٢٧٨/ ٨٥٥) وابن حبان (٥/ ١٠٩/ ١٨٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٣٠٣/ ٤٠٤) وأبو داود (١/ ٥٩٤- ٥٩٦/ ٩٧٢) والنسائي (٢/ ٤٣٢- ٤٣٣/ ٨٢٩).

(٤) علقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم (٢/ ٣٣٣)، وقال الحافظ في الفتح: «وصله عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال: أكان ابن الزبير يؤمن على إثر أم القرآن؟ قال: نعم، ويؤمن من وراءه حتى إن للمسجد للجة، ثم قال: إنما (آمين) دعاء». انظر مصنف عبد الرزاق (٢/ ٩٦- ٩٧/ ٢٦٤٠).

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٢/ ٥٨- ٥٩) وصححه الشيخ الألباني في الضعيفة (٢/ ٣٦٩) وقال: «فإذا لم يثبت عن غير أبي هريرة وابن الزبير من الصحابة خلاف الجهر الذي صح عنهما، فالقلب يطمئن للأخذ بذلك أيضًا، ولا أعلم الآن أثرًا يخالف ذلك، واللَّه أعلم».

(آمين) فأكثروا من قول: (آمين) »[1].

★ فوائد الأحاديث:

قوله ﷺ: «إذا أمَّن الإمام»: ظاهره أن الإمام يؤمِّن.

قال الخطابي: «قلت: فيه دليل على أن رسول اللَّه ﷺ كان يجهر بآمين، ولولا جهره به لم يكن لمن يتحرى متابعته في التأمين على سبيل المداركة طريق إلى معرفته، فدل أنه كان يجهر به جهرًا يسمعه من وراءه»[2]. ثم استدلّ بحديث وائل بن حجر المتقدم.

قوله: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: (آمين)، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له».

قال الخطابي: «قلت: قد احتج به من ذهب إلى أنه لا يجهر بـ(آمين) قال: ألا ترى أنه جعل وقت فراغ الإمام من قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقتًا لتأمين القوم، فلو كان الإمام يقوله جهرًا لاستغنى بسماع قوله عن التحين له مراعاة وقته.

قلت: وهذا قد كان يجوز أن يستدل به لو لم يكن ذلك مذكورًا في حديث وائل بن حجر الذي تقدم ذكره، وإذا كان كذلك لم يكن فيما استدلوا به طائل. وقد يكون معناه الأمر به والحض عليه إذا نسيه الإمام، يقول لا تغفلوه إذا أغفله الإمام، ولا تتركوه إن نسيه وأمنوا لأنفسكم لتحرزوا به الأجر.

قلت: وقوله: «إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: (آمين») معناه: قولوا مع الإمام حتى يقع تأمينكم وتأمينه معًا، فأما قوله: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا» فإنه لا يخالفه ولا يدل على أنهم يؤخرونه عن وقت تأمينه وإنما هو كقول القائل إذا رحل الأمير فارحلوا يريد إذا أخذ الأمير في الرحيل فتهيئوا للارتحال ليكون رحيلكم مع رحيله، وبيان هذا في الحديث الآخر «إن الإمام يقول: آمين والملائكة تقول:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤ -١٣٥) وابن ماجه (١/ ٢٧٨/ ٨٥٦) وقال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات احتج مسلم بجميع رواته»، وابن خزيمة (١/ ٢٨٨/ ٥٧٤). قال المنذري في الترغيب (١/ ٣٢٨): «رواه ابن ماجه بإسناد صحيح».

(٢) المعالم (١/ ١٩٣).

آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» فأحب أن يجتمع التأمينان في وقت واحد رجاء المغفرة» اهـ[(١)].

وقال ابن قدامة المقدسي: «وحديثهم لا حجة فيه، وإنما قصد به تعريفهم موضع تأمينهم، وهو عقيب قول الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأنه موضع تأمين الإمام، ليكون تأمين الإمام والمأمومين في وقت واحد موافقًا لتأمين الملائكة، وقد جاء هذا مصرحًا به كما قلنا، وهو ما روي عن الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: (آمين)، فإن الملائكة تقول: (آمين)، والإمام يقول: (آمين) فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[(٢)].

قوله: «فأمّنوا»: قال ابن حجر: «استدل به على تأخير تأمين المأموم عن تأمين الإمام لأنه رتب عليه بالفاء، لكن تقدم في الجمع بين الروايتين أن المراد المقارنة وبذلك قال الجمهور. وقال الشيخ أبو محمد الجويني: لا تستحب مقارنة الإمام في شيء من الصلاة غيره. قال إمام الحرمين: يمكن تعليله بأن التأمين لقراءة الإمام لا لتأمينه. فلذلك لا يتأخر عنه وهو واضح، ثم إن هذا الأمر عند الجمهور للندب وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم وجوبه على المأموم عملًا بظاهر الأمر، قال: وأوجبه الظاهرية على كل مصلٍّ، ثم في مطلق أمر المأموم بالتأمين أنه يؤمن ولو كان مشتغلًا بقراءة الفاتحة، وبه قال أكثر الشافعية، ثم اختلفوا هل تنقطع بذلك الموالاة؟ على وجهين أصحهما: لا تنقطع. لأنه مأمور بذلك لمصلحة الصلاة، بخلاف الأمر الذي لا يتعلق بها كالحمد للعاطس، والله أعلم»[(٣)].

قوله: «فإنه من وافق» قال ابن حجر: «وهو دال على أن المراد الموافقة في القول والزمان خلافًا لمن قال المراد الموافقة في الإخلاص والخشوع كابن حبان، فإنه لما ذكر الحديث قال: يريد موافقة الملائكة في الإخلاص بغير إعجاب، وكذا جنح إليه غيره فقال نحو ذلك من الصفات المحمودة، أو في إجابة الدعاء أو في

---

(١) المعالم (١/ ١٩٣- ١٩٤).
(٢) المغني (٢/ ١٦٢).
(٣) فتح الباري (٢/ ٣٣٦).

الدعاء بالطاعة خاصة، أو المراد بتأمين الملائكة استغفارهم للمؤمنين، وقال ابن المنير: الحكمة في إيثار الموافقة في القول والزمان أن يكون المأموم على يقظة للإتيان بالوظيفة في محلها، لأن الملائكة لا غفلة عندهم فمن وافقهم كان متيقظًا. ثم إن ظاهره أن المراد بالملائكة جميعهم، اختاره ابن بزيزة، وقيل: الحفظة منهم، وقيل: الذين يتعاقبون منهم إذا قلنا غير الحفظة، والذين يظهر أن المراد بهم من يشهد تلك الصلاة من الملائكة ممن في الأرض أو في السماء... ومثله لا يقال بالرأي فالمصير إليه أولى. قوله: «غفر له ما تقدم من ذنبه» ظاهره غفران جميع الذنوب الماضية، وهو محمول عند العلماء على الصغائر»[1].

قال القرطبي: «قال علماؤنا -رحمة اللَّه عليهم-: فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمنها هذا الحديث. الأولى: تأمين الإمام، الثانية: تأمين من خلفه، الثالثة: تأمين الملائكة، الرابعة: موافقة التأمين. قيل في الإجابة، وقيل: في الزمن، وقيل: في الصفة من إخلاص الدعاء لقوله ﷺ: «**ادعوا اللَّه وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن اللَّه لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ**»[2]. اهـ[3].

* * *

---

(١) فتح الباري (٢/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي (٥/ ٤٨٣/ ٣٤٧٩) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والحاكم (١/ ٤٩٣) وقال: «هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد أهل البصرة ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي قال: «صالح متروك»، وكذا المنذري قال: «صالح المري لا شك في زهده، لكن تركه أبو داود والنسائي» الترغيب والترهيب (٢/ ٤٩٣). والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٨٩).



سورة البقرة

أغراض السورة

قال شيخ الإسلام: «وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه (سورة البقرة) من تقرير أصول العلم وقواعد الدين: إن اللَّه تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين، فوصف حال أهل الهدى، ثم الكافرين، ثم المنافقين. فهذه (جمل خبرية) ثم ذكر (الجمل الطلبية) فدعا الناس إلى عبادته وحده، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقًا للعباد، ثم قرر (الرسالة) وذكر (الوعد والوعيد) ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى، وما بثه في العالم من الخلق والأمر، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء، وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم؛ فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، فقص جنس دعوة الأنبياء.

ثم انتقل إلى خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم، وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمد ﷺ، فذكر آدم الذي هو أول، وموسى الذي هو نظيره، وهما اللذان احتجا، وموسى قتل نفسًا فغفر له، وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه، وكان في قصة موسى ردٌّ على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات ولا يوجب اتباع ما جاءوا به، وقد يتأولون أخبار الأنبياء، وفيها رد على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من

الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وتقرير نبوته، وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم، وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم. كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة.

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التي على ملة إبراهيم، فذكر إبراهيم الذي هو إمام، وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم، وذكر استقباله، وقرر ذلك؛ فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم؛ ولهذا يقال: أهل القبلة، كما يقال: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم**»[١].

وذكر من (المناسك) ما يختص بالمكان، وذلك أن الحج له مكان وزمان، و(العمرة) لها مكان فقط، والعكوف والركوع والسجود شرع فيه؛ ولا يتقيد به، ولا بمكان ولا بزمان؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله، فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة: من العكوف، والصلاة، والطواف، والعمرة، والحج، والطواف يختص بالمكان فقط، ثم أتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجبلين، وأنه لا جناح فيه جوابًا لما كان عليه الأنصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما؛ لأجل إهلالهم لمناة، وجوابًا لقوم توقفوا عن الطواف بهما.

وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت -بل وبالقلوب والأبدان والأموال- بعدما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما، وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر؛ لأن ذلك من تمام أمر البيت؛ لأن أهل الملل لا يخالفون فيه، فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه، وذكر الصبر على المشروع والمقدور، وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها، فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت؛ ولهذا يقرن بين الحج والجهاد؛ لدخول كل منهما في سبيل اللَّه، فأما الجهاد فهو أعظم سبيل اللَّه بالنص والإجماع، وكذلك الحج في الأصح كما قال: «**الحج من سبيل الله**»[٢].

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٦٥٣-٦٥٤/ ٣٩١) والنسائي (٨/ ٤٧٩/ ٥٠١٢) من حديث أنس.

(٢) أخرجه: أبو داود (٢/ ٥٠٤/ ١٩٨٩) من حديث أم معقل، بلفظ: (فإن الحج في سبيل الله). وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني (٢٥/ ١٥٤/ ٣٧٠) والبيهقي (٦/ ٢٧٤).

وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بذمه لكاتم العلم، ثم ذكر أنه لا يقبل دينًا غير ذلك. ففي أولها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وفي أثنائها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ فـ (الأول) نهي عام و(الثاني) نهي خاص، وذكرها بعد البيت لينتهى عن قصد الأنداد، المضاهية له ولبيته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك، ووحد نفسه قبل ذلك، وأنه ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات.

ثم ذكر الحلال والحرام، وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأن الرسول ﷺ بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة، وفي الدماء بما شرعه من القصاص، ومن أخذ الدية، ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان، فذكر الوصية المتعلقة بالموت، ثم الصيام المتعلق برمضان، وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان؛ فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحبابًا أو وجوبًا بوقت الصيام، ووسطه أولا بين الطواف والصلاة؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام، والصلاة تشرع في جميع الأرض، والعكوف بينهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل، وأخبر أن المحرم (نوعان): نوع لعَيْنِه كالميتة، ونوع لكَسْبِه كالربا والمغصوب، فأتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه، وذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقل الحرام المنتقل؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ الآية، وهي أعلام العبادات الزمنية، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لأن البيت تحجه الملائكة والجن، فكان هذا أيضًا في أن الحج موقت بالزمان كأنه موقت بالبيت المكاني؛ ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة.

وذكر (المحصر) وذكر تقديم الإحلال المتعلق بالمال وهو الهدي عن الإحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق، وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل؛ ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطئ؛ فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحظور سواه.

وذكر (التمتع بالعمرة إلى الحج) لتعلقه بالزمان مع المكان؛ فإنه لا يكون متمتعًا حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج، وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام

-وهو الأفقي- فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفهه بسقوط أحد السفرين عنه، أما الذي هو حاضر فسِيَّان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج، ثم ذكر وقت الحج، وأنه أشهر معلومات، وذكر الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة؛ فإن هذا مختص بزمان ومكان؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، ولم يقل: (والعمرة) لأنها تفرض في كل وقت، ولا ريب أن السنة فرض الحج في أشهره، ومن فرض قبله خالف السنة، فإما أن يلزمه ما التزمه كالنذر -إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت- وإما أن يلزم الإحرام ويسقط الحج ويكون معتمرًا وهذان قولان مشهوران.

ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره، وقضائها -واللَّه أعلم- قضاء التفث والإحلال؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهذا أيضًا من العبادات الزمانية المكانية. وهو ذكر اللَّه تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات، ودل على أنه مكاني قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية، وإنما يكون التعجيل والتأخير في الخروج من المكان؛ ولهذا تضاف هذه الأيام إلى مكانها فيقال: أيام منى، وإلى عملها فيقال: أيام التشريق، كما يقال: ليلة جمع، وليلة مزدلفة، ويوم عرفة، ويوم الحج الأكبر، ويوم العيد، ويوم الجمعة فتضاف إلى الأعمال وأماكن الأعمال؛ إذ الزمان تابع للحركة، والحركة تابعة للمكان.

فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين: مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه؛ وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه، وذكر أيضًا القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام؛ لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان؛ ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج.

وذكر أن (البر) ليس أن يُشقي الرجل نفسه، ويفعل ما لا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيته حتى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلا من ظهره، فأخبر أن الهلال الذي جُعل ميقاتًا للحج شرع مثل هذا، وإنما تضمن شرع التقوى، ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات، وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك، ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار

والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين. والحمد لله رب العالمين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز تسميتها بسورة البقرة

* عن حذيفة قال: (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سَبَّح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تَعَوَّذَ ثم ركع فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**» فكان ركوعه نحوًا من قيامه ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**» ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع ثم سجد فقال: «**سبحان ربي الأعلى**» فكان سجوده قريبًا من قيامه)[٢].

★ **غريب الحديث:**

مترسلًا: متأنيًا يقال: ترسل الرجل في كلامه ومشيه، إذا لم يعجل.

* عن عوف بن مالك الأشجعي قال: (قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»، ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة)[٣].

★ **غريب الحديث:**

الجبروت: فعلوت من الجبر والقهر.

الملكوت: وهو اسم مبني من الملك كالجبروت والرهبوت.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١-٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤) ومسلم (١/ ٥٣٦-٥٣٧/ ٧٧٢) والنسائي (٣/ ٢٥٠/ ١٦٦٣). وأخرجه مختصرا: أبو داود (١/ ٥٤٣/ ٨٧١) والترمذي (٢/ ٤٨-٤٩/ ٢٦٢-٢٦٣) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه (١/ ٤٢٩/ ١٣٥١).

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٥٤٤/ ٨٧٣) والنسائي (٢/ ٥٧٢-٥٧٣/ ١١٣١) والترمذي في الشمائل (٢٦٧ مختصره). قال النووي في الأذكار (١/ ١٦٢): «هذا حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي في «سننهما»، والترمذي في كتاب «الشمائل» بأسانيد صحيحة.

* عن الأعمش قال: سمعت الحجاج يقول على المنبر: السورة التي يذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، والسورة التي يذكر فيها النساء، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد أنه كان مع ابن مسعود رضي الله عنه حين رمى جمرة العقبة فاستبطن الوادي حتى إذا حاذى بالشجرة اعترضها فرمى بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ثم قال: من ها هنا والذي لا إله غيره قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة ﷺ[١].

★ غريب الحديث:

استبطن الوادي: أي وقف في بطنه ووسطه.

اعترضها: أي وقف في عرض الجمرة أي جانبها.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه دليل على جواز قول: سورة البقرة وسورة النساء وشبه ذلك، وكره ذلك بعض الأوائل، وقال: إنما يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، والسورة التي تذكر فيها النساء وشبه ذلك، والصواب جواز قول سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة المائدة وغيرها، وبهذا قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة من كلام النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، كحديث «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٢] والله أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة البقرة

* عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة،**

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤١٥) والبخاري (٣/ ٧٤١/ ١٧٥٠) ومسلم (٢/ ٩٤٢/ ١٢٩٦) وأبو داود (٢/ ٤٩٧/ ١٩٧٤) والنسائي (٥/ ٣٠٢/ ٣٠٧٣) والترمذي (٣/ ٢٤٥/ ٩٠١) وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨/ ٣٠٣٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢١) والبخاري (٩/ ٦٧/ ٥٠٠٩) ومسلم (١/ ٥٥٤-٥٥٥/ ٨٠٧) وأبو داود (٢/ ١١٨/ ١٣٩٧) والترمذي (٥/ ١٤٧/ ٢٨٨١) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٤/ ٨٠١٨) وابن ماجه (١/ ٤٣٦/ ١٣٦٩) من حديث أبي مسعود البدري.

(٣) شرح مسلم (٩/ ٢٥-٢٦).

ولا تستطيعها البطلة»(١) .

★ غريب الحديث:

الزهراوين: المنيرتان إما لهدايتهما قارئهما ، أو لما يسبب له أجرهما من النور يوم القيامة .

الغمامة والغياية: كل شيء يظل الإنسان فوق رأسه من السحابة والغبرة وغيرهما .

الفرقان: القطيعان .

صواف: مصطفة .

تحاجان: تقومان بحجة قارئهما ، وتجادلان عنه .

البطلة: السحرة .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذه الشفاعة على تقدير أن يكون القارئ صاحب كبيرة في تخليصه من النار ، وإن لم يكن عليه ذنوب شفع له في ترفيع درجاته في الجنة ، أو في المسابقة إليها ، أو في جميعهما ، أو ما شاء اللَّه منها ، إذ كل ذلك بكرمه تعالى وتفضله .

وفي تسمية البقرة وآل عمران: بالزهراوين، وجهان:

أحدهما: أنهما النيرتان، مأخوذ من الزَّهْر والزَّهَرَة، والزُّهْرَة، فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما ، وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة . قلت: ويقع لي: أنهما سميتا بذلك؛ لأنهما اشتركتا في تضمن اسم اللَّه الأعظم ، كما ذكر أبو داود من حديث أسماء بنت يزيد: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، والتي في سورة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**»(٢)،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٩) ومسلم (١/ ٥٥٣/ ٨٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ١٦٨/ ١٤٩٦) والترمذي (٥/ ٤٨٣/ ٣٤٧٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٥).

والله أعلم»[١].

وقال الطيبي: « قوله: (**اقرءوا سورة البقرة**) تخصيص بعد تخصيص، عَمَّ أولًا بقوله: (**اقرءوا القرآن**) وعلق به الشفاعة، وخص منه ثانيًا الزهراوان، ونيط بهما معنى التخليص من كرب حر القيامة، والمحاجة عن أصحابهما. وأفرد ثالثًا «البقرة» وضم إليها المعاني الثلاثة دلالة على أن لكل منها خاصية لا يقف عليها إلا صاحب الشرع»[٢].

قال النووي: «قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين»[٣].

وقال الطيبي: «قال القاضي ناصر الدين: قوله: (**البطلة**): أي السحرة، عبر عن السحرة بالبطلة؛ لأن ما يأتونه باطل، سماهم باسم فعلهم، وإنما لم يقدروا على حفظها ولم يستطيعوا قراءتها[٤]؛ لزيغهم عن الحق واتباعهم للوساوس، وانهماكهم في الباطل. وأقول: يحتمل أن يراد بـ(البطلة) المؤاخذون من سحرة البيان، حيث تحدى فيها بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[٥] فأفحموا وعجزوا. وهو من قوله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»[٦]. وقيل: أراد بـ(البطلة) أصحاب البطالة؛ أي: لا يستطيع قراءة ألفاظها، وتدبر معانيها، والعمل بأوامرها ونواهيها، أصحاب البطالة والكسالة»[٧].

* عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران**». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال. ما نسيتهن بعد. قال: «**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما حِزْقَانِ من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**»[٨].

---

(١) المفهم (٢/ ٤٣٠-٤٣١).
(٢) شرح الطيبي ٥/ ١٦٤٢).
(٣) شرح مسلم (٦/ ٧٨).
(٤) في الأصل: قراءتهما، والصواب ما أثبتنا.
(٥) البقرة: الآية (٢٣).
(٦) رواه أحمد (٢/ ١٦) والبخاري (٩/ ٢٥٢/ ٥١٤٦) وأبو داود (٥/ ٢٧٥/ ٥٠٠٧) والترمذي (٤/ ٣٢٩- ٣٣٠/ ٢٠٢٨) من حديث ابن عمر ﷺ. وفي الباب عن عمار وابن مسعود وعبد الله بن الشخير وابن عباس.
(٧) شرح الطيبي (٥/ ١٦٤٢).
(٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٣) ومسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٥) والترمذي (٥/ ١٤٧-١٤٨/ ٢٨٨٣) بألفاظ متقاربة.

★ **غريب الحديث:**

حِزْقَانِ: الحِزْقُ والحزيقة الجماعة.

شرق: الشرق ها هنا الضوء، وهو الشمس، والشق أيضًا.

* عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «**تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**» ثم سكت ساعة ثم قال: «**تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك، القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ ويقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلًا**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

شاحب: شحب جسمه شحوبًا تغيَّر وهزل، واللون تغير ونصل.

الهواجر: جمع هاجرة وهجير نصف النهار عند اشتداد الحر.

الهذ: سرعة القراءة.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الطيبي: «وفي تقدم هاتين السورتين على القرآن دليل على أنهما أعظم من غيرهما؛ لأنهما أطول، والأحكام فيهما أكثر»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨) والدارمي (٢/ ٤٥٠-٤٥١) والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٥٣-٤٥٤/ ١١٩٠). وقال: «حسن غريب»، مطولًا. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٩): «رجاله رجال الصحيح». وأخرجه مختصرا الحاكم (١/ ٥٦٠)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٤٢/ ٣٧٨١) وليس فيه ذكر موضع الشاهد. وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٢٥٨): «إسناده صحيح رجاله ثقات». وقال ابن كثير (١/ ٣٢): «وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم».

(٢) شرح الطيبي (٥/ ١٦٤٢).

والمراد بالإتيان بالقرآن:

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته. كذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث وما يشبه هذا من الأحاديث أنه يجيء ثواب قراءة القرآن»(١).

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: «وقد ذكر هذا المعنى غير واحد، وبينوا أن المراد بقوله: (تجيء البقرة وآل عمران) أي ثوابهما؛ ليجيبوا الجهمية الذين احتجوا بمجيء القرآن وإتيانه على أنه مخلوق، فلو كان الثواب أيضًا الذي يجيء في صورة غمامة أو صورة شاب غير مخلوق، لم يكن فرق بين القرآن والثواب، ولا كان حاجة إلى أن يقولوا: يجيء ثوابه ولا كان جوابهم للجهمية صحيحًا»(٢).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «باب: ما ادعت الجهمية أن القرآن مخلوق، من الأحاديث التي رويت، فقالوا: جاء في الحديث أن القرآن يجيء في صورة الشاب الشاحب فيأتي صاحبه فيقول: هل تعرفني؟ فيقول له: من أنت؟ فيقول له: أنا القرآن الذي أظميت نهارك وأسهرت ليلك. قال: فيأتي به اللَّه فيقول: يا رب(٣). فادعوا أن القرآن مخلوق من قبل هذه الأحاديث. فقلنا لهم: القرآن لا يجيء. إنه قد جاء من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فله كذا وكذا، ألا ترون أن من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يجيئه إلا ثوابه؛ لأنا نقرأ القرآن ويجيء ثواب القرآن، فيقول: يا رب، كلام اللَّه لا يجيء ولا يتغير من حال إلى حال، إنما معنى أن القرآن يجيء إنما يجيء ثواب القرآن فيقول: يا رب»(٤).

قال البغوي: «قوله: (**يعطى الملك بيمينه**) لم يرد به أن شيئًا يوضع في يديه وإنما أراد به يجعل له الملك والخلد. ومن جعل له شيء مِلْكًا فقد جعل في يده»(٥).

وقال القرطبي: «ومعنى هذا الحديث: أن صاحب هاتين السورتين في ظل ثوابهما يوم القيامة كما قال: «**سبعة يظلهم اللَّه في ظله**»(٦). وقال: «**الرجل في ظل**

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ١٤٨). (٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٢) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٢/ ٣٧٨١) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».

(٤) الرد على الجهمية (ص: ٤٠). (٥) شرح السنة (٤/ ٤٥٥).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٩) والبخاري (٢/ ١٨٢/ ٦٦٠) ومسلم (٢/ ٧١٥/ ١٠٣١) والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١) والنسائي (٨/ ٦١٣-٦١٤/ ٥٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صدقته حتى يقضى بين الناس»[١]»[٢] .

* عن أنس : أن رجلًا كان يكتب للنبي ﷺ وقد كان يقرأ البقرة وآل عمران . وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا -أي : عظم[٣] .

* عن أبي هريرة : أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[٤] .

⋆ فوائد الحديثين:

قال القاضي ناصر الدين : «فإن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه البقرة، أي يئس من إغواء أهله وتسويلهم، لما يرى من جدهم في الدين، ورسوخهم في الإسلام . قال ﷺ : «**من قرأ البقرة وآل عمران جد فينا**»[٥] وذلك لما في حفظهما والمواظبة على تلاوتهما من الكلفة والمشقة، واشتمالهما على الحكم، وبيان الشرائع، والقصص، والمواعظ، والوقائع الغريبة، والمعجزات العجيبة، وذكر خالصة أوليائه والمصطفين من عباده، وتفضيح الشيطان ولعنه، وكشف ما توسل به إلى تسويل آدم وذريته»[٦] .

وقال القاري : «وخص سورة البقرة بذلك لطولها وكثرة أسماء اللَّه تعالى والأحكام فيها، وقد قيل فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر»[٧] .

* عن ابن مسعود قال : إن لكل شيء سنامًا، وسنام القرآن البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة نفر من البيت الذي يقرأ فيه، وله ضريط[٨] .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧-١٤٨) وابن خزيمة (٤/ ٩٤/ ٢٤٣١) وابن حبان (٨/ ١٠٤/ ٣٣١٠) والحاكم (١/ ٤١٦) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) المفهم (٢/ ٤٣١) .

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٢٠-١٢١) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٩-٢٠/ ٧٤٤) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٠٥-٣٠٦/ ٣٧٢٥) وأصله في البخاري (٦/ ٧٧٥/ ٣٦١٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٥/ ٢٧٨١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٤-٣٣٧) ومسلم (١/ ٥٣٩/ ٧٨٠) والترمذي (٥/ ١٤٥/ ٢٨٧٧)، وقال : «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٠/ ١٠٨٠١) (٥/ ١٣/ ٥٠١٥) .

(٥) تقدم أنه موقوف على أنس رضي الله عنه .

(٦) شرح الطيبي (٥/ ١٦٤٠) .

(٧) المرقاة (٤/ ٦٢٦) .

(٨) الحاكم (١/ ٥٦١) وقال : «صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي» .

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري عند قوله: (وإن سنام القرآن سورة البقرة): «إما لطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد وبه الرفعة الكبيرة»[١].

قال الطيبي: «إن لكل شيء سنامًا: أي رفعة وعلوًّا استعير من سنام الجمل ثم كثر استعماله فيها حتى صار مثلًا ومنه سميت البقرة سنام القرآن»[٢].

* عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال له: «**اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير**». قال: فأشفقت يا رسول اللَّه أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «**وتدري ما ذاك؟**» قال: لا، قال: «**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

جالت: أي دارت وتحركت كالمضطرب المنزعج من مخوف نزل به.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال النووي: وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة.

قلت -أي الحافظ-: الحكم المذكور أعم من الدليل، فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة بصفة خاصة، ويحتمل من الخصوصية ما لم يذكر، وإلا لو كان على الإطلاق لحصل ذلك لكل قارئ. وقد أشار في آخر

---

(١) التحفة (٨/ ١٤٧). (٢) شرح الطيبي (٥/ ١٦٧٦-١٦٧٧).

(٣) رواه البخاري (٩/ ٧٧/ ٥٠١٨) تعليقا ووصله أبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٢٤٩-٢٥٠/ ٢٨) ورواه أحمد (٣/ ٨١) ومسلم (١/ ٥٤٨-٥٤٩/ ٧٩٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٣/ ٨٠١٦) دون تعيين سورة البقرة.

الحديث بقوله: (ما يتوارى منهم) إلى أن الملائكة لاستغراقهم في الاستماع كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم، وفيه منقبة لأسيد بن حضير، وفضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل»[1].

* * *

(١) الفتح (٩/ ٧٩).

قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

الم: حروف مقطعة افتتحت بها بعض السور، اللَّه أعلم بمعناها. والقول الأقرب إلى الصواب في تأويلها: أنها حروف هجاء أعلمَ اللهُ بها العربَ حين تحداهم بالقرآن أنه مؤلف من حروف، هي التي منها بناء كلامهم ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم. وهو قول قطرب والفراء وغيرهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال صديق حسن خان: «وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازمًا بأن ذلك هو ما أراده اللَّه ﷻ فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعًا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدودًا عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره، ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا.

وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين:

(الأول): التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتنكب عن طريقه، وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب اللَّه سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم، وخزعبلات أفكارهم عليه.

(الثاني): التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيع الواضح

والسبيل القويم، بل الجادة التي ما سواها مردوم، والطريقة العامرة التي ما عداها مهدوم، فمن وجد شيئا من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري أو اللَّه أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه، مع كونه ألفاظًا عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل اللَّه تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدده، فإنه ينبغي أن يقال فيه أنه متشابه المتشابه، على فرض أن للفهم إليه سبيلًا، ولكلام العرب فيه مدخلًا، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير»[١].

قلت: لا شك في نفاسة هذا الكلام، وأن صاحبه ممن تشبع بفهم السلف والتقيد بالنصوص الواردة التي تفصح بظواهرها عن الحق وبيانه، وما نحن فيه من الحروف المقطعة المفتتح بها في كثير من سور القرآن: الم، المص، الر، كهيعص، طه، يس، ص، ن، حم، حم عسق، طس، طسم. فواضح جدًّا أن هذه حروف وليست كلمات، بل كلام العرب دائما يعتمد على تأليف الكلمة من حروف، والكلام هو ما ركب من كلمات وجمل، وما سواه لا اعتبار به، فما قاله الشيخ صديق حسن خان في الاعتماد على السياقات اللغوية والبيانية العربية، فهو مفقود في هذه الحروف، ونص المعصوم في ذلك غير موجود، فلم يبق إلا التسليم والقراءة والبلاغ، مع الاعتقاد بأن كلام اللَّه في السور التي صدرت بهذه الحروف فيه هدى وبيان وكفاية، فلا حاجة لأي تكلف بتقديم أو تأخير، أو إلصاق حروف بمعان لم يدل عليها دليل، كل ذلك هرطقة وباطنية محضة، وأما من أشار إلى أن اللَّه تحدى العرب بهذه الحروف وأنها نصف عدد حروف الهجاء، فلعل هذا له وجه، لاسيما وقد قال به بعض الأئمة، كالإمام ابن تيمية وغيره، فكما قال الرسول ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٢]، وما أمر اللَّه بتدبره وفهمه هو ما خاطب به عباده، أما ما افتتح به السور، فليس هو مما أمرنا بتدبره ولا وجه لذلك، فالأولى الاشتغال بما هو واضح وبين، وينفع المؤمن في دنياه وأخراه، وإن تكلم فيه تكلم بعلم وحجة وحكمة ودليل، فما سكت عنه الشارع ينبغي لنا أن نسكت

---

(١) فتح البيان (١/ ٦٨-٦٩).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: الترمذي (٤/ ٤٨٣/ ٢٣١٧) وقال: «غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥-١٣١٦/ ٣٩٧٦)، وصححه ابن حبان (١/ ٤٦٦/ ٢٢٩)، وحسنه النووي في الأربعين.

عنه، وما أكثر ما يجهله الإنسان ويصدق به، فكل أسماء اللَّه وصفاته تحمل المعاني الواضحة ومع ذلك يتنزه المسلم عن الخوض في كيفية ذلك، وهكذا أحوال الجنة والنار وكل ما غاب عن المسلم، فيؤمن به ويصدق به، إن كان لفظًا صدق معناه، وحمله على ما يليق به إن لم يعلم كيفيته. وإن كان حرفًا آمن به واعتقده أنه من كلام اللَّه، ووكل ذلك إلى علم اللَّه، وأن اللَّه تعالى له الحكمة في افتتاح هذه السور بهذه الحروف، ولا هي زائدة كما يقول من لا علم له، ولا هي رمز كما فسره بعض عوام المفسرين، ولا غير ذلك من هرطقة الجهال الذين لا صلة لهم بفهم السلف. واللَّه أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحروف المقطعة

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب اللَّه فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله «**من قرأ حرفًا من كتاب الله**» أي: القرآن «**والحسنة بعشر أمثالها**» أي مضاعفة بالعشر، وهو أقل التضاعف الموعود بقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[3]. والحرف يطلق على حرف الهجاء والمعاني والجملة المفيدة والكلمة المختلف في قراءتها، وعلى مطلق الكلمة. ولذا قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»»[4].

قال الشوكاني: «فإن قلت: هل ثبت عن رسول اللَّه في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول اللَّه ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٦١/ ٢٩١٠) وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه» والدارمي (٢/ ٤٢٩) والحاكم (١/ ٥٦٦) وصححه وأقره الذهبي. والحديث صححه الشيخ الألباني انظر الصحيحة (٦٦٠).

(٢) الأنعام: الآية (١٦٠).

(٣) البقرة: الآية (٢٦١).

(٤) تحفة الأحوذي (٨/ ١٨٢).

ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب اللَّه فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»»[١].

ثم قال -بعد أن ذكر اختلاف الأقوال في ذلك: «والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله ﷻ لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه»[٢].

* * *

(١) فتح القدير (١/ ٤١)

(٢) فتح القدير (١/ ٤٢-٤٣).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

★ غريب الآية:

ذلك: هنا بمعنى: هذا؛ لأنه قد يستعمل «ذلك» في الإشارة إلى حاضر وإن كان موضوعًا للإشارة إلى غائب. قال خُفاف بن نُدبة:

أقول له والرمح يَأْطِرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفافًا إنني أنا ذَلِكا

أي: أنا هذا. ومنه: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[1].

أي: هذه.

الكتاب: مصدر كتب، بمعنى: المكتوب، والمراد به: القرآن الكريم. وسمي كتابًا لما جمع فيه من الأخبار والقصص والأحكام والأمثال والمواعظ والأوامر والنواهي والإعذار والإنذار والتحذير والبشارة؛ لأن أصل الكتابة الجمع، فكل ما جمعته فقد كتبته. ومنه قيل: كتيبة الجيش لاجتماع فرسانها.

قال الشاعر:

وكتيبةٍ آنستُها بكتيبة حتى إذا اجتَمَعتْ نَفضتُ لها يدي

ويأتي الكتاب أيضًا بمعنى: الفرض والحكم والقدر.

لا ريب: قال القرطبي: «وفي الريب ثلاثة معان: أحدها: الشك؛ قال عبد اللّه ابن الزبعرى:

ليس في الحق يا أميمة ريب إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها: التهمة؛ قال جميل:

بثينة قالت يا جميل أربتني فقلت كلانا يا بثين مريب

وثالثها: الحاجة؛ قال:

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٢).

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

فكتاب اللَّه تعالى لا شك فيه ولا ارتياب؛ والمعنى: أنه في ذاته حق وأنه منزل من عند اللَّه، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار. وقيل: هو خبر ومعناه النهي؛ أي: لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا. وتقول: رابني هذا الأمر إذا أدخل عليك شكا وخوفا. وأراب: صار ذا ريبة؛ فهو مريب. ورابني أمره. وريب الدهر: صروفه»[1].

هدىً: الهدى: الإرشاد والدلالة. يقال: هديته إلى الطريق وهديته الطريق: إذا دللته عليه، لغتان. قال القرطبي: «الهدى هديان: هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]. وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3] فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[4] فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[5] وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[6] والهدى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت»[7].

للمتقين: التقوى: فعل الأوامر، وترك النواهي. أصله مأخوذ من اتقاء المكروه. قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتَّقَتْنَا باليَدِ

قال ابن رجب: «وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[8].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١١٢).
(٢) الرعد: الآية (٧).
(٣) الشورى: الآية (٥٢).
(٤) القصص: الآية (٥٦).
(٥) البقرة: الآية (٥).
(٦) فاطر: الآية (٨).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١١٢-١١٣).
(٨) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «أي: هذا القرآن لا شك أنه من عند اللَّه تعالى، كما قال تعالى في السجدة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. قال بعض المحققين: اختصاص ذلك بالإشارة للبعيد حكم عُرفي لا وضعي؛ فإن العرب تعارض بين اسمي الإشارة. فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم. وفي التنزيل من ذلك آيات كثيرة.

ومن جرى على أن ذلك إشارة للبعيد يقول: إنما صحت الإشارة بذلك، هنا إلى ما ليس ببعيد، لتعظيم المشار إليه، ذهابًا إلى بعد درجته وعلو مرتبته ومنزلته في الهداية والشرف.

والريب في الأصل: مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة. وحقيقتها: قلق النفس واضطرابها. ثم استعمل في معنى الشك مطلقا، أو مع تهمة؛ لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة.

وفي الحديث: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[2].

ومعنى نفيه عن الكتاب: أنه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب في حقيقته، وكونه وحيًا منزلًا من عند اللَّه تعالى. والأمر كذلك؛ لأن العرب، مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية، عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن. وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلًا»[3].

قال ابن كثير: «ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب -وهو القرآن- لا شك فيه أنه نزل من عند اللَّه، كما قال تعالى في السجدة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]. وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي أي: لا ترتابوا فيه، ومن

---

(١) السجدة: الآيتان (١ و ٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٠٠) والترمذي (٤/ ٥٧٦/ ٢٥١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٧٣٢/ ٥٧٢٧) وصححه ابن حبان (٢/ ٤٩٨/ ٧٢٢) والحاكم (٢/ ١٣) ووافقه الذهبي، وفي (٤/ ٩٩) قال الذهبي: «سنده قوي»، كلهم من حديث الحسن بن علي ﷺ.

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٣٢-٣٣).

(٤) السجدة: الآيتان (١ و ٢).

القراء من يقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ويبتدئ بقوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: فيه هدى.

وهدى: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعا على النعت، ومنصوبًا على الحال.

وخصت الهداية للمتقين كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[١]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]»[٤].

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن اللَّه سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق والإصلاح في الأرض ويحب فاعل ذلك. فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به..

والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملًا وقبل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل. فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى. وكلما فوت حظًا من التقوى فاته حظ من الهداية

---

(١) فصلت: الآية (٤٤).
(٢) الإسراء: الآية (٨٢).
(٣) يونس: الآية (٥٧).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه. قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين، ويفهم من مفهوم الآية أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[(٣)] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٤)] وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[(٥)] وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[(٦)] الآيتين. ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق»[(٧)].

قلت: والواقع من حال الأمة يصدقه ما قاله هؤلاء الأئمة في تخصيص الهداية بالقرآن بهداية التوفيق، وأن الموفقين من أهل الأرض في الاستفادة من القرآن وآياته وهدايته والاستقامة على نهجه قليلون؛ لأن الذين يحفظونه عدد هائل كبير، ولكن لا تجد للقرآن أثرًا في هدايته لهم، فإن كثيرًا من حفاظ القرآن هم أهل شركيات وبدع وضلالات، وكما قال اللَّه فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[(٨)] فالانتفاع بكتاب اللَّه عقيدة ومنهجًا وسلوكًا وطريقة كان الحظ الأوفر منه للصحابة ومن سلك طريقهم، وهكذا على مر العصور والأزمان، وتوزع الأقاليم في الأرض، فإن الذين استفادوا من هداية القرآن بعد العصور المضيئة عدد قليل، فالقرآن يقرأ في المساجد والمناسبات، والمصاحف متوفرة وموجودة، ومع

---

(١) المائدة: الآيتان (١٥ و ١٦).
(٢) الفوائد (ص: ١٦٨-١٦٩).
(٣) فصلت: الآية (٤٤).
(٤) الإسراء: الآية (٨٢).
(٥) التوبة: الآيتان (١٢٤ و ١٢٥).
(٦) المائدة: الآية (٦٤).
(٧) أضواء البيان (١/ ٤٥).
(٨) الحجر: الآية (١٢).

ذلك تجد أولويات التوحيد مندرسة ومنطمسة، وأعلام الشرك قائمة، بل أعلام الإلحاد ومحاربة اللَّه ورسوله هي موضة العصر، حيث سميت بأسماء التقدم والحرية والتمدن والتحضر وغيرها من المصطلحات التي يروج لها من لا خلاق له، يتذرعون بها للانفلات والتملص من الدين. فسبحان من أنزل هذا القرآن وتكلم بآياته، وحفظه من كل تبديل وتغيير؛ فالقرآن أنزله اللَّه للامتثال، وقص فيه القصص للاعتبار، وخلل آياته بالوعد والوعيد للخوف والرجاء، وجعله هاديًا مرشدًا، واللَّه أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[١]

★ غريب الآية:

يؤمنون: أصل الإيمان في اللغة: التصديق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[٢] أي: بمصدق. قال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقد كان قومنا يصلّون للأوثان قبلَ محمّد

بالغيب: الغيب: ما لا تدركه الحواس. وكل مستتر غيب، وأصل الغيب المكان المطمئن الذي يُستتر فيه لنزوله عما حوله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ والغيب الذي يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وملائكته والجنة والنار، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب؛ فإن وصف الرسالة هو من الغيب، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[٤]»[٥].

وقال محمد رشيد رضا: «الناس قسمان: مادي لا يؤمن إلا بالحسيات، وغير مادي يؤمن بما لا يدركه الحس أي: بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم. ولا شك أن الإيمان بالله، وملائكته -وهي جنود غائبة، لها مزايا

---

(١) البقرة: الآية (٣).
(٢) يوسف: الآية (١٧).
(٣) البقرة: الآية (١٧٧).
(٤) النساء: الآية (١٣٦).
(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٣٢-٢٣٣).

وخواص يعلمها ﷺ- وباليوم الآخر إيمان الغيب. ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدي بالقرآن، ومن يتصدى لهدايته لابد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلها متصفًا بصفات الكمال، التي لا تتحقق الألوهية إلا بها، ثم يقنعه بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى.

لذلك؛ وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس -وقد كتب الأستاذ الإمام في صاحبه ما نصه-:

وصاحب هذا الاعتقاد، واقف على طريق الرشاد، وقائم على أول النهج، لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك ويأخذ بيده إلى الغاية، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل، وإن كانت لا يأتي عليها الحس، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلي عن المادة ولواحقها، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر في جلي المقدمات وخفيها، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التي استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة مثلًا؛ لم يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة- لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف في مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون في القرآن هدى لهم.

وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لا شيء وراء المحسوسات وما اشتملت عليه، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده، وقلما تجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة، والأخذ به في الطرق المختلفة، إلى تقريبه مما تطلب، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر، أو يخضعه القهر، حتى يتم لك منه الأمر، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه، ولم يجمل من نفسه وقعه، فكيف يجد فيه هداية، أو منقذًا من غواية؟

ولما كان الإيمان بالغيب يطلب عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر في الأفعال؛ لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم،

ومثل هذا الذي يسمونه إيمانا لا يفيد في إعداد القلب للاهتداء بالقرآن»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الإيمان بالغيب

* عن ابن محيريز قال: قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة: حدثنا حديثًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ، قال: نعم، أحدثك حديثًا جيدًا، تغدينا مع رسول اللَّه ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول اللَّه أحد خير منا، أسلمنا وجاهدنا معك، قال: «**نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «**نعم، قوم يكونون من بعدكم . . .** »

قال القاري: «والمعنى أنهم خير منكم من هذه الحيثية وإن كنتم خيرًا منهم من جهة المسابقة والمشاهدة والمجاهدة . . قال الطيبي: فالخيرية بحسب الشهود والغيبة»[٣].

* عن أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينا نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ طلع ركبان، فلما رآهما قال: «**كنديان مذحجيان**» حتى أتياه فإذا رجال من مذحج، قال: فدنا إليه أحدهما ليبايعه، قال: فلما أخذ بيده قال: يا رسول اللَّه، أرأيت من رآك فآمن بك وصدقك واتبعك ماذا له؟ قال: «**طوبى له**» قال: فمسح على يده فانصرف، ثم أقبل الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه قال: يا رسول اللَّه أرأيت من آمن بك وصدقك واتبعك ولم يرك قال: «**طوبى له ثم طوبى له ثم طوبى له**» قال: فمسح على يده فانصرف[٤].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٦) والدارمي (٢/ ٣٠٨) والحاكم (٤/ ٨٥) وقال: «صحيح» ووافقه الذهبي، والبخاري في التاريخ (١/ ٣١٠) والطبراني (٤/ ٢٣/ ٣٥٤٠) وأبو يعلى (٣/ ١٢٨/ ١٥٥٩). من طرق عن أبي جمعة ﷺ. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٦): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد وأحد أسانيد أحمد رجاله ثقات». وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ٧).

(٣) المرقاة ١٠/ ٦٦١-٦٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٢) واللفظ له. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». الدولابي في الكنى (ص: ٤٢-٤٣) والطبراني (٢٢/ ٢٨٩/ ٧٤٢) والبزار (كشف الأستار ٣/ ٢٩٠-٢٩١/ ٢٧٦٩). قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨): «رواه البزار والطبراني وإسناده حسن».

★ **غريب الحديث:**

طوبى: قال الطيبي: فعلى من الطيب قلبوا الياء واوًا للضمة قبلها قيل معناه: أصابوا خيرا على الكناية؛ لأن إصابة الخير تستلزم طيب العيش.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «.. وذلك لأن اللَّه مدحهم بإيمانهم بالغيب، وكان إيمان الصدر الأول غيبًا وشهودًا، فإنهم آمنوا باللَّه واليوم الآخر غيبًا، وآمنوا بالنبي ﷺ شهودا لما أنهم رأوا الآيات وشاهدوا المعجزات، وآخر هذه الأمة آمنوا غيبًا بما آمن به أولها شهودا، فلذا أثنى عليهم النبي ﷺ وأخذ ابن عبد البر من هذا الحديث ونحوه أنه يوجد فيمن يأتي بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة»(١)

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «يعني: يتمنى أحدهم أن يكون مفديًا بأهله وماله لو اتفق رؤيتهم إياي ووصولهم إلي»(٣) اهـ.

* عن ابن مسعود قال: إن أمر محمد كان بينا لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾(٤).

قلت: الإيمان بالغيب هو أمر عقلي وفطري، والشرع جعله من أصول الإيمان ومن أساسياته، فما يصل إلى الإنسان من أخبار وحقائق معظمها لم يشاهدها بأية حاسة من حواسه، فيسمع بسلسلة أجداده، وأصوله وحواشيه فيؤمن بذلك ويصدقه، وهكذا كل المعلومات التي ترد عليه من هنا وهناك قديمة أو حديثة، ومع

(١) فيض القدير (٤/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٨/ ٢٨٣٢).

(٣) شرح الطيبي (١٢/ ٣٩٦٦)

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وقال المناوي في الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير البيضاوي (١/ ١٣٥/ ٣٢): «إسناده صحيح».

ذلك يصدق ذلك بفطرته، فالإيمان بالغيب لا يستطيع أن يدفعه العقل، لأنه فطرة جُبِل الإنسان عليها كما سبق، فإذا كان هذا في الغيب النسبي المتعلق بأمور الدنيا، فكيف بما حدثنا اللَّه عنه ورسوله ﷺ من أمور الآخرة، مما هو غيب مطلق لا يعلمه إلا اللَّه، أو من أطلعه على شيء من ذلك من أنبيائه، فلا يسع المؤمن تجاهه إلا التصديق والتسليم، بخلاف من ابتلي بداء عضال هو أشبه ما يكون بالحمقى والمجانين الذين لا يعقلون ولا يعلمون، فيزعم أنه يعتمد على المحسوسات - وهذا لعمر اللَّه جهل وسفاهة- فمن أين للإنسان أن يحيط بزوايا الكون كله، ويعرف مخبوءاتها وساكنيها؟ ومن أين له أن يعرف أخبار الأزمان الماضية؟ وما تقدم من الزمان أكثر مما بقي كما أخبر الرسول ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1]، وتجد هذا العنيد السفيه يصدق بأخبار لا سند لها ولا حس، ويروج لها ويبثها، فيعيش على التناقض الواضح الذي يدركه صبيان العقلاء. فالإيمان باللَّه وبصفاته وأسمائه وأفعاله وبملائكته وبالجن وبالشياطين وبالجنة وبالنار وأخبار الساعة وعلاماتها، كل ذلك تؤيده العقول القويمة والفطر السليمة، وكم من مشاهد في هذه الدنيا كانت في السابق غيبًا مما أخبر به النبي ﷺ، فأصبحت بعد ذلك مشاهدة عينًا وملموسة حسًّا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

وما أشار إليه الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفضيل من لم ير الرسول ﷺ على غيره، فذلك في الجملة وفي هذه الفضيلة بالخصوص، وإلا فالصدر الأول لا يرتقي لمرتبتهم أحد مهما كان ومهما عمل:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم وجعلنا على نهجهم وطريقتهم.

* * *

(١) أخرجه من حديث سهل بن سعد: أحمد (٥/ ٣٣٠)، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠)، وفي الباب عن أنس وأبي هريرة وبريدة بن الحصيب ﷺ.

(٢) الروم: الآيتان (٥٢ و ٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

يقيمون الصلاة: أي: يؤدونها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها المحددة، تقول: أقام الأمر إذا أتى به على أكمل هيئاته.

الصلاة: أصلها في اللغة: الدعاء. قال الأعشى:

وَأَقْبَلَهَا الريحُ في ظِلِّهَا ... وصلّى على دَنِّهَا وارْتَسَمْ

أي: دَعا لها.

وفي الشرع: أقوال وأفعال مخصوصة على صفات مخصوصة في أوقات مخصوصة.

رزقناهم: أعطيناهم وملكناهم، والرزق: العطاء الجاري خلافه الحرمان. وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم.

ينفقون: أصل الإنفاق: إخراج المال عن الملك بالتطوع أو غيره. يقال: نفقت الدابة: إذا خرجت روحها. ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان إلى الكفر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهرا، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطنًا، بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

فهذه الصلاة هي التي قال اللَّه فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] وهي التي يترتب عليها الثواب. فلا ثواب للعبد من صلاته، إلا ما

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٥).

عقل منها. ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها»[١].

وقال: «ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك ونحو ذلك. والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير. ولم يذكر المنفق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي، قربة إلى اللَّه. وأتى بـ«من» الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم. وفي قوله ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق اللَّه، الذي خولكم، وأنعم به عليكم. فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «والصلاة بالمعنى الذي ذكرناه قد ظهر في الإسلام في أفضل أشكاله؛ وهو تلك الصلاة التي فرضها اللَّه على المسلمين، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم على النحو الذي جاءت به السنة المتواترة؛ من أفضل ما يعبر به عن الإحساس بالحاجة إلى المعبود وشعور الأنفس بعظمته لو أقامها المصلون، وأتوا بها على وجهها، ولذلك قال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل: يصلون، وفرق بينهما؛ فإن الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية: إنه صلى، وإن كان عمله هذا خلوا من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة، فاحتيج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذي به قوام الصلاة، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة. وقد قالوا إن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة واستيفاء الأركان والسنن. وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة، وإنما قوام الصلاة الذي يحصل بالإقامة هو التوجه إلى اللَّه تعالى والخشوع الحقيقي له، والإحساس بالحاجة إليه تعالى، وكتب شيخنا عند تفسير الصلاة هنا بما تقدم أخذا عنه ما نصه:

(فإذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلي أنه أقام

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢-٤٣).

الصلاة، فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها، وقتلها بسلبها روحها، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين: أن حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشمه النفس، بل يكاد يكون مستحيلا لغلبة الخواطر على ذهن المصلي. هذا وأخشى أن يكون هذا جحودًا لمعنى الصلاة، وإنما عرض لهم هذا الوهم الباطل من شدة الغفلة، واستحكام العلة، وإني أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها، تلك الطريقة هي ألا ينطق المصلي بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات اللَّه تعالى مع وصفه بالربوبية لجميع الأكوان العلوية والسفلية، وإذا قال مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء، وهكذا -فإذا أخذ المصلي على نفسه أن يتصور المعاني من ألفاظها التي ينطق بها فقد أقام الصلاة، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول فكيف يزعم أنه يصلي فضلا عن أنه يقيم الصلاة؟»[3].

قال ابن جرير: «وأولى التأويلات بالآية وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل وعيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- عم وصفهم إذ وصفهم بالإنفاق مما رزقهم، فمدحهم بذلك من صفتهم. فكان معلوما أنه إذ لم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم، وذلك الحلال منه الذي لم يَشُبْهُ حرام»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عبر في هذه الآية الكريمة بمن التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه اللَّه بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر

---

(١) الفاتحة: الآية (٢).
(٢) الفاتحة: الآية (٤).
(٣) تفسير المنار (١/ ١٢٨-١٢٩).
(٤) جامع البيان (١/ ٢٤٤ شاكر).

الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لابد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1]، والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لابد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور.

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾[2] أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم.

وقال بعض العلماء: العفو: نقيض الجهد، وهو أن ينفق مالًا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع. ومنه قول الشاعر:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

وهذا القول راجع إلى ما ذكرنا، وبقية الأقوال ضعيفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[3] فنهاه عن البخل بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فيتعين الوسط بين الأمرين، كما بينه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[4] فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد. فالجود: غير التبذير، والاقتصاد: غير البخل. فالمنع في محل الإعطاء مذموم. وقد نهى اللَّه عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ والإعطاء في محل المنع مذموم أيضًا وقد نهى اللَّه عنه نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ وقد قال الشاعر:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت ... يداه كالمزن حتى تخجل الديما

فإنها فلتات من وساوسه ... يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

وقد بين تعالى في مواضع أخر: أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي اللَّه. كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[5] الآية، وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي اللَّه حسرة على صاحبه في قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[6] الآية وقد قال الشاعر:

---

(١) البقرة: الآية (٢١٩).
(٢) الأعراف: الآية (٩٥).
(٣) الإسراء: الآية (٢٩).
(٤) الفرقان الآية (٦٧).
(٥) البقرة: الآية (٢١٥).
(٦) الأنفال: الآية (٣٦).

إن الصنيعة لا تعد صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن اللَّه تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فالظاهر في الجواب واللَّه تعالى أعلم، ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالًا، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعًا. وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة. كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب وترك الفرض لقوله: ﷺ «**وابدأ بمن تعول**»[2]، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة وكان واثقًا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وأما على القول بأن قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني به الزكاة. فالأمر واضح، والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إقامة الصلاة والإنفاق

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق اللَّه سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن

---

(١) الحشر: الآية (٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠) والبخاري (٣/ ٣٧٦/ ١٤٢٨) والنسائي (٥/ ٦٦/ ٢٥٣٣) من حديث أبي هريرة وفي الباب عن ابن عمر وحكيم بن حزام وغيرهما رضي الله عنهم.

(٣) أضواء البيان (١/ ٤٥-٤٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١١٩) والبخاري (١/ ٦٧-٦٨/ ٨) ومسلم (١/ ٤٥/ ١٦) والترمذي (٥/ ٧/ ٢٦٠٩) والنسائي (٨/ ٤٨١-٤٨٢/ ٥٠١٦)، من طرق عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فاته خشوع الصلاة، لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعا، بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة، ازداد خشوعا، وكلما قل خشوعه، اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقة العبودية، والله سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾[١] وقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾[٢] وقال: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾[٣] وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ﴾[٤] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ﴾[٥] وقال لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾[٦] فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقرونًا بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر رضي الله عنه: (الحاج قليل، والركب كثير) فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويج تحلة القسم، ويقولون: يكفينا أدنى ما يقع عليه الاسم، وليتنا نأتي به، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم، فتعرضها على الرب جل جلاله بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم، فليس من عمد إلى أفضل ما يقدر عليه، فيزينه ويحسنه ما استطاع، ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه، كمن يعمد إلى أسقط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع، وليس من كانت الصلاة ربيعًا لقلبه وحياة له، وراحة وقرة لعينه وجلاء لحزنه وذهابًا لهمه وغمه ومفزعًا إليه في نوائبه ونوازله كمن هي سحت لقلبه، وقيد لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه، فهي كبيرة على هذا، وقرة عين وراحة لذلك»[٧].

قال الحافظ: «والزكاة أمر مقطوع به في الشرع يستغنى عن تكلف الاحتجاج له، وإنما وقع الاختلاف في بعض فروعه، وأما أصل فرضية الزكاة فمن جحدها كفر»[٨]. اهـ

قال ابن علان: «وقوله (وإيتاء الزكاة) أي أهلها، فحذف للعلم به ورتبت هذه الثلاثة هكذا في سائر الروايات لأنها وجبت كذلك، إذ أول ما وجب الشهادتان ثم

---

(١) البقرة: الآية (٤٣).
(٢) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٣) النساء: الآية (١٠٣).
(٤) النساء: الآية (١٦٢).
(٥) إبراهيم: الآية (٤٠).
(٦) طه: الآية (١٤).
(٧) كتاب الصلاة (ص: ١٧٠-١٧١).
(٨) الفتح (٣/ ٣٣٥).

الصلاة ثم الزكاة، قال بعضهم وفرضها سابق فرض الصوم السابق لفرض الحج اهـ لكن قال بعض المتأخرين المطلعين على الفقه والحديث لم يتحرر لي وقت فرض الزكاة، أو تقديمًا للأفضل فالأفضل، والأوكد فالأوكد»[١].

قلت: الصلاة من الأمانات الكبرى التي تحملها الإنسان في كل الديانات السماوية، فقد وصف اللَّه تعالى في كتابه كل نبي بإقامة الصلاة، فمثلًا ذكر اللَّه عن إبراهيم قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[٢]، وعنه وعن ابنيه إسحاق ويعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[٣] وعن ابنه إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾[٤]، وقال تعالى عن شعيب: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[٥]، وقال تعالى عن موسى وهارون: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]، وقال عن زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾[٧]، وقال عن عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٨]، ونبينا محمد ﷺ أخذ صلاته من ربه في سفرته المباركة، التي ما عرفت سفرة أبرك منها في تاريخ البشرية. فكانت الصلاة قرة عين الرسول ﷺ، وكانت مفزعه في كل ملمة تنزل به، وكانت سلاحه العظيم في كل غزواته التي كان يواجه فيها أعداءه، منها كان يستمد قوته في ليله ونهاره، وسفره وحضره، وكان ﷺ يقف فيها وقوف الخاشع المناجي الخاضع الذليل الشكور، فهي فرحته وهي كمال عبوديته؛ بل العبودية يتجلى كمالها في الصلاة، فكل ما ذكر للصلاة من أسباب وشروط وحرص على أوقاتها والتجمع لها، فكل ذلك دليل على حبها وكرامتها، والمحروم من حرمها، والمخذول من أبعد عنها، وجوارح وأعضاء لا تسخر لإقامتها؛ فجوارح الحيوانات لا شك أفضل منها، فاللَّه تعالى وصف الحيوانات أنها كلها تسبح

---

(١) الفتوحات الربانية (٧/ ٣٤٦).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٠).
(٣) الأنبياء: الآيتان (٧٢ و ٧٣).
(٤) مريم: الآية (٥٥).
(٥) هود: الآية (٨٧).
(٦) يونس: الآية (٨٧).
(٧) آل عمران: الآية (٣٩).
(٨) مريم: الآية (٣١).

بحمده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١]، فإقامة الصلاة بسننها وأركانها وظاهرها وباطنها والصبر على أدائها لهو علامة على صدق توحيد المسلم. ونقرها وأداؤها بما لا يليق بها؛ فهو نفاق وبعد عن الصدق ومراتب الصديقين والشهداء والصالحين كما قال الله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

وأي أمة لا تقيم للصلاة وزنًا، ولا تلقي لها بالًا، ولا تظهر العناية بها بحفظها والمحافظة عليها؛ فهي أمة لا خير فيها. فالصلاة عند من لهم بها عناية من أهل الإسلام يقيمون لها المحتسبين، ويراقبون الناس فيها، ويجبرونهم على أدائها، ومن ثبت عنه التخلف والترك عوقب بما يستحق من العقاب، فاللَّه -تبارك وتعالى- جعل التمكين ودوام الدولة بإقام الصلاة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٣].

وأما إخراج جزء من مال المسلم سواء كان في حق واجب، أو في مواساة محتاج أو فقير، أو في أي صورة من صور الإنفاق التي جاءت نصوص القرآن والسنن بعرضها مفصلة، فهي عبودية مالية شقيقة الصلاة، فتلك عبودية بالبدن وهذه عبودية بالمال، فبين مستقل ومستكثر، والتقصير في الممكن لا عذر فيه. فأصحاب الحقوق مرتبطون بصاحبهم ومنتظرون لاستيفاء حقوقهم، فالتأخر عن ذلك يسبب مفاسد كثيرة عاجلة وآجلة، فحقوق الزوجات والأبناء والآباء مما لا عذر فيه لمن قدر على ذلك، وحقوق الأقارب والمسلمين عمومًا، وحقوق الدعاة والمتفرغين لنصرة الإسلام والمسلمين، فكل ذلك داخل في الواجبات أو قريب منها، فاللهم وفقنا لأداء الحقوق وربط الجوارح كلها بعبودية المعبود الواحد الأحد الذي لا يقبل الشركة في عبوديته، وصرف شيء من ذلك لغيره من أعظم الظلم، بل هو الظلم بكل أصوله وفروعه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٤].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٤٤).
(٢) النساء: الآية (١٤٢).
(٣) الحج: الآية (٤١).
(٤) لقمان: الآية (١٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

يوقنون: اليقين: الأمر الثابت الذي لا شك فيه. أصله من: يقن الماء إذا سكن وثبت. ويوقنون: يعلمون بدون شك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[(١)]. فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله، على غير مراد اللّه ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيمانًا حقيقيًّا.

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة. ويتضمن الإيمان بالكتب، الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصا التوراة والإنجيل والزبور. وهذه خاصية المؤمنين، يؤمنون بالكتب السماوية كلها، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ و(الآخرة) اسم لما يكون بعد الموت. وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان. ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل. و(اليقين) هو العلم التام، الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل»[(٢)].

---

(١) النساء: الآية (١١٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣-٤٤).

وقال محمد رشيد رضا: «هذه هي الطبقة الثانية من المتقين، وأعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين الطبقتين. وهذه الطبقة أرقى من الطبقة الأولى لأن أوصافها تقتضي الأوصاف التي أجريت على تلك وزيادة، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى، ومعنى كونه هدى لها أنه يكون إمامها في أعمالها وأحوالها، لا تحيد عن النهج الذي نهجه لها، كما ذكرنا.

ما كل من أظهر الإيمان بما ذكر مهتد بالقرآن. فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى، وترى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال: هو كلام اللَّه ولا شك. ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن نراها مباينة له كل المباينة. القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتأثم من الكذب. القرآن يأمر بالفكر والتدبر وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾[1] لا يفكر في أمر آخرته، ولا في مستقبله ولا مستقبل أمته، ولا يتدبر الآيات والنذر، ولا الحوادث والعبر.

إن المؤمن الموقن المذكور في الآية الكريمة هو الذي يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ما هدى إليه القرآن دائمًا، ويجعله معيارًا يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق ليتبين هل هو مهتد به أم لا؟ مثال ذلك الصلاة يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقال في المصلين: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2].

فبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التي تكاد تكون فطرية، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، ولم يقتلع من نفسه جذور الجبن والهلع، وتصطلم جراثيم البخل والطمع، فليعلم أنه ليس مصليًا في عرف القرآن، ولا مستحقًّا لما وعد عباده الرحمن.

أما لفظ الإنزال؛ فالمراد به ما ورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الإلهي الأسمى، وسمي إنزالًا لما في جانب الألوهية من ذلك العلو: علو الرب على المربوب، والخالق على المخلوقين، الذين

(١) الذاريات: الآية (١١).

(٢) المعارج: الآيات (١٩-٢٢).

لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيدا خاضعين»[١].

قلت: وفي كلمة الشيخين المفسرين من الفوائد ما ينبغي العض عليه بالنواجذ، فالشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ بين منهاج المبتدعة في التعامل مع نصوص القرآن والسنة، فإنه إذا خالف الحق منهاجهم الفاسد، لجؤوا إلى التلاعب به كما فعلت الجهمية بنصوص الصفات، فصرفوها عن حقائقها وفسروها بلوازمها وذلك يسقط معناها الحقيقي، فتبقى الصفة عارية من مدلولها، ولا يفهم منها إلا لازمها، وهذا غاية الضلال. ولهذا تجد كل متأول عنده من معاذير التأويل ما يفيد الإنكار وعدم القبول للنص، فيرده بهذه الطرق الملتوية ولا يجرؤ على التصريح بذلك خوفًا من سطوة العلماء، ومن سيوف الحكام القائمين للَّه بإقامة العدل، وإيزاع الناس بالسلطان؛ فالجبرية وفي مقابلهم المعتزلة والمرجئة والرافضة والصوفية تجد في مناهجهم وكتبهم من طوام التأويل ما يظهر للمتأمل بطلانه.

وأما الشيخ محمد رشيد رضا فبَيَّن حقيقة مهمة، وهي عدم ظهور آثار القرآن على أصحابه؛ فالقرآن هو الهدى، ويهدي للتي هي أقوم، وحاملوه مخالفون لأولويات أهدافه، كما هو واقع في حفاظه الآن، الذين تجدهم في أضرحة المقبورين، يقع منهم من الشرك والأفعال المشينة التي لا تليق بأجهل الناس، وتجد بعضهم تاركًا للصلاة، وموبقاتهم ومخالفتهم لوصايا القرآن وتوجيهاته واضحة لمن تدبر القرآن. فكما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[٣]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، وهكذا تتوارد آيات كتاب اللَّه في وصف الذين لم ينتفعوا بهدايته بأوصاف شنيعة هي واقع الكثيرين من أهل القرآن في هذا الوقت، وأما الإيمان باليوم الآخر فتقتضيه العقول والفطر السليمة، وقدرة اللَّه أكبر من ذلك، فالذي أوجد هذه الدار الصغيرة فقدرته على إيجاد أكبر منها أقدر وأكبر؛ فالذي خلق الجمعة أقدر على خلق السبت

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٣١-١٣٢).
(٢) الإسراء: الآية (٨٢).
(٣) فصلت: الآية (٤٤).
(٤) التوبة: الآيتان (١٢٤ و ١٢٥).

والأحد، والذي خلق الآباء أقدر على خلق الأبناء، والذي أوجد أكبر النباتات أقدر على أصغرها، وهكذا لو تتبع العاقل آثار قدرته تعالى في الكائنات لما استبعد إيجاده ليوم آخر، غير هذه الأيام المعدودات التي تفنى وتنتهي بانتهاء أعدادها، ويدخل المسلم في يوم آخر لا نهاية لحده كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة. كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1]، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[2] إلى غير ذلك.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الإيمان بالأنبياء وبالكتب كلهم

* عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه ﷺ قال: «**ثلاثة لهم أجران، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق اللّه وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ من سورة القصص[4].

* * *

(١) الأعلى: الآيتان (١٦ و ١٧).	(٢) العنكبوت: الآية (٦٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥-٤٠٢-٤٠٥-٤١٤) والبخاري (١/ ٢٥٢/ ٩٧) ومسلم (١/ ١٣٤-١٣٥/ ١٥٤) وأبو داود (٢/ ٥٤٣/ ٢٠٥٣) مختصرا دون ذكر موضع الشاهد، والترمذي (٣/ ٤٢٤/ ١١١٦) والنسائي (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤) وابن ماجه (١/ ٦٢٩/ ١٩٥٦).

(٤) القصص: الآية (٥٤).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

المفلحون: الفلاح: النجاح والفوز بما فيه صلاح الحال. قال الشاعر:

اعْقِلِي إن كنتِ لما تَعْقِلِي فَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كانَ عَقَلْ

أصله: من الفَلْح. ومعناه في اللغة: الشقّ والقَطْع. ومنه قيل للأَكَّار: فلاح، لكونه يشقّ الأرض للحرث. قال الشاعر:

لقد عَلِمْتَ يا بن أم صَحْصَحْ أنّ الحديدَ بالحديدِ يُفْلَحْ

أي: يشق.

وقيل: أصل الفلاح البقاء. قال الشاعر:

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يدرك بالضـ ـعفِ وقد يُخَدَّعُ الأَرِيبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على هدى عظيم؛ لأن التنكير للتعظيم.

وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟!!. وهل الهداية في الحقيقة، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها، فهي ضلالة.

وأتى بـ(على) في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ(في) كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من

---

(١) سبأ: الآية (٢٤).

المرهوب. حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار، التي تفضي بسالكها إلى الهلاك»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ . . وهم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة، لا مطلق الإيمان بالغيب إجمالًا، ويرشد إلى التغاير بين مرجع الإشارتين ترك ضمير الفصل «هم» في الأولى وذكره في الثانية. ولو كان المشار إليه واحدًا لذكر الفصل في الأولى؛ لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام، فهو خاص بهم دون سواهم، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم. . فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله. وبإتباع هذا الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة، ويدخل في هذا كله ترك الكذب والزور، وتزكية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهلع والبخل والجور والقسوة، وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة، وارتكاب الفواحش والمنكرات، والانغماس في ضروب اللذات. كما يدخل فيه الفضائل التي هي أضداد هذه الرذائل المتروكة، وجميع ما سماه القرآن عملًا صالحًا من العبادات وحسن المعاملة مع الناس، والسعي في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ما حدده الشرع القويم، والاستقامة على صراطه المستقيم.

وجملة القول: أن الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ هو الإيمان بالدين الإسلامي جملة وتفصيلًا، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به فلا يسع أحدًا جهله، فالإيمان به إيمان، والإسلام لله به إسلام، وإنكاره خروج من الإسلام، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامي وواسطة الوحدة الإسلامية، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فموكول إلى اجتهاد المجتهدين، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مثار اختلاف في الدين»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤-٤٥).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٣٦-١٣٧).

قلت: لا شك في نفاسة هذا الكلام ووضوحه في أن الدين هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب وسنة وأصول وفروع، فما وضحت دلالته وصح سنده فلا تجوز مخالفته، وما كان في أمر عقدي أو في عبادة من العبادات أو في حلال أو حرام فيجب الانقياد له وعدم مخالفته، وما كان فيه خلاف تنوع فالأمر فيه واسع، كأذكار الاستفتاح وأذكار الركوع والسجود وغيرها مما تنوعت فيه الصيغ، وكذلك ما اختلف في سنده أو احتملت دلالة لفظه، أو لم يترتب عليه مخالفة عقدية أو منهجية فالأمر فيه أيضًا واسع؛ كالنزول على الركب والأيدي وغيرها، مما الخلاف فيه معتبر وسائغ، ولا يترتب عليه أي مفسدة.

ومن تتبع كتب الآثار كمصنف عبد الرزاق وابن أبي شيبة اتسعت دائرة معارفه، وتبين له أن السلف قد اختلفوا في كثير من المسائل، لكن دون مساس بالمعتقد والمسائلِ الكبرى التي اتضحت دلالة نصوصها، والمخالف فيها مبتدع، كآيات الصفات والقدر، ووجوب اتباع النبي ﷺ، فالعدول عنها عدول عن الأصول، ومشاقة لسبيل المؤمنين.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

كفروا: الكفر: خلاف الإيمان. أصله: الستر والتغطية. ومنه سمي الزارع كافرًا لتغطيته البذر في الأرض. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[1]. يعني: الزُّرّاع. وسمي الليل كافرًا لتغطيته كل شيء بسواده. قال ثعلبة بن صعير المازني وهو يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس. :

فَتَذَكَّرَا ثقلا رثيدا بعدما ... أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

قال السمين: «ذُكاءُ هي الشمس، والكافر الليل. وهذا من أحسن الاستعارات حيث استعار للشمس يمينًا. وأخبرنا عنها بأنها أَلْقَتْهَا في الليل يعني بذلك غيبوبتها»[2].

أنذرتهم: الإنذار: إعلام مع تخويف. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾[3]. أي: خَوِّفْهُم. وشرطه أن يتسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه كان إشعارًا. وتناذَرَ القومُ: خوَّفَ بعضُهُم بعضًا. قال الشاعر:

أنذرتَ عَمْرًا وهو في مهل ... قبل الصباح فقد عصى عَمْرُو

ختم: أي: طبعَ، والخَتْمُ: التغطية على الشيء حتى لا يدخلَهُ شيء. ومنه الخاتم، وهو الطّابَعُ.

قلوبهم: القلوب: جمع قلب، وسمي بذلك لِتَقَلُّبِهِ بالخواطر. من قَلَبْتُ الإناءَ: إذا ردَدْتُه على وجهه. قال الشاعر:

---

(١) الحديد: الآية (٢٠).

(٢) عمدة الحفاظ، مادة: كفر.

(٣) غافر: الآية (١٨).

ما سُمّيَ القلبُ إلا من تَقَلُّبِهِ والرأي يَصْرِفُ، والإنسانُ أَطْوَارُ

غشاوة: الغشاوة: الغطاء الشامل. والتَّغْشِيَة: الستر والتغطية. ومنه غَاشِيَةُ السَّرْح، وهي غطاؤه. قال الشاعر:

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عليها غِشاوَةٌ فلما انجَلَتْ قَطَّعْتُ نفسي أَلُومُهَا

عذاب: العذاب: العقوبة المؤلمة والإيجاع الشديد. أصله من الحبس والمنع. وسميت كذلك باعتبار منعها المرء من معاودة ما عوقب عليه. ومنه الماء العذب لأنه يعذب العطش؛ أي: يمنعه. وكل من منعته شيئًا فقد أعذبته. وفي المثل: «لأُلْجِمَنَّكَ لجامًا معذبًا»؛ أي: مانعًا عن ركوب الناس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أقول: هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن، وقد قطعه وفصله مما قبله فلم يعطفه عليه للإشارة إلى ما بينهما من طول شقة الانفصال، وعدم المشاركة في شيء ما، بخلاف القسم الثالث الآتي فإن لهم حظا منه في الدنيا ولمن يتوب منهم حظ في الآخرة أيضا»[1].

وقال: «فكل من هذه الفرق ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ الإنذار الإخبار والإعلام بالشيء المقترن بالتخويف مما يترتب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك لأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصا أو اقتضاء، والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء. والمعنى: إن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المستعدين للإيمان لرسوخهم في الكفر، يستوي الإنذار وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع، فالذي يعرض عن النور مع العلم به ويغمض عينيه كيلا يراه بغضًا له لذاته أو تأذيًا به، أو عنادا وعداوة لمن دعاه إليه -ماذا يفيده النور، وماذا يعيب النور من أعراضه؟ والذي لا يعرف النور ولا يحب أن يعرفه لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أنآه عنه وأبعده، وجعله يألف الظلمة كالخفاش، أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لا يميز بين نور وظلمة، ولا بين نافع وضار، ولا بين لذيذ ومؤلم، ماذا عساه يفيده النور مهما

(١) تفسير المنار (١/ ١٣٩).

سطع؟ أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أقول: هذه جملة مفسرة لتساوي الإنذار وعدمه في حقهم لا في حقه ﷺ وحق دعاة دينه، فهم يدعون كل كافر إلى دين اللَّه الحق لأنهم لا يميزون بين المستعد للإيمان وغير المستعد له؛ إذ هو أمر لا يعلمه إلا اللَّه تعالى»[1].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ الآية، لا يخفى أن الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ محتملة في الحرفين أن تكون معطوفة على ما قبلها، وأن تكون استئنافية. ولم يبين ذلك هنا، ولكن بين في موضع آخر أن قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وأن قوله ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ استئناف، والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو (غشاوة)، وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها. ولذلك يجب تقديم هذا الخبر؛ لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ كما عقده في الخلاصة بقوله:

ونحو عندي درهم ولي وطر ... ملتزم فيه تقدم الخبر

فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾[2] والختم: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه ولا يدخل فيه خارج عنه، والغشاوة: الغطاء على العين يمنعها من الرؤية. ومنه قول الحارث بن خالد بن العاص:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها»[3].

وقال القرطبي: «في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن اللَّه سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤٢).

(٢) الجاثية: الآية (٢٣).

(٣) أضواء البيان (١/ ٤٧-٤٨).

أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد اللَّه إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1] وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقًّا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

فإن قالوا: إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون، لا الفعل. قلنا: هذا فاسد؛ لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعًا مختومًا؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعًا ومختومًا، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة، ولأن الأمة مجمعة على أن اللَّه تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2]. وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي ﷺ والملائكة والمؤمنين ممتنع، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك. فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنى يخلقه اللَّه في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[3]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[4]؛ أي: يفقهوه، وما كان مثله»[5].

قلت: كلام القرطبي كلام نفيس، وفيه رد على أهل الضلال من المعتزلة القدرية، الذين يجرؤون على اللَّه جرأة خبيثة لا تليق بمسلم يقدر اللَّه حق قدره، فالخلق كله له والأمر كله له. وكل نص جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ يجب أن يحمل على كل معانيه وما دل عليه، ولا يحاول فصله عن حقيقته بفلسفة، كهذه التي ذكرها القرطبي عن هؤلاء الأرجاس الأنجاس، بالتدخل في فهم الطبع والختم بما لا يليق به، فظاهر الآية أن اللَّه تعالى طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل الغشاوة

---

(١) الزمر: الآية (٢٣).
(٢) النساء: الآية (١٥٥).
(٣) الحجر: الآيتان (١٢ و ١٣).
(٤) الأنعام: الآية (٢٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٠-١٣١).

على أبصارهم، فلم تنفذ الهداية لهم، ولله في ذلك حكم يعلمها هو سبحانه.

قال ابن جرير: «فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في قوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[1] نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلِّها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضِّه خاتمه وحله رباطه عنها»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم وصف سبحانه فقدهم لهذا الاستعداد، ورسوخهم في الكفر الذي لم يبق معه محل لغيره بهذا التعبير البليغ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ .. وأقول: إن مراده أن هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الإيمان ومحاسنه. ختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غير ما رسخ فيها، وعلى أسماعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه، وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ جملة معطوفة على جملة (ختم) والغشاوة ما يغطى به الشيء ومعنى هذه المادة: غ ش ي -التغطية والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة الدالة على الإيمان، فكل من الفريقين لا يرجى إيمانه. وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى؛ لأنه بيان لسنته تعالى في أمثالهم، وعبر عنه بالماضي للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم؛ بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره؛ كما تقدم مثله عن الراغب. ويوضح ما قلناه قوله تعالى في سورة المنافقين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3] وقوله في اليهود من سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

---

(١) البقرة: الآية (٧). (٢) ابن جرير (١/ ١١٣).

(٣) المنافقون: الآية (٣).

قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها إليهم، وقوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢] فقد ذكر من فعله المسند إليه أنه اتخذ إلهه هواه، ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء. وقد صرح هنا بأن الغشاوة على بصره من جعل اللَّه تعالى ولم يصرح بذلك في آية البقرة التي نفسرها، والمعنى واحد»[٣].

وقال: «﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . . وتنكير العذاب هنا للإشارة إلى أنه نوع منه مبهم مجهول عند أهل الدنيا، بناء على أن المراد به عذاب الآخرة التي هي من عالم الغيب. وقال شيخنا تبعا للجمهور: التنكير فيه للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كما وكيفا، فهو شديد الإيلام، وطويل الزمان. وهل هذا العذاب في الدنيا أم في الآخرة؟ قال في آية أخرى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الإعراض عن هدي الإسلام، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد، جزاؤه الضنك والضيق وفقد العزة والسلطة في الدنيا، والعذاب العظيم في العقبى»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الكفر والمعصية والنفاق والبدع تحجز الحق عن القلوب

* عن حذيفة قال: كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول اللَّه ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره، قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت للَّه أبوك!، قال حذيفة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب**

---

(١) النساء: الآية (١٥٥).
(٢) الجاثية: الآية (٢٣).
(٣) تفسير المنار (١/ ١٤٢-١٤٤).
(٤) تفسير المنار (١/ ١٤٧).

أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه» قال حذيفة وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يكسر، قال عمر: أكسرًا لا أبا لك، فلو أنه فتح لعله كان يعاد، قلت: لا، بل يكسر، وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثًا ليس بالأغاليط، قال أبو خالد فقلت لسعد: يا أبا مالك، ما أسود مربادًّا؟ قال: شدة البياض في سواد، قال قلت: فما الكوز مجخيًا؟ قال: منكوسًا[(١)].

★ غريب الحديث:

نكتت فيه نكتة: أي أثر قليل كالنقطة، شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما.

الكوز: كوب بعروة، فإذا كان بلا عروة فهو كوب.

مجخيًا: قال الهروي: المجخي: المائل.

مربادًّا: قال أبو عبيد: الرُبدة: لون بين السواد والغبرة.

قوله ﷺ: (أشربها): قال القاضي في الإكمال:

«أي حلت فيه محل الشراب كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[(٢)]: أي حب العجل".

★ فوائد الحديث:

قوله: **(عودًا عودًا)** قيد ثلاث تقييدات، بفتح العين والذال المعجمة. والثاني بضم العين وفتح الدال المهملة، والثالث بفتح العين والدال المهملة.

قال القرطبي: «فمعنى التقييد الأول سؤال الإعاذة، كما يقال: غفرا غفرا؛ أي: اللهم اغفر، اللهم اغفر. وأما التقييد الثاني فمعناه: أن الفتن تتوالى واحدة بعد أخرى كنسج الحصير عودًا بإزاء عود، وشطبة بإزاء شطبة، أو كما يناول مهيئ القضبان للناسج عودًا بعد عود. وأما التقييد الثالث، فمعناه قريب من هذا؛ يعني: أن الفتنة كلما مضت عادت، كما يفعل ناسج الحصير كلما فرغ من موضع شطبة أو

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦-٤٠٥) ومسلم (١/ ١٢٨-١٣٠/ ١٤٤). والحديث عند البخاري (٢/ ٩/ ٥٢٥) مختصرا دون ذكر الشاهد.

(٢) البقرة: الآية (٩٣).

عود، عاد إلى مثله. والمعنى الثاني أمكن وأليق بالتشبيه، والله أعلم»[١].

قوله: «**على قلبين أبيض مثل الصفا**».

قال القاضي: «ليس تشبيهه بالصفا لما تقدم من بياضه، لكن أخذ في وصف آخر من شدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، بخلاف الآخر الذي شبهه بالكوز الخاوي الفارغ من الإيمان، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[٢] قيل: لا تعي خيرًا»[٣].

قوله: «**كالكوز مجخيًا**».

قال القاضي عياض: «قال لي ابن سراج: ليس قوله كالكوز مجخيًا شبيه[٤] لما تقدم من سواده، لكنه أخذ في وصف آخر من صفاته من أنه قُلِبَ ونُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة وَمَثَّلَه بالكوز المجخى، يُبَيِّنُه قوله: لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. وقال أبو عبيد: المجخى: المايل، ولا أحسبه أراد بميله إلا أنه منخرق الأسفل، شبه به القلب الذي لا يعي خيرًا كما لا يثبت الماء في الكوز المنخرق»[٥].

وأيده في هذا الاستدراك القرطبي في المفهم فقال:

«ولا يحتاج إلى هذا التقدير والتكلف، فإنه إذا كان مقلوبًا منكوسًا -كما قال سعد- لم يثبت فيه شيء وإن لم يكن منخرقًا، وقد فسره سياق الكلام حيث قال: لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»[٦]. اهـ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئًا فشيئًا.

وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: (**كالكوز مجخيًا**) أي مكبوبًا

---

(١) المفهم (١/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) إبراهيم: الآية (٤٣).

(٣) الإكمال ١/ ٤٥٣).

(٤) كذا في الأصل، والصواب: «شبيهًا».

(٥) الإكمال (١/ ٤٥٤).

(٦) المفهم (١/ ٣٦١).

منكوسًا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك: أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًّا.

الثاني: أن تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل.

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد»[1].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه! وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر اللَّه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]**»[3].

★ غريب الحديث:

نزع: أقلع وانتهى عن الذنب.

سقل: بالسين المهملة على البناء للمفعول وفي رواية أحمد صقل بالصاد. قال في القاموس: السقل: الصقل قال في صقله: جلاه.

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «**نكتت في قلبه نكتة سوداء**»

قال القاري: «أي: حدثت فهي تامة، والنكتة: الأثر. وفي نسخة بالنصب، فالضمير راجع إلى السيئة المدلول عليها بالذنب. قال الطيبي قوله: كانت نكتة

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٦-١٧).

(٢) المطففين: الآية (١٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) والترمذي (٥/ ٤٠٤/ ٣٣٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٤) والحاكم (٢/ ٥١٧) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

أي: الذنب بتأويل السيئة، وروي برفع نكتة على أن كان تامة فيقدر منه أي: من الذنب. **(في قلبه)**: أي: كقطرة مداد تقطر في القرطاس، ويختلف على حسب المعصية وقدرها، والحمل على الحقيقة أولى من جعله من باب التمثيل والتشبيه حيث قيل: شبه القلب بثوب في غاية النقاء والبياض، والمعصية بشيء في غاية السواد أصاب ذلك الأبيض، فبالضرورة أنه يذهب ذلك الجمال منه، وكذلك الإنسان إذا أصاب المعصية صار كأنه حصل ذلك السواد في ذلك البياض، **(فإن تاب)** أي: من الذنب **(واستغفر)** أي: أناب إلى الرب، وليس المراد أن لفظ الاستغفار شرط لصحة التوبة خلافًا لمن توهمه، وإنما المراد أنه كمال فيها **(صقل قلبه)**: على بناء المجهول أي: نظف وصفي مرآة قلبه لتجليات ربه؛ لأن التوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب وسواده حقيقيًا أو تمثيليًا. وأغرب ابن حجر حيث قال: وهذا من باب التمثيل بلا شك. **(وإن زاد)** أي: في الذنب أي: بعينه أو بغيره من الذنوب **(زادت)** أي: النكتة السوداء، أو يظهر لكل ذنب نكتة **(حتى تعلو)** أي: النكت **(قلبه)** أي: تطفئ نور قلبه فتعمي بصيرته، فلا يبصر شيئًا من العلوم النافعة والحكم الرائعة، وتزول عنه الشفقة والرحمة على نفسه وعلى سائر الأمة، ويثبت في قلبه آثار الظلمة والفتنة والجراءة على الأذية والمعصية»[1].

وقال المناوي: «**(حتى تعلو على قلبه)** أي: تغطيه وتغمره وتستر سائره كمرآة علاها الصدأ فستر سائرها، وتصير كمنخل وغربال لا يعي خيرا ولا يثبت فيه خير، ومن ثم قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر؛ أي: رسوله باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته يصير لا يقبل خيرا قط فيقسو ويخرج منه كل رأفة ورحمة وخوف، فيرتكب ما شاء ويفعل ما أراد، ويتخذ الشيطان وليًّا من دون اللَّه فيضله ويغويه ويعده ويمنيه ولا يقنع منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلًا ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[2] **(وهو الران)** أي الطبع **(الذي ذكره الله)** تعالى في كتابه بقوله -عز قائلًا-: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ أي غلب واستولى ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ الصدأ والدنس ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3] من الذنوب، قال

---

(١) المرقاة (٥/ ١٧٢-١٧٣).
(٢) النساء: الآية (١١٩).
(٣) المطففين: الآية (١٤).

القاضي المعنى بالقصد الأول في التكليف بالعمل الظاهر والأمر بتحسينه والنهي عن قبيحه هو ما تكتسب النفس منه من الأخلاق الفاضلة والهيئات الذميمة، فمن أذنب ذنبا أثر ذلك في نفسه وأورث لها كدورة فإن تحقق قبحه وتاب عنه زال الأثر، وصارت النفس صقيلة صافية، وإن انهمك وأصر زاد الأثر، وفشا في النفس واستعلى عليها فصار طبعًا وهو الران، وأدخل التعريف على الفعل لما قصد به حكاية اللفظ فأجرى مجرى النفس، وشبه ثائر النفس باقتراف الذنوب بالنكتة السوداء من حيث كونهما يضادان الجلاء والصفاء، وأنَّثَ الضمير الذي في كانت العائد لما دل عليه أذنب لتأنيثها على تأول السيئة، إلى هنا كلامه، قال الطيبي وروي نكتة بالرفع على أن كان تامة، فلا بد من الراجع؛ أي: حدث نكتة منه أي من الذنب، قال المظهري: وهذه الآية نازلة في حق الكفار، لكن ذكرها في الحديث تخويفا للمؤمنين ليحترزوا عن كثرة الذنوب؛ لأن المؤمن لا يكفر بكثرتها لكن يسود قلبه بها فيشبه الكفار في اسوداده فقط»[(١)].

قال ابن العربي في العارضة: «الأصول في مسألتين:

الأولى: قد بينا حقيقة القلب وشرحنا قيام المعارف به بالله وسواه وأن الجوارح له تبع ولما يقوم به خدم وفي منبعه يصدر لها كل عمل وجاء في الشريعة أن الطاعات والمعاصي لها أثر في تنويره وإظلامه وهو خبر عن الشيء بفائدته. وحقيقة الحال أن الجهل يقوم بالقلب فيسري إلى الجوارح أثره فإذا قامت الجهالة بالقلب فهو نكتته التي أثرها المعصية الظاهرة على الجوارح فالمعصية دلالة على النكت التي كانت سبب المعصية فهكذا تنزيلها والله أعلم.

الثانية: إذا كان في القلب نكتة من نفاق فهو رين فإذا كان في غفلة أو ذهول أو نسيان فهو غين ونفح هذا هو الذي يعرو الأنبياء قال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي فأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»[(٢)] كما تقدم»[(٣)].

قلت: الكفر والمعصية والبدعة وكل ما يضاد التوحيد والسنة والاستقامة غالبًا

---

(١) فيض القدير ٢/ ٣٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢١١) ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢) وأبو داود (٢/ ١٧٧-١٧٨/ ١٥١٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٦/ ١٠٢٧٦) من حديث الأغر المزني ﷺ. (٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٣٤-٢٣٥).

ما يبدأ فيه بما يُحتقر من الأعمال، ثم ينمو شيئًا فشيئًا، ويغذى بروافد كثيرة تتجمع فيه، فتصبح واديا متكاثرا، فالإنسان لضعفه يتأثر بكل مؤثر، فلهذا جاءت النصوص الكثيرة في التحذير من الوقوع في المعصية وأسبابها، وجاء الإسلام يسد كل الذرائع التي تنفذ منها مصائب الشرك والكفر والمعصية والبدعة، وواقع الحال يؤيد ما ذكره اللَّه وما ذكره الرسول ﷺ، فمثلًا التلميذ في المدرسة يربى على مناهج باطلة، كلها إفساد له ولسلوكه ولدينه، والمعلم يكرس فيه ذلك، والأب والأم ينفقان عليه المال لتعلم ذلك، ووسائل الإعلام تطبع ذلك في قلبه وجوارحه، ومخالطة الأصدقاء والأصحاب والأقارب والأصهار تؤكد ذلك وتجعله برنامجًا عمليًّا، والمناسبات الزمانية والمكانية تجدد ذلك ببرنامج توكيدي، والأعمار تمضي، ويكبر الذكر والأنثى في كل هذه المستنقعات، فمن أين له أن يتخلص من هذه المحطات التي كلها فساد؟ فيصبح كما قال الرسول ﷺ: «**لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا**»[1] إلا من شاء اللَّه واختاره، وأخرج سلوكه ومنهاجه ومعتقده من هذه المواقع الفاسدة، فكلام اللَّه وكلام الرسول ﷺ تراه ماثلا في واقعك، وكأن آيات القرآن تنزل حالا وواقعا غضة طرية، وكأن رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا يتحدث ويحذر وينذر، وهكذا تتلاحق مصائد الكفر والذنوب والشرك والضلال ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) النور: الآية (٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

الناس: البشر والإنس. اختلف في اشتقاقه.

قيل: أصله نَوَس من ناس ينوس إذا تحرك. ومنه حديث أم زرع: «أناس من حلي أُذُنَيَّ» أي: حركهما بالحلي.

وقيل: أصله نَسِيَ من النسيان، وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾[1]. قال الشاعر:

فإن نسيتَ عهودًا منك سالفةً ... فاغفر فأَوَّلُ ناسٍ أَوَّلُ الناس

وقيل: أصله أَناسَ من الإيناس والأنس، قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ... ولا القلب إلا أنه يَتَقَلَّبُ

اليوم الآخر: يوم القيامة، سمي آخرًا لأنه لا يوم بعده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأجمع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم»[2].

وقال: «وتأويل ذلك: أن اللَّه -جل ثناؤه- لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمره في دار هجرته، واستقر بها قراره، وأظهر اللَّه بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذل بها من فيها من أهل الكتاب أظهر أحبار يهودها لرسول اللَّه ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن، حسدًا وبغيًا، إلا نفرا منهم هداهم اللَّه للإسلام فأسلموا، كما قال -جل

---

(١) طه: الآية (١١٥).

(٢) جامع البيان (١/ ٢٦٨).

ثناؤه-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، وطابقهم سرا على معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبغيهم الغوائل، قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه وكانوا قد عسوا في شركهم وجاهليتهم قد سموا لنا بأسمائهم، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم، وظاهروهم على ذلك في خفاء غير جهار، حذار القتل على أنفسهم، والسباء من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركونًا إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام. فكانوا إذا لقوا رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به من أصحابه قالوا لهم حذارًا على أنفسهم: إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق، ليدرأوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ما هم معتقدوه من شركهم. وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فخلوا بهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[2]. فإياهم عنى -جل ذكره- بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾»[3].

وقال ابن عاشور: «هذا فريق آخر وهو فريق له ظاهر الإيمان وباطنه الكفر وهو لا يعدو أن يكون مبطنًا الشرك أو مبطنًا التمسك باليهودية ويجمعه كله إظهار الإيمان كذبًا، فالواو لعطف طائفة من الجمل على طائفة مسوق كل منهما لغرض جمعتهما في الذكر المناسبة بين الغرضين، فلا يتطلب في مثله إلا المناسبة بين الغرضين لا المناسبة بين كل جملة وأخرى من كلا الغرضين. . واعلم أن الآيات السابقة لما انتقل فيها من الثناء على القرآن بذكر المهتدين به بنوعيهم الذين يؤمنون بالغيب والذين يؤمنون بما أنزل إليك إلى آخر ما تقدم، وانتقل من الثناء عليهم إلى ذكر أضدادهم وهم الكافرون الذين أريد بهم الكافرون صراحة وهم المشركون، كان السامع قد ظن أن الذين أظهروا الإيمان داخلون في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ فلم يكن السامع سائلًا عن قسم آخر وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الشرك أو غيره وهم المنافقون الذين هم المراد هنا بدليل قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الخ؛ لأنه لغرابته وندرة وصفه بحيث لا يخطر بالبال وجوده

---

(١) البقرة: الآية (١٠٩). (٢) البقرة: الآية (١٤).

(٣) جامع البيان (١/ ٢٧٠-٢٧١).

ناسب أن يذكر أمره للسامعين، ولذلك جاء بهذه الجملة معطوفة بالواو إذ ليست الجملة المتقدمة مقتضية لها ولا مثيرة لمدلولها في نفوس السامعين، بخلاف جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ترك عطفها على التي قبلها لأن ذكر مضمونها بعد المؤمنين كان مترقبًا للسامع، فكان السامع كالسائل عنه فجاء الفصل للاستئناف البياني»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة المنافقين

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

خصلة: أي شعبة من شعبه وجزء منه، أو حالة من حالاته.

فجر: أي شتم ورمى بالأشياء القبيحة.

قال القاري: «(**إذا اؤتمن**) بالبناء للمفعول أي وضع عنده أمانة (**خان**) أي بالتصرف الغير الشرعي (**وإذا حدث كذب**) أي عمدًا من غير عذر (**وإذا عاهد غدر**) أي نقض العهد ابتداء»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل. فنفاق الاعتقاد هو الذي أنكره اللَّه على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**»(٤) وفي الصحيح أيضًا: «**أربع من كن فيه كان**

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٩-١٩٨) والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤) ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨) وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨) والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢) والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥). من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) المرقاة (١/ ٢٢٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٧) والبخاري (١/ ١٢٠/ ٣٣) ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٩) والترمذي (٥/ ٢٠/ ٢٦٣١) والنسائي (٨/ ٤٩١/ ٥٠٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان» فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها، فهذا لا يكون إلا منافقًا خالصًا»[١]. اهـ

قال القرطبي: «وظاهر هذا الحديث أن من كانت هذه الخصال الثلاث فيه خرج عن الإيمان، وصار في النفاق الذي هو الكفر الذي قال فيه مالك: النفاق الذي كان على عهد رسول اللَّه ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم، وليس الأمر على مقتضى هذا الظاهر ولما استحال حمل هذا الحديث على ظاهره على مذهب أهل السنة اختلف العلماء فيه على أقوال:

أحدها: أن هذا النفاق هو نفاق العمل الذي سأل عنه عمر حذيفة لما قال له: هل تعلم فيَّ شيئا من النفاق؟ أي: من صفات المنافقين الفعلية، ووجه هذا: أن من كانت فيه هذه الخصال المذكورة كان ساترًا لها ومظهرًا لنقائضها، فصدق عليه اسم منافق.

وثانيها: أنه محمول على من غلبت عليه هذه الخصال واتخذها عادة، ولم يبال بها تهاونًا واستخفافًا بأمرها، فأي من كان هكذا كان فاسد الاعتقاد غالبًا، فيكون منافقًا خالصًا.

وثالثها: أن تلك الخصال كانت علامة المنافقين في زمانه، فإن أصحاب النبي ﷺ كانوا متجنبين لتلك الخصال بحيث لا تقع منهم، ولا تعرف فيما بينهم..»[٢]. اهـ

وأولى هذه التوجيهات القول الأول.

قال الإمام الترمذي بعد أن ساق الحديث: «وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول اللَّه ﷺ هكذا روي عن الحسن البصري شيء من هذا أنه قال: النفاق نفاقان: نفاق العمل، ونفاق التكذيب»[٣].

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص: ٥٩).

(٢) المفهم ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢١).

وأشار ابن حجر إلى حسن هذا القول فقال: «وأحسن الأجوبة ما ارتضاه القرطبي»[١].

⋆ تنبيه:

استدلال القرطبي على أن المراد بالنفاق في الحديث النفاق العملي بسؤال عمر لحذيفة فيه ما فيه، فإنه سأله قاصدا النفاق الحقيقي بدليل أن حذيفة كانت عنده أسماء المنافقين النفاق الحقيقي فكان سؤاله متوجها إلى ذلك.

قال التوربشتي: «من اجتمعت فيه تلك الخصال، واستمرت أحواله عليها، فبالحري أن يسمى منافقًا. وأما المؤمن المفتون بها؛ فإنه إن فعلها مرة تركها أخرى، وإن أصر عليها زمانًا أقلع عنها زمانا آخر، وإن وجدت فيه خلة عدمت منه أخرى»[٢]. اهـ

* * *

(١) الفتح ٥/ ١٢٢).

(٢) شرح الطيبي (٢/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ ﴾

★ **غريب الآية:**

يخادعون: الخداع: الحيلة والمكر، أصله: الإخفاء والإيهام بخلاف الحق، ومنه المخدع، موضع خفي في البيت يحرز فيه الشيء.

يشعرون: أي: يفطنون ويعلمون. تقول: شعرت كذا: إذا فطنت له وعلمت به. ومنه سمي الشاعر شاعرًا لفطنته ودقة معرفته بغريب المعاني. ومنه قولهم: «ليت شعري»؛ أي: ليتني عَلمتُ. وأصل المادة من شعر الإنسان. تقول: شعرتُ زيدًا: إذا أَصَبْت شَعَرَهُ. ثم استعير لما تقدم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وخداع المنافق ربه والمؤمنين، إظهاره بلسانه من القول والتصديق، خلاف الذي في قلبه من الشك والتكذيب، ليدرأ عن نفسه، بما أظهر بلسانه، حكم اللَّه ﷻ اللازم من كان بمثل حاله من التكذيب، لو لم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار من القتل والسباء. فذلك خداعه ربه وأهل الإيمان باللَّه.

فإن قال قائل: وكيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعا، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي هو في ضميره تقية لينجو مما هو له خائف، فنجا بذلك مما خافه مخادعًا لمن تخلص منه بالذي أظهر له من التقية. فكذلك المنافق، سمي مخادعا لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسباء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطن. وذلك من فعله وإن كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع؛ لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها، أنه يعطيها أمنيتها، ويسقيها كأس

سرورها، وهو موردها به حياض عطبها، ومجرعها به كأس عذابها، ومزيرها من غضب اللَّه وأليم عقابه ما لا قبل لها به. فذلك خديعته نفسه، ظنًّا منه مع إساءته إليها في أمر معادها أنه إليها محسن، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، إعلامًا منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون»[١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع. فهؤلاء المنافقون، سلكوا مع اللَّه وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم. وهذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل له مقصوده، أو يسلم، لا له ولا عليه. وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن اللَّه تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئًا، وعباده المؤمنون، لا يضرهم كيدهم شيئا. فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة. ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجع المفجع، بسبب كذبهم، وكفرهم، وفجورهم، والحال أنهم -من جهلهم وحماقتهم- لا يشعرون بذلك»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الخداع والمكر

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«المكر والخديعة والخيانة في النار»**[٣].

---

(١) جامع البيان (١/ ٢٧٢-٢٧٣). (٢) تفسير السعدي (١/ ٤٨-٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٤٤٦) معلقا بصيغة الجزم. وأخرجه موصولا الحاكم (٤/ ٦٠٧) واللفظ له من طريق يزيد ابن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك به وسكت عنه هو والذهبي وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٣/ ٤٧): «وإسناده حسن».

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٢/ ١٦٢) من طريق هشام بن عمار عن جراح بن مليح عن أبي رافع عن قيس بن سعد به. قال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٤٨): «وإسناده لا بأس به». وتابع هشامًا الهيثم بن خارجة عند البيهقي في الشعب (٤/ ٣٢٤/ ٥٢٦٨).

★ **غريب الحديث:**

قال الراغب: المكر والخديعة متقاربان وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «يعني صاحب المكر والخداع لا يكون تقيًّا ولا خائفًا لله لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع وذا لا يكون في تقي وكل خلة جانبت التقى فهي في النار»[١].

* * *

(١) فيض القدير (٦/ ٢٧٥).

قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

مرض: المراد: مرض الشكّ والنفاق والتكذيب. والمرض في الأصل: نقيض الصحة والعافية. يقال: فلان يُمَرِّضُ القول: إذا كان لا يصححه، والوعدَ: إذا كان لا يؤكده.

الأليم: بمعنى المؤلم؛ أي: الموجِعُ. قال ذو الرمة يصف إبلًا:

وتـرفَـعُ مـن صـدور شَـمَـرْدَلات يـصـكُّ وجـوهَـهـا وَهَـجٌ ألـيـم

أي: مؤلم.

يكذبون: الكذب: ضد الصدق. وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أن في قلوب المنافقين مرضًا، وإنما عنى -تبارك وتعالى- بخبره عن مرض قلوبهم، الخبر عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد: ولكن لما كان معلومًا بالخبر عن مرض القلب أنه معني به مرض ما هم معتقدوه من الاعتقاد، استغنى بالخبر عن القلب بذلك والكفاية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم. . والمرض الذي ذكر اللَّه -عز وجل ثناؤه- أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفنا هو شكهم في أمر محمد وما جاء به من عند اللَّه وتحيرهم فيه، فلا هم به موقنون إيقان إيمان ولا هم له منكرون إنكار إشراك، ولكنهم كما وصفهم اللَّه ﷻ مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كما يقال: فلان يمرض في هذا الأمر أي يضعف العزم ولا يصحح الرؤية فيه»[1].

(١) جامع البيان (١/ ٢٧٨-٢٨٠).

وقال: «قد دللنا آنفا على أن تأويل المرض الذي وصف اللَّه ثناؤه أنه في قلوب المنافقين هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم وما هم عليه -في أمر محمد رسول اللَّه ﷺ وأمر نبوته، وما جاء به- مقيمون.

فالمرض الذي أخبر اللَّه -جل ثناؤه- عنهم أنه زادهم على مرضهم نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة، فزادهم اللَّه بما أحدث من حدوده وفرائضه -التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين- من الشك والحيرة، إذ شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف، من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك. كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك، بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذ آمنوا به، إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه إيمانًا. كالذي قال -جل ثناؤه- في تنزيله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1]، فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم هما ما وصفنا. والتي زيدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينا. وذلك هو التأويل المجمع عليه»[2].

* * *

(١) التوبة: الآيتان (١٢٤ و ١٢٥).

(٢) جامع البيان (١/ ٢٨١-٢٨٢ شاكر).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تفسدوا: الإفساد: إحداث الفساد، وهو العدول عن الاستقامة إلى ضدها. نقيضه الصلاح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافيًا اطلعت فيه من أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصره اللَّه وأنعم عليه بفهم كتابه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض، فأجابهم المنافقون بقولهم: إنما نحن مصلحون، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات: أحدها: تكذيبهم، والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون، والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، والرابع: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد اللَّه وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه. وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما

يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرا. وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا فإن المؤمنين قالوا لهم: آمنوا كما آمن الناس فأجابهم المنافقون بقولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء. وتقرير المناظرة من الجانبين أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم ولا سيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده فأجابهم المنافقون بما مضمونه أنا إنما يجب علينا موافقة العقلاء وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

أحدها: تسفيههم.

الثاني: حصر السفه فيهم.

الثالث: نفي العلم عنهم.

الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان.

وخامس أيضًا: هو تكذيبهم في ما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «هكذا شأن كل مفسد: يدعي أنه مصلح في نفس إفساده، فإن كان على بينة من إفساده عارفًا أنه مضل -وإنما يكون كذلك، إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له- فإنما يدعي ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالتمويه والمواربة. وإن كان مسوقًا إلى الإفساد بسوء التقليد الأعمى، الذي لا ميزان فيه لمعرفة الإصلاح من الإفساد إلا الثقة بالرؤساء المقلدين، فهو يدعيه عن اعتقاد، ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم. وإن كان أثر تقليدهم، والسير على طريقتهم،

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٠-١٣١).

مفسدا للأمة في الواقع ونفس الأمر؛ لأن الوجود والحقيقة الواقعة لا قيمة لهما، ولا اعتبار في نظر المقلدين، بل هم لا يعرفون مناشئ الفساد ومصادر الخلل، ولا مزالق الزلل؛ لأنهم عطلوا نظرهم الذي يميز ذلك، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك، بصدهم عن سبيل الإسلام، الداعي إلى الوحدة والالتئام، فكان ذلك منهم دعاء إلى الفرقة والانفصام، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الأصنام، وأي إفساد في الأرض أعظم من التنفير عن اتباع الحق، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين، والأرض إنما تفسد وتصلح بأهلها؟ ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ فابتدأ الكلام المؤكد لإثبات إفسادهم بكلمة ﴿أَلَآ﴾، التي يراد بها التنبيه والإيقاظ وتوجيه النظر، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بأن هذا إفساد غرز في طبائعهم، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين، وأنهم على اعتقاد ضعيف لا يشهد له العمل.. وإذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمة كما قدمنا، فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه، وأن فيه هدى له، فإنها حجة على كثير ممن يدعون الإسلام بالقول، ويعملون بخلاف ما جاء به، ويتبعون غير سبيله»[1].

قلت: هذا الكلام الذي قاله الشيخ محمد رشيد في توجيه هذه الآية وإشارته إلى تقليد الأتباع لمتبوعيهم فيما هم عليه من فساد، وأن ذلك عقيدة لهم، هو واقع الأمة في هذا العصر، فواقع الشيوعية والاشتراكية والبعثية معروف، فهي التي رفعت كل راية للفساد والتخريب والهدم والسفك والإبادة، وتبعها على ذلك أمم في كل أقطار الأرض لا يحصيهم إلا اللَّه، ورفعوا شعار المساواة والحرية والانتصار للطبقات الكادحة الفقيرة بزعمهم، ونتج عن ذلك من الفساد والتخريب ما لا يعلمه إلا اللَّه، وهكذا العلمانية الوقحة المبيحة لما حرم اللَّه، والمعرضة عن كل الأديان والواصفة لها بكل أوصاف التخلف والانحطاط، ورفعها لشعار كل زندقة وإلحاد وإباحية وانحلال، وتبع هذا الفكر أمم لا يحصيهم إلا اللَّه، نتج عن ذلك كله قلب الفطر والحقائق، وصار الرجل يعقد على الرجل، والمرأة تعقد على المرأة عقود النكاح

(١) تفسير المنار (١/ ١٥٧).

المقدسة، فأصبحت مهازيل وأضحوكات.

وهكذا رؤساء الطوائف الطرقية الذين رفعوا شعارات ظاهرها الرحمة وباطنها الكفر والزندقة والانحراف.

وهكذا دعاة الحداثة وشعارات حقوق المرأة، وهو لعمر اللّه الزج بها في كل رذيلة. فإلى اللّه المشتكى وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصدق اللّه فيما أخبر في هذه الآية. فإذا كانت هذه شرذمة قليلة في مدينة الرسول ﷺ وأعلام الإسلام ساطعة؛ فما بالك بحال الإسلام في واقع أعلامه منتكسة، والمحاربون له أكثر أهل الأرض والمنتصرون له قلة قليلة، ويوصف نبيه بكل أوصاف النذالة والقذع، ويكتب ذلك على صفحات الجرائد، وينشر في أعلام الطرقات، وتتخصص قنوات في إذاعته وتزيينه، ويحمى أصحابه من أكابر أقطاب الصليبيين ودعاة التخريب والفساد، واللّه المستعان، وصدق رسول اللّه ﷺ القائل: «**يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**»[1].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (١٣/ ٩٣/ ٧١١٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٣١/ ١٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

السفهاء: جمع سفيه، وهو الضعيف الرأي، الجاهل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار، وأصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقة من قولهم: ثوب سفيه: إذا كان خفيف النسج. فسمّى خفة الحلم ورقته سفهًا. قال السموأل:

نخاف أن تَسْفَهَ أَحْلامُنا فَنَخْمُلَ الدّهْرَ مع الخامِلِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما عنى المنافقون بقيلهم: أنؤمن كما آمن السفهاء إذ دعوا إلى التصديق بمحمد ﷺ، وبما جاء به من عند اللَّه، والإقرار بالبعث فقيل لهم: آمنوا كما آمن الناس أصحاب محمد وأتباعه من المؤمنين المصدقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديق باللَّه، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد ﷺ وفي كتابه، وباليوم الآخر. فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل، ونصدق بمحمد ﷺ كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام».

ثم قال: «وهذا خبر من اللَّه تعالى عن المنافقين الذين تقدم نعته لهم، ووصفه إياهم بما وصفهم به من الشك والتكذيب أنهم هم الجهال في أديانهم، الضعفاء الآراء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشك والريب في أمر اللَّه وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند اللَّه، وأمر البعث، لإساءتهم إلى أنفسهم بما أتوا من ذلك وهم يحسبون أنهم إليها يحسنون. وذلك هو عين السفه؛ لأن السفيه إنما يفسد من حيث يرى أنه يصلح، ويضيع من حيث يرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يعصي ربه من حيث يرى أنه يطيعه، ويكفر به من حيث يرى أنه يؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يحسن إليها، كما وصفهم به

ربنا جل ذكره، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، وكذلك كان ابن عباس يتأول هذه الآية»[١].

وقال القاسمي: «وإنما سفهوهم مع أنهم العقلاء المراجيح لأنهم: لجهلهم، وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق، وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيهًا، ولأنهم كانوا في رياسة في قومهم، ويسار، وكان أكثر المؤمنين فقراء، ومنهم موال، كصهيب وبلال وخباب فدعوهم سفهاء تحقيرًا لشأنهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: وحدهم دون من عرضوا بهم؛ لأن لهم سلفًا صالحًا تركوا الاقتداء بهم، زعمًا أن المتأخر لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم؛ لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به، واحتذاء عمله، لعلوه في الدرجة، وبعده في المنزلة، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم، وإن لم يسيروا على سنتهم، فأي الفريقين أجدر بلقب السفيه؟ أهم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة، ولكنهم لا يهتدون بها، وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل؟ أم من لا سلف له إلا عبدة الأوثان، وقلبه مع ذلك مطمئن بالإيمان، وأعماله تشهد له بالإحسان، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الإسلام، فكانوا كأتباع أولئك الأنبياء الكرام، بل ربما سبقوهم بالفضائل، وزادوا عليهم في الفواضل؟ لا شك أن أولئك المفسدين بعد ما تقدم لهم من سلف صالح، ودين قيم، هم السفهاء دون هؤلاء العقلاء.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أن السفه محصور فيهم، ومقصور عليهم، وإنما عندهم شعور ما بأنهم ركبوا هواهم، ولم يتبعوا هدي سلفهم ولا هداهم، ينتحلون له العلل الضعيفة، ويتمحلون له الأعذار السخيفة، فهو لم يصل إلى حد العلم الذي تتكيف به النفس. ويكفي في إثبات سفههم، أنهم يعرفون حسن حال سلفهم، ويعترفون به، ولكن لا يقتدون بهم، ولا يقتفون أثرهم، وإنما يتعمدون في نجاتهم وسعادتهم على تلك الأماني والتعلات، كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا

---

(١) جامع البيان (١/ ٢٩٣-٢٩٥).

(٢) محاسن التأويل (١/ ٤٩).

مَّعْـدُودَةً﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[١] وشعبه وأصفياؤه، ولا يصح نفي الشعور عنهم في هذا المقام مع ذلك الاعتراف، وإنما هو نفي العلم الكامل الذي يزيل الشبه ويذهب بالعلل، ويبعث على الاقتداء بالعمل.

وهذا أيضًا حجته على كثير من اللابسين لباس الإسلام، وهم من هذا الصنف يعتقدون كمال سلفهم، ولا يقتدون بهم، وإنما يطمعون في سعادة الدنيا والآخرة، بانتسابهم إلى أولئك السلف العظام، ولكونهم من أمة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي خير الأمم، بشهادة اللَّه في القدم، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها بكونها أمة وسطًا، تقوم على جادة الاعتدال، في العقائد والأخلاق والأعمال، وتسعى في إصلاح البشر، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

قلت: وهكذا يقلب المنافقون الحقائق ويسمونها بغير اسمها، فأصحاب محمد ﷺ هم خيرة الخلق والنموذج الصالح الصافي الأعلى؛ فإنهم ﷺ عرفوا سيئات الجاهلية ومخازيها، وعرفوا محاسن الإسلام وفضائله، فاختاروا ما اختاروا عن علم وروية. وأما هؤلاء الواصفون لهم بهذه الصفات التي هي كما قال القائل: رمتني بدائها وانسلت، فأيهم أحق بالوصف باسم السفه؟ الذي اختار النبوة والرسالة والوحي والطهارة أم الذي اختار الانتكاس والرذيلة وفضل عبادة الأوثان على عبادة خالق الأكوان وبارئها ومدبرها، وعلماء أهل الكتاب الذين وجدوا صفات رسول اللَّه ﷺ في كتبهم وتقرر لهم ذلك، ومع ذلك تنكبوا عنها واختاروا الغواية والضلال، وتحالفوا مع عبدة الأصنام والأوثان، فلا يشك عاقل في سفه هؤلاء اليهود والنصارى والمجوس.

فما أشد الواقع الذي نعيشه؛ فكل من اتخذ التوحيد منهاجا له في الحياة لقبوه بالوهابي والتكفيري والخارجي، وغيرها من ألفاظ القدح المنافية لما عليه أهل التوحيد والسنة من حقائق واستقامة وتمسك بدين اللَّه.

* * *

(١) المائدة: الآية (١٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٦٠-١٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

خلوا: أي: انصرفوا إليهم. يقال: خلوت به وإليه ومعه بمعنى.

مستهزئون: الهزء: السخرية والاستخفاف، من قولك: استهزأ به: إذا استخف به، ويقال: هزئ به واستهزأ بمعنى. قال الراجز:

قد هَزَأَتْ منّي أم طَيْسَلَهْ قالت: أراهُ مُعدَمًا لا مالَ لَهْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية نظيرة الآية الأخرى التي أخبر اللَّه -جل ثناؤه- فيها عن المنافقين بخداعهم اللَّه ورسوله والمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثم أكذبهم -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأنهم بقيلهم ذلك يخادعون اللَّه والذين آمنوا. وكذلك أخبر عنهم في هذه الآية أنهم يقولون للمؤمنين المصدقين باللَّه وكتابه ورسوله بألسنتهم: آمنا وصدقنا بمحمد وبما جاء به من عند اللَّه، خداعًا عن دمائهم وأموالهم وذراريهم، ودرءًا لهم عنها، وأنهم إذا خلوا إلى مردتهم وأهل العتو والشر والخبث منهم ومن سائر أهل الشرك، الذين هم على مثل الذي هم عليه من الكفر باللَّه وبكتابه ورسوله وهم شياطينهم، وقد دللنا فيما مضى من كتابنا على أن شياطين كل شيء مردته قالوا لهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: إنا معكم على دينكم، وظهراؤكم على من خالفكم فيه، وأولياؤكم دون أصحاب محمد ﷺ، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ باللَّه وبكتابه ورسوله وأصحابه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية، فهو وصف

---

(١) جامع البيان (١/ ٢٩٦).

قد يختص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل، جاء بعد الأوصاف العامة وحكي بصيغة الماضي ليكون كالتصريح بتوبيخ تلك الفئة من هذا الصنف، التي بلغت من التهتك في النفاق، والفساد في الأخلاق، أن تظهر بوجهين، وتتكلم بلسانين، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف.

ولهذه الخصوصية في الآية، قال بعض الواهمين: إن جميع تلك الآيات في منافقي ذلك العصر، وقد مر تفنيده فلا نعيده. على أن هذه الفئة أيضًا توجد في كل عصر وزمان، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان، والحكاية عنها بصيغة الماضي الواقع لا تنافي ذلك؛ لأن (إذا) تدل على المستقبل، فمعنى الفعل مستقبل، وإنما اختيرت صيغة الماضي لتوبيخ أولئك الأفراد، وإيذانهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة، لا تروج في سوق المؤمنين لأنها مزجاة، وأن استهزاءهم مردود إليهم، ووباله عائد عليهم.

كان أولئك النفر يدهنون في دينهم، فإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار الباطل، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوساوس والأوهام، وما يلقون فيه من أشواك المعايب وتضاريس المذام.. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: إنا معكم على عقيدتكم وعملكم، وإنما نستهزئ بالمسلمين ودينهم، فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم، وفضح بهتانهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تقلب المنافقين وتلونهم وعدم ثباتهم على أي وجه

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أهذه تتبع أم هذه»**[٢].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٦٢-١٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٢ و ١٤٣) ومسلم (٤/ ٢١٤٦/ ٢٧٨٤) والنسائي (٨/ ٤٩٩/ ٥٠٥٢).

★ **غريب الحديث:**

العائرة: المترددة.

★ **فوائد الحديث:**

انظر قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء الآية (١٤٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يمدهم: أصل المدّ: الزيادة. والمعنى: يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملي لهم. كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾[1] وأصله الزيادة.

طغيانهم: أصل الطغيان: مجاوزة القدر. والخروج عن حيز الاعتدال. يقال: طغى الماء: إذا جاوز قدره. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[2] أي: ارتفع وعلا. والمراد: كفرهم وضلالهم. وقيل: عتوهم وتكبرهم.

يعمهون: العَمَه: التحيّر والتردّد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزئ للمستهزإ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنا. وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان اللّه -جل ثناؤه- قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام، بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار باللّه وبرسوله وبما جاء به من عند اللّه، المُدْخِلِهم في عداد من يشمله اسم الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين -أحكام المسلمين المصدقين إقرارهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبهم، وصحائح عزائمهم، وحميد أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم- مع علم اللّه ﷻ بكذبهم، واطلاعه على خبث اعتقادهم، وشكهم فيما ادعوا بألسنتهم أنهم به مصدقون، حتى ظنوا في الآخرة إذ حشروا في عداد من كانوا في عدادهم في الدنيا، أنهم واردون موردهم. وداخلون مدخلهم. واللّه ﷻ -مع إظهارهما قد أظهر لهم من الأحكام

(١) آل عمران: الآية (١٧٨). (٢) الحاقة: الآية (١١).

الملحقة لهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقه بينهم وبينهم- معد لهم من أليم عقابه ونكال عذابه، ما أعد منه لأعدى أعدائه وشر عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل- كان معلوما أنه -جل ثناؤه- بذلك من فعله بهم- وإن كان جزاء لهم على أفعالهم، وعدلًا ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له -كان بهم- بما أظهر لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء، وحشره إياهم في الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين - إلى أن ميز بينهم وبينهم- مستهزئًا، وبهم ساخرًا، ولهم خادعا، وبهم ماكرًا. إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه في حال فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وجدت الصفات التي قدمنا ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره»[(١)].

وقال ابن تيمية: «وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن كلفظ (المكر) و(الاستهزاء) و(السخرية) المضاف إلى اللَّه، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلمًا له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلًا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[(٢)]. فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[(٣)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[(٤)]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[(٥)]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[(٦)]. ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلًا يستحق هذا الاسم، كما روي عن ابن عباس؛ أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار

---

(١) جامع البيان (١/٣٠٣-٣٠٤ شاكر).
(٢) يوسف: الآية (٧٦).
(٣) يوسف: الآية (٥).
(٤) الطارق: الآيتان (١٥ و ١٦).
(٥) النمل: الآيتان (٥٠ و ٥١).
(٦) التوبة: الآية (٧٩).

فيسرعون إليه فيغلق، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق، فيضحك منهم المؤمنون. قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[١].

وعن **الحسن البصري**: إذا كان يوم القيامة؛ خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة من القدر، فيمشون فيخسف بهم. وعن مقاتل: إذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فيبقون في الظلمة فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا. وقال بعضهم: استهزاؤه: استدراجه لهم. وقيل: إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم. وقيل: إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة. وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه؛ وهذا كله حق وهو استهزاء بهم حقيقة»[٢].

قلت: وهذه الصفة مما تلاعب بها المتكلمون وجعلوها من المجاز، والذي ينظر إلى أفعال اللَّه كلها بعباده يراها كلها حقيقة لا مجاز فيها، والمجاز في حقه مستحيل على حد قول من يرى المجاز؛ لأن المجاز كما قال بعض السلف هو الكذب، واللَّه تعالى منزه عن كل ما لا يليق به، فأي مجاز في هذه الصفة وغيرها؟ فما هو الفرق بين نهاية كفار قريش وأضرابهم، ونهاية كفار الأوس والخزرج الذي عبدوا الأوثان، وأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والعصيان؟ فنهاية الجميع الخلود في النار، إلا أن المنافقين فضلوا على أولئك بأنهم في الدرك الأسفل من النار جزاء لهم على ما كانوا عليه في دار الدنيا من تلك الصفات الخبيثة؛ إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

وهكذا كل صفات اللَّه تعالى هي على حقيقتها، نثبتها على ما يليق به ﷻ، ومن شاغب في ذلك، فهو من عمى بصيرته، وجهله ونقصانه أتي، وإلا فالأمر أوضح من الشمس في رابعة النهار، ولله در الإمام ابن جرير، -وقد سبق قوله في أقوال المفسرين في الآية- فكلامه أوضح من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام شيخ الإسلام أمتن في التمثيل والاستدلال، وكلا الإمامين إماما هدى، فرحمهم اللَّه أجمعين.

---

(١) المطففين: الآيات (٣٤-٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١١١-١١٢).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾

★ **غريب الآية:**

اشتروا: حقيقة الاشتراء: الاستبدال. والعرب تقول لكل من تمسك بشيء وترك غيره قد اشتراه. وليس ثم شراء ولا بيع. قال أبو ذؤيب:

فإن تَزْعُميني كنتُ أجْهَلُ فيكم … فإنيّ شَرَيْتُ الحلْمَ بعدكِ بالجَهْلِ

الضلالة: أصل الضلالة: الضياع والهلاك. يقال: ضَلَلْت، بفتح اللام الأولى وكسرها، الشيءَ: إذا لم تهتد إليه. والضلال أيضًا: العدول عن الطريق المستقيم، خلافه الرشاد. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قال أبو جعفر: والذي هو أولى عندي بتأويل الآية، ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلها قوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وذلك أن كل كافر باللّه فإنه مستبدل بالإيمان كفرًا، باكتسابه الكفر الذي وجد منه، بدلا من الإيمان الذي أمر به. أو ما تسمع اللّه -جل ثناؤه- يقول فيمن اكتسب كفرا به مكان الإيمان به وبرسوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]؟ وذلك هو معنى الشراء؛ لأن كل مشتر شيئًا فإنما يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البدل آخر بديلًا منه. فكذلك المنافق والكافر، استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق، فأضلهما اللّه، وسلبهما نور الهدى، فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون»[3].

وقال محمد رشيد رضا: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ في دينهم لأنهم لم يأخذوه على

---

(١) سبأ: الآية (٥٠). (٢) البقرة: الآية (١٠٨).

(٣) جامع البيان (شاكر ١/ ٣١٥).

وجهه، ولم يفهموه حق فهمه، أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة؛ لأنهم باعوا فيها ما وهبهم اللَّه من الهدى والنور، بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع، التي زجوا أنفسهم فيها -أو ما كانوا مهتدين في طور من الأطوار، ولامس الرشد قلوبهم في وقت من الأوقات؛ لأنهم نشؤوا على التقليد الأعمى من أول وهلة، ولم يستعملوا عقولهم قط في فهم أسراره، واقتباس أنواره. ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين، ثم تركوا الهدى للضلالة، فيتناقض أول الآية مع آخرها، إذ ليس كل من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتديًا، وهؤلاء حملوه، فباعوه ولم يحملوه، وينظر إلى هذا الاشتراء ويشبهه الاستحباب في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[1] واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) فصلت: الآية (١٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٦٦-١٦٧).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أضاءت: أنارت. قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهُمْ ووجوهُهُمْ ... دُجَى الليل حتى نظَّم الجزْعَ ثاقبُهْ

قال الفراء: «فيه لغتان. يقال: أضاء القمر وضاء القمر، فمن قال ضاء القمرُ قال: يضوءُ ضوءًا. والضوء فيه لغتان: ضم الضاد وفتحها»[(١)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلًا ناريًا، ومثلًا مائيًّا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة، وقد جعل اللَّه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها ولهذا سماه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد نارا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، وذهب اللَّه بنورهم، ولم يقل بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب اللَّه بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾»[(٢)].

---

(١) معاني القرآن (١/ ١٨٠).

(٢) أعلام الموقعين (١/ ١٥٠-١٥١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار، فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا على الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم، فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل، والقولان متلازمان.

وقال في صفتهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لأنهم قد رأوا في ضوء النار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا.

وقال ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من اللَّه تعالى، فإن اللَّه تعالى مع المؤمنين. وإن اللَّه مع الصابرين. وإن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. فذهاب اللَّه بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1]، ولا من: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[2].

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى

(١) التوبة: الآية (٤٠).

(٢) الشعراء: الآية (٦٢).

معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به حجة من اللَّه قائمة، وحكمة بالغة تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم، ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم، مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب اللَّه بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء، كان الذهاب به ذهابا بالشيء وزيادته.

وأيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذي لا نور لهم. وأيضًا فإن اللَّه تعالى سمى كتابه نورًا. ورسوله ﷺ نورًا. ودينه نورًا. وهداه نورًا. ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضى بها، وبدل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلًا عن النور الذي هو الهدى والنور، فبدلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها، وصفقة ما أشد غبنها»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى المتبادر: فلما أضاءت النار ما حوله من الأمكنة والأشياء، وتمكن من الانتفاع بها والاستضاءة بنورها ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بإطفاء نارهم بنحو مطر شديد نزل عليها، أو عاصف من الريح جرفها وبددها، وهذا بالنسبة إلى المثل، وأما بالنسبة إلى المضروب فيهم المثل من العرب؛ فالنور نور الإسلام الذي أضاء قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٢] وذهابه في الدنيا ما عرض لهم من الشك أو الجزم بالكفر حتى لم يعودوا يدركون منافعه وفضائله، وأما ذهابه بعدها: فأوله

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: ٥٩-٦١).
(٢) الزمر: الآية (٢٢).

الموت، فإن المنافق يرى بالموت أو قبيل خروج روحه منزلته بعدها، وبعده ظلمة القبر أي حياة البرزخ، وبعدها موقف الحساب والجزاء ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1] إلخ الآية التالية، وفي هاتين الآيتين أصدق بيان للمراد من ذهاب اللَّه بنورهم، وكونه ليس إجبارًا لهم على الكفر ولا عبارة عن سلبهم التمكن من الإيمان، وإنما هو تعبير عن سنة اللَّه تعالى في عاقبة فتنتهم لأنفسهم الخ.

وقال شيخنا في تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الأمة ما معناه:

استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الإلهية بتصديقهم، فلما أضاءت لهم بروقها، ووضح لهم طريقها، فاجأتهم التقاليد الموروثة، وباغتتهم العادات المألوفة، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد، وما يتوقعونه في الإعراض عنها من المصارع والمفاسد، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم، بل استبدلوا هذا الديجور، بذلك الضياء والنور، وهذا هو معنى ذهاب نورهم. وإنما قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل ذهب نورهم، أو أذهب اللَّه نورهم -للإشعار بأن اللَّه تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عند ما استوقدوا النار فأضاءت، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها، وبأنه تخلى عنهم عند ما نكبوا عن تلك السبيل، وعافوا ذلك المورد السلسبيل.

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع اللَّه تعالى مرضية في التوجه إليه، وقصد اتباع هداه، والاستضاءة بنوره الذي وهبه إياه، فإذا أعرض عنه وكله اللَّه إلى نفسه، وذهب بنوره. وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة، وما كان هؤلاء في ظلمة واحدة، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التي فتنوا بها، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها، ولذلك قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى

---

(١) الحديد: الآيتان (١٣ و ١٤).

﴿ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ شيئًا. حذف مفعول يبصرون إيذانا بالعموم؛ أي: لا يبصرون مسلكًا من مسالك الهداية ولا يرون طريقًا من طرقها؛ لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سننه، وإهمالهم هدايته، ووكلهم إلى أنفسهم. ويا ويل من وكله اللَّه إلى نفسه، وحرمه توفيقه، نسأل اللَّه العافية.

هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته؛ لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية، فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده -وعدم الإبصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان، لجواز أن يلوح بارق، أو يذر شارق، أو يصيح طارق، فتكون الهداية، وتنكشف الغواية، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ أي: أنهم فقدوا منفعة السمع الذي يؤدي إلى النفس ما يلقيه المرشدون إليها من الحجج القاطعة، والدلائل الناصعة، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ، ولا يصغون لتنبيه منبه -فما أضيع البرهان عند المقلد- بل لا يسمعون وإن أصاخوا، ولا يفقهون إن سمعوا، فكأنهم صم لم يسمعوا -وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها، فلا يسألون بيانًا، ولا يطلبون برهانا، وفقدوا خير منافع الأبصار، وهو نظر الاستفادة والاعتبار، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزجروا، ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ عن ضلالتهم، ولا يخرجون من ظلماتهم؛ لأن من وقع في أرض فلاة في ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتا يهتدي به، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه، ولا أن يرى بارقا يؤمه ويقصده، فهو لا يرجع من تيهه، بل يظل يعمه في الظلمات، حتى يفترسه سبع ضار، أو يصل إلى شفا جرف هار، فينهار به في شر قرار ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾»[1].

قلت: وهذه التعبيرات من هؤلاء الأئمة في شرح هذا المثل الناري يؤيده واقع كل ضال قامت حجج اللَّه عليه، ورآها بأم عينه وسمعها بأذنه وعقلها بقلبه، ومع ذلك تنكب عنها وأعرض عنها لهوى في نفسه، أو لمصلحة دنيوية تتعارض مع هذا النور، أو لشهوات خفية، أو لعصبيات مذهبية، أو لمصلحة طائفية، أو لقوميات أو شعوبية، أو لمناصب دنيوية، وسبل الضلال كثيرة لا تحصى. والإنسان إذا لم يوفق

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٧٠-١٧٢).

للخير والسنة فسيرتمي في أحضان أحدها ، وما أكثر من وقع فيها في واقعنا المعيش .

هذا وإن حجج اللَّه تترى من ههنا وههنا ، والمصنفات والكتب التي تحمل الهدى منتشرة ومتنوعة ، والأشرطة المسموعة والمرئية وكل الوسائل المحدثة التي إن طلبها المهتدي وجد بغيته فيها متوفرة ، ومع ذلك تجد الكثير من الناس قد ارتمى في أحضان الضلالة واختارها منهجا ومصلحة يركبها ، ويصف السنة والتوحيد والكتاب بما يدفع عن نفسه ما به من ضلالة ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1] ، فسبحان من أنزل القرآن وجعل هدايته مستمرة إلى أن تقوم الساعة .

* * *

(١) البقرة : الآية (١٧) .

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صيب: الصيب: المطر النازل بشدة، من صَابَ يَصُوبُ: إذا نزل. قال الشاعر:

ولستُ لإنسيٍّ ولكن لملاكٍ ... تَنَزَّلَ من جوِّ السماءِ يَصُوبُ

السماء: كل ما علاك فأظلك. ومنه قيل لسقف البيت: سماء. والسماء أيضًا: المطر. سمي بذلك لنزوله من السماء. قال حسان بن ثابت:

ديار من بني الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ والسَّمَاءُ

الصواعق: جمع صاعقة. وهي صوت الرعد الشديد الذي يصعق منه الانسان، أي يغشى عليه. قال لبيد يرثي أخاه وقد أصابته صاعقة فقتلته:

فجَّعني الرعدُ والصواعقُ بالـ ... فارسِ يوم الكريهة النَّجِدِ

حذر: الحذر: التَّحَرُّزُ. وهو طلب السلامة مما يُخافُ. يقال: حَذَّرْتُهُ كذا: إذا خَوَّفْتُه منه ونَبَّهْتُهُ عليه. واسم الفعل منه: حَذَارِ. قال الشاعر:

حَذَارِ فقد نُبِّئْتُ إنَّكَ لَلَّذِي ... سَتُجْزَى بِمَا تَسْعَى فَتَسْعَدُ أو تَشْقَى

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم ضرب اللَّه سبحانه لهم مثلًا آخر مائيًّا فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فشبه نصيبهم مما بعث اللَّه تعالى به رسوله ﷺ، من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلًا ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب، وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من علو إلى أسفل، فشبه الهدى الذي

هدى به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدي بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب.

فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر، ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة، والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ويعلم أنه حياة الوجود»[1].

وقال ابن جرير: «فتأويل الآية إذا - إذ كان الأمر على ما وصفنا -: أو مثل ما استضاء به المنافقون - من قيلهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بألسنتهم: آمنا بالله

---

(١) اجتماع الجيوش (ص: ٦٣-٦٤).

وباليوم الآخر وبمحمد وما جاء به، حتى صار لهم بذلك في الدنيا أحكام المؤمنين، وهم -مع إظهارهم بألسنتهم ما يظهرون- باللَّه وبرسوله ﷺ وما جاء به من عند اللَّه وباليوم الآخر، مكذبون، ولخلاف ما يظهرون بالألسن في قلوبهم معتقدون، على عمى منهم، وجهالة بما هم عليه من الضلال، لا يدرون أي الأمرين اللذين قد شرعا لهم فيه الهداية: أفي الكفر الذي كانوا عليه قبل إرسال اللَّه محمدًا ﷺ بما أرسله به إليهم، أم في الذي أتاهم به محمد ﷺ من عند ربهم؟ فهم من وعيد اللَّه إياهم على لسان محمد ﷺ وجلون، وهم مع وجلهم من ذلك في حقيقته شاكون، في قلوبهم مرض فزادهم اللَّه مرضًا. كمثل غيث سرى ليلًا في مزنة ظلماء وليلة مظلمة، يحدوها رعد، ويستطير في حافاتها برق شديد لمعانه، كثير خطرانه، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه، وينهبط منها تارات صواعق، تكاد تدع النفوس من شدة أهوالها زواهق.

فالصيب مثل لظاهر ما أظهر المنافقون بألسنتهم من الإقرار والتصديق، والظلمات التي هي فيه لظلمات ما هم مستبطنون من الشك والتكذيب ومرض القلوب. وأما الرعد والصواعق، فلما هم عليه من الوجل من وعيد اللَّه إياهم على لسان رسوله ﷺ في آي كتابه، إما في العاجل وإما في الآجل، أن يحل بهم، مع شكهم في ذلك: هل هو كائن أم غير كائن؟ وهل له حقيقة أم ذلك كذب وباطل؟ مثل. فهم من وجلهم، أن يكون ذلك حقا، يتقونه بالإقرار بما جاء به محمد ﷺ بألسنتهم، مخافة على أنفسهم من الهلاك ونزول النقمات. وذلك تأويل قوله -جل ثناؤه-: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، يعني بذلك: يتقون وعيد اللَّه الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله ﷺ، بما يبدونه بألسنتهم من ظاهر الإقرار، كما يتقي الخائف أصوات الصواعق بتغطية أذنيه وتصيير أصابعه فيها، حذرًا على نفسه منها»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «هذا هو مثل الفريق الثاني من هذا الصنف من الناس، الذي كان أفراده ولا يزالون فتنة للبشر، ومرضا في الأمم، وحجة على الدين؛ لأنهم بغرورهم بتقاليدهم التي اكتفوا فيها من دينهم الموروث، يعبثون بعقولهم، ويلهون

(١) جامع البيان (١/ ٣٥٢-٣٥٣).

بخيالاتهم، ويجنون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها، ويصارعون الفطرة الإلهية فيصرعونها، حتى يكون بعضهم كالجمادات ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كما تقدم في المثل الأول، ويألف البعض الآخر الظلمة بطول التقليد، ويكون أفراده في نور البرهان كالخفافيش في نور الشمس، ولكنهم أمثل من الفريق الذي ضرب له المثل الأول؛ لأن فيهم بقية من الرجاء ورمقًا من الحياة، يوجههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقها، والمشي في الجادة كلما استبانوا طريقها، ولكن تحول دون ذلك ظلمات التقاليد العارضة، وتقف في السبيل عقبات البدع المعارضة، وقد يعدهم لاستماع قوارع الآيات التي تنذرهم بما حرفوا، وصوادع الحجج التي تبين لهم كيف انحرفوا، ولا يصدهم عنها إلا أنها تزعجهم إلى ترك ما صنفوا وألفوا، وهجر ما أحبوا وألفوا، وعدم المبالاة بسنة الآباء، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء، فهم يتراوحون بين الخوف والرجاء، مذبذبين بين أهل الجحود وأهل اليقين ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[1]، ولا ينقطع منهم الأمل، حتى ينقطع بهم الأجل، ألا تراهم عندما يقرع أسماعهم من كتاب ربهم ما يبين فساد سيرتهم، والتواء طريقتهم، كقوله تعالى في النعي على أمثالهم، وحكاية ما لم يرضه من أقوالهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2] الخ، وقوله في بيان ندمهم على التقليد، عندما يحل بهم الوعيد، ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[3] يأخذهم الزلزال، ويتولاهم الاضطراب والقلق، وتنشق لهم الظلمة عن فلق، ويلمع في نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون فيه خطوات، ثم تحيط بهم الظلمات، وينقطع بهم الطريق كما ألمعنا آنفًا. وأسباب غلبة الظلمات على النور، هي موافقة ما عليه الجمهور، والإخلاد إلى الهوى، وتفضيل عرض هذا الأدنى، وانتظار المغفرة ولو بما تأولوه في معنى الشفاعة، وتمني الربح من غير بضاعة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾[4] بلى هو عندهم مدروس بجدليات النحو والكلام، ولكنه دارس الصوى والأعلام، المنصوبة بالهداية القلوب والأحلام، ومقروء بالتجويد والأنغام، ولكنه متروك الحكم

---

(١) النساء: الآية (١٤٣).
(٢) الزخرف: الآية (٢٢).
(٣) الأحزاب: الآية (٦٧).
(٤) الأعراف: الآية (١٦٩).

والأحكام، يقرؤونه لكسب الحطام، ولمعرفة الحلال والحرام، ولا يتلونه لإصلاح القلب واللسان، بتزكية النفس وتغذية الإيمان، ويكتبونه لشفاء الأبدان من الأسقام، لا لشفاء ما في الصدور من الأوهام والآثام، ولو كان له أنصار يدعون إليه، وهداة يعتصمون به ويعولون عليه، لتبددت الظلمات أمام الأنوار، ومحت آية الليل آية النهار.

تلك الإرشادات الإلهية بمنزلة المطر الذي ينزل من السماء، والزلزال والاضطراب الذي أشارنا إليه بمنزلة الرعد، واستبانة الصراط المستقيم الذي يلمع في أنفسهم من ذلك كالبرق، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات، التي تصد عن سلوك الطريق، بل تعميه على طالبه وتحجبه عنه، ولذلك قال تعالى في تمثيل حال هذا الفريق ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قوم نزل بهم صيب، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للإشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه في أيديهم، ومن المعهود عند بلغاء العرب التعبير عما يلم بالناس، مما لا دافع له بأنه نزل من السماء، ولا يجرم أن تلك السوانح التي تسنح في الأفكار، والإلهامات الإلهية، لأصحاب الفطرة الزكية، التي يكون من أثرها ما أشار المثل إليه، وتقدم التنبيه عليه، هي أمر وهبي واقع، ماله من دافع»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ضرب المثل للمؤمن والمنافق

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللَّه بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فعلم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى اللَّه الذي أرسلت به**»[2].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٧٢-١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩) والبخاري (١/ ٢٣٢/ ٧٩) ومسلم (٤/ ١٧٨٧-١٧٨٨/ ٢٢٨٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧/ ٥٨٤٣).

★ **غريب الحديث:**

نقية: بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء التحتانية من النقاء.

الكلأ والعشب: الكلأ يطلق على النبت الرطب واليابس معًا، والعشب للرطب فقط.

أجادب: جمع جدب بفتح الدال المهملة على غير قياس وهي الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء.

قيعان: جمع قاع وهي الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قال القرطبي وغيره: ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجتهم إليه، وكذا كان الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت. ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم. فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «**نضر اللَّه امرءا سمع مقالتي فأداها كما سمعها**»[1]. ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها. واللَّه أعلم. ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين، فالأول قد أوضحناه، والثاني الأولى منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه، ومثالها من الأرض السباخ وأشير إليها بقوله ﷺ: «**من لم يرفع بذلك رأسًا**» أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع. والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلا، بل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧) والترمذي (٥/ ٣٣/ ٢٦٥٧) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٢) وصححه ابن حبان (١/ ٢٦٨/ ٦٦) من حديث ابن مسعود ﷺ. وفي الباب عن جبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت وغيرهم.

بلغه فكفر به، ومثالها من الأرض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا ينتفع به، وأشير إليها بقوله ﷺ «**ولم يقبل هدى اللَّه الذي جئت به**». وقال الطيبي: بقي من أقسام الناس قسمان: أحدهما الذي انتفع بالعلم في نفسه ولم يعلمه غيره، والثاني من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره. قلت: والأول داخل في الأول لأن النفع حصل في الجملة وإن تفاوتت مراتبه، وكذلك ما تنبته الأرض، فمنه ما ينتفع الناس به ومنه ما يصير هشيمًا. وأما الثاني فإن كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه، وإن ترك الفرائض أيضًا فهو فاسق لا يجوز الأخذ عنه، ولعله يدخل في عموم: «**من لم يرفع بذلك رأسًا**» واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) الفتح (١/ ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يخطف: الخطف: الأخذ بسرعة، ومنه الخُطّاف: وهو ما يُخرج به الدّلو من البئر. قال النابغة:

خطاطيفُ حُجْنٌ في حبال متِينَةٍ تَمُدُّ بها أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازعُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «عن ابن عباس ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين . . . وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[١] وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٢] الآية؛ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] . . فإذا تقرر هذا صار الناس أقسامًا، مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص وهم

(١) الحديد: الآية (١٣). (٢) الحديد: الآية (١٢).
(٣) التحريم: الآية (٨).

الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون وهم قسمان: خلص وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالًا من الذين قبلهم، وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل اللَّه في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط . . . ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1] الآية؛ ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2] فقسم الكفار هاهنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾[3] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[4] وقد قسم اللَّه المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضًا صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق»[5].

وقال محمد رشيد رضا: «إذا لمع البرق بشدة مفاجئًا من هو في ظلمة، فإنه يؤثر في بصره تأثيرًا يكاد يخطفه، والخطف هو الأخذ بسرعة، ولكنه يتبين به جزءًا من الطريق، فيمشي فيه خطوات ثم يعتكر عليه الظلام، وتستحوذ عليه المخاوف والأوهام، فيقف في مكانه، أو يعود البرق إلى لمعانه، ويحاكي هذا من حال الممثل بهم، أنه عند ما يدعوهم الداعي إلى أصل الدين، ويوضح لهم سبب ما هم

---

(١) النور: الآية (٣٩).
(٢) النور: الآية (٤٠).
(٣) الحج: الآية (٣).
(٤) الحج: الآية (٨).
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ٩٦-٩٨).

فيه من البلاء المبين، ويتلو عليهم الآيات البينة، ويقيم لهم الحجج القيمة، على أنهم تنكبوا الصراط السوي، وأصيبوا بالداء الدوي، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه، وتسير أفكارهم في نوره بعض خطوات، ولكن لا يعتمون أن تعود إليهم عتمة التقليد، وظلمة الشهوات، وغبشة الأهواء والشبهات، فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره وإنما تعود به إلى الحيرة -كما تقدم في أول الكلام- ثم يتكرر النظر في تضاعيفها بطريق الالتفات والإلمام. وفيه أنهم على سوء الحال وخطر المآل، لم تنقطع منهم الآمال، كما انقطعت من أصحاب المثل الأول الذين وصفوا بالصم البكم العمي، ولذلك قال فيهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ﴾ حتى لا ينجح فيهم وعظ واعظ، ولا تفيدهم هداية هاد، ولم يقل إنه ذهب بنورهم كما ذهب بنور أولئك، وسلبهم كل أنواع الهدى والرشاد، فوقع اليأس من رجوعهم إلى الحق. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ .. إلخ، رجوع إلى بيان حال من ضرب فيهم المثل، لا من تتمة المثل، وقد كنى عنهم بالضمير هنا لأن المثل قد تم، بعدما ذكرهم في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالوصف الذي اقتضى التمثيل. هذا ما قاله شيخنا وهو أحد قولين للمفسرين، ومنهم من جعله تتمة للمثل نفسه، والمقصود من ضرب فيهم المثل، على أن كلا من المعنيين صحيح لا ينافي الآخر»[1].

قال القاسمي: «قال القاشاني: إنما بولغ في ذكر فريق المنافقين، وذمهم، وتعييرهم، وتقبيح صورة حالهم، وتهديدهم، وإيعادهم، وتهجين سيرهم وعاداتهم: لإمكان قبولهم للهداية، وزوال مرضهم العارض. عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم، فتتزكى بواطنهم، وتتنور قلوبهم، فيسلكوا طريق الحق. ولعل موادعة المؤمنين، وملاطفتهم إياهم، ومجالستهم معهم؛ تستميل طباعهم، فتهيج فيهم محبة ما، وشوقًا تلين به قلوبهم إلى ذكر اللَّه، وتنقاد به نفوسهم لأمر اللَّه، فيتوبوا ويصلحوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]»[3].

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) النساء: الآيتان (١٤٥ و ١٤٦).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم وإثبات نوعي توحيده تعالى توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب، الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له، ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدرها تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم ثم قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود

(١) البقرة: الآيتان (٢١ و ٢٢).

وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم كما قال في غير موضع من القرآن ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[١] فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود وكيف يجعلون معه شريكًا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وإنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها. ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ويذكرونه فلا ينسونه ويشكرونه ولا يكفرونه فهذه حقيقة تقواه. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل إنه تعليل للأمر وقيل تعليل للخلق وقيل المعنى اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل المعنى خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها: أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر.

ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: لعلكم تتقون تعليلا للأمر بالعبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣] فهذا تعليل لكتب الصيام ولا يمتنع أن يكون تعليلًا للأمرين معًا وهذا هو الأليق بالآية والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فذكر تعالى دليلًا آخر متضمنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء، والثاني متضمن للحكم المشهورة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ

---

(١) الزخرف: الآية (٨٧). (٢) الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) البقرة: الآية (١٨٣).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[١] فذكر خلق السموات والأرض ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾[٢] إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم ما يحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه ولعله أن يمر بك إن شاء اللَّه التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك. ونظير ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣] وهذا كثير في القرآن لمن تأمله. وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها، فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا وجعل سقفها بناء محكما مستويا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «الخطاب عام للناس كافة، ووجه الاتصال بين الآيات على هذا أنه لما بين تعالى في أصناف الناس هذا الصنف الذي احتقر أفراده نعم اللَّه تعالى عليهم، واستعظموها وأكبروها على من قبلهم، فحرموا أنفسهم من أجل المزايا الإنسانية، وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية، خاطب الناس عامة بأن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التي تشملهم ومن قبلهم من السلف، فتنظمهم جميعا في سلك العبودية للخالق تعالى شأنه، ولا يكون كذلك الصنف الخاسر الكفور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين، إذ لم يستعملوا

---

(١) إبراهيم: الآيتان (٣٢ و٣٣).
(٢) النمل: الآيتان (٦٠ و ٦١).
(٣) البقرة: الآية (١٦٤).
(٤) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢-١٣٤).

عقولهم في فهم ما أنزل عليهم، بل اكتفوا بتقليد بعض رؤسائهم وعلمائهم، زاعمين أنه لا يقوى على فهم كتاب اللَّه تعالى غيرهم، كأن اللَّه تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفرا معدودين في وقت محدود، ولم يجعله هداية عامة للأمة، وإنما ألزم سائر الناس في سائر الأوقات الاكتفاء باتباع أولئك الرؤساء، وأتباعهم وأتباع أتباعهم وهلم جرا، ثم تركوا اتباعهم اتكالًا على شفاعتهم واكتفاء بالانتساب إليهم، وزعما أن اللَّه أعطاهم ما لا يعطي مثله لأحد سواهم، وإن عملوا مثل عملهم، تعالى اللَّه عن الظلم والمحاباة، وهو ذو الرحمة التي لا تنتهي وذو الفضل العظيم.

هذا النداء الإلهي المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى اللَّه تعالى كنسبة الآخرين واحدة: هو الخالق وهم المخلوقون، وهو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون -حجة علينا وعلى جميع ما استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا»[1].

وقال: «يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين يدعون الإيمان باللَّه قولًا بأفواههم، ولم يمس الإيمان الحق سواد قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم، ويدعون الإيمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهذيب أنفسهم وإصلاح أعمالهم، وإنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة، وقلوبهم مشغولة عن اللَّه الذي لا تفيد العبادة عنده إلا بالتوجه إليه، وابتغاء مرضاته، والشعور بعظمته وجلاله، فهم يخادعون اللَّه بهذه الظواهر التي لا معنى لها، والصور التي لا روح فيها، وإنما يخدعون في الحقيقة أنفسهم؛ لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم في الدنيا عزة وسعادة، ولا تنجيهم في الآخر.

ويا أيها الناس الذين لم يرزؤوا بهذا الخذلان، ولم يبتلوا بهذا الافتتان، سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان، ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ جميعًا؛ عبادة خشوع وإخلاص وأدب وحضور، كأنكم تنظرون إليه وترونه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم، وينظر دائما إلى محل الإخلاص منكم: وهو قلوبكم، واستعينوا على إشعار نفوسكم هذا الخشوع والحضور والإخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية؛ فإنه هو ربكم الذي أنشأكم فيما لا تعلمون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] وغذاكم بنعمه، ونماكم بكرمه، كما فعل مثل ذلك

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٨٠-١٨١).

(٢) النحل: الآية (٧٨).

بسلفكم الصالح، فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية، ومعظمين لهذه المنة، فليدع ذلك الصنف احتقار النعم التي هو فيها، والاقتصار على تعظيم نعمة اللّٰه على السلف فقط فإن هذا الرب العظيم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وخلق ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قد رباكم كما ربى سلفكم، ووهبكم من الهدايات مثلما وهبهم، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعمًا، ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقمًا، ليكون عبرة ومثلًا للآخرين، وذلك من رحمته بالعالمين، وقد أقسم تعالى على ذلك في كتابه المجيد، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[1] وفي القصاص حياة لأولي الألباب، وما يتذكر إلا من أناب»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التوحيد والبراءة من الشرك

* عن زيد بن سلام أن أبا سلام حدثه أن الحارث الأشعري حدثه أن النبي ﷺ قال: «**إن اللّٰه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات، أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن اللّٰه أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن اللّٰه أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا اللّٰه ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك باللّٰه كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك**» -زاد أحمد: «**وإن اللّٰه ﷻ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا**- **وإن اللّٰه أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن اللّٰه ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند اللّٰه من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل**

(١) إبراهيم: الآية (٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٨٤-١٨٥).

أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا اللَّه فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، قال النبي ﷺ: **«وأنا آمركم بخمس اللَّه أمرني بهن، السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم»**، فقال رجل: يا رسول اللَّه وإن صلى وصام؟ قال: **«وإن صلى وصام. فادعوا بدعوى اللَّه الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»**[1].

⋆ غريب الحديث:

الشرف: بضم الشين وفتح الراء جمع شرفة قال في القاموس: شرفة القصر بالضم معروف.

فأحرز نفسه: أي حفظها.

قيد شبر: بكسر القاف وسكون التحتية أي قدره.

ربقة الإسلام: الربقة في الأصل عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها. فاستعارها للإسلام يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه.

جثا جهنم: بضم الجيم مقصور أي من جماعاتها جمع جثوة بالحركات الثلاث، وهي الحجارة المجموعة، وروي من جثي بتشديد الياء وضم الجيم جمع جاث من جثى على ركبتيه يجثو ويجثي وكسر الجيم جائز لما بعدها من الكسرة وقرئ بهما في قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠) والترمذي (٥/ ١٣٦-١٣٧/ ٢٨٦٣) واللفظ له. وقال: «حسن صحيح غريب» والحاكم (١/ ٤٢١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (٢/ ٦٤-٦٥/ ٩٣٠) وابن حبان (١٤/ ١٢٤-١٢٧/ ٦٢٣٣). قال ابن كثير (١/ ٥٦): «هذا حديث حسن».

(٢) مريم: الآية (٧٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «فقد ذكر ﷺ في هذا الحديث العظيم الشأن -الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقله- ما ينجي من الشيطان، وما يحصل للعبد به الفوز والنجاة في دنياه وأخراه، فذكر مثل الموحد والمشرك.

فالموحد من عمل لسيده في داره وأدى لسيده ما استعمله فيه.

والمشرك كمن استعمله سيده في داره فكان يعمل ويؤدي خراجه وعمله إلى غير سيده. فهكذا المشرك يعمل لغير اللَّه تعالى في دار اللَّه تعالى ويتقرب إلى عدو اللَّه تعالى بنعم اللَّه تعالى.

ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان مملوكه كذلك، لكان أمقت المماليك عنده، وكان أشد شيء غضبًا عليه، وطردًا له وإبعادًا، وهو مخلوق مثله كلاهما في نعمة غيرهما، فكيف برب العالمين الذي ما بالعبد من نعمة فمنه وحده لا شريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ورحمته وتدبيره ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف والرجاء والحلف والنذر والمعاملة، فيحب غيره كما يحبه أو أكثر، ويخاف غيره ويرجوه كما يخافه أو أكثر، وشواهد أحوالهم -بل وأقوالهم وأعمالهم- ناطقة بأنهم يحبون أنداده من الأحياء والأموات ويخافونهم ويرجونهم، ويعاملونهم، ويطلبون رضاءهم، ويهربون من سخطهم، أعظم مما يحبون اللَّه تعالى ويخافون ويرجون ويهربون من سخطه، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره اللَّه ﷻ، قال اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) الوابل الصيب (ص: ٢٣-٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أندادًا: جمع نِدٍّ. وهو المثل المناوئ والنظير والكفء. قال لبيد:

نَحْمَدُ اللهَ ولا نِدَّ لهُ ... عندَهُ الخيرُ، وما شاءَ فَعَلْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فنهاهم اللَّه تعالى أن يشركوا به شيئًا، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له ندًّا وعدلًا في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتها عليكم فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكًا وندًّا من خلقي، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم فمني»(١).

وقال محمد رشيد رضا: «وبعد أن عرفنا اللَّه تعالى بأنفسنا، وبنعمته علينا وعلى سلفنا، وبعد أن عرفنا ذاته الكريمة، بآثار رحمته ومننه العظيمة، وصرنا جديرين بأن نعرف أن العبد عبد فلا يعبد، وأن الرب رب فلا يشرك به ولا يجحد، قال تفريعا وترتيبا على ما سبق ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم ما لا يطلب إلا منه، وهو كل ما تعجزون عنه، ولا يصل كسبكم إليه، لا تفعلوا ذلك فإنهم في الخلق والعبودية مثلكم.. والأنداد الذين اتخذوا في جانب اللَّه هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم في بعض الحاجات، لمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الأنداد أولا وبالذات، وهم مشركو العرب وأهل الكتاب، فالعرب كانت تسمي ذلك الخضوع والصمد عبادة إذ لم يكن عندهم وحي ينهاهم عن عبادة غير اللَّه فيتحاموا هذا اللفظ (العبادة) ويستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلا تأويلا لظاهر نص التنزيل. وأما أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم

---

(١) جامع البيان (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

ورهبانهم أندادًا وأربابًا، فكانوا يؤولون فلا يسمون هذا الاتخاذ عبادة، ولا أولئك المعظمين آلهة أو أندادًا أو أربابًا. وفرق بين الاتخاذ بالفعل والتسمية بالقول، والجميع متفقون على أنه لا خالق إلا اللَّه، ولا رازق إلا اللَّه وإنما كانوا يسمون دعاءهم غير اللَّه والتقرب إليه توسلًا واستشفاعًا، ويسمون تشريعهم لهم العبادات وتحليلهم لهم المنكرات، وتحريمهم عليهم بعض الطيبات، فقهًا واستنباطًا من التوراة. إلا أن من النصارى من لا يتحامون التصريح بعبادة السيدة مريم وبعض القديسين؛ استعمالا للفظ في مدلوله اللغوي.

وصور العبادة تختلف عند الأمم اختلافًا عظيمًا، وأعلاها عند المسلمين الأركان الخمسة والدعاء. وقالوا كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة، كأن المعنى الذي يجعل جميع الأعمال عبادة هو التوجه إلى اللَّه تعالى وحده، وابتغاء مرضاته، ولها عند أهل الكتاب صور أخرى، والمؤولون يخصون هذه الصور باللَّه تعالى وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر، يستحلونها بل يستحبونها به، ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون اللَّه أندادا، كما ذكر اللَّه عنهم في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١] ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والأخذ في الدين بقولهم؛ تقليدا لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي، كما صح ذلك عن رسول اللَّه ﷺ، وقدماء الفرس جعلوا لله ندًّا في الخلق والإيجاد فقالوا: إن للخير إلها هو الإله الأول، وإن للشر إلها يضاده، وليس النهي في الآية عن هذا الند الشريك؛ لأن المخاطبين لا يدينون به كما قلنا، وتدل عليه الآيات الكثيرة.

لذلك وصل النهي بقوله ﷻ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي والحال أنكم تعلمون أنه لا ند له؛ لأنكم إذا سئلتم من خلقكم وخلق من قبلكم؟ تقولون اللَّه، وإذ سئلتم من يرزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر؟ تقولون اللَّه، فلماذا تستغيثون إذن بغير اللَّه وتدعون غير الله؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع، وادعيتم أنهم شفعاؤكم عند الله؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى اللَّه يكون بغير ما شرعه من الدين حتى قلتم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٢]»[٣].

---

(١) التوبة: الآية (٣١).

(٢) الزمر: الآية (٣).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٨٨-١٨٩).

وقال ابن عاشور: «والمعنى لا تثبتوا لله أندادًا تجعلونها جعلًا، وهي ليست أندادًا، وسماها أندادًا تعريضًا بزعمهم؛ لأن حال العرب في عبادتهم لها كحال من يسوي بين اللَّه وبينها، وإن كان أهل الجاهلية يقولون إن الآلهة شفعاء، ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللَّه، وجعلوا اللَّه خالق الآلهة، فقالوا في التلبية: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك)، لكنهم لما عبدوها، ونسوا بعبادتها والسعي إليها، والنذور عندها، وإقامة المواسم حولها؛ عبادة اللَّه، أصبح عملهم على من يعتقد التسوية بينها وبين اللَّه تعالى؛ لأن العبرة بالفعل لا بالقول. وفي ذلك معنى من التعريض بهم ورميهم باضطراب الحال ومناقضة الأقوال للأفعال.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، ومفعول تعلمون متروك؛ لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول، بل قصد إثباته لفاعله فقط، فنزل الفعل منزلة اللازم، والمعنى: وأنتم ذوو علم. والمراد بالعلم هنا: العقل التام، وهو رجحان الرأي المقابل عندهم بالجهل على نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي تمليحا في الكلام، للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة؛ فإنه أثبت لهم علما ورجاحة الرأي، ليثير همتهم، ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوحدانية، ونهاهم عن اتخاذ الآلهة، أو نفي ذلك مع تلبسهم به، وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخًا لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم، وأضاعوا من سلامة مداركهم. وهذا منزع تهذيبي عظيم: أن يعمد المربي فيجمع لمن يربيه، بين ما يدل على بقية كمال فيه، حتى لا يقتل همته باليأس من كماله، فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه؛ خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا والكمال.

وقد أومأ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى أنهم يعلمون أن اللَّه لا ند له، ولكنهم تعاموا وتناسوا فقالوا: (إلا شريكًا هو لك)»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٤-٣٣٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من الشرك

* عن عبد اللَّه قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**» قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تزاني بحليلة جارك**»[١].

★ غريب الحديث:

حليلة: حليلة الرجل امرأته، والرجل حليلها؛ لأنها تحل معه ويحل معها، وقيل لأن كل واحد منهما يحل للآخر.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي في المفهم: «ومعناه: أن اتخاذ الإنسان إلها غير خالقه المنعم عليه، مع علمه بأن ذلك المتخذ ليس هو الذي خلقه، ولا الذي أنعم عليه، من أقبح القبائح، وأعظم الجهالات، وعلى هذا فذلك أكبر الكبائر وأعظم العظائم»[٢].

قال سليمان بن عبد الله: «وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾[٤]؛ أي: من مات وهو يدعو لله ندا؛ أي: يجعل لله ندًّا فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار؛ لأنه مشرك، فإن اللَّه تعالى هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب، وترغب إليه، وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه، مقهور بالعبودية له، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعا وكرها، فكيف يصلح أن يكون ندا؟ قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[٥]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (١٣/ ٦٠٠/ ٧٥٢٠) ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦) وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٤/ ٣١٨٢) والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٢) المفهم (١/ ٢٨٠).

(٣) البقرة: الآية (٢٢).

(٤) الزمر: الآية (٨).

(٥) الزخرف: الآية (١٥).

(٦) مريم: الآيات (٩٣-٩٥).

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾[١]، فبطل أن يكون له نديد من خلقه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]»[٣].

* وقال ابن عباس في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن يقول: واللّه، وحياتك يا فلان. وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء اللّه وشئت، وقول الرجل: لولا اللّه وفلان، لا تجعل فيها فلان. فإن هذا كله به شرك[٤].

★ غريب الأثر:

صفاة: هي الصخرة والحجر الأملس.

* عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء اللّه وشئت فقال: «**جعلتني لله ندًا ما شاء اللّه وحده**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال في فتح المجيد (باب قول: «ما شاء اللّه وشئت»):

«فيه بيان أن من سَوَّى العبد باللّه، ولو في الشرك الأصغر، فقد جعله ندا لله شاء أم أبى، خلافا لما يقوله الجاهلون مما يختص باللّه تعالى من عبادة، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد اللّه به خيرًا يفقهه في الدين»[٦].

---

(١) فاطر: الآية (١٥).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٩١-٩٢). (٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ١١١).

(٤) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٦٢/ ٢٢٩): «وإسناده حسن».

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤-٢٢٤-٢٨٣-٣٤٧) وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧) بلفظ مغاير، قال البوصيري في الزوائد: «في إسناده الأجلح بن عبد اللّه مختلف فيه ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي وباقي رجال الإسناد ثقات». والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥/ ١٠٨٢٥). كلهم من طريق الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس والأجلح قال عنه الحافظ في التقريب: «صدوق شيعي». قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٧٨٤-١٧٨٥): «رواه النسائي في الكبرى وابن ماجه بإسناد حسن».

(٦) فتح المجيد (٥١٩).

قال ابن القيم: «ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء اللَّه وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء اللَّه وشئت، فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء اللَّه وحده**».

وهذا مع أن اللَّه قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[(١)]، فكيف بمن يقول: أنا متوكل على اللَّه وعليك، وأنا في حسب اللَّه وحسبك، وما لي إلا اللَّه وأنت، وهذا من اللَّه ومنك، وهذا من بركات اللَّه وبركاتك، واللَّه لي في السماء وأنت لي في الأرض، أو يقول: واللَّه وحياة فلان، أو يقول: نذرًا لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو اللَّه وفلانا، ونحو ذلك؟ فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء اللَّه وشئت، ثم انظر أيهما أفحش! يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله لله ندًّا بها؛ فهذا قد جعل من لا يداني رسول اللَّه ﷺ في شيء من الأشياء -بل لعله أن يكون من أعدائه- ندًّا لرب العالمين.

فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتحسب، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق لله، لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل»[(٢)].

* عن قتيلة بنت صيفي الجهنية قالت: «أتى حبر من الأحبار إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، قال: «**سبحان اللَّه وما ذاك؟**» قال: تقولون إذا حلفتم والكعبة، قالت: فأمهل رسول اللَّه ﷺ شيئًا ثم قال: «**إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة**» ثم قال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا قال: «**سبحان اللَّه وما ذاك؟**» قال: تقولون ما شاء اللَّه وشئت، قال: فأمهل رسول اللَّه ﷺ شيئًا ثم قال: «**إنه قد قال فمن قال ما شاء اللَّه فليفصل بينهما ثم شئت**»»[(٣)].

---

(١) التكوير: الآية (٢٨). (٢) الداء والدواء (ص: ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢) والحاكم (٤/ ٢٩٧). وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، من طريق المسعودي عن معبد بن خالد عن عبد اللَّه بن يسار عن قتيلة بنت صيفي. وفيه المسعودي قال عنه الحافظ=

★ **فوائد الحديث:**

قال عبد الرحمن بن حسن: «فيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت اللَّه التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة. وهذا يبين أن النهي عن الشرك باللَّه عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا للكعبة، التي هي بيت اللَّه في أرضه. وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا اللَّه. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع. وإنما شرع اللَّه لعباده الطواف بها والعبادة عندها. وجعلها للأمة قبلة. فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها: ممنوع. فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

قوله: (إنكم تشركون، تقولون: ما شاء اللَّه وشئت). والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة اللَّه، ولا قدرة له على أن يشاء شيئا إلا إذا كان اللَّه قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2].

وفي هذه الآيات والحديث: الرد على القدرية والمعتزلة، نفاة القدر، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده اللَّه تعالى من العبد وشاءه..

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة اللَّه تعالى في كل شيء، مما يوافق ما شرعه اللَّه وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئة اللَّه وإرادته. فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه. وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ الآية[3]، وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك، فإن النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: (إنكم تشركون)»[4].

= في التقريب: «صدوق اختلط قبل موته لكن تابعه مسعر»، أخرجه النسائي (٧/ ١٠/ ٣٧٨٢). قال الحافظ في الإصابة (١٣/ ٩٤) بعد ذكره هذا الحديث: «وأخرجه النسائي وسنده صحيح».

(١) التكوير: الآيتان (٢٨ و ٢٩).

(٢) الإنسان: الآيتان (٢٩ و ٣٠).

(٣) الزمر: الآية (٧).

(٤) فتح المجيد (٥١٧-٥١٨).

* عن طفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيرًا ابن اللَّه، فقالت اليهود: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء اللَّه وشاء محمد، ثم مر برهط من النصارى، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، فقال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن اللَّه، قالوا: وإنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء اللَّه وما شاء محمد، فلما أصبح أخبر بها من أخبر، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**هل أخبرت بها أحدا ؟**» قال عفان: قال: نعم فلما صلوا خطبهم فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: «**إن طفيلًا رأى رؤيا فأخبر بها من أخبر منكم، وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء اللَّه وما شاء محمد**»[1].

⋆ غريب الحديث:

الرهط: قال أبو عبيد: الرهط ما دون العشرة وقيل: إلى ثلاثة.

* عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء اللَّه ثم شاء فلان**»[2].

⋆ فوائد الحديث:

قال عبد الرحمن بن حسن: «وهذا الحديث والذي قبله، أمرهم فيه أن يقولوا:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢) وابن ماجه (١/ ٦٨٥/ ٢١١٨) قال البوصيري في الزوائد: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤) وأبو داود (٥/ ٢٥٩/ ٤٩٨٠) من طريق منصور عن عبد اللَّه بن يسار عن حذيفة، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١٠٨٢٠) وابن ماجه (١/ ٦٨٥/ ٢١١٨). من طريق سفيان ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان.
وخالفه حماد بن سلمة وأبو عوانة وشعبة وزيد بن أبي أنيسة وعبد اللَّه بن إدريس فجعلوه عن عبد الملك عن ربعي عن الطفيل.
قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٦٦٢) بعد أن ذكر الحديث من رواية حذيفة: هذه رواية ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة، وقال أبو عوانة عن عبد الملك عن ربعي عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة بنحوه أخرجه: ابن ماجه أيضا، وهكذا قال حماد بن سلمة عند أحمد وشعبة وعبد اللَّه بن إدريس عن عبد الملك، وهو الذي رجحه الحفاظ وقالوا: إن ابن عيينة وهم في قوله عن حذيفة واللَّه أعلم. والحديث قال فيه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/ ١٧٨٤/ ٢٨٢٧): «رواه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح».

«ما شاء اللَّه وحده»، ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص، وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: «ثم شاء فلان»؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص»[١].

هذا الحديث فيه النهي عن عطف مشيئة العباد على مشيئة اللَّه، قال في فتح المجيد:

«وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا. وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر، كما قال اللَّه تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. بخلاف المعطوف بـ(ثم)، فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهلة. فلا محذور، لكونه صار تابعًا»[٣].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«من حلف بغير اللَّه فقد كفر أو أشرك»**[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال في فتح المجيد: «قوله (فقد كفر، أو أشرك). يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي، ويحتمل أن تكون (أو) بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر»[٥].

وقال في عون المعبود: «(فقال له) أي للرجل (فقد أشرك) قال القاري: قيل معناه من أشرك به غيره في التعظيم البليغ فكأنه مشرك إشراكًا جليًّا فيكون زجرًا بطريق المبالغة»[٦].

---

(١) فتح المجيد (ص: ٥٢٠).
(٢) الشعراء: الآيتان (٩٧ و ٩٨).
(٣) فتح المجيد ٥١٢-٥١٣)
(٤) رواه أحمد (٢/ ١٢٥) وأبو داود (٣/ ٥٧٠/ ٣٢٥١) والترمذي (٤/ ٩٣-٩٤/ ١٥٣٥) وحسنه والحاكم (١/ ١٨) وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) فتح المجيد (ص: ٥١٠)
(٦) عون المعبود (٩/ ٧٨-٧٩)

وقال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه أنه لا يجوز الحلف بغير اللَّه ﷺ في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجتمع عليه»[١].

وقال: «أجمع العلماء على أن اليمين بغير اللَّه مكروهة منهي عنها، لا يجوز الحلف بها لأحد»[٢].

وقال في تيسير العزيز الحميد: «وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا باللَّه، أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره. قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير اللَّه بالإجماع. انتهى.

ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل. وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك، بل ذلك محرم. ولهذا اختار ابن مسعود رضي الله عنه أن يحلف باللَّه كاذبًا، ولا يحلف بغيره صادقًا[٣]»[٤].

قلت: التوحيد مما أوجب اللَّه معرفته على عبيده، وإن علمه فرض عين على كل أحد، ولا يقبل فيه التقليد والتعلق بالآباء والأمهات والأجداد والمشايخ والسادات، ولهذا كثر ورود آياته في القرآن، وكانت حياته ﷺ كلها في توضيحه، والذب عنه وإبعاد كل ما يفسده، وسد جميع المنافذ على كل ما يعكر صفوه، وهذه الآيات والأحاديث التي بين أيدينا من ذلك، فإخلاص العبودية له -تبارك وتعالى- وفهم ذلك الفهم الصحيح هو عقيدة المسلم الحق، والتفريط في ذلك والتهاون فيه مضيعة للعمر، فعناية القرآن بالربوبية وتنوع آياتها، وذكر نماذجها من خلق ورزق وإماتة وإحياء وصنع وتدبير؛ كل ذلك حجة ودليل لإثبات الألوهية.

والشرك نوعان: شرك أكبر، وهو أن تجعل للَّه ندًّا ومثيلًا ونظيرًا فيما يختص به -تبارك وتعالى-، فكل من صرف ما يليق به تعالى إلى غيره مهما كان الند؛ فإن ذلك شرك أكبر.

---

(١) فتح البر (١/ ٢٩٢). (٢) فتح البر (١/ ٢٩٣).

(٣) رواه عبد الرزاق (٨/ ٤٦٩/ ١٥٩٢٩) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣/ ٨٩٠٢) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): «ورجاله رجال الصحيح».

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٠٧-٦٠٨).

وأما الأصغر فالحلف بغيره وإشراك غيره في المشيئة به، ومع ذلك أكد الرسول ﷺ على التحذير منه والوقوع فيه، فمن وفقه اللَّه إلى ضبط هذا الباب وإلى إتقانه فهو الموفق، ومهما صرف فيه من وقت وعمل؛ فإن ذلك كله قليل في حقه ولو اجتمع علماء الأرض في التركيز على الدعوة إليه وتوجيه الأمم مهما كانت إليه، فإن ذلك قليل في حقه، ولهذا كل الأنبياء على تباعد أزمانهم وأقاليمهم كانت دعوتهم إليه، وهكذا أصحابهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وما قاله القرطبي فيما سبق من كلمة تستحق أن تكتب بماء الذهب، فالوقوع في الشرك من أقبح القبائح وأعظم الجهالات، ورغم وضوح هذا الأصل في كتاب اللَّه واتفاق أنبياء اللَّه ورسله عليه، تجد الأمة بعد الصدر الأول وقعت في مناقضته، فعبدوا الأموات باسم الأولياء والصالحين، وعبدوا الأشجار والأحجار والأوثان وعبدوا المشايخ، فسجدوا لهم وركعوا لهم، واستغاثوا بهم واحتموا بهم في نوازلهم -بل إن مشركي العرب كانوا أخلص للَّه منهم في حالة الاضطرار - وما يجري في الأضرحة من شركيات قولية أعظم مما كان عليه أصحاب اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فنرجو اللَّه أن يلهم المسلمين وعلماء الأمة وحكامها الرجوع إلى التوحيد والسنة ومحو كل أثر للشرك والبدعة.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

بسورة: السورة من القرآن، القطعة منه المفتتحة بالبسملة المختتمة بخاتمتها. سميت بذلك لأنها محيطة إحاطة السور بالمدينة. وقيل: سميت بذلك لرفعتها. والسورة: المنزلة الرفيعة. قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل مَلْكٍ دُونَها يتذبذب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا من الله ﷻ احتجاج لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه من العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضلالهم، الذين افتتح بقصصهم قوله -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[1]، وإياهم يخاطب بهذه الآيات، وضرباء هم يعني بها، قال الله -جل ثناؤه- لهم: وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين، في شك -وهو الريب- مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان وآيات الفرقان: أنه من عندي، وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول، فأتوا بحجة تدفع حجته؛ لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة: أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق. ومن حجة محمد ﷺ على صدقه، وبرهانه على حقيقة نبوته، وأن ما جاء به من عندي -عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تأتوا بسورة من مثله، وإذا عجزتم عن ذلك -وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذرابة- فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز. كما كان برهان من سلف من رسلي وأنبيائي على صدقه، وحجته على نبوته

(١) البقرة: الآية (٦).

من الآيات، ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقي. فيتقرر حينئذ عندكم أن محمدًا لم يتقوله ولم يختلقه؛ لأن ذلك لو كان منه اختلاقًا وتقولًا لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيان بمثله؛ لأن محمدا ﷺ لم يعد أن يكون بشرًا مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسم وبسطة الخلق وذرابة اللسان -فيمكن أن يظن به اقتدار على ما عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجز عما اقتدر عليه»[1].

وقال **ابن القيم**: «فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك حتى إن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة منتنة خبيثة وقالوا قد جئنا بمثل ما جئت به فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وجلالة، وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته أجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ويقول لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدا فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار

(١) جامع البيان (شاكر ١/ ٣٧٢-٣٧٣).

بالعجز عن معارضته. وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا أحدها. وثانيها: إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من اللَّه تعالى وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك. وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه. وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه ولم يتأمله، فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره»[1].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية ونحوها يسمونها آية التحدي، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويعارضوه بوجه. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2]. وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟. هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان. وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا قال في آيات التحدي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٤-١٣٦).
(٢) الإسراء: الآية (٨٨).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٦٠).

قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، وقال في تلك الآية: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[٢].

فلم يكتف بعجز المدعوين، بل أمرهم أن يدعوا إلى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون اللَّه، وهذا تعجيز لجميع الخلق؛ الإنس والجن والملائكة.

وقال في البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: ادعوا كل من يشهد لكم، فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله؛ ادعوا كل من لم يقر بأن هذا منزل من اللَّه، فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به، ومن آمن به، وبقي في ريب، بل قد علم أنه من عند اللَّه.

وهذا التحدي في البقرة -وهي مدنية بعد يونس وهود- ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ وهناك قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ فهذا تحدٍّ لكل مرتاب، وذاك تحدٍّ لكل مثل مكذب؛ ولهذا قيل في ذاك: ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ فإنه أبلغ، وقيل في هذا: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾.

وقد قال بعض المفسرين: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾ آلهتكم، وقال بعضهم: من يشهد أن الذي جئتم به مثل القرآن.

والصواب: أن شهداءهم الذين يشهدون لهم؛ -كما ذكره ابن إسحاق بإسناده المعروف عن ابن عباس- قال: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾: من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه.

وقال السدي، عن أبي مالك: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾: أي: شركاءكم؛ فإن هؤلاء هم الذي يتصور منهم المعارضة، إذا كانوا في ريب منه.

أما من أيقن أنه من عند اللَّه، فإنه يمتنع أن يقصد معارضته؛ لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك. واللَّه تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات، فادعوا من يشهد لكم. وهؤلاء يشهدون من دون اللَّه، لا يشهدون بما شهد اللَّه به، فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله؛ كما قال: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[٣].

---

(١) هود: الآية (١٣). (٢) هود: الآية (١٤).

(٣) النساء: الآية (١٦٦).

وقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١). كما قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾(٢)»(٣).

وقال البقاعي: «قال عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب (الحجة في تثبيت خبر الواحد) إن اللَّه -تبارك وتعالى- بعث محمدا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة؛ فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد اللَّه وتصديق رسالته، فدعاهم إلى حظهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وقتلوا أعمامه وبني أعمامه وعلية أصحابه وأعلام أهله، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن وغيره، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديًا لهم بها، وتقريعا بعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستورا، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف؛ فلذلك يمكنك ما لا يمكننا؛ قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولا طبع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واتساع لغتهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان، وإنفاق الحرائب؛ وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في العقل والرأي بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، فمحال أكرمك اللَّه أن يجتمع هؤلاء كلهم

---

(١) الرعد: الآية (٤٣).

(٢) آل عمران: الآية (١٨).

(٣) النبوات (٢/ ٨٦٠-٨٦٣).

على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد علمهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك أيضًا محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه -انتهى. فثبت بهذا عجزهم وخرس قطعًا إفصاحهم ورمزهم، وطأطأ ذلا كبرهم وعزهم، وكيف يمكن المخلوق مع تمكنه في سمات النقص، ودركات الافتقار والضعف، معارضة من اختص بصفات الكمال، وتعالى عن الأنداد والأشباه والأشكال»[١].

قلت: الإنسان مهما كان، فقد آتاه اللَّه قدرة تليق به في كل شيء، في المشي والبطش وفي الأكل والشرب، وفي المسابقة والمصارعة، وفي الفصاحة و الكلام وفي كل ما يليق به، لهذا نجد في كلام العرب من بداية تاريخ معرفة كلامهم وإلى يومنا هذا ما يليق بهم، فقوة كلامهم في النثر والنظم موافق لحالهم وقدرتهم، فتجد كلامهم يدور غالبا في الوصف والهجاء، والرثاء والمدح، وغيرها من الأغراض التي توافق أحوالهم، ومطالبهم وأهدافهم. أما كلام اللَّه تعالى فنوع آخر، فهو موافق لمن تكلم به؛ فكما أنه لا مقارنة بين اللَّه وبين خلقه في أي صفة من الصفات، وإن اشتركوا معه في الاسم، فكذلك الكلام، فهو صفة من صفاته تعالى، تكلم به متى شاء وكيف شاء، فمن أمحل المحال أن يشبه كلامه كلام البشر، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن القرآن من أوله إلى آخره ليس فيه إلا التوحيد وملحقاته من عبادات ومعاملات وحقوق، وهذه سور القرآن من الفاتحة إلى الناس، لا يوجد بها شبه لأي كلام من كلام العرب في أي تاريخ من التواريخ، فكلام اللَّه مشرق وكلام العرب مغرب، وشتان بين مشرق ومغرب، وهذا رسول اللَّه ﷺ هو من البشر وكلامه عربي فصيح، ومع ذلك لا يشبه كلامه ﷺ كلامه ﷺ، وصحابته الذي هو بين أظهرهم يروون كلامه وحديثه الواحد للآخر، ومع ذلك لا تجد تشابها بين كلامه وكلامهم في أي وجه من الوجوه.

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٧٣-١٧٧).

فما ذكره هؤلاء الأئمة -رحمهم الله- ابن جرير وابن القيم وابن تيمية والسعدي والجاحظ؛ وإن اختلفت عباراتهم وتعبيراتهم، فإن كلامهم حق وصدق؛ فإنه يستحيل أن يعدل العرب وحلفاؤهم من أعداء النبوة والرسالة عن هذا الأمر السهل اليسير -الذي كان لهم سجية، ويفعلونه على البداهة، والواحد منهم قد ينشد في المجلس الواحد مئات القصائد، ويرتجل عشرات الخطب الطويلة، ويذعن لها كل سامع- ولا يعارضون أكبر عدو لهم، بأقل آية أو بأقصر سورة، فهذا من أمحل المحال.

وحفظ القرآن في الصدور طيلة هذه المدة، وتواتره بين المسلمين جيلا عن جيل مما يعظم شأنه، ويجدد في قلب كل مسلم أنه من أعظم آيات النبوة، فيستحيل كل الاستحالة أن يأتي أحد بمثله أو بما يشبهه.

فالحمد للَّه الذي أرانا الطريق، وجعل عقيدتنا في القرآن كاملة، فهو كلام اللَّه منه بدأ وإليه يعود، وأنه منزل غير مخلوق، ومن اعتقد غير ذلك فقد كفر وارتد وخرج عن ملة الإسلام.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة على أن أعظم ما أوتيه ﷺ القرآن

* عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللَّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[1].

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «أي: أن معجزتي التي تحدَّيْتُ بها الوحي الذي أنزل علي، وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره؛ لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيًا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١-٤٥١) والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩). من طريق سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة.

عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره. وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك. وقيل: المراد أن القرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل. وقيل: المراد أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله صورة أو حقيقة، والقرآن لم يؤت أحد قبله مثله، فلهذا أردفه بقوله: (**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا**). وقيل: المراد أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل، وإنما هو كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بما يتخيل منه التشبيه به، بخلاف غيره فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، والنظر عرضة للخطأ؛ فقد يخطئ الناظر فيظن تساويهما. وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات، وتكميله في الذي بعده، وقيل: المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا. قلت: ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد؛ فإن محصلها لا ينافي بعضه بعضًا»[1].

* * *

(١) الفتح (٩/ ٨).

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾، إن لم تأتوا بسورة من مثله، فقد تظاهرتهم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم عجزكم وعجز جميع خلقي عنه، وعلمتم أنه من عندي، ثم أقمتم على التكذيب به. وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، أي لن تأتوا بسورة من مثله أبدًا»[٢].

وقال ابن كثير: «ولن لنفي التأبيد في المستقبل؛ أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن. وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام اللّه خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال اللّه تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣] فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤] أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح

---

(١) البقرة: الآية (٢٤).
(٢) جامع البيان (١/ ٣٧٩ شاكر).
(٣) هود: الآية (١).
(٤) الأنعام: الآية (١١٥).

شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئا إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته، وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يَخْلَق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2] وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾[3]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[4] وقال في الزجر: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[5] وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[6] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، إذا سمعت اللَّه تعالى يقول في القرآن: (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[7] الآية؛ وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما

---

(١) السجدة: الآية (١٧).
(٢) الزخرف: الآية (٧١).
(٣) الإسراء: الآية (٦٨).
(٤) الملك: الآيتان (١٦ و ١٧).
(٥) العنكبوت: الآية (٤٠).
(٦) الشعراء: الآيات (٢٠٥-٢٠٧).
(٧) الأعراف: الآية (١٥٧).

أعد اللَّه فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط اللَّه المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم. ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللَّه إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[1]- لفظ مسلم. وقوله ﷺ: «**وإنما كان الذي أوتيته وحيًا**» أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء واللَّه أعلم، وله -عليه الصلاة والسلام- من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ الخ أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، وتجتثوا دليله من أصله، وما أنتم بفاعلين؛ لأن هذا ليس في طاقة المخلوقين، فاتقوا النار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين، الذين يجحدون الحق بعد البرهان المبين، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه، وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل، وتقرير عجزهم بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد، أو المؤبد من عاقل كالنبي -عليه الصلاة والسلام- في أمر ممكن عقلًا، لولا أن أنطقه اللَّه الذي خصه بالوحي، وهو الذي يعلم غيب السموات والأرض، بأنه غير ممكن لأحد.

وعبر عن نفي وقوع الفعل منهم بـ«إن» التي يعبر بها عما يشك في شرطه، أو يجزم المتكلم بعدم وقوعه، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا بإذا؛ لأن المحقق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية، مع القطع بأن اللَّه تعالى منزه عن الشك، ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة، قد ينظر فيها إلى حال المخاطب

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١-٤٥١) والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩). من طريق سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٤-١٠٦).

لا حال المتكلم، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه، فههنا يخاطب اللَّه المرتابين، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالواثقين الموقنين، خطابًا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما تحداهم به مشكوك فيه، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم، وداخلة في حدود إمكانهم، خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي تومئ إلى القدرة على المعارضة، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة، ثم كر على هذا الإيذان بل الإيهام بالنقض بلا تلبث ولا تريث، وأبطل مراعاة الظاهر بل حولها إلى تهكم، بالنفي المؤكد الذي ذهب بذلك الذماء، واستبدل اليأس بالرجاء، كأنه يقول إن إعراضكم عن الإيمان، بعد سماع هذا القرآن، الذي أفاض العلوم على أمي لم يترب في معاهد العلم، وأظهر معجزات البلاغة على من لم يكن يعرف منه التبريز بها في نثر ولا نظم، يدل على أنكم تدعون استطاعة الإتيان بسورة من مثله، وما أنتم بمستطيعين، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

كان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصادعة التي تثير النخوة، وتهيج الغيرة، مع علو كعبهم في البلاغة، ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها، في عصر ارتقت فيه دولة الكلام، ارتقاء لم تعرف مثله الأيام، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون، ويباهون ويفاخرون، ويعقدون لذلك المجامع ويقيمون الأسواق، ثم يطيرون بأخبارها في الآفاق، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة، ولم ينهض بليغ من مصاقعهم إلى المناهضة، (أقول) بل تواتر عنهم ما كان (من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم) وسفك دمائهم بأسيافهم، وتخريب بيوتهم بأيديهم، أفلم يكن الأجدر بمداره قريش وفحولها، وغرر بني معد وحجولها، أن يجتمعوا على تأليف سورة ببلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ، وغيرها من مجامع مفاخراتهم ويؤثرون هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صناديدهم، إلى يثرب لقتال محمد ﷺ ومن آمن به ﷺ في بدر وأحد، ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعًا لهم؟ ومثل هذا يقال في اليهود الذين

---

(١) الإسراء: الآية (٨٨).

كانوا بجواره في المدينة فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم، فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم، وإخراج بقية السيف من ديارهم، فلاشك أن اللّه تعالى قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرتقي البشر إليها، وهو تعالى جده العالم بملبغ استطاعتهم، والمالك لأعنة قدرتهم»[١].

وقال القاسمي: «هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التي صدعت بتحدي الكافرين بالتنزيل الكريم. وقد تحداهم اللّه تعالى في غير موضع منه، فقال في سورة القصص ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢]. وقال في سورة سبحان ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣]. وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٤]. وقال في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٥]. وكل هذه الآيات مكية. ثم تحداهم أيضًا في المدينة بقوله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ .. إلى آخر هذه الآية، فعجزوا عن آخرهم: وهم فرسان الكلام وأرباب النظام، وقد خصوا من البلاغة والحكم، ما لم يخص به غيرهم من الأمم. وأوتوا من ذرابة اللسان، ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب، ما يقيد الألباب. جعل اللّه لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمحدون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملًا، ويتركون النبيه خاملا؛ منهم البدوي: ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع

(١) تفسير المنار (١/ ١٩٤-١٩٦).
(٢) القصص: الآية (٤٩).
(٣) الإسراء: الآية (٨٨).
(٤) هود: الآية (١٣).
(٥) يونس: الآيتان (٣٧ و ٣٨).

الجوهري، والمنزع القوي. ومنهم الحضري: ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية. وكلا البابين فلهما -في البلاغة- الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهج. لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قدحوا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحًا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في القل والكثر، وتساجلوا في النظم والنثر -ومع هذا- فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض -لمقدار أقصر سورة منه- ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عددا من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادة والمضارة، وإلقائهم الشراشر على المعازة والمعارة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط: إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر. وقد جرد لهم الحجة أولا، والسيف آخرًا، فلم يعارضوا إلا السيف وحده. فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر، فطم على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب؛ وبذلك يظهر أن في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ معجزة أخرى، فإنهم ما فعلوا، وما قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخافتهم -كمسيلمة- كشف عواره لجميعهم.. وحيث عجز عرب ذلك العصر، فما سواهم أعجز في هذا الأمر..! وقد مضى -إلى الآن- أكثر من ألف وثلاثمائة عام، ولم يوجد أحد من معاديه البلغاء إلا وهو مسلم، أو ذو استسلام، فدل على أنه ليس من كلام البشر، بل كلام خالق القوى والقدر، أنزله تصديقًا لرسوله، وتحقيقًا لمقوله. وهذا الوجه -أعني بلوغه في الفصاحة والبلاغة إلى حد خرج عن طوق البشر- كاف وحده في الإعجاز، وقد انضم إليه أوجه:

منها: إخباره عن أمور مغيبة ظهرت كما أخبر.

ومنها: كونه لا يمله السمع مهما تكرر.

ومنها: جمعه لعلوم لم تكن معهودة، عند العرب والعجم.

ومنها: إنباؤه عن الوقائع الخالية، وأحوال الأمم. والحال أن من أنزل عليه

كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، لاستغنائه بالوحي، وليكون وجه الإعجاز بالقبول أحرى. وبذلك يعلم أن القرآن أعظم المعجزات، فإنه آية باقية مدى الدهر، يشاهدها -كل حين بعين الفكر- كل ذي حجر. وسواه -من المعجزات- انقضت بانقضاء وقتها، فلم يبق منها إلا الخبر»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٢/ ٧٥-٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

★ **غريب الآية:**

وقودها: الوقود بالفتح: الحطب. والوقود بالضم: التوقد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، يقول: فاتقوا أن تصلوا النار بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي أنه من وحيي وتنزيلي، بعد تبينكم أنه كتابي ومن عندي، وقيام الحجة عليكم بأنه كلامي ووحيي، بعجزكم وعجز جميع خلقي عن أن يأتوا بمثله.

ثم وصف -جل ثناؤه- النار التي حذرهم صليها فأخبرهم أن الناس وقودها، وأن الحجارة وقودها، فقال: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، يعني بقوله: ﴿وَقُودُهَا﴾ حطبها»(١).

وقال القرطبي: «وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها. وقيل: المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(٢) أي: حطب جهنم. وعليه فتكون الحجارة والناس وقودًا للنار؛ وذكر ذلك تعظيمًا للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس. وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والحجارة»(٣).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان، خلافًا للمعتزلة.

---

(١) جامع البيان (١/ ٣٨٠).

(٢) الأنبياء: الآية (٩٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦٤).

وفيها أيضًا: أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار؛ لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ .

فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم خلافًا للخوارج والمعتزلة.

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر، وأنواع المعاصي على اختلافها»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[٣]»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «قال تعالى مخاطبًا للفريقين بعد تسجيل العجز عليهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ وهي موطن عذاب الآخرة، نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر اللَّه تعالى به، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا نقول إنها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بها[٥]، وإنما نثبت لها جميع الأوصاف التي وصفها اللَّه تعالى بها كقوله: ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ المراد بالحجارة الأصنام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولا يسبقن إلى الفهم أنها لا توجد إلا بوجود الناس والحجارة؛ إذ يصح أن يكونوا وقودها بعد وجودها. والوقود بالفتح ما توقد به النار، وبالضم مصدر وقد، وسمع المصدر بالفتح أيضا.

وقال بعضهم في تفسير ﴿وَقُودُهَا﴾ إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضًا، وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم، والحجارة بعبادة الناس لها -سببان في إيجاد النار وإعدادها لهم، فبذلك كانوا كالوقود الذي تضرم به النار، وفي الكلام

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦١).
(٢) الجن: الآية (١٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٩٨).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٠٦).
(٥) والصواب القول بأننا نثبت ما أخبر اللَّه به من عذاب جهنم، ونقف عند حدود المنصوص عليه في الكتاب والسنة، فالرسول ﷺ أثبت أن نار الدنيا جزء من نار الآخرة، هذا هو الصواب، ولعل الشيخ رشيد في عبارته المبالغة في الإثبات وعدم البحث في الكيفية، والصحيح ما قدمنا لظهور النصوص به في السنة النبوية، كما سيأتي في نصوص النبي ﷺ.

تقديم السبب وهو الناس والحجارة على المسبب وهو قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ وبهذا التفسير يظهر الحصر في جملة ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فإنها اسمية معرفة الطرفين، وخص الحجارة بالذكر لأنها أظهر المعبودات عند العرب.

والمراد بالكافرين الذين لا يجيبون دعوة الأنبياء ﷺ والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها، وتقاليد يحدثونها، وتأويلات يلفقونها. فهؤلاء هم الذين أعدت وهيئت النار لهم؛ لأنهم الذين يستحقون الخلود فيها، ومن وردها ورودا وانتهى إلى موطن آخر؛ فذلك الموطن هو الذي أعد له. وليس بعد الدنيا موطن إلا الجنة، جعلنا اللَّه من أهلها بالتوفيق للتقوى، أو النار نعوذ باللَّه منها ومما يقرب إليها من قول وعمل»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النار أعاذنا اللَّه منها

* عن أبي هريرة قال كنا مع رسول اللَّه ﷺ إذ سمع وجبة فقال النبي ﷺ: «**تدرون ما هذا؟**» قال: قلنا: اللَّه ورسوله أعلم قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

الوجبة: قال في النهاية: «وأصل الوجوب: السقوط والوقوع. وقال أيضًا: والوجبة السقطة مع الهدة».

الخريف: الزمان المعروف من فصول السنة، والمقصود هنا بالخريف السنة.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الملك: «الأوجه أن يكون الوجبة حقيقية ويسمع اللَّه لهم دون غيرهم صوتها خارقا للعادة ليبين النبي ﷺ به عمقها»[(٣)].

قلت: وهو الذي دائمًا ينبغي أن تحمل عليه النصوص دون تحريفها وتأويلها

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٩٧-١٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧١) ومسلم (٤/ ٢١٨٤-٢١٨٥/ ٢٨٤٤).

(٣) مبارق الأزهار (٢/ ٤٤٥).

التأويل الفاسد.

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم واشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير**»(١).

★ غريب الحديث:

الإبراد: انكسار الوهج والحر.

الفيح: سطوع الحر وفورانه ويقال بالواو وفاحت القدر تفيح وتفوح إذا غلت.

الزمهرير: قال في النهاية: «والزمهرير: شدة البرد وهو الذي أعده اللَّه عذابًا للكفار في الدار الآخرة».

النفس: بفتح الفاء معروف، وهو ما يخرج من الجوف ويدخل فيه من الهواء.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «واختلف في معنى هذا الحديث فمن العلماء من حمله على ظاهره وقال هو لسان مقال محقق وشكوى محققة وتنفس محقق إذ هو إخبار من الصادق بأمر جائز فلا يحتاج إلى تأويله وقيل إن هذا الحديث خرج مخرج التشبيه والتقريب ثم قال: والأول أولى لأنه حمل اللفظ على حقيقته ولا إحالة في شيء من ذلك وفيه دليل على أن النار قد خلقت وأنها موجودة خلافًا لما قالت المعتزلة وغيرهم من أهل البدع: إنها ستخلق في القيامة»(٢).

وقال النووي: «والصواب الأول لأنه ظاهر الحديث ولا مانع من حمله على حقيقته فوجب الحكم بأنه على ظاهره»(٣).

وقال الحافظ: «قال الزين بن المنير: المختار حمله على الحقيقة لصلاحية

---

(١) أخرجه مالك (١/ ١٦/ ٢٨) وأحمد (٢/ ٤٦٢) والبخاري (٢/ ٢٣/ ٥٣٦-٥٣٧) ومسلم (١/ ٤٣١/ ٦١٧) ورواه أبو داود (١/ ٢٨٤/ ٤٠٢) والترمذي (١/ ٢٩٥/ ١٥٧) والنسائي (١/ ٢٧٠/ ٤٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٢٢/ ٦٧٨) مختصرًا.

(٢) المفهم (٢/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) شرح مسلم (٥/ ١٠٢).

القدرة لذلك ولأن استعارة الكلام للحال و إن عهدت وسمعت لكن الشكوى وتفسيرها والتعليل له والإذن والقبول والتنفس وقصره على اثنين فقط بعيد من المجاز خارج عما ألف من استعماله»[(١)].

وفيه ذكر الحر والزمهرير وهما من عذاب جهنم.

وقال ابن عبد البر: «وأما قوله في هذا الحديث: (**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضًا**) الحديث. فإن قومًا حملوه على الحقيقة، وأنها أنطقها الذي أنطق كل شيء. واحتجوا بقول اللَّه ﷿: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[(٢)] وبقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٣)] وبقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[(٤)] أي: سبحي معه، وقال: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[(٥)] وبقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[(٦)]. وما كان من مثل هذا، وهو في القرآن كثير. حملوا ذلك كله على الحقيقة لا على المجاز، وكذلك قالوا في قوله ﷿: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[(٧)] و ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[(٨)] وما كان مثل هذا كله»[(٩)].

ثم ذكر قول من تأول ذلك ثم ختم بقوله: «والاحتجاج لكلا القولين يطول. وليس هذا موضع ذكره، وحمل كلام اللَّه تعالى وكلام نبيه ﷺ على الحقيقة أولى بذوي الدين والحق؛ لأنه يقص الحق، وقوله الحق، -تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا-»[(١٠)].

* عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يخطب يقول: «**أنذركم النار، أنذركم النار**»، حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[(١١)].

---

(١) الفتح (٢/ ٢٤)

(٢) النور: الآية (٢٤).

(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

(٤) سبأ: الآية (١٠).

(٥) ص: الآية (١٨).

(٦) ق: الآية (٣٠).

(٧) الفرقان: الآية (١٢).

(٨) الملك: الآية (٨).

(٩) فتح البر (٢/١١٧-١١٨).

(١٠) فتح البر (٢/ ١٢٠-١٢١).

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨) وابن أبي شيبة (٧/ ٥١/ ٣٤١٣٦) والدارمي (٢/ ٣٣٠) والبيهقي (٣/ ٢٠٧) والحاكم (١/ ٢٨٧) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وابن حبان (٢/ ٤١١/ ٦٤٤)، من طرق عن=

★ **غريب الحديث:**

خميصة: كساء أسود معلم الطرفين ويكون من خز أو صوف، فإن لم يكن معلمًا فليس بخميصة.

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ضربت بماء البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل اللَّه فيها منفعة لأحد**»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**» قيل: يا رسول اللَّه إن كانت لكافية قال: «**فضلت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «يعني أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها بنو آدم لكانت جزءا من أجزاء جهنم المذكورة وبيانه أنه لو جمع حطب الدنيا فوقد كله حتى صار نارا لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءًا أشد من حر نار الدنيا كما بينه في آخر الحديث إلى أن قال: فأجابهم النبي ﷺ بأنها كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين جزءًا فضلت عليها في شدة الحر بتسعة وستين[3] ضعفًا»[4].

وقال ابن الملك: «هذا بيان لأجزاء نار جهنم وكميتها يعني لو جمع حطب الدنيا فأوقد حتى صار نارًا لكان جزءًا من سبعين جزءًا من نار جهنم. ثم قال في الشطر الآخر من الحديث: هذا بيان لتفضيلها في الكيف كما فضلت في الكم»[5].

قال المباركفوري: «وإنما أظهر اللَّه هذا الجزء من النار في الدنيا أنموذجًا لما

= شعبة عن سماك أنه سمع النعمان بن بشير يقول: فذكره. قال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٨٧-١٨٨): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» اهـ وسماك روايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وهو في غير عكرمة صالح، ومن سمع منه قديمًا مثل شعبة وسفيان فحديثهم عنه صحيح مستقيم.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤) والحميدي (٢/ ٤٧٩/ ١١٢٩) والبيهقي في البعث (٥٥٠) وابن حبان (١٦/ ٥٠٤/ ٧٤٦٣).

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٩٤) وأحمد (٢/ ٣١٣) والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥) ومسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣) والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨٩).

(٣) في الأصل وتسعين.

(٤) المفهم (٧/ ١٨٧).

(٥) مبارق الأزهار (٣/ ٣١٩).

في تلك الدار»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال اللَّه -تبارك وتعالى- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم اللَّه ﷻ من خلقه أحدًا وأما الجنة فإن اللَّه ﷻ ينشئ لها خلقًا**»[٢].

★ غريب الحديث:

تحاجت: أي تخاصمت.

سقطهم: بفتحتين أي المحتقرون بينهم الساقطون من أعينهم.

قط قط: أي حسبي حسبي.

يزوى: يضم بعضها إلى بعض فتجتمع وتلتقي على من فيها.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى أن الجنة يقع امتلاؤها بمن ينشئهم اللَّه لأجل ملئها وأما النار فلا ينشئ لها خلقا بل يفعل فيها شيئًا عبر عنه بما ذكر[٣] يقتضي لها أن ينضم بعضها إلى بعض فتصير ملأى ولا تحتمل مزيدًا»[٤].

---

(١) التحفة (٧/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠) ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ٢٨٤٦) والترمذي (٤/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٢٥٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢) من طرق عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) يعني أنه يضع فيها قدمه وهذا من الصفات الذاتية الخبرية فلا ينبغي التحرج من وصف اللَّه بها وإجرائها على ظاهرها مع تمام التنزيه كما هو مذهب السلف. قال محمد أمان الجامي: «ففي مثل هذا المقام التوقيفي لا ينبغي للمرء الناصح لنفسه أن يحاول استخدام قوة عقله أو سلطان فلسفته أو ما ورثه من مشايخه ليقول في هذا النص النبوي قولًا يخالف قول المعصوم فيفسر الحديث كما يريد ويستحسن بل عليه أن يقول كما قال الإمام الشافعي: (آمنا باللَّه وبما جاء عن اللَّه على مراد اللَّه. وآمنا برسول اللَّه، وبما جاء عن رسول اللَّه على مراد رسول اللَّه -عليه الصلاة والسلام-)» الصفات الإلهية (ص: ٣٢١).

(٤) الفتح (٨/ ٧٦٧).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا قالت: حسبي حسبي؛ كانت قد اكتفت بما ألقى فيها، ولم تقل بعد ذلك هل من مزيد، بل تمتلئ بما فيها لانزواء بعضها إلى بعض؛ فإن اللَّه يضيقها على من فيها لسعتها، فإنه قد وعدها ليملأنها من الجنة والناس أجمعين، وهي واسعة فلا تمتلئ حتى يضيقها على من فيها.

قال: وأما الجنة فإن اللَّه ينشئ لها خلقًا فيدخلهم الجنة، فبين أن الجنة لا يضيقها سبحانه، بل ينشئ لها خلقا فيدخلهم الجنة؛ لأن اللَّه يدخل الجنة من لم يعمل خيرا؛ لأن ذلك من باب الإحسان. وأما العذاب بالنار فلا يكون إلا لمن عصى، فلا يعذب أحدا بغير ذنب، واللَّه أعلم»[1].

قال الهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا الحديث إثبات الرجل والقدم لله ﷻ، وهذه الصفة تجرى مجرى بقية الصفات، فتثبت لله على الوجه اللائق بعظمته سبحانه.

والحكمة في وضع رجله سبحانه في النار أنه قد وعد أن يملأها؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

ولما كان مقتضى رحمته وعدله أن لا يعذب أحدا بغير ذنب، وكانت النار في غاية العمق والسعة؛ حقق وعده تعالى، فوضع فيها قدمه، فحينئذ يتلاقى طرفاها، ولا يبقى فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة؛ فإنه يبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسع لهم، فينشئ اللَّه لها خلقًا آخرين؛ كما ثبت بذلك الحديث»[3].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦-٤٧).

(٢) هود: الآية (١١٩) و السجدة (١٣).

(٣) شرح الواسطية للهراس (ص: ١٧١-١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

الأنهار: واحدها: نهر. وهو في الأصل: الشق الواسع الذي يجري فيه الماء. من نَهَرْتُ الشيء: إذا شققته شقًّا واسعًا. ثم استعير للماء الجاري فيه للمجاورة. ويجمع على أنهار ونُهُر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه»[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه استحباب بشارة المؤمنين، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها، فإنها بذلك، تخف وتسهل. وأعظم بشرى حاصلة للإنسان، توفيقه للإيمان والعمل الصالح. فذلك أول البشارة وأصلها. ومن بعده، البشرى عند الموت. ومن بعده، الوصول إلى هذا النعيم المقيم. نسأل اللَّه من فضله»[٢].

وقال: «قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ قيل: متشابهًا في الاسم مختلفًا في الطعم وقيل: متشابهًا في اللون مختلفًا في الاسم وقيل: يشبه بعضه بعضًا في الحسن

(١) حادي الأرواح (ص: ١٤٩).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٦٤).

واللذة والفكاهة ولعل هذا أحسن»[١]. اهـ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولهم: هذا الذي رزقنا من قبل؛ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة؟ قيل: فيه قولان ففي تفسير السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قال مجاهد: ما أشبهه به، وقال ابن زيد: هذا الذي رزقناه من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابها يعرفونه، وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم. واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

(إحداها): أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا ولشدة المشابهة قالوا هذا هو.

(الحجة الثانية): ماحكاه ابن جرير عنهم قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله كما كان . . .

(الحجة الثالثة): قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم هذا الذي رزقنا من قبل.

(الحجة الرابعة): أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر واحتجت بوجوه. قال ابن جرير. . . : فقد تبين أن معنى الآية كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.
قلت: أصحاب القول الأول يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه وليس هذا ببدع من طريقة القرآن وأنت مضطر إلى تخصيصه ولابد بأنواع من التخصيصات:

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٣).

(أحدها): أن كثيرًا من ثمار الجنة وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

(الثاني): أن كثيرًا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

(الثالث): أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا هذا الذي رزقنا في الدنيا ويستمرون على هذا الكلام دائما إلى غير نهاية والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى ولا هو مما يعتنى بهم من نعيمهم ولذتهم وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب ومعناه أنه يشبه بعضه بعضا ليس أوله خيرا من آخره ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله وهو خيار كله يشبه بعضه بعضا فهذا وجه قولهم ولا يلزم مخالفة ما نصه اللَّه ﷻ ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه. والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه واللَّه أعلم»[(١)].

قلت: ما قاله العلامة ابن القيم بأن التشابه المذكور في الآية هو تشابه في واقع الثمرة من شكلها ولونها ولذتها، وأن المفارقة إنما هو في التلوين والتنويع، وأن أهل الجنة لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة ولا رأوها، كالرمان مثلا، وغيره مما ذكر في كتاب اللَّه أنه من ثمار الجنة. فما أحسن ما قرره العلامة ابن القيم، وهذا يدل على حصافة رأيه وأنه أوتي فهمًا ثاقبًا، فرحمة اللَّه عليه رحمة واسعة.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار**»[(٢)].

---

(١) حادي الأرواح (ص: ١١٦-١١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٠) ومسلم (٤/ ٢١٩٩/ ٢٨٦٦) والترمذي (٣/ ٣٨٤/ ١٠٧٢) والنسائي (٤/ ٤١٣-٤١٤/ ٢٠٧١) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٧٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان -كما يقول أهل السنة في ذلك - والله أعلم، ويدل على ذلك أيضًا قول الله ﷻ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾[1]»[2].

ثم ذكر عدة أحاديث ستأتي بعد هذا.

قال القاضي: «فتنعيم المؤمن وتعذيب الكافر بمعاينة ما أعد الله لكل واحد منهما، وانتظار ذلك إلى اليوم الموعود»[3].

قال القرطبي: «قوله: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي**»، هذا منه ﷺ إخبار عن غير الشهداء[4]، فإنه قد تقدم أن أرواحهم في حواصل طير تسرح في الجنة، وتأكل من ثمارها. وغير الشهداء: إما مؤمن، وإما غير مؤمن. فغير المؤمن: هو الكافر. فهذا يرى مقعده من النار غدوًّا وعشيًّا، وهذا هو المعني بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[5]. وأما المؤمن: فإما ألا يدخل النار، أو يدخلها بذنوبه. فالأول يرى مقعده من الجنة لا يرى غيره رؤية خوف، وأما المؤمن المؤاخذ بذنوبه فله مقعدان: مقعد في النار زمن تعذيبه، ومقعد في الجنة بعد إخراجه، فهذا يقتضي أن يعرضا عليه بالغداة والعشي، إلا إن قلنا: إنه أراد بأهل الجنة كل من يدخلها كيف كان، فلا يحتاج إلى ذلك التفسير، والله أعلم»[6].

* **عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**[7].

---

(١) غافر: الآية (٤٦). (٢) فتح البر (٢/ ١١١).

(٣) الإكمال (٨/ ٤٠٢).

(٤) قال ابن القيم: «لا تنافي بين قوله ﷺ نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وبين قوله إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد. كما أن قوله نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها» الروح (ص: ٩٧).

(٥) غافر: الآية (٤٦). (٦) المفهم (٧/ ١٤٤-١٤٥).

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٩) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤١) والترمذي (٤/ ٦١٧/ ٢٦٠٣) وقال: «حسن صحيح». =

★ **غريب الحديث:**

اطلعت: بتشديد الطاء أي أشرفت.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «الغرض منه قوله: «**اطلعت في الجنة**» فإنه يدل على أنها موجودة حالة اطلاعه وهو مقصود الترجمة[1]»[2]. اهـ.

قال ابن بطال: «ليس في قوله ﷺ: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء**» ما يوجب فضل الفقراء، وإنما معناه أن الفقراء في الدنيا أكثر من الأغنياء، فأخبر عن ذلك كما نقول أكثر أهل الدنيا الفقراء، لا من جهة التفضيل، وإنما هو إخبار عن الحال، وليس الفقر أدخلهم الجنة، إنما أدخلهم اللَّه الجنة بصلاحهم مع الفقر؛ أرأيت الفقير إذا لم يكن صالحًا فلا فضل له في الفقر»[3].

قال ابن أبي جمرة: «وإنما يكون معناه أن المؤمنين الذين يأتون ما أمروا به أكثرهم فقراء وكذلك جاء: إن أول أتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هم الفقراء؛ لأن الأغنياء تمنعهم من الإجابة كثرة حطام الدنيا والاشتغال بها وإن دخلوا في الإسلام قل ما يخلصون أنفسهم من كثرة ما يترتب عليهم من الحقوق إلا من أيده اللَّه تعالى منهم بمعونته، والفقراء أقل مؤنة وأرق أفئدة فيحق أن يكونوا أكثر أهل الجنة»[4].

وقال أيضًا: «وهذا الحديث منه ﷺ تسلية للفقراء حتى يطيب لهم حالهم، فإنه إذا كانت تلك الدار المباركة هم أكثر أهلها ارتاحت نفوسهم لذلك، فما أرفقه -عليه الصلاة والسلام- بأمته وأكثر إيناسه لهم فجزاه اللَّه عنا خير جزاء بمنه والحمد لله رب العالمين»[5].

= والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٩٨/ ٩٢٥٩) من طريق أبي رجاء عن عمران بن حصين ورواه مسلم (٤/ ٢٠٩٧/ ٢٧٣٨) من طريق مطرف بن عبد اللَّه عن عمران مرفوعًا بلفظ: «**إن أقل ساكني الجنة النساء**».

(١) قال البخاري: «باب صفة الجنة وأنها مخلوقة».

(٢) الفتح (٦/ ٣٩٨).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٧٣).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ٦).

(٥) بهجة النفوس (٤/ ٧).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال: «**بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته فوليت مدبرًا**» فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وضوء هذه المرأة في الجنة إنما هو لتزداد حسنًا ونورًا، لا لتزيل وسخًا، ولا قذرًا إذ الجنة منزهة عن ذلك، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «**أمشاطهم الذهب، مجامرهم الألوة**»[(٢)]»[(٣)].

قال المباركفوري: «فيه فضيلة ظاهرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه»[(٤)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم فيها الذهب أمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيًا**»[(٥)].

★ غريب الحديث:

الزمرة: المجموعة.

مجامرهم: المجامر جمع مجمرة وهي المبخرة سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور.

الألوة: بضم اللام وفتح الهمزة وضمها لغتان مشهورتان. العود الذي يبخر به.

رشحهم: عرقهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٩) والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٢) ومسلم (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤١/ ٨١٢٩) وابن ماجه (١/ ٤٠/ ١٠٧).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

(٣) المفهم (٦/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٤) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٢٠).

(٥) رواه أحمد (٢/ ٢٣٠) والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٥) ومسلم (٤/ ٢١٧٨-٢١٧٩/ ٢٨٣٤) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).

★ **فوائد الحديث:**

فيه عظم ما أعد اللَّه لأهل الجنة من النعيم المقيم.

قال القرطبي: «وقوله: أول زمرة يدخلون الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر: الصورة بمعنى الصفة؛ يعني: أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر ليلة تمامه، وكماله، وهي ليلة أربعة عشر، وبذلك سمي القمر بدرًا في تلك الليلة، ومقتضى هذا أن أبواب الجنة متفاوتة بحسب درجاتهم».

«وقوله: «**لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون**»: إنما لم تصدر هذه الفضلات عن أهل الجنة؛ لأنها أقذار مستخبثة، والجنة منزهة عن مثل ذلك، ولما كانت أغذية أهل الجنة في غاية اللطافة، والاعتدال، لم يكن لها فضلة تستقذر، بل تستطاب وتستلذ، وهي التي عبر عنها بالمسك كما قال: (**ورشحهم المسك**). وقد جاء في لفظ آخر: «**لا يبولون، ولا يتغوطون، و إنما هو عرق يجري من أعراضهم مثل المسك**»[١] يعني: من أبدانهم»[٢].

وقال: «وقوله: «**أمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة**» يقال هنا: أي حاجة في الجنة للأمشاط، ولا تتلبد شعورهم ولا تتسخ، وأي حاجة للبخور وريحهم أطيب من المسك؟ ويجاب عن ذلك: بأن نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شرابهم عن ظمأ، ولا تطييبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية، ونعم متتابعة، ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[٣]، وحكمة ذلك أن اللَّه تعالى نعمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله»[٤].

وقال: «وقوله: «**لكل واحد منهم زوجتان**»؛ يعني: أن أدنى من في الجنة درجة

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٦٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٤/ ١١٤٧٨) والطبراني في الكبير (٥/ ١٧٧/ ٥٠٠٤) وفي الأوسط (٢/ ٤٣١/ ١٧٤٣) والبزار (٤/ ١٩٧/ ٣٥٢٢ كشف الأستار) وقال الهيثمي (١٠/ ٤١٦): «ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة».

(٢) المفهم (٧/ ١٧٩).

(٣) طه: الآيتان (١١٨ و ١١٩).

(٤) المفهم (٧/ ١٨٠).

له زوجتان، إذ ليس في الجنة أعزب، كما قال. وأما غير هؤلاء فمن ارتفعت منزلته فزوجاتهم على قدر درجاتهم كما يأتي في قوله: «**في الجنة درة طولها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل للمؤمن ما يرون الآخرين**». وبهذا يعلم: أن نوع النساء المشتمل على الحور والآدميات في الجنة أكثر من نوع رجال بني آدم، ورجال بني آدم أكثر من نسائهم، وعن هذا قال ﷺ: «**أقل ساكني الجنة نساء، وأكثر ساكني جهنم النساء**»[(١)] يعني: نساء بني آدم هن أقل في الجنة وأكثر في النار.

وقوله: «**يرى مخ ساقها من وراء اللحم**»؛ يعني: من شدة صفاء لحم الساقين، فكأنه يرى مخ الساقين من وراء اللحم، كما يرى السلك في جوف الدرة الصافية.

وقوله: (**قلوبهم قلب واحد**)؛ أي: كقلب واحد؛ يعني: أنها مطهرة عن مذموم الأخلاق، مكملة بمحاسنها، فلا اختلاف بينهم، ولا تباغض.

وقوله: (**يسبحون اللَّه بكرة وعشيًّا**)، هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام؛ لأن الجنة ليست محل تكليف، وإنما هي محل جزاء، وإنما هو عن تيسير وإلهام، كما قال في الرواية الأخرى: «**يلهمون التسبيح، والتحميد، والتكبير، كما تلهمون النفس**». ووجه التشبيه: أن تنفس الإنسان لا بد له منه، ولا كلفة، ولا مشقة عليه في فعله. وآحاد التنفيسات مكتسبة للإنسان، وجملتها ضرورية في حقه، إذ يتمكن من ضبط قليل الأنفاس، ولا يتمكن من جميعها، فكذلك يكون ذكر اللَّه تعالى على ألسنة أهل الجنة، وسر ذلك: أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته. فألسنتهم ملازمة ذكره، ورهينة بشكره، فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره»[(٢)].

وقال النووي: «مذهب أهل السنة وعامة المسلمين أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون يتنعمون بذلك وبغيره من ملاذ وأنواع نعيمها تنعمًا دائمًا لا آخر له ولا انقطاع أبدًا وإن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل في اللذة والنفاسة التي لا يشارك نعيم الدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٢٧) ومسلم (٤/ ٢٠٩٧/ ٢٧٣٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٦٧) عن عمران بن حصين ﷺ. وليس عندهم قوله: (وأكثر).

(٢) المفهم (٧/ ١٨٠-١٨١).

وإلا في أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبصقون، وقد دلت دلائل القرآن والسنة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبدًا»[١].

* عن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ليدخلن من أمتي سبعون ألفًا أو سبع مائة ألف لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**»[٢].

وفي رواية مسلم: «**متماسكون آخذ بعضهم بعضًا . . .** »

★ فوائد الحديث:

قال القاضي: «وقوله: «**متماسكون لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم**»: أي بعضهم آخذ بيد بعض، ممسك له. كما قال: آخذ بعضهم بعضًا. وهذا يدل على عظم الجنة وسعة بابها، وقد يكون معنى متماسكين بالوقار والثبات؛ أي: لا يخف بعضهم عن بعض، ولا يسابقه حتى يكون دخولهم جميعا»[٣]. اهـ.

* عن أنس ﷺ قال: أهدي للنبي ﷺ جبة سندس وكان ينهى عن الحرير فعجب الناس منها فقال: «**والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: (**لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين**)، هذه إشارة إلى أدنى ثياب سعد؛ لأن المناديل إنما هي ممتهنة متخذة لمسح الأيدي بها من الدنس والوسخ، وإذا كان هذا حال المنديل، فما ظنك بالعمامة والحلة؟ ولا يظن أن طعام الجنة وشرابها فيهما ما يدنس يد المتناول حتى يحتاج إلى منديل فإن هذا ظن من لا يعرف الجنة ولا طعامها ولا شرابها، إذ قد نزه اللَّه الجنة عن

---

(١) شرح النووي (١٧/ ١٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣٥) والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٧) ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٩).

(٣) الإكمال (١/ ٦٠٥).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٩) والبخاري (٦/ ٣٩٢-٣٩٣/ ٣٢٤٨) ومسلم (٤/ ١٩١٦/ ٢٤٦٩)، ورواه الترمذي (٤/ ١٩٠-١٩١/ ١٧٢٣) والنسائي (٨/ ٥٨٦/ ٥٣١٧) مطولًا من طرق عن أنس ﷺ، وفي الباب عن البراء ﷺ.

ذلك كله، وإنما ذلك إخبار بأن اللَّه أعد في الجنة كل ما كان يحتاج إليه في الدنيا، لكن هي على حالة هي أعلى وأشرف، فأعد فيها أمشاطًا ومجامر وألوة ومناديل وأسواقًا وغير ذلك مما تعارفناه في الدنيا، وإن لم نحتج له في الجنة إتماما للنعمة وإكمالا للمنة»[١]. اهـ

وقال النووي: «وقال العلماء: هذه إشارة إلى عظم منزلة سعد في الجنة»[٢].

* عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: (**خير من الدنيا وما فيها**): قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقًا له في النفس لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة. الثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة اللَّه تعالى»[٤].

قال القاري: «قوله: (**موضع سوط في الجنة**): أريد به قدر قليل منها أو مقدار موضعه فيها. (**خير**): أي كمية وكيفية (**من الدنيا وما فيها**): لأن الجنة مع نعيمها باقية والدنيا مع ما فيها فانية...»[٥]. اهـ

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**» وقال: «**لغدوة أو روحة في سبيل اللَّه خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**»[٦].

---

(١) المفهم (٦/ ٣٨٤). (٢) شرح مسلم (١٦/ ١٩).

(٣) رواه أحمد (٣/ ٤٣٣) والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٥٠) ومسلم (٣/ ١٥٠٠/ ١٨٨١) والترمذي (٤/ ١٥٤-١٥٥/ ١٦٤٨) والنسائي (٦/ ٣٢٢/ ٣١١٨) وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٥٦) وهو عند بعضهم مختصر دون موضع الشاهد.

(٤) الفتح (٦/ ١٧). (٥) المرقاة (٩/ ٥٧٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٢) والبخاري (٦/ ١٦/ ٢٧٩٣) ومسلم (٣/ ١٥٠٠/ ١٨٨٢). من طرق عن أبي هريرة وليس في مسلم موضع الشاهد.

★ **غريب الحديث:**

قاب قوس: أي قدر قوس.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «يعني أن اليسير من الجنة خير من الدنيا وما فيها وخير مما في الجو إلى عنان السماء، فالمراد بذكر السوط التمثيل لا موضع السوط بعينه، بل نصف سوط وربعه وعشره من الجنة الباقية خير من جميع الدنيا الفانية، ذكره ابن عبد البر. وقال بعضهم: جاء في رواية: لقاب قوس، وفي رواية: لشبر، وفي أخرى: لقيد، وفي أخرى: لموضع قدم، وبعض هذه المقادير أصغر من بعض فإن الشبر أو القدم أصغر من السوط، لكن المراد تعظيم شأن الجنة وأن اليسير منها وإن قل قدره خير من مجموع الدنيا بحذافيرها، وقال في هذه الرواية: خير مما بين السماء والأرض، وفي أخرى: خير من الأرض وما عليها، وفي أخرى: من الدنيا وما فيها، وفي أخرى: مما طلعت عليه الشمس أو غربت، وكلها ترجع إلى معنى واحد، فإن كل ما بين السماء والأرض تطلع عليه الشمس وتغرب وهو عبارة عن الدنيا وما فيها»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**»[2].

★ **غريب الحديث:**

ينعم: يتنعم.

لا يبأس: لا يفقر ولا يهتم.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قال القاضي ناصر الدين: معناه أن الجنة دار الثبات والقرار، وأن التغيير لا يتطرق إليها، فلا يشوب نعيمها بؤس ولا يعتريه فساد ولا تغير فإنها ليست دار الأضداد ومحل الكون والفساد»[3]. اهـ.

---

(١) فيض القدير (٥/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠) ومسلم (٤/ ٢١٨١/ ٢٨٣٦).

(٣) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٥٧).

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: «**ما تربة الجنة؟**» قال: درمكة بيضاء مسك يا أبا القاسم. قال: «**صدقت**»[١].

★ غريب الحديث:

ابن صائد: ويقال له ابن صياد واسمه صاف وكان يهوديًّا ثم أسلم. وأمره مختلف فيه هل هو الدجال أم لا؟

درمكة: قال العلماء: معناه هو الدقيق الحواري الخالص البياض.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «و قوله ﷺ لابن صياد: **(ما تربة الجنة؟)** هذا نص في أن النبي ﷺ هو السائل لابن صياد عن تربة الجنة، وفي الرواية الأخرى: أن ابن صياد هو الذي سأل النبي ﷺ عن تربة الجنة، فهاتان روايتان، والواقع منهما إحداهما، والله أعلم، وكيفما كان فالخبر عن تربة الجنة صدق وصحيح؛ لأنه إن كان الجواب من النبي ﷺ فهو حق، إذ الكذب عليه محال، وإن كان ابن صياد هو الذي قاله فقد علمنا صحة ذلك من جهة أن النبي ﷺ صدقه في ذلك ويكون ابن صياد علم ذلك من جهة ما ألقاه إليه شيطانه من الكلمات التي استرق سمعها؛ لأن ابن صياد كان من الكهان»[٢].

* عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «**لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض ولو أن رجلًا من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم**»[٣].

★ غريب الحديث:

يُقِلُّ: أقل الشيء يقله واستقله يستقله إذا رفعه وحمله.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤، ٢٥و٤٣) ومسلم (٤/ ٢٢٤٣/ ٢٩٢٨).

(٢) المفهم (٧/ ١٧٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧١) والترمذي (٤/ ٥٨٥/ ٢٥٣٨). وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من حديث ابن لهيعة». قال الحافظ في التقريب: «ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما». وهذا الحديث من رواية ابن المبارك عن ابن لهيعة.

خوافق: الخوافق جمع خافقة وهي الجانب، ويقال الخافقان للمشرق والمغرب.

طمس: أي محا.

* عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي اللَّه ألا تحدثني عن حارثة؛ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[(١)].

★ غريب الحديث:

سهم غرب: لا يعرف راميه أو لا يعرف من أين أتى أو جاء على غير قصد من راميه.

★ فوائد الحديث:

والجنان جمع جنة. **قال القاسمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجمعها مع التنكير لاشتمالها على جنان كثيرة في كل منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها»[(٢)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء[(٣)].

★ فوائد الأثر:

قال المناوي: «وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر، فمطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما يشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات وتسمى بأسمائها على منهج الاستعارة والتمثيل ولا يشاركها في تمام حقيقتها لا يقال هذا يناقضه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٦٤) والبخاري (٦/ ٣٢/ ٢٨٠٩) والترمذي (٥/ ٣٠٦/ ٣١٧٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ٦٤-٦٥/ ٨٢٣١).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٨٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٣٩١-٣٩٢/ ٥٣٤و٥٣٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦/ ٢٦٠) وأبونعيم في صفة الجنة (١/ ١٦٠/ ١٢٤) وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٥٦٠). وقال: «رواه البيهقي موقوفًا بإسناد جيد».

﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ لأن التماثل هو التشابه في الصفة لأنا نقول التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون القدر والطعم وهو كاف في إطلاق التشابه والمراد التشابه في الشرف والمزية وعلوّ الطبقة»(١).

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**» قيل: يا رسول اللَّه أوَ يطيق ذلك؟ قال: «**يعطى قوة مائة**»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «**«يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع»**: وهو كناية عن جماع عدة من النساء كالعشرة مثلا».

(قيل: يا رسول اللَّه، أو يطيق ذلك؟) أيعطى تلك القوة ويستطيع ذلك المقدار والإشارة إلى مضمون قوله: كذا وكذا من الجماع.

«قال: «**يعطى قوة مائة**» أي مائة رجل كذا قيل، أو مائة مرة من الجماع والمعنى فإذا كان كذلك هو يطيق ذلك(٣).

قال المناوي: «والظاهر أن المراد بالمائة التكثير وأن قوته فيها على الجماع غير متناهية»(٤).

* عن أنس: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**غدوة في سبيل اللَّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا ولنصيفها يعني الخمار خير من الدنيا وما فيها**»(٥).

★ فوائد الحديث:

قال ابن دقيق العيد: «وفي قوله ﷺ: «**خير من الدنيا وما عليها**» وجهان:

---

(١) فيض القدير (٥/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٨٤/ ٢٥٣٦). وقال: «هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه من حديث قتادة عن أنس إلا من حديث عمران القطان».

(٣) المرقاة (٩/ ٦٠١).

(٤) فيض القدير (٦/ ٤٦٢).

(٥) رواه أحمد (٣/ ٢٦٤) والبخاري (١١/ ٥١٠/ ٦٥٦٨) ومسلم (٣/ ١٤٩٩/ ١٨٨٠) والترمذي (٤/ ٥٦/ ١٦٥١) وابن ماجه (٢/ ٩٢١/ ٢٧٥٧) وهو عند بعضهم مختصرا دون موضع الشاهد.

أحدهما : أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس المحقق تحقيقًا له وتثبيتا في النفوس فإن ملك الدنيا ونعيمها ولذاتها محسوسة مستعظمة في طبائع النفوس فحقق عندها أن ثواب اليوم الواحد في الرباط وهو من المغيبات خير من المحسوسات التي عهدتموها من لذات الدنيا .

والثاني : أنه قد استبعد بعضهم أن يوازن شيء من نعيم الآخرة بالدنيا كلها فحمل الحديث أو ما هو في معناه على أن هذا الذي رتب عليه الثواب خير من الدنيا كلها لو أنفقت في طاعة اللّه تعالى وكأنه قصد بهذا أن تحصل الموازنة بين ثوابين أخرويين لاستحقاره الدنيا في مقابلة شيء من الآخرة ولو على سبيل التفضيل، والأول عندي أوجه وأظهر»[(١)] .

وقال ابن حجر : «والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات، والنكتة في ذلك أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا»[(٢)] .

وقال الصنعاني -معقبًا على ابن حجر- : «بل قد ثبت أن لأدنى أهل الجنة مثل الدنيا عشر مرات، والمجاهد المذكور من المعلوم أنه ليس من أدناهم؛ فكيف ينكر أن يكون موضع سوطه خيرًا من الدنيا وما فيها؟! على أنا نقول: إن كانت الأخيرية عند اللّه، فمعلوم أنه ما نظر إلى الدنيا منذ خلقها وأنها أبغض شيء إليه تعالى، بل جعلها ملعونة ملعونا ما فيها، إلا ذكر اللّه وما والاه، وعالمًا ومتعلمًا .

والآخرة كلها محبوبة لله تعالى، دار جزاء عباده من تقي وفاجر؛ فلابد حينئذ من حمل اسم التفضيل على المجاز؛ فإنه لا خير في الدنيا من حيث هي دنيا .

وإن كانت الأخيرية باعتبار الإنسان فمعلوم يقينا أن أدنى نعيم الجنة خير من الدنيا؛ فإنه نعيم غير منغص بالزوال، ولا بمعاداة الرجال، ولا بالأمراض والأسقام، ولا بمخافة ولا سآمة ولا منام، ولا بهموم وأكدار، ولا بأضداد وأغيار، بل هو نعيم أفراح وأنوار، وسرور متصل في دوام وقرار، ففي الحقيقة أن

---

(١) إحكام الأحكام (٤/ ٢٢٥).

(٢) فتح الباري (٦/ ١٧).

شبرا من الجنة خير من الدنيا وما فيها ومن الدنيا وما عليها»[١].

* عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

الحور: هن نساء أهل الجنة واحدتهن حوراء: وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها.

العين: جمع عيناء وهي الواسعة العين.

★ **فوائد الحديث:**

قال الإمام ابن العربي المالكي: «إن المرأة إذا آذت الزوج الصالح غضب لذلك الله والملائكة وأهل الجنة، والكل يلعنها، ولا شك لأنه دخيل عليها وعارية عندها، فكان من الحق مراعاته لقصر مدة الصحبة وما يلزم من حسن العشرة، فإذا آذته استمرت عليها اللعنة ولم تعد من الملائكة ولا من أهل الجنة تقريبًا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى»[٣].

قال الطيبي: «قوله (دخيل) هو الضيف والنزيل يريد أنه كالضيف والنزيل عليك وأنت لست بأهل له على الحقيقة لأنه يفارقك عن قريب ولا تلتحقين به كرامة له كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٤] وإنما نحن أهله فيفارقك ويتركك في النار، ويلحق بنا ويصل إلينا»[٥]. اهـ

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار**

---

(١) العدة على إحكام الأحكام (٤/ ٤١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٢) والترمذي (٣/ ٤٧٦-٤٧٧/ ١١٧٤). وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواية إسماعيل بن عياش عن الشاميين أصلح وله عن أهل الحجاز وأهل العراق مناكير». وابن ماجه (١/ ٦٤٩/ ٢٠١٤) وابن أبي داود في البعث (٧٧) كلهم من طريق إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ وبحير بن سعد ثقة شامي. وقال الذهبي في السير (٤/ ٤٧): «وإسناده صحيح متصل».

(٣) عارضة الأحوذي (٥/ ١٢٢).

(٤) الطور: الآية (٢١).

(٥) المشكاة (٧/ ٢٣٣٣).

النار، ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت خلود»[١].

★ فوائد الحديث:

نعيم الجنة دائم لا يبيد ولا يفنى ولا ينقطع.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام»[٢].

وقال ابن جرير: «وخلودهم فيها دوام بقائهم فيها على ما أعطاهم اللَّه فيها من الحبرة والنعيم المقيم»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١١٨) والبخاري (١١/ ٤٩٥/ ٦٥٤٤) ومسلم (٤/ ٢١٨٩/ ٢٨٥٠) وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٢).

(٣) تفسير ابن جرير (١/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا يستحيي: لا يستنكف. وقيل: لا يخشى ولا يترك. وأصل الاستحياء من الحياء. والمعنى: لا يستنكف أن يضرب المثل بأي شيء عظم أو حقر.

الفاسقين: الفسق: الخروج تقول: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. وفي الاصطلاح الشرعي: الخروج عن طاعة اللَّه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة فلو كان ما جاء به محمد ﷺ كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة، فأجابهم اللَّه تعالى بأن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾ فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه، كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض، فكأن معترضا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة وهي إضلال من شاء وهداية من شاء، ثم كأن سائلًا سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك فأخبر تعالى عن حكمته وعدله وأنه إنما يضل به الفاسقين، ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فكانت أعمالهم هذه القبيحة

التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى»[١].

وقال الزمخشري: «سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل ليس بموضع للاستنكار والاستغراب من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذا إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له وتستجرُّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحًا جليًّا أبلج كيف تمثل له بالضياء والنور، وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة. ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادا لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب وأخس قدرًا، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلًا لم يستنكر؟ ولم يستبدع؟ ولم يقل للمتمثل استحى من تمثيلها بالبعوضة؟ لأنه مصيب في تمثيله محق في قوله سائق للمثل على قضية مضربه، محتد على مثال ما يحتكمه ويستدعيه، ولبيان أن المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله، وأن الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أن حب الرياسة وهو الإلف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك ومازال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٦).

جرادة، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض. ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة كالزوان والنخالة وحبة الخردل والحصاة والأرضة والدود والزنابير، والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغبى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمارة ولا إقناع أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معولًا»[١].

قلت: وهذه الكلمات في توضيح الآية من إمام البلغاء واللغة العربية قد أصاب فيها، حيث بين أن هؤلاء المعترضين على التمثيل بالعنكبوت والبعوضة ومثلها؛ هم بالأصل معاندون، ويبحثون عن علل واهية يردون بها الحجج القاطعة الدامغة، ولا شك أن العدو دائما يبحث لعدوه عن أي شيء يمكن أن يدفع به ما عنده، ولو ألجأه ذلك إلى الاختلاق والكذب والبهتان، كما هو واقع في وصف الرسول ﷺ، وفي وصف القرآن بما لا يليق به من سحر وكهانة وأساطير الأولين، وغيرها من الخزعبلات التي لا تنفق إلا على من على شاكلتهم من الأنعام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شعر العرب وخطبهم مليء بالأمثلة من هذا النوع ومن غيره، ومن رجع إلى كتب الأمثال وإلى القواميس التي سجلت كلام العرب، سيجد من ذلك الكثير، ومن جهة ثالثة فإن اللَّه تعالى يضرب الأمثال في القرآن للاهتداء بها، وللموازنة بين الهدى والضلال، وهذا من أروع الأساليب وأحسنها، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٣]، وما ذكره اللَّه تعالى من أمثال في القرآن، إن جمع في أي باب من الأبواب بان وظهر بأن هذا القرآن من كلام اللَّه، كأمثلة الشرك. فقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٤]، فهل من قرأ هذا المثل وسمعه يرجع إلى

---

(١) الكشاف (١/ ٢٦٢-٢٦٣).
(٢) الزمر: الآية (٢٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٣).
(٤) الحج: الآية (٣١).

الشرك إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟ فإني لم أر -واللَّه أعلم- آية نسفت الشرك مثل هذه الآية، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[2] فهل بعد هذا الإيضاح من إيضاح؟ وهل يمكن لأحد من أهل الأرض أن يأتي بمثل هذا المثل؟ هذا ونرجو اللَّه تعالى أن يفقهنا في أمثال القرآن، وأن تقرع أسماعنا وأبصارنا، وأن تكون لنا نورا وهداية، وأن لا نضل عنها كما ضل عنها اليهود والنصارى والمشركون.

وقال محمد رشيد رضا: «ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين في الكثرة كالضالين، مع أن هؤلاء أكثر، وكأن الحكمة في التسوية إفادة أن المؤمنين المهديين على قلتهم؛ أجل فائدة، وأكثر نفعًا، وأعظم آثارًا من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم؛ لأن المؤمنين كما قيل: (قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا) ولذلك جعل الواحد في القتال بعشرة في حال القوة والعزيمة، وباثنين في حال الضعف، قيل هو ضعف البدن، وقيل بل ضعف البصيرة، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين، أن سادوا جميع العالمين:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا ... إلى المجد حتى عد ألف بواحد

إن الكرام كثير في البلاد وإن ... قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

وأما وجه تقديم الإضلال على الهداية، فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود، وإنما جاءت الآيات المبينة بالأمثال؛ لإخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق، فزادت الفاسقين رجسًا على رجسهم؛ لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم، بتماديهم في نقض العهد، وقطع الوصل والإفساد في الأرض، كما في الآية التالية لهذه. وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفًّا ونشرًا غير مرتب؛ فإن الضلال ذكر أولًا وهو للفريق الثاني، والهدى ذكر آخرًا وهو للفريق الأول.

هذا وإن ما تقدم تقريره في ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين، هو مبني

---

(١) الرعد: الآية (١٤).

(٢) إبراهيم: الآية (١٨).

على أن المراد به المثل الكلامي، كما عليه الجمهور، أخذًا مما ورد في سبب النزول، وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل في الآية القدوة الذي يؤتم به ويهتدى بهديه، وهذا المعنى للمثل معروف وقد نطق به القرآن في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[2]، وقال فيه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]؛ فهذه الآية تهدينا إلى فهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾، وأن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلًا يقتدى به، وهي أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وهم المشركون، والذين أنكروا أن يكون من العرب وهم اليهود»[4].

وقال القاسمي: «﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جواب عن تلك المقالة الباطلة، ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة، وغاية جميلة، هي كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية، وإضلال المنهكمين في الغواية. وقدم الإضلال على الهداية -مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله، ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوؤهم، ويفت في أعضادهم، وهو السر في تخصيص هذه الفائدة بالذكر ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ أي: بالمثل أو بضربه ﴿إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ تكملة للجواب والرد، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم، ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الحياء

* عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: **«إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين»**[6].

(١) الزخرف: الآية (٥٦).
(٢) الزخرف: الآية (٥٧).
(٣) الزخرف: الآية (٥٩).
(٤) تفسير المنار (١/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٥) محاسن التأويل (٢/ ٨٧).
(٦) رواه أحمد (٥/ ٤٣٨) وأبو داود (٢/ ١٦٥/ ١٤٨٨) والترمذي (٥/ ٥٢٠/ ٣٥٥٦) وقال: «حسن غريب» وابن ماجه (٢/ ١٢٧١/ ٣٨٦٥) والحاكم (١/ ٤٩٧) وجود إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ١٧٢).

★ غريب الحديث:

صفرًا: بكسر الصاد المهملة وسكون الفاء، أي خاليتين. قال الطيبي: يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع.

* عن أم سلمة أم المؤمنين أنها قالت: جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: يا رسول اللَّه إن اللَّه لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**نعم إذا رأت الماء**»[١].

★ غريب الحديث:

احتلمت: الاحتلام افتعال من الحلم، وهو ما يراه النائم في نومه، يقال: حلم -بالفتح- واحتلم، والمراد به هنا أمر خاص منه وهو الجماع.

* عن يعلى أن رسول اللَّه ﷺ رأى رجلًا يغتسل بالبراز بلا إزار فصعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال ﷺ: «**إن اللَّه ﷻ حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»[٢].

★ غريب الحديث:

البراز: المراد به هنا الفضاء الواسع.

ستير: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: من شأنه وإرادته حب الستر والصون.

★ فوائد الأحاديث:

في الآية وفي هذه الأحاديث: إثبات صفة الحياء لربنا -تبارك وتعالى- على ما يليق بجلاله وكماله، إثباتًا من غير تمثيل له بخلقه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما حياء الرب تعالى من عبده: فذاك نوع آخر. لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول. فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال. فإنه -تبارك وتعالى- حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا. ويستحيي

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٢) والبخاري (١/ ٥١١/ ٢٨٢) ومسلم (١/ ٢٥١/ ٣١٣) والترمذي (١/ ٢٠٩/ ١٢٢) والنسائي (١/ ١٢٣/ ١٩٧) وابن ماجه (١/ ١٩٧/ ٦٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٤) وأبو داود (٤/ ٣٠٢/ ٤٠١٢) والنسائي (١/ ٢١٨/ ٤٠٤) وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٣٥).

أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام»[١]. اهـ

وقال في نونيته:

وهو الحيي فليس يفضح عبده … عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره … فهو الستير وصاحب الغفران

قال الشيخ محمد خليل الهراس في شرحها: «. . . وحياؤه تعالى وصف يليق به ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه وأضعفه لديه ويستعين بنعمه على معصيته، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحيي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئه له من أسباب الستر ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر»[٢].

وقال المباركفوري: «قوله: **(إن اللَّه حيي)** فعيل من الحياء أي كثير الحياء ووصفه تعالى بالحياء يحمل على ما يليق له، كسائر صفاته نؤمن بها ولا نكيفها»[٣].

قال محمد النجدي: «ولما كان اللَّه تعالى موصوفًا بالحياء، فإنه يحب أهله والمتصفين به من عباده . . . بل قد جعله رسول الهدى ﷺ شعبة من شعب الإيمان، وخصلة من خصال عباد الرحمن. فقال ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**[٤]»[٥]. اهـ بتصرف

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٦١).
(٢) شرح النونية ٢/ ٨٦).
(٣) تحفة الأحوذي ٩/ ٣٨١-٣٨٢).
(٤) رواه أحمد (٢/ ٤١٤) والبخاري (١/ ٧١/ ٩) ومسلم (١/ ٦٣/ ٣٥) وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٦) والترمذي (٥/ ١٢/ ٢٦١٤) والنسائي (٨/ ٤٨٤/ ٥٠٢٠) وابن ماجه (١/ ٢٢/ ٥٧) عن أبي هريرة ﷺ. وعند بعضهم (سبعون) بدل (ستون) وعند بعضهم على الشك.
(٥) النهج الأسمى ٣/ ١٠٧).

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ينقضون: ينكثون. والنقض: ضد الإبرام. وهو انتثار العِقْد من البناء والحبل والعهد.

ميثاقه: أي: توكيده. والميثاق والموثق: العهد المؤكد باليمين. أصله من الوثوق بالشيء وهو الاطمئنان إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا وصف من اللَّه -جل ذكره- الفاسقين الذين أخبر أنه لا يضل بالمثل الذي ضربه لأهل النفاق غيرهم، فقال: وما يضل اللَّه بالمثل الذي يضربه -على وصف قبل في الآيات المتقدمة- إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد اللَّه من بعد ميثاقه.

ثم اختلف أهل المعرفة في معنى العهد الذي وصف اللَّه هؤلاء الفاسقين بنقضه:

فقال بعضهم: هو وصية اللَّه إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته، في كتبه وعلى لسان رسوله ﷺ. ونقضهم ذلك: تركهم العمل به.

وقال آخرون: إنما نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وإياهم عنى اللَّه -جل ذكره- بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[1]، وبقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2]. فكل ما في هذه الآيات،

---

(١) البقرة: الآية (٦).

(٢) البقرة: الآية (٨).

فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم. قالوا: فعهد اللَّه الذي نقضوه بعد ميثاقه، هو ما أخذه اللَّه عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم. ونقضهم ذلك: هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك الناس، بعد إعطائهم اللَّه من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه. فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا.

وقال بعضهم: إن اللَّه عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته. وعهده إليهم في أمره ونهيه: ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم. قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به حق.

وقال آخرون: العهد الذي ذكره اللَّه -جل ذكره-، وهو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1] ونقضهم ذلك: تركهم الوفاء به.

وأولى الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال: إن هذه الآيات نزلت في كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ، وما قرب منها من بقايا بني إسرائيل، ومن كان على شركه من أهل النفاق الذين قد بينا قصصهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقد دللنا على أن قول اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[3]، فيهم أنزلت، وفيمن كان على مثل الذي هم عليه من الشرك باللَّه. غير أن هذه الآيات عندي، وإن كانت فيهم نزلت، فإنه معني بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من

(١) الأعراف: الآيتان (١٧٢ و ١٧٣).
(٢) البقرة: الآية (٦). (٣) البقرة: الآية (٨).

الضلال، ومعني بما وافق منها صفة المنافقين خاصة، جميع المنافقين، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود، جميع من كان لهم نظيرا في كفرهم.

وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- يعم أحيانًا جميعهم بالصفة، لتقديمه ذكر جميعهم في أول الآيات التي ذكرت قصصهم، ويخص أحيانًا بالصفة بعضهم، لتفصيله في أول الآيات بين فريقيهم، أعني: فريق المنافقين من عبدة الأوثان وأهل الشرك باللَّه، وفريق كفار أحبار اليهود. فالذين ينقضون عهد اللَّه، هم التاركون ما عهد اللَّه إليهم من الإقرار بمحمد ﷺ وبما جاء به، وتبين نبوته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به، وبما قد أخذ اللَّه عليهم في ذلك، كما قال اللَّه جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[1]، ونبذهم ذلك وراء ظهورهم: هو نقضهم العهد الذي عهد إليهم في التوراة الذي وصفناه، وتركهم العمل به.

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عنى بها؛ لأن الآيات -من مبتدأ الآيات الخمس والست من سورة البقرة- فيهم نزلت، إلى تمام قصصهم. وفي الآية التي بعد الخبر عن خلق آدم وبيانه في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2]. وخطابه إياهم -جل ذكره- بالوفاء بذلك خاصة دون سائر البشر ما يدل على أن قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركي عبدة الأوثان على ضلالهم. غير أن الخطاب -وإن كان لمن وصفت من الفريقين- فداخل في أحكامهم، وفيما أوجب اللَّه لهم من الوعيد والذم والتوبيخ، كل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهي.

فمعنى الآية إذًا: وما يضل به إلا التاركين طاعة اللَّه، الخارجين عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهود اللَّه التي عهدها إليهم، في الكتب التي أنزلها إلى رسله وعلى ألسن أنبيائه، باتباع أمر رسوله محمد ﷺ وما جاء به، وطاعة اللَّه فيما افترض عليهم في التوراة من تبيين أمره للناس، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبًا عندهم أنه رسول من عند اللَّه مفترضة طاعته، وترك كتمان ذلك لهم. ونكثهم ذلك ونقضهم

---

(١) آل عمران: الآية (١٨٧).
(٢) البقرة: الآية (٤٠).

إياه، هو مخالفتهم اللَّه في عهده إليهم -فيما وصفت أنه عهد إليهم- بعد إعطائهم ربهم الميثاق بالوفاء بذلك. كما وصفهم به ربنا تعالى ذكره بقوله: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1]»[2].

قلت: رحم اللَّه الإمام ابن جرير على هذا التوضيح القيم، إذ بين أن سياق الآيات معتبر في تفسيرها، فالآية صدرت بالحديث عن اليهود الذين أنزل اللَّه آيات في كتبهم بالإيمان بمحمد ﷺ وحبه واتباعه، فأعرضوا عن ذلك بغيًا وحسدًا، وحذا حذوهم المنافقون الذين أخذتهم العزة بالإثم، وتعاقدوا مع اليهود على حرب رسول اللَّه ﷺ ومناهضته ومناقضته، وهكذا كل من سار على شاكلتهم ودخل في حلفهم، هذا في عهد النبي ﷺ وفي جزيرته التي ولد فيها، وأما بعد وفاته ﷺ، فكل من حارب سنته ودعوته وتوحيده؛ فهو على ضرب اليهود والمنافقين، ولاسيما إن كان من العلماء الذين لهم اطلاع واسع بالسنة والكتاب، ومع ذلك يؤثرون الحياة الدنيا وما فيها من لمعان على نصرة سنة محمد ﷺ، فينصبون العداوة لها ولأصحابها الذين يقومون بنشرها ونصرتها، ويصفونهم بكل أوصاف القدح، ويضعون حولهم من الشبه ما يزهدون الناس فيهم، فيصفون السنة بأنها جزئيات وقشور، ويصفون أهلها بالوهابية أو بالدين الخامس، أو ينسبونهم لبلد يرون أن نسبتهم إلى ذلك البلد فيه تبعية، ويثيرون عليهم الحكام الذين يدفعون لهم هدية حتى تعلو رتبهم، وتتحقق مصالحهم، وينالون حظوظهم، وهم في هذا الزمن كثير لا كثرهم اللَّه في كل إقليم ومصر، بل ربما في كل مدينة وقرية، فنرجو اللَّه أن يكفي المسلمين والسنة والتوحيد شرهم بما شاء، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال القاسمي: «والعهد الذي وصفوا بنقضه: هو وصية اللَّه إلى خلقه، وأمره

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٩).

(٢) جامع البيان (١/ ٤١٠-٤١٣).

(٣) الأعراف: الآية (١٦٩).

إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه عن معصيته- في كتبه، وعلى لسان رسله- ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عام في كل قطيعة لا يرضاها اللَّه تعالى: كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب في التصديق، وسائر ما في رفض خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع ما بين اللَّه تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، وعقابها بثوابها. وهذه الصفات المسوقة في الآية صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1] الآيات -إلى أن قال-: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[2]»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «ولما كان إفساد هؤلاء عامًّا للعقائد والأخلاق والأعمال؛ لأن علته فقد الهدايتين: هداية الفطرة وهداية الدين، سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة: أما خسرانهم في الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الصافية، والفضائل السامية، ولكنه يخفى على الأكثرين، بالنسبة إلى الأغنياء من أولئك الخاسرين، يرونهم متمتعين بلذات الدنيا وشهواتها، فيحسبون أنهم مغبوطون سعداء بها، فيكون هذا الحسبان من آلات الإفساد. ولو سبروا أغوارهم، وبلوا أخبارهم، لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الأخلاق، ينغص عليهم أكثر لذاتهم، ويقذف بهم إلى الإفراط الذي يولد الأمراض الجسدية والنفسية، ويثير في نفوسهم كوامن الوساوس، ويجعل عقولهم كالكرة، تتقاذفها صوالجة

---

(١) الرعد: الآيات (١٩-٢١). (٢) الرعد: الآية (٢٥).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ٨٨).

الأوهام، وأن حب الراحة يوقعهم في تعب لا نهاية له، وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطراري. ومن لا يذوق لذة العمل الاختياري لا يذوق لذة الراحة الحقيقية؛ لأن اللّه تعالى لم يضع الراحة في غير العمل، وإنما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل، وأدب النفس الذي يرشد إليه الدين، فمن فقد هذه الأشياء فقد خسر الدنيا والآخرة و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[١]»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في العهد والأمانة

* عن أنس قال: خطبنا رسول اللّه ﷺ فقال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[٣].

* عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «**حسن العهد من الإيمان**»[٤].

★ غريب الحديث:

العهد: قال المناوي: العهد لغة له معان منها حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال. والمراد هنا عهد المعرفة.

★ فوائد الحديثين:

قال القاري: «**(لا إيمان)**: أي على وجه الكمال. **(لمن لا أمانة له)**: في النفس والأهل والمال، وقيل: استؤمن عليه من حقوق اللّه وحقوق العباد التي كلف بها وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥] الآية. والإنسان فيها هو آدم ثم ذريته، ومع كونه ظلومًا أي ظلم نفسه بالتزامه بحمل ما فيه كلفة عظيمة عليها المؤدي إلى عدم

---

(١) الحج: الآية (١١). (٢) تفسير المنار (١/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥و١٥٤) والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٤-٧٥/ ٣٨). وقال: «حسن» وابن حبان (الاحسان ١/ ٤٢٢-٤٢٣/ ١٩٤) وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٩/ ٣٠٣٢٠) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨٩/ ٢٦٢٧) والبيهقي (٦/ ٢٨٨) والبزار (١/ ٦٨/ ١٠٠ الكشف) وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٢٤٧/ ٢٨٦٣). قال الهيثمي في المجمع (١/ ٩٦): «وفيه أبو هلال وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره». قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٨١): «قال الذهبي: سنده قوي».

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ (١/ ٣١٩) والحاكم (١/ ١٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين وليس له علة» وحسنه الألباني في تخريج: الإيمان لأبي عبيد (الصفحة ٦٣). وانظر المقاصد الحسنة للسخاوي (رقم ٤٠٩).

(٥) الأحزاب: الآية (٧٢).

قيامه بها، لاسيما على الوجه الأكمل. ﴿جَهُولًا﴾ لأنه جهل خطر تلك الأمانة ومشقة رعايتها عند تحمله لها، وإنما انتفى كمال الدين بانتفائها لأنه يؤدي إلى استباحة الأموال والأعراض والأبضاع والنفوس، وهذه فواحش تنقص الإيمان وتقهقره إلى أن لا يبقى منه إلا أقله، بل ربما أدت إلى الكفر، ومن ثم قيل المعاصي بريد الكفر»[١].

قال المناوي: «(ولا دين): الدين الخضوع لأوامر اللَّه ونواهيه وأمانيه[٢] والعهد الذي وضعه اللَّه بينه وبين عباده يوم إقرارهم بالربوبية في حمل أعباء الوفاء في جميع جوارحه فمن استكمل الدين استوفى الجزاء ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٣]. (لمن لا عهد له): لأن اللَّه إنما جعل المؤمن مؤمنًا ليأمن الخلق جوره واللَّه عدل لا يجور وإنما عهد إليه ليخضع له بذلك العهد فيأتمر بأموره»[٤].

وقال القاري: «قيل: هذا الكلام وأمثاله وعيد لا يراد به الانقلاع بل الزجر ونفي الفضيلة دون الحقيقة، وقيل يحتمل أن يراد به الحقيقة فإن من اعتاد هذه الأمورلم يؤمن عليه أن يقع ثاني الحال في الكفر»[٥].

* * *

(١) المرقاة (١/ ١٩٩-٢٠٠).
(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: وأمانته.
(٣) التوبة: الآية (١١١).
(٤) فيض القدير (٦/ ٣٨١).
(٥) المرقاة (١/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

(الأول): كونهم كانوا أمواتًا لا أرواح فيهم بل نطفًا وعلقًا ومضغة مواتًا لا حياة فيها.

(الثاني): أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

(الثالث): أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

(الرابع): أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ويكذب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق، فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتا ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم، وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد»[1].

قلت: حجج القرآن ساطعة بينة لا نهاية لها، فمن قرأ هذه الآية وأمعن فيها النظر، ورجع فيها إلى أقوال أهل التفسير؛ تبين له أن الكفر حماقة وهوس لا معنى له، غير اسمه الذي يحمله الذي هو الجحود والتكذيب وما شاكله، فكل يعرف نفسه وأباه وأمه، ومن قبله ومن بعده ومن حوله ولاسيما في الوقت الحاضر الذي كثرت فيه الاكتشافات، ولاسيما في أمر واضح كهذا، الذي أجمع عليه كل الخبراء

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٧).

والأطباء، وأن ما ذكره القرآن لا تبديل فيه، ولا تغيير، فالإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة، وهذه الأطوار يعرفها من هو أقل عقلا من الناس، ثم تنفخ الروح، فمن الخالق إذن؟ ومن النافخ؟ وهل من هذا وصفه عاجز على الإعادة، فلا أرى هذا إلا مكابرة وحمقا، وإعراضا عن الواقع الذي لا ينكر. فجزى اللّه إمامنا ابن القيم على هذا التوضيح العظيم وأجزل له المثوبة.

وقال ابن جرير: «وهذه الآية توبيخ من اللّه -جل ثناؤه- للقائلين: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1]، الذين أخبر اللّه عنهم أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم، غير مؤمنين به. وأنهم إنما يقولون ذلك خداعًا لله وللمؤمنين، فعذلهم اللّه بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ ووبخهم واحتج عليهم -في نكيرهم ما أنكروا من ذلك وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة- فقال: كيف تكفرون باللّه فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم، لبعث القيامة، ومجازاة المسيء منكم بالإساءة والمحسن بالإحسان، وقد كنتم نطفًا أمواتًا في أصلاب آبائكم، فأنشأكم خلقًا سويًّا، وجعلكم أحياء، ثم أماتكم بعد إنشائكم. فقد علمتم أن من فعل ذلك بقدرته، غير معجزه- بالقدرة التي فعل ذلك بكم- إحياؤكم بعد إماتتكم، وإعادتكم بعد إفنائكم، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم.

ثم عدد ربنا -تعالى ذكره- عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود -الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين في كثير من آي هذه السورة التي افتتح الخبر عنهم فيها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - نعمه التي سلفت منه إليهم وإلى آبائهم، التي عظمت منهم مواقعها. ثم سلب كثيرًا منهم كثيرًا منها، بما ركبوا من الآثام، واجترموا من الأجرام، وخالفوا من الطاعة إلى المعصية، محذرهم بذلك تعجيل العقوبة لهم، كالتي عجلها للأسلاف والأفراط قبلهم، ومخوفهم حلول مثلاته بساحتهم كالذي أحل بأوليهم، ومعرفهم ما لهم من النجاة في سرعة الأوبة إليه، وتعجيل التوبة، ومن الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب»[2].

---

(١) البقرة: الآية (٨).

(٢) جامع البيان (شاكر ١/ ٤٢٤-٤٢٥).

وقال محمد رشيد رضا: «الكلام متصل بما قبله، ومرتبط به ارتباطًا محكمًا، والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل؛ فإنه وصفهم أولا بنقض العهد الإلهي الموثق، وقطع ما أمر به سبحانه أن يوصل، سواء كان الأمر أمر تكوين؛ وهو السنن الكونية، أو أمر تشريع؛ وهو الديانة السماوية، ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجيبي عن صفة كفرهم، مقترنًا بالبرهان الناصع، على أنه لا وجه له، ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بأي صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون، وحالكم في موتتيكم وحياتيكم تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذرا فيه؟ وبين هذه الحال بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ أي: والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا، منبثة أجزاؤكم في الأرض، بعضها في طبقتها الجامدة، وبعضها في طبقتها السائلة، وبعضها في طبقتها الغازية (الهوائية) لا فرق في ذلك بينها وبين أجزاء سائر الحيوان والنبات، فخلقكم أطوارا من سلالة من طين، فكنتم بالطور الأخير في أحسن تقويم، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والإدراك، وما سخر لكم من الكائنات ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بقبض الروح الحي الذي به نظام حياتكم هذه، فتنحل أبدانكم بمفارقته إياها وتعود إلى أصلها الميت، وتنبث في طبقات الأرض وتدغم في عوالمها، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ حياة ثانية، كما أحياكم بعد الموتة الأولى بلا فرق؛ إلا ما تكون به الحياة الثانية أرقى في مرتبة الوجود، وأكمل لمن يزكون أنفسهم في تلك، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها ويفسدون فطرتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فينبئكم بما عملتم، ويحاسبكم على ما قدمتم، ويجازيكم به»[2].

وقال القاسمي: «فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم ثم يميتهم، لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون، فكيف نظم ما ينكرونه، من الإحياء الأخير والرجع، في سلك ما يعترفون به من الإحياء الأول والإماتة..؟

قلت: تمكنهم من العلم بهما -لما نصب لهم من الدلائل- منزل منزلة علمهم

---

(١) الشمس: الآيتان (٩ و ١٠).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٤٥-٢٤٦).

في إزاحة العذر . سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما . وهو أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولًا ، قدر على أن يحييهم ثانيًا . فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته . . ! أو الخطاب ، مع أهل الكتابين . وإنكار اجتماع الكفر -مع القصة التي ذكرها اللّه تعالى- إما لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر ، أو على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر . أو لإرادة الأمرين جميعًا . فإن ما عدده آيات ، وهي -مع كونها آيات- من أعظم النعم»[1] .

* * *

(١) محاسن التأويل (٢/ ٨٩-٩٠).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

★ غريب الآية:

سوّاهُنَّ: أي: أتَمَّهُنّ وأحكمهنّ وقَوَّمَهُنَّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى. وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم، ويتم به معاشهم. ومعنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم، ولانتفاعكم. وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل. ولا فرق بين الحيوانات وغيرها، مما ينتفع به من غير ضرر. وفي التأكيد بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أقوى دلالة على هذا»[١].

قال ابن جرير: «الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه: منها انتهاء شباب الرجل وقوته، فيقال: إذا صار كذلك، قد استوى الرجل. ومنها: استقامة ماكان فيه أود من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمره، إذا استقام بعد أود، ومنه قول الطرماح بن حكيم:

طال على رسم مهدد أبده وعفا واستوى به بلده

يعني: استقام به. ومنها: الإقبال على الشيء يقال استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه بعد الإحسان إليه. ومنها: الاحتياز والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة[٢]. بمعنى احتوى عليها وحازها. ومنها: العلو والارتفاع،

---

(١) محاسن التأويل (٢/ ٩٠).

(٢) وهذا الوجه في الاستواء يقول العلامة ابن القيم لا أصل له في اللغة. قال ابن القيم رحمه الله: «وكذلك تأويلهم الاستواء بالاستيلاء، فإن هذا لا تعرفه العرب من لغاتها ولم يقله أحد من أئمة اللغة. وقد صرح أئمة اللغة=

كقول القائل، استوى فلان على سريره. يعني به علوه عليه.

وأولى المعاني بقول اللَّه -جل ثناؤه- : ثم استوى إلى السماء فسواهن، علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات.

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع، هربا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه -إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك- أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها- إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر. ثم لم ينج مما هرب منه. فيقال له: زعمت أن تأويل قوله (استوى) أقبل، أفكان مدبرًا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها علو ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال. ثم لن يقول في شيء من ذلك قولًا إلا ألزم في الآخر مثله»[1].

قلت: وسيأتي الكلام على صفة استواء اللَّه تعالى على عرشه مفصلًا في سورة الأعراف إن شاء اللَّه تعالى.

وقال محمد رشيد رضا: «وحاصل القول: أن اللَّه تعالى خلق هذه الأرض وهذه السموات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن، وإنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته، وللامتنان علينا بنعمته، لا لبيان تاريخ تكوينهما بالترتيب؛ لأن هذا ليس من مقاصد الدين، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه، إلا أن تسوية السماء سبع سموات؛ يظهر أنه كان بعد تكوين الأرض، ويظهر أن السماء كانت موجودة، إلا أنها لم تكن سبعًا، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون، (وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل، وما اكتشف المكتشفون من شؤونه، وليأخذ

= كابن الأعرابي وغيره بأنه لا يعرف في اللغة ولو احتمل ذلك لم يحتمله هذا التركيب فإن استيلاءه سبحانه وغلبته للعرش لم يتأخر عن خلق السموات والأرض والعرش مخلوق قبل خلقها بأكثر من خمسين ألف سنة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه. وبطلان هذا التأويل من أربعين وجها سنذكرها في موضعها في هذا الكتاب إن شاء الله». (الصواعق المرسلة ١/ ٢٩٢).

(١) جامع البيان (شاكر ١/ ٤٢٩-٤٣٠).

من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح، لا بما يتخرص به المتخرصون، ويخترعونه من الأوهام والظنون)، وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له.

هذه الإباحة للنظر والبحث في الكون، بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم، وتشوق النفوس؛ ككون كل ما في الأرض مخلوقًا لنا محبوسًا على منافعنا هو ما امتاز به الإسلام في ترقية الإنسان، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم، وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان لا يجتمعان، والعلم والدين خصمان لا يتفقان، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل.

ولذلك جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكر والتدبر والتذكر، فلا تقرأ منه قليلًا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[2] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[3] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدًّا. وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به، ومن فوائد الحث على النظر في الخليقة، للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة، واستخراج علومها لترقية النوع الإنساني الذي خلقت هي لأجله، مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب، فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر اللّه الناس أن ينتفعوا به»[5].

وقال: «ثم ختم الآية ﷻ بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته، وبما ينفع الناس بيانه، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم، فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقرير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولًا، والذين أنكروا أن يكون

---

(١) يونس: الآية (١٠١).
(٢) العنكبوت: الآية (٢٠).
(٣) الحج: الآية (٤٦).
(٤) الغاشية: الآية (١٧).
(٥) تفسير المنار (١/ ٢٤٩-٢٥٠).

من العرب رسول؛ لأن قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين، على من هو بكل شيء عليم»[١].

قلت: ما قاله الشيخ محمد رشيد في هذا التوجيه هو كلام عظيم طيب، نخلص منه إلى أن اللَّه تعالى خلق هذه الأكوان لحكم علمها من علمها وجهلها من جهلها، وكل كلام ليس عليه دليل فلا ينبغي للإنسان أن يخوض فيه؛ فإنه خلق السموات والأرضين، وخلق العرش والكرسي، وخلق الدنيا والآخرة وخلق المخلوقات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وكل ذلك لإظهار عظمته وقدرته، وأن تتحقق عبوديته لمن خوطبوا بتحقيق عبوديته.

وسياق الآيات كلها عتب على أهل الكتاب الذين أنزل اللَّه في كتبهم الآيات الدالة على عظمته وقدرته، وأمرهم باتباع نبيه والإيمان به، فتخلوا عن ذلك وتنكبوا عنه، فالسياق متصل، والحديث عنهم وعمن كان على شاكلتهم.

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٢٥١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١]

★ غريب الآية:

الملائكة: جمع مَلَك، من الألُوك، وهي الرسالة. وهم خلق من عالم الغيب أخبر النبي ﷺ أن اللَّه خلقهم من نور. قال لبيد:

وغــلامٍ أَرْسَــلَــتْــهُ أُمُّــهُ   بِــأَلُــوكٍ فَــبَــذَلْــنــا مــا سَــأَلْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم كأنهم قالوا إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك، وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك ونحن نفعل ذلك، فأجابهم تعالى عن هذا السؤال بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحكمًا لا تعلمونها أنتم، وقد ذكرنا منها قريبا من أربعين حكمة في كتاب التحفة المكية، فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين وعمر بهم الجنة وميز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار، وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تعلمه. ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريمًا له وتعظيمًا له وإظهارًا لفضله، وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا اللَّه. فمنها امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض فامتحنه بالخضر، وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث. وهذه سنته تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم. ومنها خبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام لما علم مما يحصل له من الانكسار

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).

والمصيبة والمحنة فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل، وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين: إنعام قبلها وإنعام بعدها، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن اللَّه تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك اللَّه رب العالمين. ومنها استخراجه تعالى ما كان كامنا في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنا في نفسه عند إظهاره، واللَّه تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرا للخبث والكفر الذي كان كامنا فيه ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم. ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض، فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم»[1].

وقال القاسمي: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[2] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[3] وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[4] وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾[5]، ويجوز أن يراد: خليفة منكم؛ لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته؛ وأن يراد: خليفة مني؛ لأن آدم كان خليفة اللَّه في أرضه[6]. وكذلك كل نبي ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٧-١٣٩).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٣) النمل: الآية (٦٢).
(٤) الزخرف: الآية (٦٠).
(٥) مريم: الآية (٥٩).
(٦) قلت: الخلافة دائمًا المقصود بها يخلف بعضهم بعضا وأما من قال بأن آدم خليفة اللَّه في أرضه، فلا شك أن في هذا سوء أدب مع اللَّه. فإنه اللَّه هو المعبود في الأرض والآمر والناهي فلا يوصف إلا بما يليق به، والذي يليق به تعالى هو خلق آدم وذريته يخلف بعضها بعضًا زمانًا ومكانًا وعلمًا ودعوة وحكمًا وقضاءً ونسلًا=

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾[١] والغرض من إخبار الملائكة بذلك، هو أن يسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم؛ أو الحكمة: تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم -وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة- أو تعظيم شأن المجعول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوه بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق آدم وهيئته وصورته

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«خلق اللَّه آدم على صورته طوله ستون ذراعًا. فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة اللَّه، فزادوه ورحمة اللَّه. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»**[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «أما قوله ﷺ: **(فإن اللَّه خلق آدم على صورته)** فهو من أحاديث الصفات وقد سبق في كتاب الإيمان بيان حكمها واضحًا ومبسوطًا وأن من العلماء من يمسك عن تأويلها ويقول نؤمن بأنها حق وأن ظاهرها غير مراد ولها معنى يليق بها وهذا مذهب جمهور السلف وهو أحوط وأسلم»[٤]

قوله: **(فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن)**: «أي: أن كل قرن يكون نشأته في الطول أقصر من القرن الذي قبله، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقر الأمر على ذلك»[٥].

= وتناسلًا، وهذه هي معنى الخلافة لغة وشرعًا وما سوى ذلك فلا يلتفت إليه.

(١) ص: الآية (٢٦). (٢) محاسن التأويل (٢/ ٩٤-٩٥).

(٣) أخرجه وأحمد (٢/ ٣١٥) والبخاري (١١/ ٣/ ٦٢٢٧) ومسلم (٤/ ٢١٨٣-٢١٨٤/ ٢٨٤١) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) شرح النووي (١٦/ ١٣٦).

(٥) الفتح (٦/ ٤٥٢).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ الأَلَنجوج عُودُ الطِّيبِ وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ**»[1].

★ **غريب الحديث:**

الألنجوج: بفتح الهمزة واللام وسكون النون بجيمين، الأولى مضمومة والواو ساكنة: هو العود الذي يتبخر به.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**ستون ذراعًا في السماء**» أي في الارتفاع وكل ما علاك فهو سماء، ويعني بذلك أن اللَّه تعالى أعاد أهل الجنة إلى خلقة أصلهم الذي هو آدم، وعلى صفته وطوله الذي خلقه اللَّه عليه في الجنة»[2].

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله: ﷺ «**إن اللَّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب**»[3].

★ **غريب الحديث:**

قبضة: بضم القاف وفتحها وهي ما يضم عليه الكف من كل شيء.

الحزن: ما غلظ من الأرض، وهو خلاف السهل والجمع حزون مثل فلس وفلوس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١-٢٣٢) والبخاري (٦/ ٤٤٦/ ٣٣٢٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٩/ ٢٨٣٤ [١٥]) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).

(٢) المفهم (٧/ ١٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠ و ٤٠٦) وأبو داود (٥/ ٦٧/ ٤٦٩٣) والترمذي (٥/ ١٨٧-١٨٨/ ٢٩٥٥) وقال: «حسن صحيح» والحاكم (٢/ ٢٦١). وقال: «صحيح الإسناد ووافقه الذهبي». وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠).

★ فوائد الحديث:

قوله: (على قدر الأرض)

قال الطيبي: «أي: مبلغها من الألوان، ولما كانت الأوصاف الأربعة من الأمور الظاهرة في الإنسان والأرض، أجريت على حقيقتها وتركت الأربع الأخيرة مفتقرة إلى تأويل؛ لأنها من الأخلاق الباطنة، فإن المعني بـ«السهل» الرفق واللين، وبـ«الحزن» الخرق والعنف، وبـ«الطيب» الذي يعني به الأرض العذْبَة المؤمن الذي نفع كله، وبـ«الخبيث» الذي يراد به الأرض السبخة الكافر الذي هو ضر وخسران في الدارين، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي ذر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن آدم خلق من ثلاث تربات: سوداء وبيضاء وخضراء**[(٣)]»[(٤)].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «فمن ثم جاء بنوه كذلك فيهم الأسود والأحمر والأبيض يتبع كل منهم الطينة التي خلق منها»[(٥)].

* عن أنس: أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لما صور اللّه آدم في الجنة تركه ما شاء اللّه أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك**»[(٦)].

---

(١) الأعراف: الآية (٥٨). (٢) شرح الطيبي (٢/ ٥٦٤).

(٣) قال الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى-: «واعلم أن قوله: خضراء كذلك وقع في الأصل ولعل الصواب حمراء كما وقع في الجامع الصغير برواية ابن سعد ويؤيده الشاهد الذي ذكرته واللّه تعالى أعلم» اهـ الصحيحة (٤/ ١٠٧). وكذلك هو عند ابن عساكر بلفظ حمراء.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٣٤) ومن طريقه أخرجه ابن عساكر (٧/ ٣٧٩). قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٤/ ١٠٧): «ورجاله ثقات غير تابعيه الذي لم يسم. لكن يقويه أن له شاهدًا من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعًا». انظر الذي قبله.

(٥) الفيض (٢/ ٤٠٤).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٩) ومسلم (٤/ ٢٠١٦/ ٢٦١١).

★ غريب الحديث:

يطيف به: طاف بالشيء يطوف طوفًا وطوافًا وأطاف يطيف إذا استدار حواليه.

الأجوف: صاحب الجوف وقيل هو الذي داخله خال.

★ فوائد الحديث:

قوله: **(فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك)**

قال النووي: «ومعنى لا يتمالك: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد جنس بني آدم»[(١)].

قال المناوي: «أي: لا يملك دفع الوسوسة عنه، أو لا يتقوى بعضه ببعض ولا يكون له قوة وثبات بل يكون متزلزل الأمر متغير الحال مضطرب القال معرضًا للآفات، والتمالك: التماسك أو لا يتماسك عن ما يسد جوفه ويجعل فيه أنواع الشهوات الداعية إلى العقوبات فكان الأمر كما ظنه»[(٢)].

* عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «**لما نفخ اللَّه في آدم الروح فبلغ الروح رأسه وعطس فقال: (الحمد لله رب العالمين) فقال له -تبارك وتعالى-: يرحمك الله**»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «فأعظم بها من كرامة أكرمه بها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[(٤)] فهذا مما أكرمهم به . . . وقد شرف اللَّه هذا الإنسان على جميع المخلوقات فهو صفوة العالم وخلاصته وثمرته وهو الذي سُخر له ما في السموات والأرض جميعًا وهو الخليفة الأكبر فإذا طهر الإنسان من نجاسته النفسية وكدوراته الجسمية كان أفضل من الملائكة»[(٥)].

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ١٣٥). (٢) فيض القدير (٥/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٣٧/ ٦١٦٥ الإحسان) وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٦٣) موقوفًا على أنس وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم وإن كان موقوفًا فإن إسناده صحيح بمرة»، وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦٣) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٣٦/ ٦١٦٤) وقال ابن كثير في البداية (١/ ٨٠). : «وهذا الإسناد لا بأس به».

(٤) الإسراء: الآية (٧٠). (٥) فيض القدير (٥/ ٢٩٨).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «وفيه الخبر عن خلق آدم وهبوطه إلى الأرض، وفي ذلك جواز الحديث عن أمور ابتداء الخلق، وعمن كان قبلنا من الأنبياء، وعن بني إسرائيل وغيرهم»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٦) ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٤) وأبو داود (١/ ٦٣٤/ ١٠٤٦) والترمذي (٢/ ٣٦٢/ ٤٩١) والنسائي (٣/ ١٢٧/ ١٤٢٩).

(٢) الاستذكار (٥/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن قال لنا قائل: وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، ولم يكن آدم بعد مخلوقًا ولا ذريته، فيعلموا ما يفعلون عيانًا؟ أعلمت الغيب فقالت ذلك، أم قالت ما قالت من ذلك ظنًّا؟ فذلك شهادة منها بالظن، وقول بما لا تعلم. وذلك ليس من صفتها. أم ما وجه قيلها ذلك لربها؟»[٢].

ثم قال: «فأولى التأويلات -إذ كان الأمر كذلك- بالآية، ما كان عليه من ظاهر التنزيل دلالة، مما يصح مخرجه في المفهوم.

فإن قال قائل: فإن كان أولى التأويلات بالآية هو ما ذكرت، من أن اللَّه أخبر الملائكة بأن ذرية خليفته في الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء، فمن أجل ذلك قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، فأين ذكر إخبار اللَّه إياهم في كتابه بذلك؟

قيل له: اكتفى بدلالة ما قد ظهر من الكلام عليه عنه، كما قال الشاعر:

فلا تدفنوني، إن دفني محرم ... عليكم، ولكن خامري أم عامر

فحذف قوله: (دعوني للتي يقال لها عند صيدها): خامري أم عامر. إذ كان فيما أظهر من كلامه، دلالة على معنى مراده. فكذلك ذلك في قوله: قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، لما كان فيه دلالة على ما ترك ذكره بعد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، من الخبر عما يكون من إفساد ذريته في الأرض، اكتفى بدلالته وحذف، فترك ذكره كما ذكرنا من قول الشاعر. ونظائر ذلك في القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أن يحصى. فلما ذكرنا من ذلك، اخترنا ما اخترنا من القول في

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).

(٢) جامع البيان (١/ ٤٥٤).

تأويل قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة، وكيفية الخطاب بينهم وبين اللَّه تعالى فهي من وجوه:

أحدها: أن اللَّه -تعالى في عظمته وجلاله- يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، ولاسيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال، ويكون بالحال، والتوجه إلى اللَّه تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه، التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي والإلهام الإلهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

ثانيها: إذا كان من أسرار اللَّه تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة؛ فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا.

ثالثها: أن اللَّه تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، علم آدم الأسماء، ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه.

رابعها: تسلية النبي ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان، على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون، ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل اللَّه الملائكة المقربين، أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين، وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها. وكون الكلام لا يزال في موضوع الكتاب، وكونه لا ريب فيه وفي الرسول، وكونه يبلغ وحي اللَّه تعالى ويهدي به عباده، وفي اختلاف الناس فيهما»[٢].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع؛ لتجتمع

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٧١-٤٧٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٥٤-٢٥٥).

به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولى ذلك. ودليلنا قول اللَّه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[١] وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢] أي يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي»[٣].

قال ابن كثير: «وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة، التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، واللَّه أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعي»[٤].

قلت: ومما استنبطه القرطبي وتبعه على ذلك الإمام ابن كثير، نعلم أن الخلافة هي كون الناس يخلف بعضهم بعضا، والخلافة هي أسّ الإسلام وعموده، والصحابة لم يجهزوا الرسول ﷺ ولا دفنوه حتى أقاموا خليفة، ولا ينتظم أمر الأمة إلا بخليفة، وأمة بدون خليفة أمة فوضوية تعيش على التسيب، وتكثر فيها العصابات، ويكثر فيه السيف والقتل والنهب، والمسلمون دائما خليفتهم إمامهم،

---

(١) ص: الآية (٢٦).

(٢) النور: الآية (٥٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٥).

وارتباطهم به ارتباط عقدي، فطاعته واجبة، والخروج عليه كبيرة ومعصية، ومن خرج عليه استحق القتل كما صح عن النبي ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(١)، والخليفة ينصب من طرف أولي الحل والعقد، كما وقع من الأنصار والمهاجرين لأبي بكر - رضي الله عنهم أجمعين-، وينصب الخليفة بعده بالتعيين منه، كما فعل أبو بكر بعمر، أو يجعلها شورى بين من يراهم يصلحون لذلك، كما فعل عمر فيمن خلفه بعده، وإن تغلب بجيشه وقوته وأطاح بالخليفة الأول تنقاد الأمة له وتبايعه؛ خوف الفتنة. والخلافة في القرشيين ما أقاموا الدين، وأمر المسلمين لا يتولاه إلا من فيه كفاءة هذا الأمر، فلا يصلح للأنثى، ولا الصبي الذي لا يعقل، ولا المعتوه والفاسق ابتداء؛ فإن طرأ عليه الفسق ولم يصل إلى حد الكفر؛ له الطاعة خوف الفتنة، ما لم يأمر بكفر أو معصية؛ فإن أمر بكفر أو كفر هو في ذلك فلا إمامة له ولا خلافة، وإن أمر بمعصية فلا طاعة **«إنما الطاعة في المعروف»**(٢)، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرابط الحقيقي بين الخلافة والإمام في إبرامها ونقضها هو الحكم بشرع الله، والاعتماد عليه في كل كلية وجزئية، ولا رابط بين الإمام والمأموم في هذا الأمر إلا الشرع الحكيم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣). والصحابة كانوا يبايعون الرسول ﷺ على الإسلام، وقال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٤). وقال جرير: «بايعنا رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»(٥). وقد عقد الإمام النسائي في سننه كتابا لهذا الأمر، وذكر فيه أبوابا.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦)، والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩٤)، والبخاري (١٣/ ٢٨٩/ ٧٢٥٧)، ومسلم (٣/ ١٤٦٩/ ١٨٤٠)، وأبو داود (٣/ ٩٢-٩٣/ ٢٦٢٥)، والنسائي (٧/ ١٧٩/ ٤٢١٦) من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) الممتحنة: الآية (١٠).

(٤) الفتح: الآية (١٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦١)، والبخاري (٣/ ٣٤٠/ ١٤٠١)، ومسلم (١/ ٧٥/ ٥٦)، والترمذي (٤/ ٢٨٦/ ١٩٢٥)، والنسائي (٧/ ١٥٨/ ٤١٦٧) من حديث جرير رضي الله عنه.

والخلاصة أن المسلمين روابطهم فيما بينهم كلها شرعية، فعقد النكاح مثلا هو عقد شرعي بأركانه وفروعه، فلا يجوز أن يعقد على أحد المحرمات ممن ذكر اللَّه أو ذكر رسول اللَّه ﷺ، ولا يجوز أن يكون المهر من المحرمات بالعين أو بالوصف، ولا يجوز خلوه من الولي، وهكذا بقية العقود، لا يجوز العقد فيها على محرم بالعين أو بالصفة، فكذلك الإمام لابد فيه من الأهلية الشرعية، ولا بد أن يطبق في الأمة شرع اللَّه.



قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١]

★ غريب الآية:

نسبح: التسبيح: التنزيه. أصله من السبح، وهو: المرّ السريع في الماء أو الهواء. وأصل المادة للدلالة على البعد. وتسبيح اللَّه تنزيهه عما لا يليق على وجه التعظيم. قال الأعشى:

أقولُ لمّا جاءَني فخرُهُ   سُبحانَ من علقمَةَ الفاخِرِ

نقدس: التقديس: التطهير. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾[٢] أي: المطهرة. قال امرؤ القيس:

فأَدْرَكْنَهُ يأخُذْنَ بالسّاقِ والنَّسَا   كما شَبْرَقَ الوِلْدانُ ثوبَ المُقَدَّسِ

أي: المطهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فإنه يعني: إنا نعظمك بالحمد لك والشكر، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[٣] وكما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٤] وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة»[٥].

وقال: «والتقديس هو التطهير والتعظيم، ومنه قولهم: (سبوح قدوس)، يعني بقولهم: (سبوح) تنزيه لله، وبقولهم: (قدوس) طهارة له وتعظيم. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك، ونصلي لك ونقدس لك، ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).
(٢) المائدة: الآية (٢١).
(٣) النصر: الآية (٣).
(٤) الشورى: الآية (٥).
(٥) جامع البيان (١/ ٤٧٢ شاكر).

إليك أهل الكفر بك»[١].

وقال ابن عاشور: «فمعنى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك: نحن نعظمك وننزهك، والأول بالقول والعمل، والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية، فلا يتوهم التكرار بين نسبح ونقدس. وأوثرت الجملة الاسمية في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ لإفادة الدلالة على الدوام والثبات أي: هو وصفهم الملازم لجبلتهم، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي دون حرف النفي، يحتمل أن يكون للتخصيص؛ بحاصل ما دلت عليه الجملة الاسمية من الدوام؛ أي: نحن الدائمون على التسبيح والتقديس دون هذا المخلوق، والأظهر أن التقديم لمجرد التقوى، نحو هو يعطى الجزيل»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التسبيح والتحميد

* عن أبي ذر أن رسول اللَّه ﷺ سئل أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى اللَّه لملائكته أو لعباده سبحان اللَّه وبحمده**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: «فدل هذا الحديث على عظيم مكانة هذه الكلمة عند اللَّه ﷻ»[٤].

وقال كذلك بعد أن ساق أحاديث كثيرة في فضل التسبيح: «فهذه جملة من الأحاديث الواردة في التسبيح والدالة على عظيم فضله وثوابه عند اللَّه، وفي أكثر هذه الأحاديث قرن مع التسبيح حمد اللَّه تعالى، وذلك لأن التسبيح هو تنزيه اللَّه عن النقائص والعيوب، والتحميد فيه إثبات المحامد كلها لله ﷻ، والإثبات أكمل من السلب، ولهذا لم يرد التسبيح مجردًا، لكن ورد مقرونًا بما يدل على إثبات الكمال، فتارة يقرن بالحمد كما في هذه النصوص، وتارة يقرن باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال، كقول: سبحان اللَّه العظيم، وقول: سبحان ربي

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٧٥ شاكر). (٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٦) ومسلم (٤/ ٢٠٩٣/ ٢٧٣١) والترمذي (٥/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٣٥٩٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٦/ ١٠٦٦٠). (٤) فقه الأدعية والأذكار (١/ ٢٠٨).

الأعلى، ونحو ذلك.

والتنزيه لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن معنى ثبوتيًا، ولهذا عندما نزه اللَّه -تبارك وتعالى- نفسه عما لا يليق به مما وصفه به أعداء الرسل سلم على المرسلين الذين يثبتون لله صفات كماله ونعوت جلاله على الوجه اللائق به، وذلك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وفي هذه الآية أيضًا حمد اللَّه نفسه بعد أن نزهها، وذلك لأن الحمد فيه إثبات كمال الصفات، والتسبيح فيه تنزيه اللَّه عن النقائص والعيوب، فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح وإثبات الكمال بالحمد، وهذا المعنى يرد في القرآن والسنة كثيرًا، فالتسبيح والحمد أصلان عظيمان وأساسان متينان يقوم عليهما المنهج الحق في توحيد الأسماء والصفات، وباللَّه وحده التوفيق»[2].

* * *

(١) الصافات: الآيات (١٨٠-١٨٢).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (١/ ٢١١-٢١٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قال اللَّه للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر. فلو لم يكن في ذلك إلا أن اللَّه تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك»[(١)].

وقال ابن عاشور: «﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: جواب لكلامهم فهو جار على أسلوب المقاولة في المحاورات كما تقدم؛ أي: أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض، وأن فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال، وأن في ذلك كله مصالح عظيمة، ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب، واطلاعا على نموذج من غايات علم اللَّه تعالى، وإرادته وقدرته، بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم، والصنائع والفضائل والشرائع، وغير ذلك.. وهذا إجمال في التذكير بأن علم اللَّه تعالى أوسع مما علموه، فهم يوقنون إجمالًا أن لذلك حكمة، ومن المعلوم أن لا حاجة هنا لتقدير وما تعلمون بعد ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنه معروف لكل سامع؛ ولأن الغرض لم يتعلق بذكره؛ وإنما تعلق بذكر علمه تعالى بما شذ عنهم. وقد كان قول اللَّه تعالى هذا تنهية للمحاورة وإجمالًا للحجة على الملائكة؛ بأن سعة علم اللَّه

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧١).

تحيط بما لم يحط به علمهم، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة؛ كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة، وتأكيد الجملة بـ«إن» لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة؛ منزلة المترددين»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة العلم

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**»[2].

⋆ غريب الحديث:

يتعاقبون: تأتي طائفة بعد طائفة.

يعرج: من العروج وهو الصعود.

⋆ فوائد الحديث:

فيه إثبات صفة العلم الكامل والشامل لله تعالى، فهو العالم بجميع ما كان وما سيكون، والعالم للغيوب دون جميع خلقه. قال الخطابي: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق.

قوله: (فيسألهم)

قال القاضي عياض: «وسؤال اللَّه لهم على ظاهره، واللَّه أعلم بهم، تعبد منه تعالى للملائكة، كما أمرهم أن يكتبوا أعمالهم وهو أعلم بالجميع»[3].

قال ابن حجر: «وقيل الحكمة فيه - أي: في السؤال - استدعاء شهادتهم لبني آدم بالخير واستنطاقهم بما يقتضي التعطف عليهم، ذلك لإظهار الحكمة في خلق

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٦) والبخاري (٢/ ٤٢/ ٥٥٥) ومسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٢) والنسائي (١/ ٢٦٠-٢٦١/ ٤٨٤). من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الإكمال (٢/ ٥٩٨).

نوع الإنسان في مقابلة من قال من الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] أي: وقد وجد فيهم من يسبح ويقدس مثلكم بنص شهادتكم»[٢].

* * *

(١) البقرة: الآية (٣٠).

(٢) الفتح (٢/ ٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوا: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه، ورسله، وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة، وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم، فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله اللَّه في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز، وجهل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم، وعجزهم عن معرفة ما علمه، قال لهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، فعرفهم سبحانه بالعلم، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض، فتعرف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم،

---

(١) البقرة: الآية (٣١).

وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفا للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير ذلك ما فعله بنبيه يوسف ﷺ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه، ومكنه، وسلم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه، وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه، وجمال معرفته، أطلقه من الحبس، ومكنه في الأرض، فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أجمل صورة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن اللّه علم الإنسان ما لم يعلم

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك اللّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا**»[2].

★ غريب الحديث:

استشفعنا: الاستشفاع طلب الشفاعة وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يرومه.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «واختلف في المراد بالأسماء، فقيل أسماء ذريته وقيل أسماء الملائكة وقيل أسماء الأجناس دون أنواعها، وقيل أسماء كل ما في الأرض

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢٨-٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦) والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦) ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢).

وقيل أسماء كل شيء حتى القصعة»[١].

قال ابن كثير: «والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية[٢] يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر. ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية . . ثم ساق حديث الشفاعة. ثم قال: -أي: ابن كثير- ووجه إيراده ههنا: المقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: (**فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء**)، فدل على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[٣] يعني المسميات اهـ»[٤].

* * *

(١) الفتح (٨/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (١/ ٢١٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٨٠/ ٣٣٧).

(٣) البقرة: الآية (٣١).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ١٢٧-١٢٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحكيم: أي: ذو الحكمة. وهي وضع الشيء في محله. وقيل: الحكيم: المانع من الفساد والجهل. ومنه سميت حَكَمَةُ اللجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجري الشديد في غير قصد. قال جرير:

أَبَني حنيفةَ أحكموا سفهاءَكم ... إني أخافُ عليكم أن أغْضَبا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في ذلك: -ثم ذكر بسنده عن ابن عباس ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة، وذكر بسنده عن ابن مسعود وغيره ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وذكر بسنده عن الحسن وقتادة ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. ثم قال: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، تأويل ابن عباس ومن قال بقوله. ومعنى ذلك: فقال: أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيتها الملائكة - القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا، أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس. فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم، وعلمه غيركم بتعليمي إياه؛ فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد، وبما هو مستتر من

الأمور - التي هي موجودة - عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين. فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي.

وهذا الفعل من اللَّه -جل ثناؤه- بملائكته -الذين قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، من جهة عتابه -جل ذكره- إياهم - نظير قوله ﷻ لنبيه نوح صلوات اللَّه عليه إذ قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1]: لا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خلفاءه في الأرض ليسبحوه ويقدسوه فيها، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعله في الأرض خليفة، يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فقال لهم جل ذكره: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يعني بذلك: إني أعلم أن بعضكم فاتح المعاصي وخاتمها، وهو إبليس، منكرا بذلك تعالى ذكره قولهم. ثم عرفهم موضع هفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عيانًا، - فكيف بما لم يروه ولم يخبروا عنه؟ - بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت فيها غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم، وبدت لهم هفوة زلتهم، أنابوا إلى اللَّه بالتوبة فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، فسارعوا الرجعة من الهفوة، وبادروا الإنابة من الزلة. كما قال نوح -حين عوتب في مسألة فقيل له: لاتسألن ما ليس لك به علم-: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]. وكذلك فعل كل مسدد للحق موفق له- سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوبته»[3].

وقال: «وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبر، والذكرى لمن ادكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع اللَّه -جل ثناؤه- آي هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن.

وذلك: أن اللَّه -جل ثناؤه- احتج فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظهرانيه من

---

(١) هود: الآية (٤٥).

(٢) هود: الآية (٤٧).

(٣) جامع البيان (١/ ٤٩٠-٤٩٢).

يهود بني إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن -جل ثناؤه- أطلع عليها من خلقه إلا خاصًا، ولم يكن مدركًا علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده. ودل فيها على أن كل مخبر خبرا عما قد كان - أو عما هو كائن مما لم يكن، ولم يأته به خبر، ولم يوضع له على صحته برهان - فمتقول ما يستوجب به من ربه العقوبة. ألا ترى أن اللَّه -جل ذكره- رد على ملائكته قيلهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وعرفهم أن قيل ذلك لم يكن جائزا لهم، بما عرفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فلم يكن لهم مفزع إلا الإقرار بالعجز، والتبري إليه أن يعلموا إلا ما علمهم، بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ . فكان في ذلك أوضح الدلالة وأبين الحجة، على كذب مقالة كل من ادعى شيئًا من علوم الغيب من الحزاة والكهنة والعافة والمنجمة. وذكر بها الذين وصفنا أمرهم من أهل الكتاب -سوالف نعمه على آبائهم، وأياديه عند أسلافهم، عند إنابتهم إليه، وإقبالهم إلى طاعته، مستعطفهم بذلك إلى الرشاد، ومستعتبهم به إلى النجاة. وحذرهم -بالإصرار والتمادى في البغي والضلال- حلول العقاب بهم، نظير ما أحل بعدوه إبليس، إذ تمادى في الغي والخسار»[1].

قلت: وهذا التوجيه القيم للآية من طرف هذا الإمام يجعلنا نتبصر في كتاب اللَّه، ونفهمه الفهم الصحيح، وأن العلم كله للَّه، والمخلوق مهما بلغت منزلته فلا يعلم إلا ما عُلِّم، ويبقى دائمًا محصورًا عند ما تعلمه فلا يجاوزه، فمهما طال عمر الإنسان ومهما بلغ قربه من اللَّه، فيبقى علمه دائما محدودا، فنوح عليه السلام عُمِّر في الزمن، ومع ذلك فاته العلم بابنه الذي هو أقرب الناس إليه، فرد اللَّه عليه لما استغفر له بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، فسارع نبي اللَّه نوح إلى التوبة حالًا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]، وكذلك الملائكة لما علموا من ذرية آدم ما يقع منهم من معاصي

(١) جامع البيان (١/ ٤٩٤-٤٩٥).
(٢) هود: الآية (٤٦).
(٣) هود: الآية (٤٧).

قالوا لله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1]، وفاتهم ما يكون في ذريته من أنبياء وشهداء وصالحين وأولياء وعباد وزهاد، وما يصدر من إبليس الذي كان معهم من فواتح للشر وغوالق للخير، فقال اللَّه لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وأنابوا إلى اللَّه فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، وهكذا ينبغي أن يكون منهاج العاقل والمسلم الصادق، أن يقف عند ما علمه اللَّه، فلا يقول على اللَّه ما لم يقل، ولا على رسوله ما لم يُحَدِّث، ويزيد في دين اللَّه وينقص ويبتدع ويستحسن، ويرتئي لنفسه بما يصول به ويجول، ويخترع لنفسه أصولًا يسير عليها لتضليل نفسه وتضليل الأمة بما لم ينزل اللَّه به سلطانًا -كما هو واقع الكثيرين ممن ينسبون إلى العلم والثقافة- فيضلون ويضللون، فضلا عن السحرة والكهنة والمدعين لعلم الغيب، فهؤلاء يجب على ولاة الأمور استتابتهم، والأخذ على أيديهم بما هم أهل له.

وقال محمد رشيد رضا: «﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: أطلعهم اطلاعًا إجماليًّا بالإلهام، الذي يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء، ولو عرضت على نفوسهم عرضًا تفصيليًّا لعلموها، ولم يكن علمهم محدودا، والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المسميات، والغرض من الإنباء بأسمائها: الإبانة عن معرفتها، ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة في الأرض من البشر، وكان ما طرق نفوسكم وطرأ على أذهانكم أولا حالا محله، ومصيبًا غرضه، ولما تعرفوا حقيقة ما يمتاز به الخليفة، فأنبئوني بأسماء ما عرضته عليكم ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك، فلفظ سبحان مصدر قلما يستعمل إلا مضافًا كمعاذ اللَّه، وهو منصوب بفعل مقدر، والمعنى: نقدسك وننزهك أن يكون علمك قاصرًا، فتخلق الخليفة عبثًا، أو تسألنا شيئًا نفيده وأنت تعلم أننا لا نحيط بعلمه، ولا نقدر على الإنباء به، وكلمة (سبحانك) تهدي إلى هذا؛ فكأنها جملة وحدها، وهذه هي البلاغة مضروب سرادقها، مثمرة حدائقها، متجلية حقائقها، على أن

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).
(٢) البقرة: الآية (٣٠). (٣) البقرة: الآية (٣٢).

القصة وردت مورد التمثيل، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، وبعد تنزيه الباري تبرؤا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء، ولا يحيط بكل المسميات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعك»[1].

وقال القاسمي: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى؛ أن يحيط أحد بشيء من علمه، إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئًا إلا ما علمهم اللَّه تعالى، واعتراف منهم بالعجز والقصور عما كلفوه، وأنه العالم بكل المعلومات، التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام، لما نحن بمعزل من الاستعداد له، من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات، التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة. ومن جملته تعليم آدم عليه السلام، ما هو قابل له من العلوم الكلية، والمعارف الجزئية، المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض، وبناء أمر الخلافة عليها»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٢٦٣).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ٩٩-١٠٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو جعفر: «وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن معنى قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ وأعلم -مع علمي غيب السموات والأرض- ما تظهرون بألسنتكم، ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، وما كنتم تخفونه في أنفسكم، فلا يخفى عليَّ شيء، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم.

والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبر اللَّه -جل ثناؤه- عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، والذي كانوا يكتمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على اللَّه في أمره، والتكبر عن طاعته؛ لأنه لا خلاف بين جميع أهل التأويل أن تأويل ذلك غير خارج من أحد الوجهين اللذين وصفت، وهو ما قلنا، والآخر ما ذكرنا من قول الحسن وقتادة، ومن قال إن معنى ذلك كتمان الملائكة بينهم لن يخلق اللَّه خلقا إلا كنا أكرم عليه منه. فإذ كان لا قول في تأويل ذلك إلا أحد القولين اللذين وصفت، ثم كان أحدهما غير موجودة على صحته الدلالة من الوجه الذي يجب التسليم له- صح الوجه الآخر. فالذي حكي عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك، غير موجودة الدلالة على صحته من الكتاب، ولا من خبر يجب به حجة. والذي قاله ابن عباس يدل على صحته خبر اللَّه -جل ثناؤه- عن إبليس وعصيانه إياه، إذ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر، وإظهاره لسائر الملائكة من معصيته وكبره، ما كان له كاتما قبل ذلك»[1].

---

(١) جامع البيان (١/ ٥٠٠ شاكر).

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله؛ وفي الحديث: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم**»[1] أي: تخضع وتتواضع؛ وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عيال الله؛ لأن اللَّه تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله، ورضا منهم بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم، جعلنا اللَّه منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٠) والترمذي (٥/ ٥٠٩-٥١٠/ ٣٥٣٥) والنسائي (١/ ١٠٥-١٠٦/ ١٥٨) وصححه ابن حبان (٤/ ١٤٧-١٤٨/ ١٣١٩) كلهم من حديث صفوان بن عسال رضي الله عنه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾[(١)]

★ غريب الآية:

اسجدوا: أصل السجود: الخضوع والتذلل والتّطامُنُ. قال زيد الخيل:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حُجُرَاتِهِ ... ترى الأُكْمَ فيه سُجَّدًا للحَوافِرِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم اللَّه آدم أن أسجد له ملائكته، وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[(٢)] وقد كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول اللَّه أحق أن يسجد لك، فقال: «**لا لو كنت آمرًا بشرًا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»[(٣)] ورجحه الرازي، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[(٤)] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وسلامًا، وهي طاعة لله ﷻ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال»[(٥)].

قال القرطبي: «واختلف أيضًا هل كان ذلك السجود خاصًا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى، أم كان جائزًا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام؛

---

(١) البقرة: الآية (٣٤).

(٢) يوسف: الآية (١٠٠).

(٣) سيأتي تخريجه في الآية نفسها.

(٤) الإسراء: الآية (٧٨).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٥).

لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[١] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول اللَّه ﷺ»[٢].

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا هل قال لهم ذلك قبل خلق آدم أو بعد خلقه؟ وقد صرح في سورة الحجر وص بأنه قال لهم ذلك قبل خلق آدم. فقال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٣] وقال في سورة ص ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٤]»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السجود لله والركوع لله والقيام لله من فعل شيئًا من ذلك تعبدا لغير اللَّه فقد كفر

* عن عبد اللَّه بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال: «**ما هذا يا معاذ؟**» قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فلا تفعلوا فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير اللَّه لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها، ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه**»[٦].

★ **غريب الحديث:**

أساقفتهم: جمع أسقف وهو عالم رئيس من علماء النصارى ورؤسائهم.

بطارقتهم: جمع بِطرِيق وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو ذو منصب وتقدم عندهم.

قتب: القِتْبُ والقَتَبُ إكاف البعير وقيل: هو الإكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير، وفي الصحاح: رحل صغير على قدر السنام. ومعناه: الحث لهن على

---

(١) يوسف: الآية (١٠٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٠١).
(٣) الحجر: الآيتان (٢٨ و ٢٩).
(٤) ص: الآيتان (٧١ و٧٢).
(٥) أضواء البيان (١/ ٧٢).
(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١) وابن ماجه (١/ ٥٩٥/ ١٨٥٣) وابن حبان (الإحسان ٩/ ٤٧٩/ ٤١٧١).

مطاوعة أزواجهن، وأنه لا يسعهن الامتناع في هذه الحال، فكيف في غيرها؟.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «فيه تعليق الشرط بالمحال؛ لأن السجود قسمان: سجود عبادة وليس إلا لله وحده ولا يجوز لغيره أبدًا، وسجود تعظيم، وذلك جائز، فقد سجد الملائكة لآدم تعظيمًا. وأخبر المصطفى ﷺ أن ذلك لا يكون ولو كان لجعل للمرأة في أداء حق الزوج.

وقال غيره: إن السجود لمخلوق لا يجوز، وسجود الملائكة خضوع وتواضع له من أجل علم الأسماء الذي علمه اللَّه له وأنبأهم بها، فسجودهم إنما هو ائتمام به لأنه خليفة اللَّه لا سجود عبادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]»[2].

وقال ابن كثير بعد ذكره لقصة سجود أبوي يوسف وإخوته له: «وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ﷺ فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب ﷻ هذا مضمون قول قتادة وغيره.

ثم ذكر حديث معاذ هذا وحديثًا آخر وقال عقبهما: والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم ولهذا خروا له سجدا»[3].

قال القرطبي: «وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضل سعيهم وخاب عملهم»[4].

قلت: المسلم الحق هو الذي لا يرضى أن يصرف شيئًا مما هو من خصوصيات اللَّه إلى غيره من البشر مهما كان قدره ومهما كانت مكانته، فطاعة المخلوق دائمًا مرتبطة بطاعة الله؛ فإن أمر بمخالفة طاعة اللَّه وجب عصيانه ولا تجوز موافقته، وكذلك لا يرضى المسلم الحق أن يصرف له شيئًا مما هو مختص به،

---

(١) الأعراف: الآية (٢٨).

(٢) فيض القدير (٥/ ٣٢٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٠٢).

ولهذا علي رضي الله عنه حرق الزنادقة لما قالوا له: أنت أنت، أي: أنت الإله، وكذلك رسول اللَّه ﷺ رد على من أشركه في المشيئة مع الله[١] ورد على معاذ لما أراد السجود له، وبين له أن هذا لا يليق إلا بالله[٢]، فاللَّه هو المعبود وحده بهذه الأفعال من سجود وركوع وقيام ورفع وخفض. فمن فعله من جهلة الصوفية وعباد الكبار والعظماء وكبار الشخصيات، فهو مشرك باللَّه، واللَّه المستعان.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥/ ١٠٨٢٥) من حديث ابن عباس، قال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٧٨٤-١٧٨٥): «رواه النسائي في الكبرى وابن ماجه بإسناد حسن».

(٢) تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل قوله: ﴿أَبَىٰ﴾، يعني -جل ثناؤه- بذلك إبليس، أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾، يعني بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة اللَّه في السجود لآدم. وهذا، وإن كان من اللَّه -جل ثناؤه- خبرا عن إبليس، فإنه تقريع لضربائه من خلق اللَّه الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر اللَّه، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق. وكان ممن تكبر عن الخضوع لأمر اللَّه، والتذلل لطاعته، والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ، وأحبارهم الذين كانوا برسول اللَّه ﷺ وصفته عارفين، وبأنه لله رسولٌ عَالِمين. ثم استكبروا -مع علمهم بذلك- عن الإقرار بنبوته، والإذعان لطاعته، بغيًا منهم له وحسدًا، فقرعهم اللَّه بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السجود لآدم حسدًا له وبغيًا، نظير فعلهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي اللَّه ﷺ ونبوته، إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسدًا وبغيًا.

ثم وصف إبليس بمثل الذي وصف به الذين ضربه لهم مثلا في الاستكبار والحسد والاستنكاف عن الخضوع لمن أمره اللَّه بالخضوع له، فقال -جل ثناؤه- ﴿وَكَانَ﴾ -يعني إبليس- ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من الجاحدين نعم اللَّه عليه وأياديه عنده، بخلافه عليه فيما أمره به من السجود لآدم، كما كفرت اليهود نعم ربها التي آتاها وآباءها قبل: من إطعام اللَّه أسلافهم المن والسلوى، وإظلال الغمام عليهم، وما لا يحصى من نعمه التي كانت لهم، خصوصًا ما خص الذين أدركوا محمدًا ﷺ بإدراكهم إياه، ومشاهدتهم حجة اللَّه عليهم، فجحدت نبوته بعد علمهم به، ومعرفتهم بنبوته حسدا وبغيا. فنسبه اللَّه -جل ثناؤه- إلى الكافرين، فجعله من عدادهم في الدين والملة، وإن خالفهم في الجنس والنسبة. كما جعل أهل النفاق

بعضهم من بعض، لاجتماعهم على النفاق، وإن اختلفت أنسابهم وأجناسهم فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[(١)] يعني بذلك أن بعضهم من بعض في النفاق والضلال. فكذلك قوله في إبليس: كان من الكافرين، كان منهم في الكفر بالله ومخالفته أمره، وإن كان مخالفًا جنسه أجناسهم ونسبه نسبهم»[(٢)].

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(٣)] وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(٤)]»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الكبر وأن أصله من إبليس

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي. يقول: يا ويله**». -وفي رواية أبي كريب: «**يا ويلي**»-. «**أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: (**يا ويله**) قال السندي: «يريد به الشيطان نفسه، وضمير الغيبة إما من الحاكي لكراهة الإضافة إلى النفس صورة، أو لأن الشيطان اعتبر نفسه غائبًا تبعيدًا لها؛ لأنه وقع في سوئها، أو يحتمل أنه أراد به آدم، قاله غضبًا عليه، حيث خالفه ولم يوافقه والله تعالى أعلم»[(٧)].

وقال القرطبي: «وبكاء إبليس المذكور في الحديث ليس ندمًا على معصية، ولا رجوعًا عنها، وإنما ذلك لفرط حسده وغيظه وألمه مما أصابه من دخول أحد من ذرية آدم الجنة ونجاته، وذلك نحو ما يعتريه عند الأذان والإقامة ويوم عرفة»[(٨)].

---

(١) التوبة: الآية (٦٧).
(٢) جامع البيان (١/ ٥١٠-٥١١ شاكر).
(٣) الأعراف: الآية (١٢).
(٤) الحجر: الآية (٣٣).
(٥) أضواء البيان (١/ ٧٢).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٣) ومسلم (١/ ٨٧/ ٨١) وابن ماجه (١/ ٣٣٤/ ١٠٥٢).
(٧) هامش المسند (١٥/ ٤٤٥).
(٨) المفهم (١/ ٢٧٤).

* عن عبد اللَّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[١].

★ غريب الحديث:

مثقال ذرة: أي: زنة ذَرّة.

بطر الحق: هو أن يجعل ما جعله اللَّه حقًّا من توحيده وعبادته باطلا، وقيل: هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقًّا، وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله[٢].

غمط الناس: الغمط: الاستهانة والاستحقار وهو مثل الغمص يقال: غَمِطَ يَغْمَطُ وغَمَطَ يَغْمِطُ[٣].

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»:

قال الخطابي: «هذا يتأول على وجهين: أحدهما: أن يكون أراد به كبر الكفر والشرك، ألا ترى أنه قد قابله في نقيضه بالإيمان، فقال لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خردلة من إيمان.

والوجه الآخر: أن اللَّه تعالى إذا أراد أن يدخله الجنة نزع ما في قلبه من الكبر حتى يدخلها بلا كبر ولا غل في قلبه كقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٤]»[٥].

وقال النووي: «وهذان التأويلان فيهما بعد، فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق، فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب، بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه، وقيل هذا جزاؤه لو جازاه وقد يتكرم بأنه لا يجازيه بل لا بد أن يدخل كل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٢) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١[١٤٧]) وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٨، ١٩٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٢-٢٣/ ٥٩). من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

(٢) (النهاية في غريب الحديث).

(٣) (النهاية في غريب الحديث).

(٤) الحجر: الآية (٤٧).

(٥) معالم السنن (٤/ ١٨٢).

الموحدين الجنة إما أولًا ، وإما ثانيًا بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها ، وقيل : لا يدخلها مع المتقين أول وهلة»[١] .

وقال القرطبي : «ولما تقرر أن الكبر يستدعي متكبرًا عليه ، فالمتكبر عليه إن كان هو اللَّه تعالى ، أو رسوله ، أو الحق الذي جاءت به رسله ، فذلك الكبر كفر ، وإن كان غير ذلك فذلك الكبر معصية وكبيرة ، يخاف على المتلبس بها ، المصر عليها أن تفضي به إلى الكفر ، فلا يدخل الجنة أبدًا ، فإن سلم من ذلك ونفذ عليه الوعيد ، عوقب بالإذلال والصغار ، أو بما شاء اللَّه من عذاب النار ، حتى لا يبقى في قلبه من ذلك الكبر مثقال ذرة ، وخلص من خبث كبره حتى يصير كالذرة ، فحينئذ يتداركه اللَّه برحمته ، ويخلصه بإيمانه وبركته ، وقد نص على هذا المعنى النبي ﷺ في المحبوسين على الصراط لما قال : «**حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة**»[٢] واللَّه تعالى أعلم»[٣] .

قال شيخ الإسلام : «الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة كما في قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٤] ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافيًا للإيمان ، وكذلك كبر اليهود والذين أخبر اللَّه عنهم بقوله : ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[٥] .

والكبر كله مباين للإيمان الواجب ، فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب اللَّه عليه ويترك ما حرم عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق ، واحتقار الخلق ، وهذا هو (الكبر) الذي فسره النبي ﷺ حيث سئل في تمام الحديث . فقيل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنًا ، فمن الكبر ذاك؟ فقال : «**لا إن اللَّه جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس**» وبطر الحق جحده ودفعه ، وغمط الناس ازدراؤهم واحتقارهم ، فمن في قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له أن يجحد الحق الذي يجب عليه أن يقر به ، وأن يحتقر الناس ،

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٧٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣) والبخاري (١١/ ٤٨١-٤٨٢/ ٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٣) المفهم (١/ ٢٨٨) .

(٤) غافر : الآية (٦٠) .

(٥) البقرة : الآية (٨٧) .

فيكون ظالمًا لهم معتديًا عليهم، فمن كان مضيعا للحق الواجب؛ ظالمًا للخلق. لم يكن من أهل الجنة، ولا مستحقا لها، بل يكون من أهل الوعيد.

فقوله: **(لا يدخل الجنة)** متضمن لكونه ليس من أهلها، ولا مستحقًّا لها لكن إن تاب، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه، أو ابتلاه اللَّه بمصائب كفر بها خطاياه، ونحو ذلك، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة؛ فيدخلها، أو غفر اللَّه له بفضل رحمته من ذلك الكبر من نفسه؛ فلا يدخلها ومعه شيء من الكبر، ولهذا قال: من قال في هذا الحديث وغيره: إن المنفي هو الدخول المطلق الذي لا يكون معه عذاب؛ لا الدخول المقيد الذي يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة؛ فإنه إذا أطلق في الحديث فلان في الجنة، أو فلان من أهل الجنة، كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار.

فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة، ولا يدخلها بلا عذاب، بل هو مستحق للعذاب لكبره، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر، ولكن قد يعذب في النار ما شاء اللَّه، فإنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد، وهذا كقوله: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[1] وقوله: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[2] وأمثال هذا من أحاديث الوعيد، وعلى هذا فالحديث عام في الكفار وفي المسلمين.

وقول القائل: إن المسلمين يدخلون الجنة بالإسلام، فيقال له: ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب، بل أهل الوعيد يدخلون النار، ويمكثون فيها ما شاء اللَّه، مع كونهم ليسوا كفارًا، فالرجل الذي معه شيء من الإيمان، وله كبائر قد يدخل النار، ثم يخرج منها: إما بشفاعة النبي ﷺ وإما بغير ذلك؛ كما قال ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[3] وكما في الصحيح أنه قال: «**أخرج من النار من**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٤) والبخاري (١٠/ ٥٠٨/ ٥٩٨٤) ومسلم (٤/ ١٩٨١/ ٢٥٥٦) وأبو داود (٢/ ٣٢٣/ ١٦٩٦) والترمذي (٤/ ٢٧٩/ ١٩٠٩) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة أحمد (٢/ ٣٩١) والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٠) ومسلم (١/ ٧٤/ ٥٤) والترمذي (٥/ ٥٠/ ٢٦٨٨) وابن ماجه (١/ ٢٦/ ٦٨).

(٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك أحمد (٣/ ٢١٣) وأبو داود (٥/ ١٠٦/ ٤٧٣٩) والترمذي (٤/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٢٤٣٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن حبان (١٤/ ٣٨٧/ ٦٤٦٨) وصححه الحاكم (١/ ٦٩).

في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[١] وهكذا الوعيد في قاتل النفس والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور، وغير هؤلاء من أهل الكبائر؛ فإن هؤلاء -وإن لم يكونوا كفارًا- لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب.

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب، وهذا مبسوط في موضعه والله أعلم»[٢].

قال القرطبي: «فالتكبر والتعاظم خرق منا ومستحيل في حقنا، ولذلك حرمهما الشرع، وجعلهما من الكبائر؛ لأن من لاحظ كمال نفسه ناسيًا منة الله تعالى فيما خصه به، كان جاهلًا بنفسه وبربه، مغترًّا بما لا أصل له، وهي صفة إبليس الحاملة له على قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٣] وصفة فرعون الحاملة له على قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٤] ولا أقبح مما صارا إليه، فلا جرم كان فرعون وإبليس أشد أهل النار عذابا، نعوذ بالله من الكبر والكفر»[٥].

قلت: ما أحسن تعريف الكبر في هذا الحديث، وأنه رد الحق واحتقار الخلق، فالذي يقرأ كتاب الله ويتصفح آياته يجد أعداء الرسل قد اتفقوا على هذين الأصلين الفاسدين، بداية من قوم نوح وختامًا بقوم محمد ﷺ، فقوم نوح قالوا كما ذكر الله تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٦]، وقال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[٧]، وقال تعالى في

---

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد مطولا أحمد (٣/ ١٦-١٧) والبخاري (١٣/ ٥١٦-٥١٧/ ٧٤٣٩) ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣).

(٢) الفتاوى (٧/ ٦٧٧-٦٧٩).

(٣) الأعراف: الآية (١٢).

(٤) النازعات: الآية (٢٤).

(٥) المفهم (١/ ٢٨٧)

(٦) هود: الآية (٢٧).

(٧) المؤمنون: الآيتان (٢٤ و ٢٥).

سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝١١٥ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾[1]، وقال: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال اللَّه له: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾[3]، وقال اللَّه له: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[4]، إلى آخر الآيات، وغيرها كثير.

فرد الحق دائمًا ينطلق من هذين الأصلين: احتقار الناس وعدم قبول أقوالهم وحججهم وأدلتهم، كما وقع في تاريخ هذه الأمة من الفرق الضالة كالجهمية الذين وصفوا أهل السنة بأوصاف تدل على احتقارهم، فيصفون الذين يثبتون الصفات بالمجسمة، وكالمعاصرين الذين يصفون كل موحد بالمتزمت وبالأصولي وبالحرفي وبالمتمسك بالقشور وبالمتمسك بالجزئيات، وغيرها من الألفاظ الشائعة في الماضي والحاضر، فكل من دعا إلى تحقيق التوحيد ونشر السنة ينتظر أن يصفه المخالفون له بأوصاف تدفع دعوته، وبشبه تشكك أصحابه في الحق الذي يدعو إليه، واللَّه المستعان.

* * *

(١) الشعراء: الآيات (١١١-١١٦).
(٢) الزخرف: الآية (٣١).
(٣) الأنعام: الآية (٣٣).
(٤) الحجر: الآيتان (٩٥ و ٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رغدًا: الرغد: العيش الهني الذي ليس فيه عناء. قال امرؤ القيس:

بينما المرءُ تراهُ ناعِمًا يَأمَنُ الأَحْداثَ في عيشٍ رَغَدْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وفي هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال: إن إبليس أخرج من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأسكنها آدم قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض. ألا تسمعون اللَّه -جل ثناؤه- يقول: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾. فقد تبين أن إبليس إنما أزلهما عن طاعة اللَّه بعد أن لعن وأظهر التكبر؛ لأن سجود الملائكة لآدم كان بعد أن نفخ فيه الروح، وحينئذ كان امتناع إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حلت عليه اللعنة»[١].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما خلق اللَّه آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجه ليسكن إليها، ويستأنس بها»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق حواء

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا**

---

(١) جامع البيان (١/ ٥١٢ شاكر).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٤).

بالنساء خيرًا»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «معنى خلقت أي: أخرجت كما تخرج النخلة من النواة»[٢].

وقال النووي: «فيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم، قال اللَّه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٣]»[٤].

قوله: **(وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه)**.

قال الحافظ ابن حجر: «وفائدة هذه المقدمة أن المرأة خلقت من ضلع أعوج فلا ينكر اعوجاجها، أو الإشارة إلى أنها لا تقبل التقويم كما أن الضلع لا يقبله، وقيل فيه إشارة إلى أن أعوج ما في المرأة لسانها»[٥].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣١٤/ ٥١٨٦) ومسلم (٢/ ١٠٩٠/ ١٤٦٨) والترمذي (٣/ ٤٩٣-٤٩٤/ ١١٨٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦١/ ٩١٤٠) من طرق عن أبي هريرة.

(٢) الفتح (٦/ ٤٥٤).

(٣) النساء: الآية (١).

(٤) شرح مسلم ١٠/ ٤٩).

(٥) الفتح (٦/ ٤٥٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

أزلهما: أي: نحّاهُما عن مكانهما. وقيل: حملهما على الزّلّة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقد رويت هذه الأخبار عمن رويناها عنه من الصحابة والتابعين وغيرهم في صفة استزلال إبليس عدو اللَّه آدم وزوجته حتى أخرجهما من الجنة. وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب اللَّه موافقًا. وقد أخبر اللَّه تعالى ذكره عن إبليس أنه وسوس لآدم وزوجته ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما، وأنه قال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[2]، وأنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[3] مدليًا لهما بغرور. ففي إخباره -جل ثناؤه- عن عدو اللَّه أنه قاسم آدم وزوجته بقيله لهما: إني لكما لمن الناصحين الدليل الواضح على أنه قد باشر خطابهما بنفسه: إما ظاهرا لأعينهما، وإما مستجنًا في غيره. وذلك أنه غير معقول في كلام العرب أن يقال: قاسم فلان فلانًا في كذا وكذا. إذا سبب له سببًا وصل به إليه دون أن يحلف له. والحلف لا يكون بتسبب السبب. فكذلك قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[4]، لو كان ذلك كان منه إلى آدم على نحو الذي منه إلى ذريته، من تزيين أكل ما نهى اللَّه آدم عن أكله من الشجرة، بغير مباشرة خطابه إياه بما استزله به من القول والحيل لما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾. كما غير جائز أن يقول اليوم قائل ممن أتى معصية: قاسمني إبليس أنه لي ناصح فيما زين لي من المعصية التي أتيتها. فكذلك الذي كان من آدم وزوجته، لو كان على النحو الذي يكون فيما بين إبليس

---

(١) البقرة: الآية (٣٦).
(٢) الأعراف: الآية (٢٠).
(٣) الأعراف: الآية (٢١).
(٤) طه: الآية (١٢٠).

اليوم وذرية آدم لما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾»[١].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذ جعل أزال من زال عن المكان فقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة؛ وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة في الأرض. ولم يقصد إبليس لعنه اللَّه إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس وخيبة ظن. قال اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[٢] فصار عليه السلام خليفة اللَّه في أرضه بعد أن كان جارًا له في داره؛ فكم بين الخليفة والجار؟. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولي إغواء آدم؛ واختلف في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ والمقاسمة ظاهرها المشافهة»[٣].

وقال ابن عاشور: «وتفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم، على ما أصاب آدم، من جراء عدم امتثاله لوصاية اللَّه تعالى، وموعظة تنبه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي، والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة، التي كانت لأبيهم، وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده؛ إذ كان سببًا في جر هذه المصيبة لأبيهم، حتى يكونوا أبدًا ثأرًا لأبيهم، معادين للشيطان ووسوته، مسيئين الظنون بإغرائه؛ كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٤] وقوله هنا: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. وهذا أصل عظيم في تربية العامة، ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم، ومن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثًا على أخذ الثأر»[٥].

---

(١) جامع البيان (١/ ٥٣١-٥٣٢).
(٢) طه: الآية (١٢٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١٤).
(٤) الأعراف: الآية (٢٧).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٤٣٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن الخطايا والذنوب سبب لكل شر -وما جاء في الإيمان بالقضاء والقدر-

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر**»(١).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. وقريب من هذا حديث «**جحد آدم فجحدت ذريته**»(٢)»(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟**» قال: «**قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره علي قبل أن يخلقني**»، قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**»(٤).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «والتحقيق أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى. وفيه نظر. ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤) والبخاري (٦/ ٤٤٧/ ٣٣٣٠) ومسلم (٢/ ١٠٩٢/ ١٤٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤٩/ ٣٠٧٦) وقال: «حديث حسن صحيح». والحاكم (٢/ ٣٢٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. من طريق زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الفتح (٦/ ٤٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٨/ ٥٥٥/ ٤٧٣٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٣/ ٢٦٥٢[١٤]) وأبو داود (٥/ ٧٦-٧٨/ ٤٧٠١) والترمذي (٤/ ٣٨٦-٣٨٧/ ٢١٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٣٠) وابن ماجه (١/ ٣١-٣٢/ ٨٠) وفي الباب عن عمر بن الخطاب وجندب وأبي موسى رضي الله عنهم.

إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فقال له آدم: أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو اللَّه ﷻ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إلي أكثر ما أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها، وكون الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلي، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدرة اللَّه وصنعه، وله الحكمة في ذلك، فلهذا حج آدم موسى»[(١)].

قلت: لا شك أن الأسباب لها دور كبير في السعادة والشقاء، فآدم كان قد أكل من الشجرة، وأكله كان سببًا مباشرًا في إخراجه من الجنة، فاللَّه تعالى خالق الأسباب ومسبباتها، والإنسان يدخل إلى الجنة والنار بسبب أعماله، فكل هذا أمر مقرر لا ينكر، لكن الوقوع في الخطأ لا يسوغ صحته، فالذي يمحو الخطايا والذنوب هو التوبة الصادقة من العبد، فهناك فرق بين القدر وبين الفعل، فالقدر من اللَّه، والفعل من العبد، وهو داخل في القدر، لكن الفعل يسند إلى العبد بصفته الفاعل لذلك، والقدر ينسب إلى اللَّه تعالى الذي قدره، فالقدر بيد اللَّه والفعل من العبد، فلا تعارض بين هذا وهذا، ولا حجة لأحد في القدر، فالإنسان يحاسب على فعله، ولا حجة له في القدر؛ لأنه ليس من صنعه، فاللَّه -تبارك وتعالى- يقدر ما يشاء، ويتوب على من يشاء، فآدم ﷺ أكل من الشجرة، فهذا الفعل ملوم عليه لا شك، لكن قدر اللَّه لا يلام عليه ولا يسأل عنه؛ لأنه لا دخل له فيه، فلهذا غلب موسى حيث إن موسى لامه على القدر، فآدم بين له أن القدر فوقه، وأن اللَّه تعالى قدر عليه ذلك قبل خلقه، فلهذا إذا تاب التائب من المعصية، فلا يلام عليها، لكن الحقوق المتعلقة بالغير ترجع إلى أهلها، والحدود إذا بلغت السلطان تقام، ولا يحتج أحد بالقدر لأكل الحقوق أو لإبطال الحدود، فالفعل فعل الإنسان والقدر قدر الرحمن، وهذه مسألة دقيقة يحتاج فيها دائما إلى التفريق بين الفعل وبين القدر، فنرجو اللَّه أن يقدر لنا خير القدر وأن يتوب علينا، وأن ييسر لنا خير السبل، واللَّه المستعان.

وستأتي فوائد أخرى تتعلق بالقدر في مواضعه إن شاء اللَّه.

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن اللَّه سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة، لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها، والألسن عن صفتها، فكان إهباطه منها عين كماله، ليعود إليها على أحسن أحواله، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا، وغمومها وهمومها وأوصابها، ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة؛ فإن الضد يظهر حسنه الضد، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها.

و أيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أمرهم، ونهيهم، وابتلاءهم، واختبارهم -وليست الجنة دار تكليف- فأهبطهم إلى الأرض، وعوضهم بذلك أفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء، ورسلًا، وأولياء، وشهداء، يحبهم ويحبونه، فخلى بينهم وبين أعدائه، وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه: نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلًا؛ فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات، ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض، وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى؛ فمن أسمائه: الغفور، الرحيم، العفو، الحليم، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المحيي، المميت، الوارث، الصبور، ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء . . . فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارًا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى، فيغفر فيها لمن يشاء، ويرحم

من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وينتقم ممن يشاء . . . ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته.

وأيضا؛ فإنه سبحانه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل، فاقتضى ملكه سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارًا تجري عليهم فيها أحكام الملك، ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك.

وأيضا؛ فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب هو الإيمان النافع، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة، يوم لا ينفع نفسًا إلا إيمانها في الدنيا، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب، واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه، بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه.

وأيضا؛ فإن اللَّه سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، والأرض فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والكريم واللئيم، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره، فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، ثم ميزهم سبحانه بدارين؛ فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره، وجعل الخبيثين أهل دار الشقاء دار الخبثاء، قال اللَّه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته، أنزلهم دارًا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل، حكمة بالغة، ومشيئة نافذة، وذلك تقدير العزيز العليم.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه لما قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أجابهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ثم أظهر سبحانه علمه لعباده ولملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه، ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه في

(١) الأنفال: الآية (٣٧).

محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه، فيترك محبوباته تقربًا إلي، ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي، ويبذل دمه ونفسه في محبتي، وأخصه بعلم لا تعلمونه؛ يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار، ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدونني أنتم من غير معارض يعارضكم، ولا شهوة تعتريكم، ولا عدو أسلطه عليكم، بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدهم.

و أيضًا؛ فإني أريد أن أظهر ما خفي عليكم من شأن عدوي ومحاربته لي وتكبره عن أمري وسعيه في خلاف مرضاتي.

وهذا وهذا كانا كامنين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم دارًا أظهر فيها ما كان اللَّه سبحانه منفردًا بعلمه لا يعلمه سواه، وظهرت حكمته وتم أمره، وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الشاكرين، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات؛ اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارًا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

و أيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه؛ فمحبته لهم هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم، ولم تكن لتتحقق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره، وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم، فأنزلهم دارًا أمرهم فيها ونهاهم؛ فقاموا بأمره ونهيه، فنالوا درجة محبتهم له، فأنالهم درجة حبه إياهم، وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته، وهو البر الرحيم»[2].

قال القرطبي: «لم يكن إخراج اللَّه تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته، وإنما أهبطه إما تأديبًا وإما تغليظًا للمحنة.

---

(١) البقرة: الآية (١٠٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٦-١١٠).

والصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف، فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة. ولله أن يفعل ما يشاء. وقد قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة؛ وقد تقدمت الإشارة إليها مع أنه خلق من الأرض. وإنما قلنا إنما اهبطه بعد أن تاب عليه لقوله ثانية: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ »[1].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١٩).

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الأقوال التي حكيناها عمن حكيناها عنه، وإن كانت مختلفة الألفاظ، فإن معانيها متفقة في أن اللَّه -جل ثناؤه- لقى آدم كلمات، فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن، وتاب بقيله إياهن وعمله بهن إلى اللَّه من خطيئته، معترفًا بذنبه، متنصلًا إلى ربه من خطيئته، نادمًا على ما سلف منه من خلاف أمره، فتاب اللَّه عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه، وندمه على سالف الذنب منه.

والذي يدل عليه كتاب اللَّه، أن الكلمات التي تلقاهن آدم من ربه، هن الكلمات التي أخبر اللَّه عنه أنه قالها متنصلا بقيلها إلى ربه، معترفا بذنبه، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]. وليس ما قاله من خالف قولنا هذا - من الأقوال التي حكيناها - بمدفوع قوله، ولكنه قول لا شاهد عليه من حجة يجب التسليم لها، فيجوز لنا إضافته إلى آدم، وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه. وهذا الخبر الذي أخبر اللَّه عن آدم - من قيله الذي لقاه إياه فقاله تائبًا إليه من خطيئته - تعريف منه -جل ذكره- جميع المخاطبين بكتابه، كيفية التوبة إليه من الذنوب، وتنبيه للمخاطبين بقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[2]، على موضع التوبة مما هم عليه من الكفر باللَّه، وأن خلاصهم مما هم عليه مقيمون من الضلالة، نظير خلاص أبيهم آدم من خطيئته، مع تذكيره إياهم به السالف إليهم من النعم التي خص بها أباهم آدم وغيره من آبائهم»[3].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٢٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٨).

(٣) جامع البيان (١/ ٥٤٦-٥٤٧ شاكر).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي وقت وزمان جاءكم مني، يا معشر الثقلين، هدى، أي رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي. فمن تبع هداي منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1] فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف، والحزن، والفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرا أحدث الخوف.

فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة. فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى. وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف والحزن والضلال والشقاء فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب»[2].

قلت: هذه الآية الكريمة صريحة وواضحة في أن الأنبياء والرسل لا علم عندهم إلا ما علمهم اللّٰه إياه، وأنزله عليهم من كتبه التي بها يهتدون، فضلا عن غيرهم من بقية الناس الذين لا اختيار لهم ولا خيار لهم إلا في اتباع الأنبياء والرسل، أي ما جاؤوا به من كتب وسنن، فمن فعل ذلك فهو ناج في دنياه وآمن في أخراه، ومن تبع خطأ فلان وفلان وجعله حجة يقدمها لأمة محمد ﷺ فلا نجاة له في الدنيا، ولا أمن له في الآخرة؛ لأنه طلب الهداية من غير بابها، كمن أخذ عملة مزيفة وذهب إلى

---

(١) طه: الآية (١٢٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٦-٧٧).

السوق ظنًا منه أنه صاحب مال؛ فإذا به يحمل زيوفًا غير مستعملة. فهو المفلس الكبير الذي لا كتاب عنده ولا سنة.

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى -مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية- إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان، وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم»[1].

قلت: وهكذا يفهم السلف الصالح كتاب ربنا؛ فيفسرون الهدى بالأنبياء والرسل، وما يبلغونه عن اللَّه ويبينونه للناس؛ فاتباعهم سعادة، ومخالفتهم شقاء ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2]. فنعوذ باللَّه من منهاج يجري بصاحبه إلى الضيق في الدنيا والعذاب في الآخرة، فكل من دعا إلى الرجال وآرائهم وترك الهداية الواضحة في الكتاب والسنة؛ فقد أعرض عن ذكر اللَّه، وتصدق عليه آية سورة طه المتقدمة، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[3]، ولا شك أن المعرضين عن اتباع السنة والقرآن واللاهثين وراء أخطاء الرجال هم من الذين قارنهم الشيطان، فدلهم على قول فلان وعلان، وزهدهم في اتباع السنة والقرآن، وما ضلت الأمم من أولها إلى آخرها إلا بآراء الرجال، واتباع الهوى والشيطان.

وقال شيخنا محمد تقي الدين الهلالي -رحمه اللَّه تعالى-: «المراد بالهدى كل ما جاء من اللَّه تعالى بواسطة الرسل وما عداه فهو ضلال. وقوله ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: خطاب لآدم وحواء وإبليس، وقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[4] الخطاب هنا لآدم وحواء باعتبار ذريتهما؛ لأن إبليس قد علم اللَّه أنه لا يتبع الهدى، وقد نفى اللَّه الخوف والحزن عن كل من اتبع الكتاب والسنة في آيات البقرة، ونفى الشقاء

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١١٧).
(٢) طه: الآية (١٢٤).
(٣) الزخرف: الآيتان (٣٦ و ٣٧).
(٤) طه: الآية (١٢٣).

والضلال عنهم في سورة طه، ويفهم من ذلك أن من لم يتبع الهدى؛ بل أعرض عن الكتاب والسنة؛ لتقليد مذهب أو شيخ طريقة أو رجال حزب أو تعصبًا وهذا هو الواقع، وقد أكد ذلك سبحانه بقوله في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1] قال صاحب القاموس: (الضنك) الضيق في كل شيء للذكر والأنثى ضنك ككرم ضنكًا وضناكة وضنوكة ضاق وفلان ضناكة فهو ضنيك ضعف في رأيه وجسمه ونفسه وعقله»[2].

وقال القاسمي: «إنما كرر الأمر بالهبوط للتأكيد والإيذان بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة، أو لاختلاف المقصود؛ فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية، يتعادون فيها ولا يخلدون. والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف، فمن اتبع الهدى نجا، ومن ضله هلك»[3].

* * *

---

(١) طه: الآية (١٢٤).

(٢) سبيل الرشاد (٣/ ١٤-١٥).

(٣) محاسن التأويل (٢/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾

★ **غريب الآية:**

آياتنا: جمع آية. ومعناها في اللغة: العلامة.

ومنه قوله تعالى: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾[1]. والآية أيضًا: القصة والرسالة. قال كعب بن زهير:

أَلَا أَبْلِغَا هذا المُعْرِضَ آيَةً ... أَيَقْظَانَ قالَ القولَ إذْ قالَ أم حُلُم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني: والذين جحدوا آياتي وكذبوا رسلي -وآيات الله: حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته-، وما جاءت به الرسل من الأعلام والشواهد على ذلك، وعلى صدقها فيما أنبأت عن ربها. وقد بينا أن معنى الكفر، التغطية على الشيء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ يعني: أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم، المخلدون فيها أبدًا إلى غير أمد ولا نهاية»[2].

وقال السعدي: «وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب آياته. فأولئك أصحاب النار؛ أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون. وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك. وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي»[3].

---

(١) المائدة: الآية (١١٤).

(٢) جامع البيان (١/ ٥٥٢ شاكر).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٧٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن أهل الكفر يخلدون في النار وأهل التوحيد يخرجون منها بفضل اللَّه ثم بتوحيدهم

* عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم**» أو قال: «**بخطاياهم فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل**»، فقال رجل من القوم: كأن رسول اللَّه ﷺ قد كان بالبادية[1].

★ غريب الحديث:

ضبائر: هم الجماعات في تفرقة، واحدتها ضِبارة مثل عِمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة.

فبثوا: فرِّقوا.

أفيضوا: أي صبُّوا عليهم من ماء الأنهار.

حميل السيل: ما يجيء به السيل من طين وغيره.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما معنى الحديث فالظاهر واللَّه أعلم. من معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها كما قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[2]. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[3] وهذا جار على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم.

وأما قوله ﷺ: «**ولكن ناس أصابتهم النار**» إلى آخره. فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم اللَّه تعالى إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها اللَّه تعالى. وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس و يكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥-١١) ومسلم (١/ ١٧٢-١٧٣/ ١٨٥) وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣٠٩).

(٢) فاطر: الآية (٣٦).

(٣) الأعلى: الآية (١٣).

يميتهم ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها اللَّه تعالى، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحما، فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك ويصيرون إلى منازلهم وتكمل أحوالهم، فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه»[1].

* * *

(١) شرح مسلم (٣/ ٣٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

إسرائيل: نبي اللَّه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام-.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما خاطب اللَّه -جل ثناؤه- بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أحبار اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ، فنسبهم -جل ذكره- إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[2] وما أشبه ذلك. وإنما خصهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها من الآي التي ذكرهم فيها نعمه -وإن كان قد تقدم ما أنزل فيهم وفي غيرهم في أول هذه السورة ما قد تقدم- أن الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباء أسلافهم، وأخبار أوائلهم، وقصص الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثل الذي لهم من العلم به، إلا لمن اقتبس علم ذلك منه. فعرفهم بإطلاع محمد على علمها -مع بعد قومه وعشيرته من معرفتها، وقلة مزاولة محمد ﷺ دراسة الكتب التي فيها أنباء ذلك- أن محمدًا ﷺ لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحي من اللَّه وتنزيل منه ذلك إليه- لأنهم من علم صحة ذلك بمحل ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك -جل ثناؤه- خص بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطابهم»[3].

وقال ابن عاشور: «فقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطاب لذرية يعقوب، وفي ذريته انحصر سائر الأمة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيها

---

(١) البقرة: الآية (٤٠). (٢) الأعراف: الآية (٣١).

(٣) جامع البيان (١/ ٥٥٤-٥٥٥ شاكر).

اليهود، لكونه هو اسم القبيلة، أما اليهود فهو اسم النحلة والديانة؛ ولأن من كان متبعًا دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحمير لم يعتد بهم؛ لأنهم تبع لبني إسرائيل، فلو آمن بنو إسرائيل بالنبي ﷺ لآمن أتباعهم؛ لأن المقلد تبع لمقلده. ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم اللَّه بها على أسلافهم، وكرامات أكرمهم بها، فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك، ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التدين بدين موسى، ذكروا بوصف الذين هادوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية، كما سيأتي قريبًا. وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم؛ لأن ما خوطبوا به هو من التذكير بنعمة اللَّه على أسلافهم، وبعهد اللَّه لهم. وكذلك نجد خطابهم في الأغراض، التي يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بنحو ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1] أو بوصف اليهود الذين هادوا، أو بوصف النصارى، فأما إذا كان الغرض التسجيل على علمائهم، نجد القرآن يعنونهم بوصف ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق مما يناسب علماءهم خاصة، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.. ونحو: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ - ونحو: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ - الآية ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ - ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ الآية.

فإذا جاء الخطاب بأسلوب شامل لعلمائهم وعامتهم، صرف إلى كل طائفة من الطائفتين ما هو لائق بها»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من اللَّه أفضل الصلاة والسلام، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي اللَّه يعقوب عليه السلام، وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في

---

(١) آل عمران: الآية (٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٤٩-٤٥٠).

متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال؛ يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «اختص بني إسرائيل بالخطاب اهتمامًا بهم لأنهم الشعوب الحاملة للكتب السماوية، والمؤمنة بالأنبياء المعروفين، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين، ولأن في دخولهم في الإسلام من الحجة على النصارى وغيرهم أقوى مما في دخول النصارى من الحجة عليهم، وهذه النعمة التي أطلقها في التذكير لعظم شأنها هي نعمة جعل النبوة فيهم زمنًا طويلًا (أو أعم)، ولذلك كانوا يسمون شعب اللَّه كما في كتبهم، وفي القرآن أن اللَّه اصطفاهم وفضلهم، ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من اللَّه منحهم إياها بفضله ورحمته، فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكرًا، وأشدهم لنعمته ذكرًا، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض عن الإيمان، وسبب إيذاء النبي ﷺ؛ لأنهم زعموا أن فضل اللَّه تعالى محصور فيهم، وأنه لا يبعث نبيًا إلا منهم، ولذلك بدأ اللَّه تعالى خطابهم بالتذكير بنعمته»[(٣)].

وقال ابن جرير: «ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل -جل ذكره-، اصطفاؤه منهم الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى. فأمر -جل ثناؤه- أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وأن لا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحل بمن نسي نعمه عنده منهم وكفرها، وجحد صنائعه عنده»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «والمراد بالنعمة هنا: جميع ما أنعم اللَّه به على المخاطبين، مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم؛ فإن النعمة على الأسلاف نعمة على الأبناء؛ لأنها سمعة لهم، وقدوة يقتدون بها، وبركة تعود عليهم منها، وصلاح

---

(١) الإسراء: الآية (٣).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٣).
(٣) تفسير المنار (١/ ٢٨٩-٢٩٠).
(٤) جامع البيان (١/ ٥٥٥ شاكر).

حالهم الحاضر كان بسببها، وبعض النعم يكون فيما فطر اللَّه عليه الإنسان من فطنة وسلامة ضمير، وتلك قد تورث في الأبناء. ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم، فجاء أبناؤهم في شر حال. فيشمل هذا جميع النعم التي أنعم اللَّه بها عليهم، فهو بمنزلة اذكروا نعمي عليكم. وهذا العموم مستفاد من إضافة نعمة إلى ضمير اللَّه تعالى؛ إذ الإضافة تأتي لما تأتي له اللام، ولا يستقيم من معاني اللام العهد، إذ ليس في الكلام نعمة معينة معهودة، ولا يستقيم معنى اللام الجنسية، فتعين أن تكون الإضافة على معنى لام الاستغراق، فالعموم حصل من إضافة نعمة إلى المعرفة، وقليل من علماء أصول الفقه من يذكرون المفرد المعرف بالإضافة في صيغ العموم»[١].

وقال: «ويفيد مع ذلك أمرهم بتفكر النعم التي أنعم بها عليهم؛ لينصرفوا بذلك عن حسد غيرهم، فإن تذكير الحسود بما عنده من النعم عظة له وصرف له عن الحسد الناشئ عن الاشتغال بنعم الغير، وهذا تعريض بهم أنهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من الكتاب والحكمة ببعثة محمد ﷺ، وانتقال النبوة من بني إسرائيل إلى العرب، وإنما ذكروا بذلك لأن للنفس غفلة عما هو قائم بها، وإنما تشتغل بأحوال غيرها لأن الحس هو أصل المعلومات فإذا رأى الحاسد نعم الغير نسي أنه أيضًا في نعمة، فإذا أريد صرفه عن الحسد ذكر بنعمه حتى يخف حسده، فإن حسدهم هو الذي حال دون تصديقهم به، فيكون وزانه وزان قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وتقديمه على قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ من باب تقديم التخلية بالمعجمة على التحلية بالمهملة، ويكون افتتاح خطابهم بهذا التذكير؛ تهيئة لنفوسهم إلى تلقي الخطاب بسلامة طوية وإنصاف»[٢].

قلت: في هذه الآية بدأ الخطاب المباشر عن بني إسرائيل، أي: اليهود، وإن كان ما سبق من الآيات في بداية السورة من ذكر صفاتهم مع المنافقين، كله متصل في بيان أحوالهم وتقلباتهم، ومواقفهم مع النبي ﷺ. ومكنونات ضمائرهم، وما في كتبهم من الأخبار التي أظهرها الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وهذا الخطاب واضح فيهم يذكرهم بالنعم التي أنعم بها عليهم، ويبين

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٥١).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٢).

فضائحهم ومخازيهم في انحرافاتهم الواضحة التي لا تقبل جدلًا ، وقد استمرت هذه الفضائح وهذه المخازي طيلة تاريخ عصور الإسلام تتكرر وتتسع حتى أصبحت شبحًا مخيفًا ، يهدد البشرية جمعاء ، فهم اليد الكبرى في نشأة الإلحاد ومذاهبه من شيوعية واشتراكية وعلمانية وماسونية ، وكل ما على سطح الأرض من تدبيرات لنسف الأديان والأخلاق فهو من صنع اليهود ، فلله العجب! كيف تركن إليهم الأمم وتأمنهم على أعز أمورها وتجعلهم الأخلاء والأصدقاء المحبوبين؟ فاليهود شعب مشؤوم على نفسه وعلى غيره ، فجمعوا كل الرذائل التي مضت في الأمم قبلهم ، وحاولوا صبها في كل الأمم المعاصرة من مسلمين ونصارى وغيرهم ، فاللهم اكفناهم بما شئت وكيف شئت .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فارهبون: الرَّهبة والرُّهب والرَّهب: مخافة مع تحرز واضطراب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «والصواب عندنا من القول فيه. وهو في هذا الموضع: عهد اللّه ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة، أن يبينوا للناس أمر محمد ﷺ أنه رسول، وأنهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة أنه نبي اللّه، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من عند اللّه.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: وعهده إياهم أنهم إذا فعلوا ذلك أدخلهم الجنة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]، وكما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]»[3].

وقال ابن كثير: «﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من

(١) المائدة: الآية (١٢).

(٢) الأعراف: الآيتان (١٥٦ و ١٥٧).

(٣) جامع البيان (١/ ٥٥٧-٥٥٨).

إحداثكم . . . وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي: أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وعهد إليهم أن يرسل إليهم نبيًّا من بني إخوتهم، أي بني إسماعيل يقيم شعبًا جديدًا. هذا هو العهد الخاص المنصوص، ويدخل في عموم العهد: عهد الله الأكبر، الذي أخذه على جميع البشر، بمقتضى الفطرة؛ وهو التدبر والتروي، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح، لا بميزان الهوى والغرور، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهي العام، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم، لآمنوا بالنبي ﷺ، واتبعوا النور الذي أنزل معه وكانوا من المفلحين، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان. .

هذا هو عهد الله، وأما عهدهم فهو التمكين في الأرض المقدسة، والنصر على الأمم الكافرة، والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها. هذا هو الشائع في التوراة التي بين أيديهم، ولا شك أن الله تعالى قد وعدهم أيضًا بسعادة الآخرة. .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشا تركه في شعب إسرائيل خوف بعضهم من بعض، لما بين الرؤساء والمرؤوسين من المنافع المشتركة؛ عقب الأمر بالوفاء بقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي: إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع، ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق، فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى، أو النعم كلها، وهو وحده القادر على سلبها، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها، فارهبوه وحده لا ترهبوا سواه»[2].

وقال ابن عاشور: «ومن لطائف القرآن، في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٤).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٩٠-٢٩١).

لتكليف اللَّه تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم؛ فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد؛ لأنها وصايات اللَّه تعالى لهم، ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق، وهذا من طرق الإعجاز العلمي، الذي لا يعرفه إلا علماؤهم، وهم أشح به منهم في كل شيء، بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين، فمجيئه على لسان النبي العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب. والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[1] الآية، وإذ قد كان المخاطبون بالآية قد تلقوا الشريعة من أسلافهم بما فيها من عهد؛ فقد كان العهد لازما لهم، وكان الوفاء متعينًا عليهم؛ لأنهم الذين جاء فيهم الرسول الموعود به»[2].

قلت: وإن اختلفت عبارات المفسرين في تفسير العهد، فعهد اللَّه في كل كتاب هو اتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، وبعث اللَّه الرسول -عليه الصلاة والسلام- في وقته، كانت فرصة ثمينة لبني إسرائيل أن يرفعوا لواء هذا العهد، وأن يكونوا تحت قيادته ذابين عنه مدافعين عنه، ولهذا قال اللَّه على لسان عيسى في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3]، فهذا الرسول الصادق أخبر أمته ببعثة هذا الرسول الكريم الكبير، وسماه باسمه، ولم يكتمه -وحاشاه- فبنو إسرائيل لو اقتدوا بعيسى عليه السلام لكان لهم في ذلك فخر، ولكن نكثوا العهد وطمسوه بقولهم وفعلهم، فكان لهم الخزي والعار، وشتت اللَّه شملهم، وخربوا بيوتهم بأيديهم، وما يزال أمرهم في شتات ودمار رغم ما عندهم من إمكانيات مالية وعدد مادية وأوهام سياسية، وسيبقى أمرهم على ما هم عليه إلى أن تقوم الساعة عليهم وعلى شرار الخلق ممن هم على نهجهم وطريقتهم، فالذي يوفي بعهود اللَّه، فاللَّه تعالى يوفي له بالعهد ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾[4].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٣-٤٥٤).

(٣) الصف: الآية (٦).

(٤) التوبة: الآية (١١١).

قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَءَامِنُواْ﴾، صدقوا، كما قد قدمنا البيان عنه قبل. ويعني بقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾، ما أنزل على محمد ﷺ من القرآن. ويعني بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم -جل ثناؤه- أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه، نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل. ففي تصديقهم بما أنزل على محمد تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة»[(٢)].

وقال ابن كثير: «يعني به القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا مشتملًا على الحق من الله تعالى مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل. قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمدًا ﷺ مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.. وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة؛ فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم»[(٣)].

* * *

(١) البقرة: الآية (٤١).
(٢) جامع البيان (٢/ ٥٦٠-٥٦١).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٤-١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

ثمنًا: الثمن: البدل في البيع من العين أو الورق، ويقاربه العوض والبدل. فكل ما جعل عوضًا لشيء أطلق عليه اسم الثمن. قال ابن عرفة:

إن كنتَ حاولتَ ذنبًا أو ظفرت به   فما أصبتَ بترك الحجّ من ثمن

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذًا: لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابي وآياتي بثمن خسيس وعرض من الدنيا قليل، وبيعهم إياه تركهم إبانة ما في كتابهم من أمر محمد ﷺ للناس، وأنه مكتوب فيه أنه النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل بثمن قليل، وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم، وأخذهم الأجر ممن بينوا له ذلك على ما بينوا له منه.

وإنما قلنا بمعنى ذلك: (لا تبيعوا)؛ لأن مشتري الثمن القليل بآيات اللَّه بائع الآيات بالثمن، فكل واحد من الثمن والمثمن مبيع لصاحبه، وصاحبه به مشترى: وإنما معنى ذلك على ما تأوله أبو العالية: بينوا للناس أمر محمد ﷺ، ولا تبتغوا عليه منهم أجرًا. فيكون حينئذ نهيه عن أخذ الأجر على تبيينه، هو النهي عن شراء الثمن القليل بآياته»(٢).

قال القرطبي: «وهذه الآية وإن كانت خاصة في بني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم. فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجرًا فقد دخل في مقتضى الآية واللَّه أعلم»(٣).

---

(١) البقرة: الآية (٤١).
(٢) جامع البيان (١/ ٥٦٦ شاكر).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لا تعرضوا عن الإيمان بهذا النبي وما جاء به، وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل، وهو ما يستفيده رؤساؤكم من المرؤوسين من مال وجاه، أوقعهم في الكبر والغرور، وما يتوقعه المرؤوسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء وأتباعهم، وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة، وإنما سمي هذا الجزاء قليلًا؛ لأن كل ما عدا الحق قليل وحقير بالنسبة إليه، وكيف لا يكون قليلًا وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء؟ لإعراضه عن الآيات البينات، والبراهين الواضحات، ثم إنه يخسر عز الحق، وما يكون له من الشأن العظيم، وحسن العاقبة، ثم إنه يخسر مرضاة اللَّه تعالى وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة، وختم هذه الآية بشبه ما ختم به ما قبلها، وذلك قوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ وليس في هذه مع سابقتها تكرار ولا شبه تكرار كما يتوهم، فقد حل كل من القولين محله، ولا مندوحة عن واحد منهما؛ لأن استبدال الباطل بالحق، إنما كان منهم لاتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس، واتقاء المرءوس غضب الرئيس، فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى اللَّه وحده الذي بيده قلوب العباد وجوارحهم، وهو المسخر لهم في أعمالهم، وبيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العلم النافع ما ابتغي به وجه الله

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه اللَّه ﷻ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة -يعني: ريحها-**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

عرضًا: أي متاعًا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها؛ فلا بد أن يقول على

(١) تفسير المنار (١/ ٢٩١-٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨) وأبو داود (٤/ ٧١/ ٣٦٦٤) وابن ماجه (١/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٢) وابن حبان (١/ ٢٧٩/ ٧٨) والحاكم (١/ ٨٥). وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

اللَّه غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشهوات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا.

فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات؛ لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق.

وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه؛ أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾[1]، وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[2]، فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه؛ فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا؛ فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران؛ فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه؛ فيرى البدعة سنة والسنة بدعة.

فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات»[3].

قلت: رحم اللَّه العلامة ابن القيم على هذه الكلمة القيمة في بيان انحراف

---

(١) مريم: الآية (٥٩).   (٢) الأعراف: الآية (١٦٩).

(٣) الفوائد (ص: ٢٤٣-٢٤٤).

العلماء إذا عارض الحق أهواءهم ومصالحهم الذاتية، فإن الذي يهمهم هو أن تتحقق لهم نزواتهم التي تدفعهم إليها أهواؤهم، فإذا كان علماء بني إسرائيل كما وصفوا في هذه الآية بأنهم اشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، أي: اختاروا ما عند الناس على ما عند الله؛ فهذا تاريخ مستمر، فكثير من العلماء الذين وصفوا بالعلم على هذه الشاكلة؛ يدفعون الحق الواضح بحجج باهتة، ولاسيما إذا كان الحق يعارض ما قاله أسيادهم وساداتهم؛ فإنهم يركضون وراء كل فرية، ويجمعون لذلك من الأباطيل والأحاديث الضعيفة والموضوعة وأقوال العلماء -بزعمهم- ما يبينون به أنهم على الصواب، وهم في الحقيقة على شفا جرف هار.

وفي هذا الزمن -ولله الحمد الذي كثرت فيه القنوات الإسلامية والمواقع المباركة في الشبكة العنكبوتية، وانتشرت فيه المصنفات والأشرطة والأقراص المدمجة- ميز الكثير منهم هؤلاء العلماء المرتزقة فأصبحوا في عزلة، ولا يلجأ لهم إلا كل منكس على شاكلتهم، فأخزاهم اللَّه ولا كثرهم، واللَّه المستعان.

وقال الطيبي: «وفيه أن من تعلم لرضا اللَّه تعالى مع إصابة العرض الدنيوي لا يدخل تحت الوعيد؛ لأن ابتغاء وجه اللَّه تعالى يأبى إلا أن يكون متبوعًا غالبًا ويكون العرض تابعًا»(١).

قال القاري: «قال ابن حجر: هذا الوعيد مطلق إن استحل ذلك لأن تحريم طلب العلم بهذا القصد فقط مجمع عليه، ومعلوم من الدين بالضرورة ومفهوم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم لله لا يضره حصول الدنيا له من غير قصدها بتعلمه، بل من شأنه الإخلاص بالعلم أن تأتي الدنيا لصاحبه راغمة، كما ورد: (من **كان همه الآخرة، جمع اللَّه شمله، وجعل غناه في قلبه وتأتيه الدنيا وهي راغمة**)(٢)»(٣).

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٢/ ٦٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) وابن ماجه (٢/ ١٣٧٥/ ٤١٠٥). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح رجاله ثقات». من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

(٣) المرقاة (١/ ٤٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تلبسوا: اللّبس: الخلط. تقول: لبست عليه الأمر: إذا مزجت حقه بباطله.
قال الشاعر:

ولما تَلْتَبِسْ خيلٌ بخيلٍ فَتَطَّعِنوا وتضطَرِبوا اضْطِرابا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذا: ولا تخلطوا على الناس -أيها الأحبار من أهل الكتاب- في أمر محمد ﷺ وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوث إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تنافقوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوث إلى جميعكم وجميع الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب، وتكتموا به ما تجدونه في كتابكم من نعته وصفته، وأنه رسولي إلى الناس كافة، وأنتم تعلمون أنه رسولي، وأن ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي -الذي أخذت عليكم في كتابكم- الإيمان به وبما جاء به والتصديق به»[(١)].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم عن الشيئين معا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس ولا تلبسوا الحق بالباطل: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب. وقال أبو العالية: ولا تلبسوا الحق بالباطل: يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد اللّه من أمة محمد ﷺ»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (١/ ٥٧٢ شاكر).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٦).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة في موضع الحال؛ أي أن محمدا ﷺ حق، فكفرهم كان كفر عناد، ولم يشهد تعالى لهم بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا. ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل»(١).

وقال السعدي: «فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل، وكتمان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق، وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن اللَّه فصل آياته، وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المجرمين. فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم. ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين»(٢).

قلت: سياق الآيات في علماء أهل الكتاب، وفي بيان مناهجهم الملتوية التي تقوم على مسايرة الأهواء والأنفس، وعلى مسايرة الأسياد والرؤساء، وعلى مسايرة المصالح المادية والمعنوية، وهذه هي مقاصدهم وأهدافهم، ولاشك في بطلان هذه المناهج، وأنها مناهج المرتزقة في كل زمان ومكان؛ فاللَّه تعالى أوضح الحق في كتابه وعلى لسان نبيه، ولم يترك لقائل مقالًا، ولا لمبين بيانًا، حتى إنك تجد القرآن يكرر التوحيد والأمر به، ويكرر التحذير من الشرك، ويبين بطلانه، ويمثل له بما يليق به من أمثلة حسية، من قرأها عرف خطورة الشرك والمشركين، وهكذا تجد وضوح الآيات في اتباع النبي ﷺ والأمر بطاعته، والانقياد له في كل صغيرة وكبيرة، وهكذا تجد الإسلام كله في غاية الوضوح، وكل قضية كانت مجال جدال وخصومات بين الأنبياء وأممهم تجد وضوحها في القرآن وضوح الشمس في رابعة النهار، وهكذا آيات الحلال والحرام والميراث والنكاح والبيوع والديون والرهون فلا تجد فيها إشكالًا ولا غموضًا، فالعلماء إذا صدقوا وتجردوا مما ابتلي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٣٤).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٠).

به اليهود؛ فازوا ونجحوا؛ فإن الحق أمره سهل ورفع لوائه أيسر وأنفع، وهو موافق للفطر القويمة والعقول السليمة، وخيارُ عباد اللَّه يحبون هذا المنهج.

وأما تلبيس التوحيد بالشرك، ومحاولة جلب الشبه التي تدفع التوحيد وتبين للناس الشرك توحيدًا، وكذلك تبين البدعة سنة، والحلال حرامًا والحرام حلالًا، والفرض مستحبًّا، والحرام مكروهًا، هذه المناهج الباطلة مع الأسف تبناها عدد من المرتزقة والمنحرفين عن دين اللَّه، تُرْفَع ألويتُها في الأمة بعناوين مختلفة، أحيانًا باسم الوسطية، وأحيانًا باسم التفتح، وأحيانًا باسم الأولويات، ويقصدون بها ترك التوحيد والسنة، وأحيانًا باسم التقريب، وأحيانًا باسم الأخوة، وأحيانًا باسم الشمولية، وقاموس هذه المصطلحات الباطلة لا نهاية له، فما وقع فيه أهل الكتاب من تلاعب بدين اللَّه، وقع في هذه الأمة أكثر منه، حاشا عصر الصحابة الكرام، وحاشا الطائفة المنصورة، والواقع أكبر شاهد على ما نقول، فرفع لواء الحق بالتوحيد والسنة، وعدم المراوغة، وخدمة فلان أو علان لهو علامة صدق وأمانة، وما سواه كذب وخيانة، واللَّه المستعان.



قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[(١)]

★ **غريب الآية:**

الزكاة: قال القرطبي: «الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد؛ يقال: زكا الزرع والمال يزكو؛ إذا كثر وزاد.

وقيل: أصلها الثناء الجميل؛ ومنه زكى القاضي الشاهد. فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير؛ كما يقال: زكا فلان؛ أي طهر من دنس الجرحة والإغفال. فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين. ألا ترى أن النبي ﷺ سمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس؛ وقد قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[(٢)]»[(٣)].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أمر من الله -جل ثناؤه- لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها بالإنابة والتوبة إليه، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة، ونهي منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد ﷺ، بعد تظاهر حججه عليهم، بما قد وصفنا قبل فيما مضى من كتابنا هذا، وبعد الإعذار إليهم والإنذار، وبعد تذكيرهم نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفًا منه بذلك عليهم، وإبلاغًا في المعذرة»[(٤)].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال -جل ثناؤه- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله تعالى، وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر، والوقوف عند

---

(١) البقرة: الآية (٤٣).
(٢) التوبة: الآية (١٠٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٤).
(٤) جامع البيان (١/ ٥٧٥).

الرسوم، فقد كانوا يصلون، ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة؛ لأن الإقامة هي الإتيان بالشيء مقومًا كاملًا وهي في الصلاة التوجه إلى اللَّه تعالى بالقلب والخشوع بين يديه، والإخلاص له في الذكر والدعاء والثناء، فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله، ولم تشرع لهذه الصورة فإن الصورة تتغير في حكم اللَّه تعالى على ألسنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة، فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة، ولكن هذا الروح لا يتغير، فهو واحد لم يختلف فيه نبي، ولم ينسخ في دين.

ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من اللَّه تعالى بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر اللَّه على نعمه والصلة العظيمة بين الناس. وقد عهد في القرآن قرن الأمر باتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة، ومن أقام الصلاة لا ينسى اللَّه تعالى ولا يغفل عن فضله، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته، فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنيًّا إلا بهم ومنهم، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه، فيجب على الآخرين الأخذ بيده، وأن يكونوا عونا له حفظا للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر، وشكرًا لله على ما ميزهم به من النعمة، وظاهر أن الغني في حاجة دائمة إلى الفقير كما أن الفقير في حاجة إليه، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون، لهذا جعل اللَّه بذل المال والإنفاق في سبل الخير علامة من علامات الإيمان، وجعل البخل من آيات النفاق والكفر»[1].

قلت: هذا الذي ذكره الشيخ محمد رشيد في هذا التوجيه الطيب؛ هو حقيقة هاتين العبادتين، فروح الصلاة هو الخشوع، الذي هو عبارة عن خلو الذهن من كل الشواغل، وارتباطه تمامًا بمن توجه إليه، ويعظم ذلك الارتباط بقدر ما يتحقق من معنى هذه العبادة، ولهذا جاء في كتاب اللَّه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والنهي عن الفحشاء والمنكر والتقزز منه وبغضه لا يكون إلا بكمال هذا الارتباط، فلهذا كان رسول اللَّه ﷺ أكمل الناس ارتباطا بهذه العبادة، حتى انقلب التعب فيها

(١) تفسير المنار (١/ ٢٩٣-٢٩٤).

إلى لذة، وأصبحت أفعال هذا الارتباط كلها قرة عين له، وأصبح هذا الارتباط راحة وريحانًا له ﷺ، فارتباطه ﷺ جعله بالوصف الذي وصفه به أصحابه ظاهرًا وباطنًا، فكان يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ﷺ[١]، ولجوءه ﷺ في كل ملماته كان إلى الصلاة لما يرى في هذا الارتباط من قوة يستعين بها على دفع المصائب والملمات، ولهذا أكثر اللَّه من ذكر الأمر بالصلاة في القرآن، وتنوعت الآيات في عرض ذلك.

وقوة هذا الرابط وصحته أثرت في غيره من الأعمال، فمثلا جعلت الصحابة ﷺ يبذلون كل ما عندهم في سبيل اللَّه سواء كان ذلك في الواجبات أو المستحبات، ومن ثم كان رسول اللَّه ﷺ أجود الناس، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة لصحة هذا الرابط، وهكذا كل أعمال الخير منطلقها من صحة هذا الرابط، والعكس بالعكس، فالنفاق والكفر والجبن والبخل والخوف؛ كله ناتج عن ضعف هذا الرابط أو فقدانه، فلهذا أوجب اللَّه الصلاة في اليوم خمس مرات، موزعة على فترات الزمن: الليل والنهار. فكلما تعرض هذا الرابط للضعف تجدد بعد ساعات، وحتى في الليل الذي هو سكن، وقد يطول فيه الفاصل الزمني، فإن الصالحين كانوا يقطعونه بالقيام ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢].

وقال ابن عاشور: «فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخ، أمر بأعظم القواعد الإسلامية بعد الإيمان والنطق بكلمة الإسلام، وفيه تعريض بحسن الظن بإجابتهم وامتثالهم للأوامر السالفة، وأنهم كملت لهم الأمور المطلوبة. وفي هذا الأمر تعريض بالمنافقين، ذلك أن الإيمان عقد قلبي لا يدل عليه إلا النطق، والنطق اللساني أمر سهل قد يقتحمه من لم يعتقد، إذا لم يكن ذا غلو في دينه، فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين، إذا كان غير معتقد مدلوله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ الآية، فلذلك أمروا بالصلاة والزكاة؛ لأن الأولى عمل يدل

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود (١/ ٥٥٧/ ٩٠٤)، والنسائي (١/ ١٨/ ١٢١٣)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٥٣/ ٩٠٠)، وابن حبان (٢/ ٤٢٩-٤٤٠/ ٦٦٥)، والحاكم (١/ ٢٦٤) ووافقه الذهبي. كلهم من حديث عبد اللَّه بن الشخير ﷺ..

(٢) السجدة: الآية (١٦).

على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع الآلهة، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك؛ لأنه يغيظ آلهته بالفعل، وبقول الله أكبر، ولا يفعله الكتابي؛ لأنه يخالف عبادته. ولأن الزكاة إنفاق المال وهو عزيز على النفس، فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي، لاسيما إذا كان ذلك المال ينفق على العدو في الدين، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنهما لا يتجشمهما إلا مؤمن صادق. ولذلك جاء في المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[1] وقوله: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب إقامة الصلاة و أداء الزكاة

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعاذًا ﷺ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»[4].

* عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النبي ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رَبِيعَةَ قَدْ حَالَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ وَلَسْنَا نَخْلُصُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَام، فَمُرْنَا بِشَيْءٍ نَأْخُذُهُ عَنْكَ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، قَالَ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعَقَدَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**»[5].

★ **فوائد الحديثين:**

انظر ما يتعلق بإقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

---

(١) النساء: الآية (١٤٢). (٢) الماعون: الآيتان (٤ و ٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٣٣٣/ ١٣٩٥) ومسلم (١/ ٥٠/ ١٩) وأبو داود (٢/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٥٨٤) والترمذي (٣/ ٢١/ ٦٢٥) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٥/ ٥٨-٥٩/ ٢٥٢١) وابن ماجه (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣).

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ٣٣٤/ ١٣٩٨) ومسلم (١/ ٤٦-٤٧/ ١٧) وأبو داود (٤/ ٩٤-٩٥/ ٣٦٩٢) والترمذي (٤/ ١٣٠/ ١٥٩٩) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد. والنسائي (٨/ ٤٩٥-٤٩٦/ ٥٠٤٦).

يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: الآية (٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «قوله: «**فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنياءهم فترد على فقراءهم**» فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء. وإنما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية»[(١)].

وقال في قرة عيون الموحدين: «فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحد اللَّه وصلى الصلوات الخمس بشروطها وأركانها وواجباتها، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب اللَّه تعالى»[(٢)].

* عن أنس بن مالك قال: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد - والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم - فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب. فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك**»، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: «**سل عما بدا لك**». فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آللَّه أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك باللَّه، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك باللَّه، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك باللَّه، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**». فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر»[(٣)].

* عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ**

---

(١) فتح المجيد (ص: ١٠٥).
(٢) قرة عيون الموحدين (ص: ٥٠).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٨) والبخاري (١/ ١٩٧/ ٦٣) ومسلم (١/ ٤١-٤٢/ ١٢) وأبو داود (١/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٤٨٦) والترمذي (٣/ ١٤-١٥/ ٦١٩) والنسائي (٤/ ٤٢٧/ ٢٠٩٠) وابن ماجه (١/ ٤٤٩/ ١٤٠٢) من طرق عن أنس رضي الله عنه.

أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ ؓ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ؓ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ(١).

★ غريب الحديث:

عصم مني: أي منع مني من العصمة وهي المنعة.

عناقًا: هي الأنثى من أولاد المعز، ما لم يتم له سنة.

★ فوائد الحديث:

قال الكرماني: «اهتمام الشارع بالصلاة والزكاة أكثر، ولهذا كررا في القرآن، إلى أن قال: والسر في ذلك أن الصلاة والزكاة إذا وجبا على المكلف لا يسقطان عنه أصلًا»(٢).

قال القاضي عياض: «وقد أجمع المسلمون على قتل الممتنع عن أداء الصلاة والزكاة مكذبا بهما، وجمهورهم على قتل الممتنع من الصلاة أو المتهاون بها مع اعترافه بوجوبها، وأجمعوا على قتال الممتنع عن أداء الزكاة قال -عليه الصلاة والسلام-: «**بني الإسلام على خمس**»(٣)، فهي دعائم الإسلام، فمن جحد واحدة منها كفر، ومن ترك واحدة منها لغير عذر وامتنع من فعلها مع إقراره بوجوبها قتل عندنا وعند الكافة، وأخذت الزكاة من الممتنع كرها وقوتل إن امتنع، إلا الحج لكونه على التراخي»(٤).

قال ابن كثير: «ولهذا اعتمد الصديق ؓ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩) والبخاري (٣/ ٣٣٤/ ١٣٩٩-١٤٠٠) ومسلم (١/ ٥١-٥٢/ ٢٠) وأبو داود (٢/ ١٩٨-١٩٩/ ١٥٥٦) والترمذي (٥/ ٥-٦/ ٢٦٠٧) وقال: «حسن صحيح». والنسائي (٥/ ١٦/ ٢٤٤٢).

(٢) الفتح (٣/ ٤٦٠) بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١١٩) والبخاري (١/ ٦٧-٦٨/ ٨) ومسلم (١/ ٤٥/ ١٦) والترمذي (٥/ ٧/ ٢٦٠٩) والنسائي (٨/ ٤٨١-٤٨٢/ ٥٠١٦) من طرق عن ابن عمر ؓ.

(٤) الإكمال (١/ ٢٤٣).

الكريمة[١] وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله ﷻ، وبعدها الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرًا ما يقرن بين الصلاة والزكاة»[٢].

* * *

(١) يشير الحافظ ابن كثير إلى آية التوبة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ الآية (٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الركوع: في اللغة: الانحناء والتطامن. قال لبيد:

أُخَبِّرُ أخبارَ القُرون الّتي مَضَتْ ... أَدِبُّ كأني كُلّما قُمْتُ رَاكِعُ

ويستعار الركوع للمذلة والخضوع. قال الشاعر:

لا تُذِلَّ الضعيف عَلَّكَ أن تَرْ ... كَعَ يومًا والدهرُ قد رَفَعَهْ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «ثم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة، لا رعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس، فكيف يقع في كلام اللَّه تعالى؟ وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب اللَّه تعالى فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة اللَّه تعالى؛ لأنها روح العبادة والإخلاص له، ويليها إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضًا على زكاء الروح وقوة الإيمان، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقيه وما هو بعبادة لذاته، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالًا لأمر اللَّه تعالى وإظهارًا لخشيته، والخشوع لعظمته، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند اللَّه شيئًا، وإن عده أهل الرسوم كل شيء، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة»[1].

(١) تفسير المنار (١/ ٢٩٤).

وقال السعدي: «وقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها. وفيه أن الركوع، ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع. والتعبير عن العبادة بجزئها، يدل على فرضيته فيها»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب صلاة الجماعة وفضلها

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلًا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم. والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**»[(٢)].

⋆ **غريب الحديث:**

عرقًا: بفتح العين المهملة وسكون الراء بعدها قاف، قال الخليل: العراق العظم بلا لحم، وإن كان عليه لحم فهو عرق.

المرماتان: قيل: هما السهمان، وقيل: هما حديدتان من حدائد كانوا يلعبون بها، وهي ملس كالأسنة، كانوا يثبتونها في الأكوام و الأغراض، ويقال لها فيما زعم بعضهم: المذاجي.

وقال أبو عبيد: يقال: إن المرماة ما بين ظلفي الشاة، قال: وهذا حرف لا أدري ما وجهه، إلا أن هذا تفسيره؛ ويروى المرماتين -بكسر الميم وبفتحها- واحدها مرماة».

* عن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول اللَّه، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد. فسأل رسول اللَّه ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» فقال: نعم، قال: «**فأجب**»[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤) والبخاري (٢/ ١٦٠/ ٦٤٤) ومسلم (١/ ٤٥١/ ٦٥١) وأبو داود (١/ ٣٧٢-٣٧٣/ ٥٤٩) والترمذي (١/ ٤٢٢-٤٢٣/ ٢١٧) وابن ماجه (١/ ٢٥٩/ ٧٩١) من طرق عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٤٥٢/ ٦٥٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عبد البر: «فهذا توبيخ منه لمن تأخر عن شهود العشاء معه، وتقريع وذم صريح، وعتب صحيح إذ أضاف إليهم أن أحدهم لو علم أنه يجد من الدنيا العرض القليل، والتافه الحقير، والنزر اليسير في المسجد لقصده من أجل ذلك؛ وهو يتخلف عن الصلاة فيه ولها من الأجر العظيم، والثواب الجسيم، ما لا خفاء به على مؤمن والحمد لله. وكفى بهذا توبيخًا في أثرة الطعام واللعب على شهود صلاة الجماعة»(١).

قال ابن حجر: «أما حديث الباب فظاهر في كونها فرض عين (يعني: صلاة الجماعة) لأنها لو كانت سنة لم يهدد تاركها بالتحريق ولو كانت فرض كفاية لكانت قائمة بالرسول ومن معه»(٢).

وقال القرطبي: «وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين؛ فالذي عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة. وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضًا على الكفاية»(٣).

ثم ذكر أدلة الموجبين(٤) وقال: «هذا ما احتج به من أوجب الصلاة في الجماعة فرضا، وهي ظاهرة في الوجوب، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات في الجماعة»(٥).

* عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**»(٦).

* عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة**»(٧).

---

(١) فتح البر (٥/ ٥٤).
(٢) الفتح (٢/ ١٦٠).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢٣٨).
(٤) حديثي أبي هريرة المتقدمين.
(٥) تفسير القرطبي (١/ ٢٣٨).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٧-٦٥) والبخاري (٢/ ١٦٦/ ٦٤٥) ومسلم (١/ ٤٥٠/ ٦٥٠) والترمذي (١/ ٤٢٠/ ٢١٥) والنسائي (٢/ ٤٣٨/ ٨٣٦) وابن ماجه (١/ ٢٥٩/ ٧٨٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٥٥) والبخاري (٢/ ١٦٦/ ٦٤٦) وأبو داود (١/ ٣٧٩/ ٥٦٠) وابن ماجه (١/ ٢٥٩/ ٧٨٨)=

★ **غريب الحديث:**

الفذ: بفتح الفاء والذال المعجمة المشددة، أي الفرد: جمعه فذوذ. يقال: فذ الرجل من أصحابه إذا بقي وحده.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عبد البر: «يريد تضعيف ثواب المصلي في جماعة على ثواب المصلي وحده وفضل أجر من صلى في جماعة على أجر المنفرد في صلاته بالأجزاء المذكورة»[١].

وقال ابن رجب: «وقد احتج كثير من الفقهاء بأن صلاة الجماعة غير واجبة بهذه الأحاديث التي فيها ذكر تفضيل صلاة الجماعة على صلاة الفذ، وقالوا: هي تدل على أن صلاة الفذ صحيحة مثاب عليها، قالوا: وليس المراد بذلك صلاة الفذ إذا كان له عذر في ترك الجماعة؛ لأن المعذور يكتب له ثواب عمله كله؛ فعلم أن المراد به غير المعذور.

وهذا استدلال لا يصح، وإنما استطالوا به على داود وأصحابه القائلين بأن صلاة الفذ لغير عذر باطلة. فأما من قال: إنها صحيحة وأنه آثم بترك حضور الجماعة، فإنه لا يبطل قوله بهذا؛ بل هو قائل بالأحاديث كلها، جامع بينها، غير راد لشيء منها»[٢].

وقال ابن حجر: «يريد أن صلاة الجماعة تساوي صلاة المنفرد وتزيد عليها العدد المذكور فيكون لمصلي الجماعة ثواب ست أو ثمان وعشرين من صلاة المنفرد»[٣].

وقال ابن رجب: «والمراد بهذه الأجزاء والأضعاف والدرج معنى واحد والله أعلم وهو: أن صلاة الفذ لها ثواب مقدر معلوم عند الله، تزيد صلاة الجماعة على ثواب صلاة الفذ خمسة وعشرين أو سبعة وعشرين»[٤].

= من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ وأنس ﷺ.

(١) الاستذكار (٥/ ٣١٥).

(٢) فتح الباري (٦/ ٢٠).

(٣) الفتح (٢/ ١٧٠).

(٤) فتح الباري (٦/ ١٥).

وقال القرطبي: «اختلف العلماء في هذا الفضل المضاف للجماعة؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت، أو إنما يكون ذلك الفضل للجماعة التي تكون في المسجد؛ لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء في الحديث؛ قولان. والأول أظهر؛ لأن الجماعة هو الوصف الذي علق عليه الحكم. واللَّه أعلم. وما كان من إكثار الخطى إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمكث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة. واللَّه أعلم»[١].

قلت: لا شك أن صلاة الجماعة هدف مقصود وشعيرة هادفة، والنصوص في الترغيب فيها صحيحة صريحة، والقائلون بوجوبها هم الأسعد بالأدلة، ولاسيما إذا كانت الجماعة تقام بحقوقها، وبكل أوصافها وصفاتها، فإمامها توفرت فيه كل أوصاف الإمامة، من حسن قراءة وأداء، ومن علم تؤدى به صفة الصلاة، ومن تقوى وزهد وورع يحبب الإمام إلى المصلين، ومن حرص على السنة ومفارقة للبدعة، ومن مساجد خالية من البدع وأهلها، ومن الضوضاء والتشويش، ومن التشبه بكنائس النصارى واليهود، ومن الغلو والإسراف، إلى غير ذلك من المخالفات التي ابتليت بها الكثير من المساجد، ورغم هذا كله، فإن الحرص على صلاة الجماعة يبقى أمرا قائما، ويتوب اللَّه على من يشاء، فصلاة الجماعة علامة الألفة، وأن هذا الدين دين واحد يستوي فيه الصغير والكبير، والفقير والغني، والرئيس والمرؤوس، فكلهم يقفون في صف واحد، لا يفرق بين هذا وهذا ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[٢]، واللَّه المستعان.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٣٩).

(٢) البقرة: الآية (١١٠).

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

★ غريب الآية:

البر: البِرُّ ضد العقوق. وهو كلمة جامعة لكل خير وإحسان وفضل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «اعلم وفقك اللَّه تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم اللَّه تعالى في كتابه قومًا كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها؛ وبخهم به توبيخًا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ الآية. وقال منصور الفقيه فأحسن:

إن قومًا يأمرونا ... بالذي لا يفعلونا

لمجانين و إن هم ... لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق و تأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم»[(١)].

قال الشوكاني: «والهمزة في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٤٩).

إليه، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ مع التطهر بتزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهامًا للناس وتلبيسًا عليهم كما قال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك يسطع..

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت أي: كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه والآيات التي تقرؤونها من التوراة... قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم، وهو أشد من الأول وأشد، وأشد ما قرع اللَّه في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع ونادوا به في المجالس إيهامًا للناس بأنهم مبلغون عن اللَّه ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه، وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه؛ ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته، وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب اللَّه لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلًا بينكم وبين ذلك زاجرًا لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم»[1].

قال ابن كثير: «والغرض أن اللَّه تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف وهو واجب

---

(١) فتح القدير (١/ ١١٣-١١٥).

على العالم، ولكن الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك»[2].

وقال السعدي: «وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به، أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين. وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها. فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر. فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما. وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير. وأيضًا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله. فاقتداؤهم بالأفعال، أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد فيمن يعلم ولا يعمل

* عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه**»[4].

---

(١) هود: الآية (٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٢١-١٢٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٨٢).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥-١٦٦/ ١٦٨١) والخطيب في اقتضاء العلم والعمل (٧٠) والأصبهاني في الترغيب (٢/ ٨٧٦/ ٢١٤٤). من طريق علي بن سليمان الكلبي عن الأعمش عن أبي تميمة عن جندب بن عبد الله مرفوعا.

قال الشيخ الألباني في تحقيقه لرسالة الخطيب «اقتضاء العلم العمل»: ورجاله معروفون غير علي بن سليمان قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل عن أبيه: ما أرى بحديثه بأسا، صالح الحديث ليس بالمشهور اهـ وقدوثقه هشام بن عمار انظر سند الأصبهاني في هذا الحديث، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٧/ =

★ **غريب الحديث:**

السراج: واحد السُّرُج وهي المصابيح.

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

تقرض: أي تقطع بالمقراض.

* عن أبي وائل قال: قيل لأسامة: لو أتيت فلانًا فكلمته، قال: إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابًا لا أكون أول من فتحه، ولا أقول لرجل أن كان علي أميرًا إنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

تندلق: الاندلاق: خروج الشيء من مكانه، وكل شيء ندر خارجًا فقد اندلق،

= ١٦٨٥)، من طريق ليث عن صفوان بن محرز عن جندب بن عبد اللَّه به. وللحديث شاهد من حديث أبي برزة أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٧١).

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩-٢٤٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (ص:٢٤٩ رقم ٥٠٩) والخطيب في التاريخ (٦/ ١٩٩-٢٠٠) والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٥٣/ ٤١٥٩) وقال: «هذا حديث حسن» وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان لكن الحديث روي من طرق أخرى عن أنس ﷺ رواه: ابن حبان (١/ ٢٤٩/ ٥٣) وأبو يعلى (٧/ ١٨٠/ ٤١٦٠) وأبو نعيم (٨/ ٤٣-٤٤) وابن المبارك في الزهد (٩/ ٨) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٣/ ١٧٧٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٥/ ٣٦٥٧٦) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (٢/ ٥٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٥) والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٧) ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٩).

ومنه قيل للسيف: قد اندلق من جفنه: إذا شقه حتى يخرج منه ويقال للخيل: قد اندلقت: إذا خرجت فأسرعت السير.

أقتابه: جمع قِتْبٍ بكسر أوله وسكون ثانيه. وهي الأمعاء.

★ فوائد الأحاديث:

قال المناوي: «فالعلماء ثلاثة: إما منقذ نفسه وغيره وهو الراغب إلى اللَّه عن الدنيا ظاهرًا وباطنًا، وإما مهلك نفسه وغيره وهو الداعي إلى الدنيا وإما مهلك نفسه منقذ غيره وهو من دعى إلى الآخرة ورفض الدنيا ظاهرًا ولم يعمل بعلمه باطنًا وهذا وعيد لمن كان له ذكر أو ألقى السمع وهو شهيد؛ وكان علماء الصحب في غاية من الوجل والخوف ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها لفتى اختلف إليها يسألها وتحدثه فجاءها ذات يوم فقالت: أي شيء عملت بعد بما سمعت، قال: مه، قالت: فما تستكثر من حجج اللَّه علينا وعليك[1]»[2].

قلت: هكذا تتوارد النصوص من القرآن ومن صحيح السنة في توبيخ الذين يدعون إلى الخير ولا يفعلونه، أو ينهون عن الشر وهم واقعون فيه، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- جعلهم اللَّه مثالا يحتذى، فكانت أقوالهم مطابقة لأفعالهم، وأفعالهم مطابقة لأقوالهم، وهكذا كان الصحابة الكرام، ومن كان على نهجهم وطريقتهم. فالقدوة لا تتحقق إلا بالقول والعمل، فمن قال ولم يعمل لا قدوة فيه، ومن حذر من شيء ووقع فيه سقط من الأعين، وأيًّا ما كان، فالواجبات لا عذر لأحد في تركها، والمحرمات لا عذر لأحد في مواقعتها، والمستحبات يتفاوت الناس فيها، فأكمل الناس المسابق للخيرات، وكل بحسبه، والداعي إلى اللَّه ينبغي أن يكون مثالًا يحتذى؛ فظاهره كباطنه وسره كعلانيته، فيرى في كل موقف خير، ويفقد في كل موقف شر، فنرجو اللَّه أن يجعلنا على هدي نبيه، وأن يكمل ديننا بالاقتداء به.

* * *

---

(١) أخرجه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (ص: ٦٠ رقم ٩٢).

(٢) فيض القدير (٥/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

الصبر: أصله الحبس. وصبرت نفسي على الشيء: حبستها. قال قطري بن فجاءة:

فَصَبْرًا في مجالِ الموتِ صبرًا فما نيلُ الخُلودِ بِمُستَطاعِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾: استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا، إلى ما تكرهونه من التسليم لأمري واتباع رسولي محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة»[٢].

وقال السعدي: «أمرهم اللَّه أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه. وهو الصبر عن معصية اللَّه حتى يتركها، والصبر على أقدار اللَّه المؤلمة فلا يتسخطها.

فبالصبر وحبس النفس على ما أمر اللَّه بالصبر عليه، معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد اللَّه تعالى بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها، ويتذكر أن المصائب من فعل اللَّه وتصرفه في خلقه فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الإنسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيده سورة العصر ويؤيده

---

(١) البقرة: الآية (٤٥).
(٢) جامع البيان (٢/ ١٠-١١ شاكر).
(٣) تفسير السعدي (١/ ٨٣).

الاختبار، وقد اشتهر أن (من صبر ظفر) . . الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التي تأفك الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات، والولوع باللذات، والبعد عن المؤلمات، ثم بالقياس بينها وبين ما رغب اللَّه فيه، أو أوعد بالعقاب على فعله، ثم بملاحظة أن ما أوعد اللَّه تعالى به أولى بأن يتقى، وما وعد به أولى بأن يرجى ويطلب»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصبر على الدعوة وأداء الواجب من سمات الصالحين

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «**اتقي اللَّه واصبري**». قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه. فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله فاستعير للمصيبة الواردة على القلب، قال الخطابي: المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو. وحكى الخطابي عن غيره أن المرء لا يؤجر على المصيبة لأنها ليست من صنعه، وإنما يؤجر على حسن تثبته وجميل صبره. وقال ابن بطال: أراد أن لا يجتمع عليها مصيبة الهلاك وفقد الأجر. وقال الطيبي: صدر هذا الجواب منه ﷺ عن قولها لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها: دعي الاعتذار فإني لا أغضب لغير اللَّه وانظري لنفسك. وقال الزين بن المنير: فائدة جواب المرأة بذلك أنها لما جاءت طائعة لما أمرها به من التقوى والصبر معتذرة

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (٣/ ١٩١/ ١٢٨٣) ومسلم (٢/ ٦٣٧/ ٩٢٦) وأبو داود (٣/ ٤٩١-٤٩٢/ ٣١٢٤) والترمذي (٣/ ٣١٤/ ٩٨٨) والنسائي (٤/ ٣٢٢/ ١٨٦٨) وابن ماجه (١/ ٥٠٩/ ١٥٩٦).

عن قولها الصادر عن الحزن بين لها أن حق هذا الصبر أن يكون في أول الحال، فهو الذي يترتب عليه الثواب انتهى[١].

قال ابن القيم: «وقوله: «**الصبر عند الصدمة الأولى**» مثل قوله «**ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه وقت الغضب**»[٢] فإن مفاجآت المصيبة بغتة، لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر.

و أيضًا فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهي الصدمة الأولى. وأما إذا وردت عليه بعد ذلك فقد توطن لها وعلم أنه لابد له منها، فيصير صبره شبيه الاضطرار.

وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئا جاءت تعتذر إلى النبي ﷺ كأنها تقول له قد صبرت فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.. قال أبو عبيد: معناه: أن كل ذي رزية فإن قصاراه الصبر ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

قلت - أي ابن القيم-: وفي الحديث أنواع من العلم، أحدها: وجوب الصبر على المصائب وأنه من التقوى التي أمر العبد بها»[٣].

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال الصنعاني: «فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم، فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة، والأحوال تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان ولكل

---

(١) الفتح (٣/ ١٩٢-١٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦) والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٤) ومسلم (٤/ ٢٠١٤/ ٢٦٠٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٥/ ١٠٢٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) عدة الصابرين (ص: ١٢١-١٢٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨) والترمذي (٤/ ٥٧٢/ ٢٥٠٧) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨/ ٤٠٣٢). وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٠/ ٦٢٧).

حال مقال»[1].

وقال المناوي: «قال الذهبي في الزهد: مخالطة الناس إذا كانت شرعية فهي من العبادة، وغاية ما في العزلة التعبد، فمن خالطهم بحيث اشتغل بهم عن اللَّه وعن السنن الشرعية فذا بطال فليفر منهم»[2]. اهـ

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول اللَّه ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال: «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه اللَّه، ومن يستغن يغنه اللَّه، ومن يتصبر يصبره اللَّه، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: «**ومن يتصبر**» أي: يستعمل الصبر. و«**يصبره**»: يقوه، ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له، وتذعن لتحمل الشدائد، وعند ذلك يكون اللَّه معه، فيظفره بمطلوبه، و يوصله إلى مرغوبه»[4].

قال الحافظ: «وفي الحديث الحض على الاستغناء عن الناس والتعفف عن سؤالهم بالصبر والتوكل على اللَّه وانتظار ما يرزقه اللَّه، وأن الصبر أفضل ما يعطاه المرء لكون الجزاء عليه غير مقدر ولا محدود»[5]. اهـ

وانظر تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[6].

* * *

---

(١) سبل السلام (٨/ ٣٧٨). (٢) فيض القدير (٦/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٩٣) والبخاري (٣/ ٤٢٧/ ١٤٦٩) ومسلم (٢/ ٧٢٩/ ١٠٥٣) وأبو داود (٢/ ٢٩٥/ ١٦٤٤) والترمذي (٤/ ٣٢٨/ ٢٠٢٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». والنسائي (٥/ ١٠٠/ ٢٥٨٧).

(٤) المفهم (٣/ ٩٩). (٥) الفتح (١١/ ٣٦٨).

(٦) الزمر: الآية (١٠).

قوله تعالى: ﴿... وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾

★ **غريب الآية:**

الخاشعين: جمع خاشع، والخشوع: الخضوع والتذلّل. قال الشاعر:

لـمّـا أتَـى خَـبَـرُ الـزبـيـرِ تـواضَـعَـتْ ... سُـورُ الـمـديـنـةِ والـجـبـالُ الـخُـشَّـعُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فمعنى الآية: واستعينوا، أيها الأحبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة اللَّه، وكفها عن معاصي اللَّه، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مراضي اللَّه، العظيمة إقامتها إلا على الـ تواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته»[(1)].

وقال السعدي: «وكذلك الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور وإنها أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة، ﴿إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾.

فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع، وخشية اللَّه، ورجاء ما عنده، يوجب له فعلها، منشرحا صدره، لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب.

بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته، وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه، ذلًّا وافتقارًا، وإيمانًا به وبلقائه»[(2)].

قال ابن جرير: «إن الصلاة فيها تلاوة كتاب اللَّه. الداعية آياته إلى رفض الدنيا، وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة، وما أعد اللَّه

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٧ شاكر).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٣).

فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها المعونة لأهل طاعة اللَّه على الجد فيها»[١].

وقال الشنقيطي: «الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها، وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٢]، وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٣]؛ ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند اللَّه. ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي اللَّه فيرزقه اللَّه ويهديه»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول، وإرجاع النفس إلى اللَّه تعالى لما لها من التأثير في الروح، ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي: لثقيلة شديدة الوقع كقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[٥] إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى، فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر، وكل الخلائق الحسنة لما تعطيه الصلاة من مراقبة اللَّه تعالى كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[٦] فمن خواص الصلاة: الصبر ونفي الجزع، ومن خواصها: النهي عن الفحشاء والمنكر، ومن خواصها: الجود والسخاء، فالمصلي الحقيقي هو البار الحقيقي، الذي لا يترك الحق لأجل شهوة، ولا لما يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية. هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال، ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[٧]»[٨].

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٢٦٠).
(٢) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٣) طه: الآية (١٣٢).
(٤) الأضواء (١/ ٣٥).
(٥) الشورى: الآية (١٣).
(٦) المعارج: الآيتات (١٩-٢٢).
(٧) المؤمنون: الآيتان (١ و ٢).
(٨) تفسير المنار (١/ ٣٠١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الاستعانة بالصلاة

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[١].

★ **غريب الحديث:**

حزبه: بحاء مهملة وزاي فموحدة مفتوحة؛ أي: نزل به هم أو أصابه غم.

* عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كانوا -يعني: الأنبياء- إذا فزعوا إلى الصلاة**»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي رحمه الله: «(صلى) لأن الصلاة معينة على دفع جميع النوائب بإعانة الخالق الذي قصد بها الإقبال عليه والتقرب إليه فمن أقبل بها على مولاه حاطه وكفاه لإعراضه عن كل ما سواه وذلك شأن كل كبير في حق من أقبل بكليته عليه»[٣].

قلت: وفيما تقدم من كلام أئمة التفسير على الآية، يتبين أهمية هذه العبادة وأنها رابط قلبي بين العبد وبين ربه، فنبضات القلب تتحرك بحبها لربها وخالقها، وتتجه له بكامل العبودية، والصلاة هي جامعة لكمال الظاهر والباطن في العبودية، ولهذا جاء وصف الخشوع الذي هو نهاية الاطمئنان والسكون القلبي، وغاية الفرحة والسرور بالمؤدى والمؤدى له، فلهذا كانت الصلاة حصنًا حصينًا، ووردًا يقي مصارع السوء، ويجلب الخيرات التي لا تخطر بالبال، فهذه الآية وأمثالها! والأحاديث وأضرابها؛ تبين أهمية هذه العبادة ولما للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من التعلق بها.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨) وأبو داود (٢/ ٧٨/ ١٣١٩) وله شاهد يرتقي به إلى درجة الحسن. انظر تحقيق الشيخ الألباني لهداية الرواة (٢/ ٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٣) و(٦/ ١٦). وأخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٧/ ٣٣٤٠) مطولًا دون ذكر محل الشاهد، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٧/ ١٠٤٥٠) وصححه ابن حبان (الاحسان ٥/ ٣١٢/ ١٦٧٥).

(٣) فيض القدير (٥/ ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾

★ **غريب الآية:**

يظنون: الظن هنا بمعنى العلم واليقين. قال دريد بن الصمة:

فَقُلتُ لهمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمْ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

أي: أيقنوا بهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يستيقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات. ومن لم يؤمن بلقاء ربه، كانت الصلاة وغيرها من العبادات من أشق شيء عليه»[١].

وقال ابن جرير: «فتأويل الآية إذًا: واستعينوا على الوفاء بعهدي بالصبر عليه والصلاة، وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخائفين عقابي، المتواضعين لأمري، الموقنين بلقائي والرجوع إلي بعد مماتهم.

وإنما أخبر اللَّه -جل ثناؤه- أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته؛ لأن من كان غير موقن بمعاد، ولا مصدق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاة عنده عناء وضلال؛ لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضر. وحق لمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة عليه كبيرة، وإقامتها عليه ثقيلة وله فادحة. وإنما خفت على المؤمنين المصدقين بلقاء اللَّه، الراجين عليها جزيل ثوابه، الخائفين بتضييعها أليم عقابه، لما يرجون بإقامتها في معادهم من الوصول إلى ما وعد اللَّه عليها أهلها، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مضيعها. فأمر اللَّه -جل ثناؤه- أحبار بني إسرائيل

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٣-٨٤).

الذين خاطبهم بهذه الآيات، أن يكونوا من مقيميها الراجين ثوابها، إذا كانوا أهل يقين بأنهم إلى الله راجعون، وإياه في القيامة ملاقون»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المؤمن موقن بلقاء ربه

* عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟**» قالوا: لا، قال: «**فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟**» قالوا: لا، قال: «**فوالذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما**»، قال: «**فيلقى العبد فيقول: أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع، فيقول: بلى**»، قال: «**فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي: فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع، فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له: مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا**»، قال: «**ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي، فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

تضارون: يروى بالتشديد والتخفيف.

فالتشديد بمعنى لا تتخالفون ولا تتجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره.

قال الجوهري: «(يقال: أضرني فلان إذا دنا مني دنوًّا شديدًا) فأراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر إليه، وأما التخفيف فهو من الضير لغة في الضر، والمعنى فيه كالأول.

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٢ شاكر).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٧٩-٢٢٨٠/ ٢٩٦٨).

أي فل: منادى مرخم أي: فلان.

تربع: كما تأخذ المرباع الذي كانت تأخذه الملوك والأظهر أن معناه: يتودع ولا يحتاج إلى نجعة وطلب من قولهم: أربع على نفسك؛ أي: ارفق بها واثبت، وقال القاضي: معناه: تركتك مستريحًا لا تحتاج إلى مشقة وتعب.

★ فوائد الحديث:

فيه أن أهل الكفر والنفاق لا يوقنون بلقاء ربهم كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾[1]. بخلاف أهل الإيمان الذين أيقنوا بذلك.

وفيه دليل على أن اللَّه ﷻ يرى بالأبصار يوم القيامة، وهو قول أهل السنة والجماعة، وخالفهم في ذلك طوائف من أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم.

وسيأتي مزيد بيان لذلك في سور الأنعام ويونس والقيامة وغيرها.

* * *

(١) فصلت: الآية (٥٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا أيضًا مما ذكرهم -جل ثناؤه- من آلائه ونعمه عندهم. ويعني بقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أني فضلت أسلافكم، فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء نعمًا عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء. وأخرج -جل ذكره- قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، مخرج العموم، وهو يريد به خصوصًا؛ لأن المعني: وأني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه»[(١)].

وقال ابن كثير: «يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٣)] قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالمًا؛ وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك، ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى، خطابًا لهذه الأمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾[(٤)]»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢/ ٢٣-٢٤ شاكر).
(٢) الدخان: الآية (٣٢).
(٣) المائدة: الآية (٢٠).
(٤) آل عمران: الآية (١١٠).
(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٤).

وقال محمد رشيد رضا: «تقدم تذكير بني إسرائيل بالنعمة في آية قبل هذه الآية مقرونًا بالأمر بالوفاء بعهد اللَّه وبالوعد بالجزاء عليه، والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده، وتلاها آيات أمرهم فيها بالإيمان بالقرآن، ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم للناس به وتلاوتهم الكتاب الداعي إليه، ودلهم على الطريق التي لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان، تلك الطريق هي الاستعانة بالصبر والصلاة التي فقدوها بفقد روحها؛ وهو الإخلاص والخشوع. وبعد هذا عاد إلى التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل، فإن النعمة في الآية الأولى مجملة، والإجمال ينبه الفكر إلى الذكر في الجملة، فإذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم، (فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى، والشكر على النعمة أرجى).

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم، وتفضيله إياهم على الناس إحياء لشعور الكرامة في نفوسهم، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء. وهذا أسلوب حكيم في الوعظ فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين، لتستعد بذلك لقبول الموعظة (وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة، التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلوها ونظرت إلى ما في الرذائل من الخسة، أبى لها ذلك الشعور -شعور العلو والرفعة- أن تنحط إلى تعاطي تلك الخسائس، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ، على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه، ثم إن في الوعظ مسًّا، يؤلم نفس الموعوظ، وجرحًا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإباء ما ينمي إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يقترف، يقبل بالنفس على القبول، كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٠٢-٣٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تجزي: أي لا تغني ولا تقضي ولا تنوب. والجزاء: المقابلة والمكافأة.

شفاعة: يقال: شَفَعْتُ في الأمرِ شفعًا وشفاعةً: إذا طالبت بوسيلة أو ذمام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: احذروا يومًا عظيمًا أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يوم لا تقضي فيه نفس مهما يكن قدرها عظيمًا عن نفس مهما يكن ذنبها صغيرًا شيئًا ما كحمل وزرها، أو تكفير ذنبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[1] وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل يوم القيامة مثلًا للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والأمر كله لله، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض. وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾. والمعنى: لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها، ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هي استطاعت أن تأتي بذلك كما يظن أكثر الكفار ولن تستطيع»[3].

وقال السعدي: «ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته، وعظًا لهم، وتحذيرًا وحثًّا، وخوفهم بيوم القيامة الذي لا تجزي فيه أي: لا تغني نفس ولو كانت من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين عن نفس ولو كانت من العشيرة الأقربين

---

(١) فاطر: الآية (١٨).

(٢) الفاتحة: الآية (٤).

(٣) تفسير المنار (١/ ٣٠٥).

شيئًا، لا كبيرًا ولا صغيرًا، وإنما ينفع الإنسان عمله الذي قدمه.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي: النفس، ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ لأحد بدون إذن اللَّه ورضاه عن المشفوع له، ولا يرضى منه العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على السبيل والسنة.

﴿يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فداء ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾[1] ولا يقبل منهم ذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يدفع عنهم المكروه.

فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه.

فقوله ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ هذا في تحصيل المنافع.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هذا في دفع المضار، فهذا النفي للأمر المستقبل به النافع.

ولا تقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، هذا نفي للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض، كالعدل، أو بغيره، كالشفاعة.

فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له مثقال ذرة من النفع، وأن يعلقه باللَّه الذي يجلب المنافع، ويدفع المضار، فيعبده وحده لا شريك له ويستعين على عبادته»[2].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[3] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ﴾[5] وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾[6] الآية. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا اللَّه يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب، ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ

(١) الزمر: الآية (٤٧).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٨٤-٨٥).
(٣) آل عمران: الآية (٩١).
(٤) المائدة: الآية (٣٦).
(٥) الأنعام: الآية (٧٠).
(٦) الحديد: الآية (١٥).

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[1] وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[2]»[3].

وقال ابن جرير: «وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[4]»[5].

وقال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقا يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع أخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع. فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[6] وقد قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[7]. وقال تعالى عنهم مقررا له: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾[8]. وقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[9] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الشفاعة بدون إذنه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[10]. وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[11] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[12] إلى غير ذلك من الآيات، وادعاء شفعاء عند اللَّه للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به -جل وعلا-. كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[13].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٢) إبراهيم: الآية (٣١).
(٣) ابن كثير (١/ ١٥٥).
(٤) الصافات: الآيات (٢٤-٢٦).
(٥) جامع البيان (٢/ ٣٥-٣٦ شاكر).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٧) الزمر: الآية (٧).
(٨) الشعراء: الآية (١٠٠).
(٩) المدثر: الآية (٤٨).
(١٠) البقرة: الآية (٢٥٥).
(١١) النجم: الآية (٢٦).
(١٢) طه: الآية (١٠٩).
(١٣) يونس: الآية (١٨).

تنبيه: هذا الذي قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعًا مطلقًا، يستثنى منه شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في نقله من محل من النار إلى محل آخر منها. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح[1] فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب القصاص يوم القيامة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»[3].

* وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[4].

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه، ثم ألقي في النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه.
قال المازري: وزعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وهذا الاعتراض غلط منه وجهالة بينة؛ لأنه إنما عوقب بفعله ووزره وظلمه فتوجهت عليه حقوق لغرمائه فدفعت إليهم من حسناته، فلما فرغت وبقيت بقية قوبلت على حسب ما اقتضته حكمة اللَّه تعالى في خلقه وعدله في

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦) والبخاري (١٠/ ٧٢٣/ ٦٢٠٨) ومسلم (١/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.
(٢) أضواء البيان (١/ ٧٥-٧٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٥) والبخاري (٥/ ١٢٧-١٢٨/ ٢٤٤٩).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣) ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨١) والترمذي (٤/ ٥٢٩-٥٣٠/ ٢٤١٨).

عباده، فأخذ قدرها من سيئات خصومه فوضع عليه فعوقب به في النار، فحقيقة العقوبة إنما هي بسبب ظلمه، ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه، وهذا كله مذهب أهل السنة والله أعلم»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (١٦/ ١١١-١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يسومونكم: يكلفونكم ذلك ويحملونكم عليه، من سَامَهُ خَسْفًا: إذا حمله على مكروه. قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما المَلْكُ سامَ الناسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الخسفَ فِينَا

وقيل: يديمون تعذيبهم، والسوم: الدوام ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي.

يستحيون: يَسْتَبْقُون في قيد الحياة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك يسومونكم؛ أي: يولونهم ويستعملونهم (والمعنى: يذيقونكم).

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده بأن كانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ خشية نموكم.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: فلا يقتلونهن فأنتم بين قتيل ومذلل بالأعمال الشاقة، مستحى على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه، فهذا غاية الإهانة، فمن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: الإنجاء ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: إحسان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره»[1].

قال ابن جرير: «وأضاف الله -جل ثناؤه- ما كان من فعل آل فرعون ببني

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٥).

إسرائيل، من سومهم إياهم سوء العذاب، وذبحهم أبناءهم، واستحيائهم نساءهم إليهم، دون فرعون، وإن كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كان بقوة فرعون، وعن أمره لمباشرتهم ذلك بأنفسهم. فبين بذلك أن كل مباشر قتل نفس أو تعذيب حي بنفسه، وإن كان عن أمر غيره، ففاعله المتولي ذلك هو المستحق إضافة ذلك إليه، وإن كان الآمر قاهرًا الفاعل المأمور بذلك، سلطانًا كان الآمر، أو لصًّا خاربًا، أو متغلبًا فاجرًا. كما أضاف -جل ثناؤه- ذبح أبناء بني إسرائيل واستحياء نساءهم، إلى آل فرعون دون فرعون، وإن كانوا بقوة فرعون وأمره إياهم بذلك فعلوا ما فعلوا، مع غلبته إياهم وقهره لهم. فكذلك كل قاتل نفسًا بأمر غيره ظلمًا، فهو المقتول عندنا به قصاصًا، وإن كان قتله إياها بإكراه غيره له على قتله»[1].

وقال: «ويعني بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى فرق اللَّه لكم البحر، وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه، في الذي أراكم من طاعة البحر إياه، من مصيره ركامًا فلقًا، كهيئة الأطواد الشامخة، غير زائل عن حده، انقيادًا لأمر اللَّه وإذعانًا لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك.

يوقفهم بذلك -جل ذكره- على موضع حججه عليهم، ويذكرهم آلاءه عند أوائلهم، ويحذرهم في تكذيبهم نبينا محمدًا ﷺ، أن يحل بهم ما حل بفرعون وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ»[2].

قال ابن كثير: «أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن اللَّه ينتقم من أعدائه وينصر أولياءه والعبد الصالح يشكر ذلك

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله: ﷺ «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم عظيم، أنجى اللَّه فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرًا،

---

(١) جامع البيان (٢/ ٤١ شاكر).
(٢) جامع البيان (٢/ ٥٧-٥٨ شاكر).
(٣) ابن كثير (١/ ٨٧).

فنحن نصومه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فنحن أحق وأولى بموسى منكم**، فصامه رسول اللَّه ﷺ وأمر بصيامه»[١].

★ فوائد الحديث:

قد ثبت في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ كثير من البراهين والآثار التي تفيد إنجاء اللَّه للصالحين من أهل التوحيد والسنة.

قال القرطبي: «وسؤال النبي ﷺ لليهود عن يوم عاشوراء إنما كان ليستكشف السبب الحامل لهم على الصوم، فلما علم ذلك قال لهم كلمة حق تقتضي تأنيسهم واستجلابهم، وهي: «**نحن أحق وأولى بموسى منكم**» ووجه هذه الأولوية: أنه علم من حال موسى وعظيم منزلته عند اللَّه، وصحة رسالته وشريعته، ما لم يعلموه هم، ولا أحد منهم»[٢].

قال في عون المعبود: «أي: نحن أثبت وأقرب لمتابعة موسى ﷺ منكم، فإنا موافقون له في أصول الدين ومصدقون لكتابه، وأنتم مخالفون لهما في التغيير والتحريف»[٣].

* * *

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩١) والبخاري (٤/ ٣٠٦/ ٢٠٠٤) ومسلم (٢/ ٧٩٥/ ١١٣٠) وأبو داود (٢/ ٨١٨/ ٢٤٤٤) والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٦-١٥٧/ ٢٨٣٥) وابن ماجه (١/ ٥٥٢/ ١٧٣٤).

(٢) االمفهم (٣/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) عون المعبود (٧/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فأخبر -جل ثناؤه- المخالفين نبينا ﷺ من يهود بني إسرائيل، المكذبين، المخاطبين بهذه الآية - عن فعل آبائهم وأسلافهم، وتكذيبهم رسلهم، وخلافهم أنبياءهم، مع تتابع نعمه عليهم، وشيوع آلائه لديهم، معرفهم بذلك أنهم -من خلاف محمد ﷺ وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع علمهم بصدقه -على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم، ومحذرهم من نزول سطوته بهم بمقامهم على ذلك من تكذيبهم ما نزل بأوائلهم المكذبين بالرسل: من المسخ واللعن وأنواع النقمات»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لم يبين هنا هل واعده إياها مجتمعة أو متفرقة؟ ولكنه بين في سورة الأعراف أنها متفرقة، وأنه واعده أولا ثلاثين، ثم أتمها بعشر. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾»[(٢)].

وفي هذه الآية يقول ابن عاشور: «تذكير لهم بنعمة عفو اللَّه عن جرمهم العظيم بعبادة غيره، وذلك مما فعله سلفهم، فإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين، باعتبار ما عطف عليه من قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾؛ فإن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم، يجب على الأبناء الشكر عليه كما تقدم عند قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هو المقصود، وأما ما ذكر قبله فهو تمهيد وتأسيس لبنائه، وتهويل لذلك الجرم؛ إظهارا لسعة عفو اللَّه تعالى وحلمه عنهم. وتوسيط التذكير بالعفو عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة، مراعاة لترتيب حصولها في الوجود؛ ليحصل غرضان: غرض التذكير، وغرض

---

(١) جامع البيان (٢/ ٦٣).

(٢) أضواء البيان (١/ ٧٧).

عرض تاريخ الشريعة.

والمراد من المواعدة هنا: أمر اللَّه موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاة اللَّه تعالى، وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إن ذلك تشريف لموسى، ووعد له بكلام اللَّه وبإعطاء الشريعة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٩٦-٤٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

★ **غريب الآية:**

الفرقان: مصدر فرقت بين الشيئين: إذا فصلت بينهما. وسمي كتاب اللَّه فرقانًا لفصله بين الحق والباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الظاهر في معناه: أن الفرقان هو الكتاب الذي أوتيه موسى، وإنما عطف على نفسه؛ تنزيلا لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ لأن ذلك الكتاب الذي هو التوراة موصوف بأمرين:

أحدهما: أنه مكتوب كتبه اللَّه لنبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

والثاني: أنه فرقان أي فارق بين الحق والباطل، فعطف الفرقان على الكتاب، مع أنه هو نفسه؛ نظرًا لتغاير الصفتين. كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم..

والدليل من القرآن على أن الفرقان هو ما أوتيه موسى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[1] الآية»[2].

وقال ابن عاشور: «هذا تذكير بنعمة نزول الشريعة، التي بها صلاح أمورهم، وانتظام حياتهم، وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة، وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم، حتى كانت كتابا فكانوا به أهل كتاب أي: أهل علم تشريع. والمراد من الكتاب التوراة التي أوتيها موسى، فالتعريف للعهد، ويعتبر معها ما ألحق بها على نحو ما قدمناه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. والفرقان مصدر بوزن فعلان مشتق من الفرق وهو الفصل، استعير

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٢) أضواء البيان (١/ ٧٧-٧٨).

لتمييز الحق من الباطل، فهو وصف لغوي للتفرقة، فقد يطلق على كتاب الشريعة وعلى المعجزة، وعلى نصر الحق على الباطل، وعلى الحجة القائمة على الحق، وعلى ذلك جاءت آيات ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[2]، فلعله أراد المعجزات؛ لأن هارون لم يؤت وحيًا وقال: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[3] يعني: يوم النصر يوم بدر، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[4] عطفا على ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[5] الآية. . وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هو محل المنة؛ لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم، وكان قاصرًا على عمل موسى به؛ لم يكن فيه نعمة عليهم»[6].

* * *

(١) الفرقان: الآية (١).
(٢) الأنبياء: الآية (٤٨).
(٣) الأنفال: الآية (٤١).
(٤) آل عمران: الآية (٤).
(٥) آل عمران: الآية (٣).
(٦) التحرير والتنوير (١/ ٥٠١-٥٠٢).

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

★ غريب الآية:

بارئكم: الباريء: خص بوصفه تعالى، فإنه أخص من الخالق؛ لأنه خلق بترتيب مسوّ. قال تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[1]. والبَرِيَّة: الخلق. قال النابغة:

الخالقُ البارئُ المصوّرُ في الـ ... أرحامِ ماءً حتّى يصيرَ دَمَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل ذلك: واذكروا أيضًا إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم. وظلمهم إياها، كان فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه بها، مما أوجب لهم العقوبة من اللَّه تعالى. وكذلك كل فاعل فعلا يستوجب به العقوبة من اللَّه تعالى، فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من اللَّه تعالى، وكان الفعل الذي فعلوه فظلموا به أنفسهم، هو ما أخبر اللَّه عنهم: من ارتدادهم باتخاذهم العجل ربًّا بعد فراق موسى إياهم.

ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى اللَّه من ردتهم، بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به. وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذي ركبوه قتلهم أنفسهم»[2].

وقال ابن كثير: «هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل

---

(١) الحشر: الآية (٢٤).

(٢) جامع البيان (٢/ ٧٢).

ما وقع حتى قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾[1] الآية. قال: فذلك حين يقول موسى ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ أي إلى خالقكم، قلت: وفي قوله ههنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ لم يبين هنا من أي شيء هذا العجل المعبود من دون الله؟ ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[4] ولم يذكر المفعول الثاني للاتخاذ في جميع القرآن وتقديره: باتخاذهم العجل إلها. كما أشار له في سورة طه بقوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ »[5].

وقال البقاعي: «﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وأكد لعراقتهم في الجهل بعظيم ما ارتكبوه، وتهاونهم به لما أشربوا في قلوبهم من الهوى فقال: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ ظلمًا تستحقون به العقوبة ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: إلها من دون اللَّه، فجعلتم أنفسكم متذللة لمن لا يملك لها شيئًا، ولمن هي أشرف منه، فأنزلتموها من رتبة عزها - بخضوعها لمولاها الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه- إلى ذلها بخضوعها لمن هو دونكم أنتم، هذا هو أسوأ الظلم، فإن المرء لا يصلح أن يتذلل ويتعبد لمثله، فكيف لمن دونه من حيوان! فكيف بما يشبه بالحيوان من جماد الذهب الذي هو من المعادن، وهو أخفض المواليد رتبة حين لم تبلغها حياتها، أن تبدو فوق الأرض كالنبات من النجم والشجر، ولما فيه من الانتفاع بما يكون من الحب والثمر، الذي ينتفع به غذاء ودواء، والمعادن لا ينتفع بها إلا آلات ونقودًا، منفعتها إخراجها لا إثباتها -قاله الحرالي»[6].

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٩).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٦٠).
(٣) الأعراف: الآية (١٤٨).
(٤) طه: الآيتان (٨٧ و ٨٨).
(٥) أضواء البيان (١/ ٧٨).
(٦) نظم الدرر (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

وقال ابن عاشور: «هذه نعمة أخرى وهي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم، كان قد جعل جابرًا لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن، فحصل العفو عنهم بدون ذلك التكليف، فتمت المنة. وبهذا صح جعل هذه منة مستقلة بعد المنة المتضمن لها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ لأن العفو عن المؤاخذة بالذنب في الآخرة، قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه، وهو حينئذ منة إذ لو شاء اللَّه لجعل للمذنب عقابين: دنيوي وأخروي، كما كان المذنب: النفس والبدن، ولكن اللَّه برحمته جعل الحدود جوابر في الإسلام كما في الحديث الصحيح، فلما عفا اللَّه عن بني إسرائيل على أن يقتلوا أنفسهم، فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التي هي أثر الذنب، ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم، فقد تفضل بذلك فصارت منتان.

فقول موسى لقومه: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحي لا عن اجتهاد، وإن جاز الاجتهاد للأنبياء؛ فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس، التي قيل قد اتفق عليها شرائع اللَّه، فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة، إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه، فيكون المراد بالأنفس الأرواح التي في الأجسام؛ فالفاعل والمفعول واحد على هذا.. وإما بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه»[١].

وقال أبو حيان: «﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الفاء في ﴿فَتُوبُوٓا۟﴾ معناها التسبيب؛ لأن الظلم سبب للتوبة، ولما كان السامري قد عمل لهم من حلي عجلا قيل لهم: توبوا إلى بارئكم: أي منشئكم وموجدكم من العدم، إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة، وأما عمل العجل واتخاذه فليس فيه إبراز الذوات من العدم، إنما ذلك تأليف تركيبي لا خلق أعيان، فنبهوا بلفظ الباري على الصانع: أي الذي أوجدكم هو المستحق للعبادة، لا الذي صنعه مصنوع مثله، فلذلك واللَّه أعلم كان ذكر الباري هنا»[٢].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ خبر وثناء على اللَّه، وتأكيده

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) البحر المحيط (١/ ٣٦٥).

بحرف التوكيد لتنزيلهم منزلة من يشك في حصول التوبة عليهم؛ لأن حالهم في عظم جرمهم حال من يشك في قبول التوبة عليه، وإنما جمع التواب مع الرحيم؛ لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل، وهي زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار، وبالنسخ لحكم قتلهم وذلك رحمة، فكان للرحيم موقع عظيم هنا، وليس هو لمجرد الثناء»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جهرة: أي: عيانًا. وأصل الجهر: الظهور. يقال: جهرت الشيءَ وأجهرته: كشفته.

الصاعقة: هنا الموت.

بعثناكم: أصل البعث إثارة الشيء من محله. والمعنى: أحييناكم من بعد موتكم. ومنه يوم البعث؛ لأنه يوم يثار فيه الناس من قبورهم للحساب. يقال: بعثت الناقة: أثرتها: أي: حركتها. قال عنترة:

وَصَحابَةٍ شُمِّ الأُنُوفِ بعثتهم لَيْلًا وقد مَالَ الكَرى بِطُلَاهَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل ذلك: واذكروا أيضًا إذ قلتم يا موسى لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى اللَّه جهرة عيانًا برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا، كما تجهر الركية»[1].

ثم قال: «فذكرهم بذلك -جل ذكره- اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات اللَّه -جل وعز- وعبره ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من اللَّه لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير اللَّه. ومرة يعبدون العجل من دون اللَّه. ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى اللَّه جهرة.

---

(١) جامع البيان (٢/ ٨٠).

وأخرى يقولون له، إذا دعوا إلى القتال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ومرة يقال لهم: قولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطاياكم. فيقولون: حنطة في شعيرة! ويدخلون الباب من قبل أستاههم، مع غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم ﷺ، التي يكثر إحصاؤها.

فأعلم ربنا -تبارك وتعالى- ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ، أنهم لن يعدوا أن يكونوا - في تكذيبهم محمدًا ﷺ، وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره -كأسلافهم وآبائهم الذين فصل عليهم قصصهم، في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى، وتوثبهم على نبيهم موسى -صلوات اللَّه وسلامه عليه- تارة بعد أخرى، مع عظيم بلاء اللَّه -جل وعز- عندهم، وسبوغ آلائه عليهم»[1].

وقال: «ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في سبب قيلهم ذلك لموسى، تقوم به حجة فيسلم له، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه. فإذ كان لا خبر بذلك تقوم به حجة، فالصواب من القول فيه أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، كما أخبر عنهم أنهم قالوه. وإنما أخبر اللَّه ﷻ بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، توبيخًا لهم في كفرهم بمحمد ﷺ، وقد قامت حجته على من احتج به عليه، ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعي لهم إلى قيل ذلك. وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التي ذكرناها، وجائز أن يكون بعضها حقًّا كما قال»[2].

وقال القاسمي: «دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر ﷻ سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك في آيات، منها هذه، ومنها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾[3] ومنها قوله تعالى:

---

(١) جامع البيان (٢/ ٨١-٨٢). (٢) جامع البيان (٢/ ٨٩-٩٠).
(٣) النساء: الآية (١٥٣).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[1] فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها. وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق ﷻ برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك، وهي قطعية الدلالة. لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها»[2].

* * *

---

(١) الفرقان: الآية (٢١).

(٢) محاسن التأويل (٢/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغمام: السحاب، واحده: غمامة، وسمي غمامًا لكونه يغمّ السماء؛ أي: يسترها. ولكل ما يستر شيئًا فقد غَمَّهُ. قال الحطيئة:

إذا غِبْتَ عنّا غابَ عَنّا رَبِيعُنَا ... وَنُسْقَى الغَمَامَ الْغُرَّ حينَ تَؤوبُ

المنّ: اختلف أهل العلم في تحديد المراد منه على أقوال أقواها أنه يَعَمُّ جميع ما منّ اللَّه به على عباده من غير تعب ولا زرع. ومنه قوله ﷺ في الصحيح من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: «**الكمأة من المنّ الذي أنزل اللَّه على بني إسرائيل، وماؤها شفاء للعين**»[1].

السّلوى: طائر السماني. وقيل: طائر يشبهه. واشتقاقه من السَّلْوِ كأنه مُسَلٍّ عن غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «بعد هذا ذكر اللَّه تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التي من بها على بني إسرائيل فكفروا بها ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا اللَّه تعالى بذلك الذنب المطوي وإنما ظلموا أنفسهم وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير وضرب من ضروب الإيجاز التي هي أقوى دعائم الإعجاز.

أما النعمة الأولى فقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ قال الأستاذ الإمام: هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى، منفصلة عنها في الوقوع، فإن

(١) سيأتي تخريجه في الآية نفسها.

التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم في التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم . . .

وأما النعمة الثانية ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ ما منح من الله تعالى يسمى إيجاده إنزالًا ومنه ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[1] على أن المن ينزل كالندى»[2].

ثم قال: «وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهي أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحد ضره فيضره، كما ثبت في الحديث القدسي. فكل عمل ابن آدم له[3] أو عليه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[4]»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن من علامة سعادة المرء شكر النعم

* عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكمأة من المن، الذي أنزل الله -تبارك وتعالى- على بني إسرائيل. وماؤها شفاء للعين**»[6].

★ **غريب الحديث:**

الكمأة: نبات فطري يوجد في الربيع ينبت من غير استنبات ولا مؤنة.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وقوله ﷺ: «**الكمأة من المن**»، فيه قولان:

أحدهما: أن المن الذي أنزل على بني إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط، بل أشياء كثيرة مَنَّ الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفوًا من غير صنعة ولا علاج

---

(١) الحديد: الآية (٢٥).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٣) والبخاري (٤/ ١٤٨/ ١٩٠٤) ومسلم (٢/ ٨٠٧/ ١١٥١ [١٦٣]) والنسائي (٤/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٢٢١٥) من حديث أبي هريرة.
(٤) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٥) تفسير المنار (١/ ٣٢٣).
(٦) أخرجه أحمد (١/ ١٨٧) والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٨) ومسلم (٣/ ١٦٢٠/ ٢٠٤٩[١٥٩]) والترمذي (٤/ ٣٥٠/ ٢٠٦٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ١٥٦/ ٦٦٦٦ و ٦٦٦٧) وابن ماجه (٢/ ١١٤٣/ ٣٤٥٤).

ولا حرث، فإن المن مصدر بمعنى المفعول، أي «ممنون» به، فكل ما رزقه اللَّه العبد عفوا بغير كسب منه ولا علاج، فهو منٌّ محض، وإن كانت سائر نعمه منًّا منه على عبده، فخص منها ما لا كسب له فيه ولا صنع باسم المن، فإنه منٌّ بلا واسطة العبد، وجعل سبحانه قوتهم بالتيه الكمأة، وهي تقوم مقام الخبز، وجعل أدمهم السلوى، وهو يقوم مقام اللحم، وجعل حلواهم الطل الذي ينزل على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى، فكمل عيشهم.

وتأمل قوله ﷺ: **«الكمأة من المن الذي أنزله اللَّه على بني إسرائيل»** فجعلها من جملته، وفردًا من أفراده، والترنجبين الذي يسقط على الأشجار نوع من المن، ثم غلب استعمال المن عليه عرفا حادثا.

والقول الثاني: أنه شبه الكمأة بالمن المنزل من السماء؛ لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بِزْرٍ[١] ولا سقي»[٢].

* * *

(١) البِزرُ والبَزْرُ كل حب يبزر للنبات.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سجدًا: أي: خاضعين متذلّلين. قال الأعشى:

يُـرَاوِحُ مـن صـلـواتِ الـمـلـيـكِ طــورًا سُـجُــودًا وطــورًا جُــؤَارَا

حطّة: كلمة أمروا أن يقولوها بمعنى الاستغفار. أصلها من الحطّ وهو الإنزال. تقول: حططت الرجلَ عن الدابة: إذا أنزلته.

نغفر: أصل المغفرة: التغطية والستر، ومنه سمي المِغْفَرُ لأنه يستر الرأس. قال أوس بن حجر:

ولا أَعْتِبُ ابْنَ العَمِّ إن كانَ مخطِئًا وأَغْفِرُ عنهُ الجهلَ إن كان جاهِلا

خطاياكم: أصل الخطأ: العدول عن القصد. يقال: خطِئَ الشيءَ خَطَأً: إذا أصابَه، ولم يُرِدْهُ. وأَخْطَأَ يُخْطِئُ: إذا أرادَهُ ولم يُصِبْهُ. فالأول: خاطِئٌ، والثاني: مُخْطِئٌ. والخطايا: جمع خطيئة، وهي: الإثم والذنب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مباحا لكم كل ما فيها من الطيبات، موسعا عليكم بغير حساب؛ وادخلوا الباب سجدًا، وقولوا: سجودنا هذا لله حطة من ربنا لذنوبنا يحط به آثامنا، نتغمد لكم ذنوب المذنب منكم فنسترها عليه، ونحط أوزاره عنه، وسنزيد المحسن منكم -إلى إحساننا السالف عنده- إحسانا. ثم أخبر الله -جل ثناؤه- عن عظيم جهالتهم، وسوء طاعتهم ربهم، وعصيانهم لأنبيائهم، واستهزائهم برسله مع عظيم آلاء الله ﷻ عندهم، وعجائب ما أراهم من آياته وعبره؛ موبخا بذلك أبناءهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، ومعلمهم أنهم إن تعدوا في تكذيبهم محمدًا ﷺ، وجحودهم نبوته، مع عظيم

إحسان اللَّه بمبعثه فيهم إليهم، وعجائب ما أظهر على يديه من الحجج بين أظهرهم أن يكونوا كأسلافهم الذين وصف صفتهم، وقص علينا أنباءهم في هذه الآيات»(١).

وقال ابن عاشور: «هذا تذكير بنعمة أخرى، مكنوا منها فما أحسنوا قبولها، ولا رعوها حق رعايتها، فحرموا منها إلى حين، وعوقب الذين كانوا السبب في عدم قبولها. وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم؛ لأن النعمة نعمة وإن لم يقبلها المنعم عليه، وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم، وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم، وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون؛ فقد علموا أنهم كلما صدفوا عن قدر حق النعم، نالتهم المصائب. قال الشيخ ابن عطاء الله: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ التحريف في كتب الله

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قيل لبني إسرائيل: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في شعرة**»(٣).

★ غريب الحديث:

يزحفون على أستاههم: أي: ينجرون على ألياتهم فعل المقعد الذي يمشي على إليته. قالوا: زحف الصبي إذا مشى كذلك وزحف البعير إذا أعيا.

أستاههم: جمع است وهو الدبر.

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «**فدخلوا يزحفون على أستاههم**»

قال الحافظ: «إنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول، فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرا لله تعالى وبقولهم حطة، فبدلوا السجود بالزحف وقالوا: حنطة بدل حطة، أو قالوا: حطة وزادوا فيها حبة في شعيرة»(٤).

---

(١) جامع البيان (٢/ ١١١-١١٢). (٢) التحرير والتنوير (١/ ٥١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢) والبخاري (٨/ ٢٠٨/ ٤٤٧٩) ومسلم (٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٥) والترمذي (٥/ ١٨٨/ ٢٩٥٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٦/ ١٠٩٨٩). (٤) الفتح (٨/ ٣٨٧).

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقالوا بدل حطة حبة في حنطة استهانة بأمر اللَّه، واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم»[(١)].

وقال ابن كثير: «وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها» إلى أن قال: «وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر اللَّه لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رءوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة؛ أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزءوا فقالوا: حنطة في شعرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل اللَّه بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[(٢)]»[(٣)].

★ **مسألة:**

قال القرطبي: «استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع بلفظها أو بمعناها، فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، لذم اللَّه تعالى من بدل ما أمره بقوله، وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه.

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى فحكي عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله؛ وهو قول الجمهور. ومنع ذلك جمع كثير من العلماء منهم ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة. وقال مجاهد: انقص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه. وكان مالك بن أنس يشدد في حديث رسول اللَّه ﷺ في التاء والياء ونحو هذا. وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونًا ويعلمون ذلك ولا يغيرونه. وروى أبو مجلز عن قيس بن عباد قال: قال عمر بن الخطاب: من

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٨).

(٢) البقرة: الآية (٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٠ و ١٤٢).

سمع حديثا فحدث به كما سمع فقد سلم. وروي نحوه عن عبد اللَّه بن عمرو وزيد بن أرقم. وكذا الخلاف في التقديم والتأخير والزيادة والنقصان؛ فإن منهم من يعتد بالمعنى ولا يعتد باللفظ، ومنهم من يشدد في ذلك ولا يفارق اللفظ. وذلك هو الأحوط في الدين والأتقى والأولى؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه. والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء اللَّه تعالى؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة ﷺ هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها. وروي عن واثلة بن الأسقع أنه قال: ليس كل ما أخبرنا به رسول اللَّه ﷺ نقلناه إليكم؛ حسبكم المعنى. وقال قتادة عن زرارة بن أوفى: لقيت عدة من أصحاب النبي ﷺ فاختلفوا علي في اللفظ واجتمعوا في المعنى. وكان النخعي والحسن والشعبي -رحمهم اللَّه- يأتون بالحديث على المعاني. وقال الحسن: إذا أصبت المعنى أجزأك. وقال سفيان الثوري رحمه الله: إذا قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني؛ إنما هو المعنى. وقال وكيع رحمه الله: إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس. واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم؛ وذلك هو النقل بالمعنى. وقد فعل اللَّه ذلك في كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف، فقص قصصًا ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي وهو مخالف لها في التقديم والتأخير، والحذف والإلغاء والزيادة والنقصان. وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجوز بالعربية أولى، احتج بهذا المعنى الحسن والشافعي، وهو الصحيح في الباب.

فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: **«نضر اللَّه امرءًا سمع مقالتي فبلغها كما سمعها»**[(1)] وذكر الحديث. وما ثبت عنه ﷺ أنه أمر رجلًا أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه: **«آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»**؛ فقال الرجل: ورسولك الذي أرسلت؛ فقال النبي ﷺ: **«ونبيك الذي أرسلت»**[(2)]. قالوا: أفلا ترى أنه لم يسوغ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧) والترمذي (٥/ ٣٣-٣٤/ ٢٦٥٧) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٢) وصححه ابن حبان (١/ ٢٦٨/ ٦٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود وفي الباب عن زيد بن ثابت وجبير بن مطعم وأبي سعيد والنعمان بن بشير وأنس وأبي الدرداء ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٢-٢٩٣) والبخاري (١/ ٤٧١/ ٢٤٧) ومسلم (٤/ ٢٠٨١-٢٠٨٢/ ٢٧٧٠) وأبو داود (٥/ ٢٩٨-٢٩٩/ ٥٠٤٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٨٠) كلهم من حديث البراء بن عازب ﷺ.

لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال: «**فأداها كما سمعها**». قيل لهم: أما قوله: «**فأداها كما سمعها**» فالمراد حكمها لا لفظها؛ لأن اللفظ غير معتد به. ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله: «**فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**». ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي ﷺ في أوقات مختلفة؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة؛ وذلك أدل على الجواز. وأما رده عليه السلام الرجل من قوله: (ورسولك -إلى قوله- ونبيك)؛ لأن لفظ النبي ﷺ، أمدح؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع. ألا ترى أن اسم الرسول يقع على الكافة، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام. وإنما فضل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة. فلما قال: (ونبيك)، جاء بالنعت الأمدح، ثم قيده بالرسالة بقوله: (الذي أرسلت). وأيضًا فإن نقله من قوله: (ورسولك -إلى قوله-ونبيك) ليجمع بين النبوة والرسالة. ومستقبح في الكلام أن تقول: هذا رسول فلان الذي أرسله، وهذا قتيل زيد الذي قتله؛ لأنك تجزئ بقولك: رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأول. وإنما يحسن أن تقول: هذا رسول عبد اللَّه الذي أرسله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذي قتله بالأمس أو في وقعة كذا. واللَّه ولي التوفيق.

فإن قيل: إذا جاز للراوي الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثاني تغيير ألفاظ الأول، ويؤدي ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها. قيل له: الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا؛ فإن عدمت لم يجز. قال ابن العربي: الخلاف في هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم في معرفة اللغة الجبلية الذوقية؛ وأما من بعدهم فلا نشك في أن ذلك لا يجوز؛ إذ الطباع قد تغيرت، والفهوم قد تباينت، والعوائد قد اختلفت؛ وهذا هو الحق. واللَّه أعلم.

قال بعض علمائنا: لقد تعاجم ابن العربي رحمه الله؛ فإن الجواز إذا كان مشروطًا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم؛ ولهذا لم يفصل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل. نعم، لو قال: المطابقة في زمنه

أبعد كان أقرب. والله أعلم»[١].

قلت: هذا موضع طويل الذيل، وتلخيص الموضوع فيه يكون بالمسائل التالية:

١ - العلم كله يحتاج إلى تعلم ودربة، ويصبح للطالب فيه مهارة تمكنه من السيطرة على أصوله وفروعه، ومعرفة مصادره وأسانيده وطرقه.

٢ - فمن وصل إلى درجة تؤهله إلى أن يتعامل فيها مع النصوص تعامل العالم بها، المتقن لمسائلها كلها، فهذا إن كان قد وجد؛ فله أن يروي الحديث بالمعنى إن كان مما تجوز روايته بالمعنى، وإلا فالألفاظ التوقيفية -كألفاظ الأدعية وغيرها مما لا تجوز الرواية فيه بالمعنى- فهذا يجب روايته بألفاظه المنقولة عن النبي ﷺ.
وعلى هذا صار أئمة العلم في كل عصر ومصر، وأما العوام وأشباههم فهؤلاء لا يجوز لهم التصرف في متون السنة؛ فإنهم يفسدون أكثر مما يصلحون. والله أعلم.

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٨٠-٢٨١).

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رِجْزًا: الرِّجْزُ: العذاب. والرِّجْسُ: النَّتْنُ والقَذَرُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ منهم، ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل حطة حبة في حنطة استهانة بأمر اللَّه، واستهزاء وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى.

ولهذا دخلوا يزحفون على أدبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة اللَّه بهم قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾؛ أي: عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «ويدل قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بني إسرائيل، وأن هذا الرجز كان خاصًّا بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه. وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيد بوضع المظهر موضع المضمر فقال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل فأنزلنا عليهم: ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عامًّا كما هو الغالب فيه، ثم أكده بتأكيد آخر وهو قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وفي هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه»[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان جزاء الظالمين المحرفين للكتب

* عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه: أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول اللَّه ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم. فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه**»[١].

★ غريب الحديث:

الطاعون: بوزن فاعول من الطعن، عدلوا به عن أصله ووضعوه دالًّا على الموت العام كالوباء.

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: «**على بني إسرائيل**»:

قال الطيبي في شرحه على المشكاة: «هم الذين أمرهم اللَّه تعالى أن يدخلوا الباب سجدًا، فخالفوا، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾. قيل: أرسل اللَّه عليهم الطاعون، فمات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفًا»[٢].

وفيه أن سنة اللَّه في المخالفين لشرعه هو الإهلاك والدمار عليهم.

وقال أبو عمر: «والمعنى -واللَّه أعلم-: أن الطاعون أول ما نزل في الأرض فعلى طائفة من بني إسرائيل قبلنا»[٣].

وقال القرطبي: «وحاصله أن الطاعون مرض عام يكون عنه موت عام، وقد يسمى بالوباء، ويرسله اللَّه نقمة وعقوبة لمن يشاء من عصاة عبيده وكفرتهم، وقد يرسله شهادة ورحمة للصالحين من عباده»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٠٢) والبخاري (٦/ ٦٣٦/ ٣٤٧٣) ومسلم (٤/ ١٧٣٧/ ٢٢١٨) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٧٥٢٥).

(٢) (٤/ ١٣٤٦).

(٣) التمهيد (٦/ ٢٤٤ فتح البر).

(٤) المفهم (٥/ ٦١١-٦١٢).

قلت: اللجوء إلى التحريف في كتب اللَّه وشرعه هو مرض خبيث حل بأمم قبلنا، وورثه خلفهم عن سلفهم، وتبناه اليهودي شؤول في ديانة المسيحية، وبدأ في صدر هذه الأمة لما ظهرت الفرق، فكل فرقة طلعت بأصول خارجة عن أصول السنة والكتاب؛ أصبحت عنوانًا للتحريف والتبديل، ولعن بعضها بعضًا، وأصبحت مهمة علمائهم هو التنقيب عن كل ما يخدم هذه الأصول الفاسدة، وانتشرت البدع والضلالات، وأصبح منهاج التحريف هو منهاج الكثيرين، وأصبحت الآن المناهج المعاصرة على هذه الطريقة، وأسست لها قنوات ومواقع إلكترونية، وجرائد ومجلات، وأصبح هذا المنهج الباطل هو المنهج السائد، وله مدافعون وحماة، وربما تبنته حكومات وأنفقت عليه الغالي والنفيس، وأصبح يتستر وراءه كل زنديق مرتزق، وإن كان لا يؤمن بما يقول ويفعل، فيجعله جنة لابتزاز الأموال، كما قال اللَّه عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[1].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٦).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

استسقى: الاستسقاء: طلب السّقْي. يقال: سقيته وأسقيته بمعنى واحد. وقيل: بل سقيته من سقي الشفة. وأَسْقَيْتُهُ: دللته على الماء.

انفجرت: الانفجار: الانشقاق. والانبجاس: أضيق منه.

عينًا: العين لفظ مشترك، من معانيها: منبع الماء من الأرض، وجارحة البصر، والجاسوس، ولسان الميزان، والذهب، وبلد قليل العين؛ أي: قليل الناس.

لا تعثوا: العثوّ والعثيّ: الفساد: قال رؤبة:

وعاثَ فينا مُسْتَحِلٌّ عَائِث   مُصَدِّقٌ أو فاجِرٌ مُناكِثُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها»[1].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فإنما أخبر اللَّه عنهم بذلك؛ لأن معناهم في الذي أخرج اللَّه عز وجل لهم من الحجر، الذي وصف -جل ذكره-

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٤).

في هذه الآية صفته من الشرب، كان مخالفا معاني سائر الخلق فيما أخرج اللَّه لهم من المياه من الجبال والأرضين، التي لا مالك لها سوى اللَّه ﷻ وذلك أن اللَّه كان جعل لكل سبط من الأسباط الاثني عشر، عينا من الحجر الذي وصف صفته في هذه الآية، يشرب منها دون سائر الأسباط غيره، لا يدخل سبط منهم في شرب سبط غيره. وكان مع ذلك لكل عين من تلك العيون الاثنتي عشرة، موضع من الحجر قد عرفه السبط الذي منه شربه. فلذلك خص -جل ثناؤه- هؤلاء بالخبر عنهم: أن كل أناس منهم كانوا عالمين بمشربهم دون غيرهم من الناس. إذ كان غيرهم في الماء الذي لا يملكه أحد شركاء في منابعه ومسايله. وكان كل سبط من هؤلاء مفردا بشرب منبع من منابع الحجر دون سائر منابعه خاص لهم دون سائر الأسباط غيرهم. فلذلك خصوا بالخبر عنهم: أن كل أناس منهم قد علموا مشربهم»[1].

وقال: «أخبر اللَّه -جل ثناؤه- أنه أمرهم بأكل ما رزقهم في التيه من المن والسلوى، وبشرب ما فجر لهم فيه من الماء من الحجر المتعاور، الذي لا قرار له في الأرض، ولا سبيل إليه إلا لمالكيه، يتدفق بعيون الماء، ويزخر بينابيع العذب الفرات، بقدرة ذي الجلال والإكرام.

ثم تقدم -جل ذكره- إليهم -مع إباحتهم ما أباح، وإنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من العيش الهنيء- بالنهي عن السعي في الأرض فسادًا، والعثا فيها استكبارًا، فقال -جل ثناؤه- لهم: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ »[2].

قال القرطبي: «الاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح. وقد استسقى نبينا محمد ﷺ فخرج إلى المصلى متواضعًا متذللًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا[3]، وحسبك به!»[4].

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٢١-١٢٢ شاكر). (٢) جامع البيان (٢/ ١٢٢-١٢٣ شاكر).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣١) وأبو داود (١/ ٦٨٨-٦٨٩/ ١١٦٥) والترمذي (٢/ ٤٤٥/ ٥٥٨) وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٣/ ١٧٣/ ١٥٠٥) وابن ماجه (١/ ٤٠٣/ ١٢٦٦) والحاكم (١/ ٣٢٦-٣٢٧) وصححه ابن حبان (٧/ ١١٢/ ٢٨٦٢) وابن خزيمة (٢/ ٣٣١/ ١٤٠٥).

(٤) تفسير القرطبي (١/ ٢٨٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما يتعلق بالاستسقاء

* عن أنس ﷺ أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائما فقال: يا رسول اللَّه هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع اللَّه يغيثنا. قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه فقال: «**اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**». قال أنس: لا واللَّه ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس. فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت قال: واللَّه ما رأينا الشمس ستًّا. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول اللَّه، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع اللَّه يمسكها. قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر**». قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس. قال شريك: فسألت أنسًا: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري[1].

⋆ غريب الحديث:

وجاه: بكسر الواو ويجوز ضمها أي: مواجهة.

قزعة: بفتح القاف والزاي بعدها مهملة أي: سحاب متفرق.

سلع: بفتح المهملة وسكون اللام جبل معروف بالمدينة وقد حكي أنه بفتح اللام.

مثل الترس: أي: مستديرة.

الإكام: بكسر الهمزة وقد تفتح وتمد جمع أكمة بفتحات. قال الخطابي: «هي الهضبة الضخمة».

الظراب: بكسر المعجمة وآخره موحدة. جمع ظرب بكسر الراء وقد تسكن وهو الجبل المنبسط ليس بالعالي.

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨٧) والبخاري (٢/ ٦٣٦-٦٣٧/ ١٠١٣) ومسلم (٢/ ٦١٢-٦١٤/ ٨٩٧) وأبو داود (١/ ٦٩٣-٦٩٤/ ١١٧٤) والنسائي (٣/ ١٧١-١٧٢/ ١٥٠٣) من طرق عن أنس ﷺ.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث الفزع إلى الله وإلى من ترجى دعوته عند نزول البلاء، وفيه أن ذكر ما نزل ليس بشكوى إذا كان على الوجه المذكور، وفيه الدعاء في الاستسقاء، وفيه ما عليه بنو آدم من قلة الصبر على البلاء، ألا ترى سرعة شكواهم بالماء بعد الحاجة إليه، وذلك معنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[1]»[2].

* عن أنس: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون[3].

★ **غريب الحديث:**

قحطوا: بضم القاف وكسر المهملة أي: أصابهم القحط.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته، بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم، فكان توسلهم بدعائه، والاستشفاع به طلب شفاعته، والشفاعة دعاء.

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهورا عند الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حيًّا كالعباس وكيزيد بن الأسود ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم، وقد قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا.

---

(١) المعارج: الآيات (١٩-٢١). (٢) التمهيد (٥/ ٣٧٢ فتح البر).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٦٢٨/ ١٠١٠).

فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على اللّٰه ﷻ أو السؤال به؛ فيقولون: نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس»[١].

قلت: لا شك أن الصحابة ﷺ هم أعلم الناس بدين اللّٰه، علمًا وعملًا بعد نبيهم ﷺ، وكل ما بهم من خير وفضل وعلم وفهم صحيح فمن اللّٰه، ثم من صحبتهم لنبيهم ﷺ، فلا عدول عنهم ولا عن طريقتهم، ومن فعل غير ذلك فقد قال اللّٰه تعالى فيه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢]، ويُعدل به عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[٣]، وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٤]، وعن قول الرسول ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[٥]، يحرم من بركة كل نص ورد في فضيلة هؤلاء الأخيار.

فالاستسقاء هو إظهار كامل الضعف والفقر والحاجة للّٰه تعالى، الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

والتوسل المشروع يكون كله بما يتقرب به إليه، فالتوسل بالأعمال الصالحة هذا مما يحبه ويفرح به، والتوسل بالدعاء من الأخيار والصالحين من هذا الباب، وأما التوسل بما لا رابط فيه بين العبد وربه، فهو توسل الجهال، والذين لا يعرفون للدين معانيه ومقاصده، فما الرابط بين التوسل بذوات الأموات وأسمائهم وبين الله؟! كلها جهات منفصلة لا يرتبط بعضها ببعض؛ فالأعمال الصالحة لأصحابها، والنبوات والرسالات لمن نزلت عليهم، والروابط التي بين العباد وبين الأنبياء

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٨-٣١٩).
(٢) النساء: الآية (١١٥).
(٣) التوبة: الآية (١٠٠).
(٤) الحشر: الآية (١٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦)، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

والرسل وغيرهم من العلماء والصالحين هو الإيمان والحب، فإذا كان التوسل بالأنبياء فبحبهم وبالإيمان بهم، وإذا كان التوسل بالصالحين فبحبهم وموالاتهم، وما سوى ذلك فأمر مبتدع، وأما الذين يذبحون على الوديان وعلى مقبوري البلد ويستغيثون بهم، ويدعونهم عند القحط وعند نزول البلاء والملمات، فلا شك أنها أعمال شركية تبعد عن اللَّه، وتكون سببًا في نزول القحط والجدب ونزول البلاء، فالشرك في حد ذاته هلاك ومصيبة. وإذا كان في قوم أو نزل بساحتهم فدلالة على نهايتهم وعدم صلاحيتهم للوجود ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١].

* * *

---

(١) الزمر: الآية (٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾

★ **غريب الآية:**

بقلها: البَقْلُ: كل نبات ليس له ساق. يقال: بقلت الأرض وأبقلت لغتان. قال الشاعر:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ... ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إِبْقَالُهَا

قِثّائها: القِثّاء: بضم القاف وكسرها، والكسر أجود: الخيار. واحده: قِثّاءَةٌ. وقيل: غيره لكنه من نوعه.

فومها: الفوم: أكثر المفسرين على أن المراد به: الحنطة. قال أحيحة بن الجُلاح:

قد كنت أحسبني كأغنى واحد ... نَزَلَ المدينةَ عن زِراعةِ فُومِ

وقيل: هو الثوم. وقيل: الحنطة والخبز. تقول العرب: فَوِّمُوا لنا؛ أي: اخبزوا.

أدنى: مأخوذ من الدّنوّ وهو القرب. وقيل: من الدناءة وهي الخسة.

مِصرًا: من صرفها أراد أيّ مصر من غير تعيين. ومن ترك الصرف أراد مصر فرعون. وأصل المصر في اللغة: الحدُّ. ومِصْرُ الدار: حدودُها. قال عدي بن زيد:

وجاعِلُ الشّمسِ مِصْرًا لا خَفاءَ بِهِ ... بينَ النّهارِ وبينَ اللّيلِ قد فَصَلَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم

الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء. فسألوه موسى.

وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدلوا الأغذية الضارة القليلة التغذية منها. ولهذا قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ أي: مصرا من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم: المن».

قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا. كان شرابهم عسلًا ينزل من السماء، يقال له: المن. وطعامهم طير، يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل. لم يكن لهم خبز ولا غيره.

ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يفتجر لهم من الحجر اثنا عشر عينًا من الماء. فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير. فذموا على ذلك، فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار اللّه تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟»[1].

قلت: رحم اللّه الإمام ابن القيم على هذه الإشارة الطيبة والاستنتاجات العظيمة، وحديثه عن واقع الأمة الإسلامية في زمنه -وهو من علماء القرن الثامن الذي كان مليئًا بالعلماء وكان الإسلام في عزة- فكيف بزمننا الذي مات علماؤه، وليس فيه إلا نوابت السوء، يحملون رايات سوء، يتقدمهم دعاة الضلال والانحراف من دعاة الرفض والتصوف والارتزاق، وممن يرون أقوال ساداتهم أفضل من نصوص القرآن ونصوص السنة، إلا الطائفة المنصورة الذين كانوا على ما كان عليه النبي ﷺ، فإنهم المتميزون عن هذه الفئات الضالة بسمتهم والعض على

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٤٢٩-٤٣٠).

السنة بالنواجذ رغم ما يلاقونه من أذى ومحاصرة وشبه وتشويش من هنا وهناك، فاللهم أعن أصحاب هذه الطائفة، وأعنا معهم، وارزقنا وإياهم الصبر على هذا الواقع الذي تجند لحرب السنة وأهلها، بل تجند أكثر أهل الأرض لحرب الإسلام، وأصبح الرسول ﷺ ينعت بنعوت لا تليق بأخس الناس، والمسلمون في ضعف، فنرجو اللَّه أن يرفع هذا البلاء وأن ترجع للمسلمين العزة، وأن ترفع أعلام السنة والتوحيد وأن تخمد أعلام البدعة والشرك، إنه على ذلك قدير وما ذلك عليه بعزيز.

وقال محمد رشيد رضا: «والذي يقع عليه الفهم من الآية، أن النزق قد استولى على طباعهم، وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم، الذي هيأهم اللَّه له من التمكن في الأرض الموعودة، والخروج من الخسف الذي كانوا فيه. ومع كثرة ما شاهدوا من آيات اللَّه القائمة على صدق وعده لهم، لم تستيقنه أنفسهم، بل كانوا على ريب منه، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر، وجاء بهم في البرية ليهلكهم، فلذلك دأبوا على إعناته والإكثار من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع، حتى ييأس منهم فيرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة، ولهم مطمع في العيش وأمل في الخلاص من الهلكة، فما ذكره اللَّه عنهم في هذه الآية على حد قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ويرشد إلى ما فيه من الإعنات قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾. فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذي يأتي لسلب الفعل في مستقبل الزمان مع تأكيده؛ فكأنهم قالوا: اعلم أنه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند اللَّه كما تزعم؛ فادعه يخرج لنا ما يمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم كانوا في برية غير منبتة، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أجم من وحدة الطعام، ولكنه نزق وبطر كما بينا، وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم. ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم. ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان: المن والسلوى؛ لأنهما طعام كل يوم، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير: إنه يأكل من طعام واحد. كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هي غذاؤه الذي لا يتغير فهي غذاء

واحد، فإذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعامًا متعددًا. . ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام تقريعًا لهم على أشرهم وإنكارا لتبرمهم ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة، بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى؟ والمن فيه الحلاوة التي تألفها أغلب الطباع البشرية، والسلوى من أطيب لحوم الطير، وفي مجموعها غذاء تقوم به البنية، وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية. أقول: والأدنى في اللغة الأقرب، واستعير للأخس والأدون، كما استعير البعد للرفعة. والاستبدال طلب شيء بدلًا من آخر، والباء تدخل المبدل منه المراد تركه. ثم قال: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: فإنكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم. أما هذه الأرض التي قضى اللَّه أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول، وإن اللَّه -جل شأنه- لم يقض عليكم بالتيه في هذه البرية، إلا لجبنكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار، فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للطعام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم، فإن أردتم الخلاص مما كرهتم، فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة، فإن اللَّه كافل لكم النصر عليهم، وعند ذلك تجدون طلبتكم، فالتمسوا الخير في أنفسكم وفي أفعالكم، فإن اللَّه لا يضيع أجر العاملين»[١].

* * *

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٣٠-٣٣١).

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾

★ **غريب الآية:**

ضُربت: أي: فُرِضَتْ ووُضِعَتْ. يقال: ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة: إذا ألزمهم بأدائها. وأصل ذلك من ضرب الخيمة. قال الفرزدق في جرير:

ضَرَبَتْ عليكَ العنكبُوتُ بِنَسْجِهَا وقَضَى عليكَ بِهِ الكتابُ المُنْزَلُ

الذِّلّة: أي: المهانة والصغار. يقال: ذَلَّ فلان يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً.

المسكنة: أي: مسكنة الفقر والحاجة، وهي خشوعها وذلها.

باؤوا: رجعوا. ولا تقال إلا موصولة بخير أو شرّ. وأغلب ما تستعمل في الشر. ومنه قوله ﷺ: «**فقد باء بها أحدهما**»[1]. وقيل: أصله المنزلة؛ أي: نزلوا منزلة غضب اللَّه. وقيل: أصل البواء التسوية. قالت ليلى الأخيلية:

فَإِنْ يَكُنِ القَتْلَى بَوَاءً فإنّكُمْ فَتىً ما قَتَلتُمْ آلَ عوفِ بنِ عامِرِ

النبيين: جمع نبي. وفي اشتقاقه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من النبأ، وهو الخبر. فالنبي مخبر عن اللَّه مبلغ عنه. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾[2].

والثاني: أنه من نبا يَنْبُو: إذا ظهر. فالنبيّ من النبوّة وهي الارتفاع؛ لأن منزلة الأنبياء رفيعة.

والثالث: أن أصل النبيّ هو الطريق: فسمي النبي نبيًّا لاهتداء الخلق به

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨) والبخاري (١٠/ ٦٣٠/ ٦١٠٤) ومسلم (١/ ٧٩/ ٦٠) وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٧) والترمذي (٥/ ٢٣/ ٢٦٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) النجم: الآية (٣٦).

كالطريق. قال القطامي:

لـمّـا وَرَدْنـا نـبِـيًّـا واسْـتَـتَـبَّ لـنـا ... مُسْتَحْفَرٌ بِخُطُوطِ النّسْجِ مُنْسَجِلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات اللَّه، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات اللَّه وقتلوا أنبياء اللَّه بغير الحق»[1].

قال الشوكاني: «ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمرا لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم، مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، ومنه قول الفرزدق يهجو جريرًا:

ضربت عليك العنكبوت بوزنها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل

وهو ضرب من الهجاء بليغ، كما أنه إذا استعمل في المديح كان في منزلة رفيعة، ومنه قول الشاعر:

إن الـمـروءة والـشـجـاعـة والـنـدى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج

«وهذا الخبر الذي أخبرنا اللَّه به هو معلوم في جميع الأزمنة، فإن اليهود أقماهم اللَّه أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغرًا، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رءوسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية، بل ما زالوا عبيد العصي في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ، فهو متظاهر بالفقر مترد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية، أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجرؤ على اللَّه بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه..».

والمراد في الآية أنهم رجعوا بغضب من اللَّه، أو صاروا أحقاء بغضبه..

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٦).

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من حديث الذلة وما بعده بسبب كفرهم باللَّه، وقتلهم لأنبيائه بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به، ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال: إنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم وتعظيمه، وأنه ظلم بحث في نفس الأمر. ويمكن أن يقال: إنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل؛ لأن الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم وسلامه- لم يعارضوهم في مال ولا جاه، بل أرشدوهم إلى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى، فإنهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون، وتكرير الإشارة لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «فضرب الذلة والمسكنة على اليهود؛ هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم، كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها، أو إلصاقهما بطباعهم كما تطبع الطغرى على السكة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به كما يقال: رجع أو عاد بصفقة المغبون، إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه. وكذلك كان آخر أطوار اليهود في بغيهم أيام ملكهم، والمراد به فقد الملك وما يتبعه. وقال شيخنا: استحقوا غضبه، ومن استحقه فقد أصابه، فقد غضب اللَّه عليهم، وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أقول: أي: ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهي بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات اللَّه الخ؛ فإنهم بإحراجهم لموسى عليه السلام، وإعناتهم له في المطالب، مع كثرة ما شاهدوا من العجائب، وما أظهر اللَّه لهم من الغرائب، قد دلوا على أن لا أثر للآيات في نفوسهم، فهم بها كافرون في الحقيقة. ونسيان الآيات وعدها كأن لم تكن؛ يعده الكتاب العزيز كفرا، كما قال شيخنا. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلًا عنهم إلا بحقه المبين فيه، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن الكرم، وقلوب غلف دون الفهم، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلًا مقهورًا، ثم هو مهبط غضب اللَّه ومحط نقمه؛ لأنه أشد الناس كفرا لنعمه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك، يزيد في شناعة حالهم، ويصرح بأنهم

(١) فتح القدير (١/ ١٣٦-١٣٧).

لم يكونوا مخطئين في الفهم، ولا متأولين للحكم، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع اللَّه تعالى لهم في كتاب دينهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ قال الأستاذ: ذلك الذل وتلك الخلاقة بالغضب، إنما لزماهم لأنهم عصوا اللَّه فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها اللَّه لهم في شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة؛ لأنها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فإذا أهملوها فسدت ألفتهم، وانهدم بناؤهم، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم، إلا منهزمة من يدي سلطان الشريعة، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع»[1].

قلت: الذي يتتبع سيرة الأنبياء مع أممهم من بداية التاريخ وإلى يومنا هذا؛ يجد دائما أن الحظ الأوفر، والطريق الأكمل، والعقل التام، والفطرة السليمة النقية، في متابعة الأنبياء والرسل، وتعظيم قدرهم والمسارعة إلى إكرامهم وتبجيلهم، وبقدر ما يُبذل من ذلك تُنال الإمامة في الدنيا، ويعظم شرف الإنسان، وهذا ما ذكره اللَّه عن قوم نوح، وعن قوم صالح، وعن قوم هود، وعن قوم يونس، وعن قوم إبراهيم، وعن قوم موسى، وعن أمة محمد ﷺ.

فكل من تعرض للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بسوء، أو لكتبهم، أو لأصحابهم وأتباعهم؛ فإنه يناله من السوء، ويحل به من المصائب والقوارع بقدر ما فعل، ويتوب اللَّه على من تاب، ولا أمثل من فرعون وقارون وهامان، وأهل مكة أصحاب بدر الذين كانت نهايتهم القليب، ومنافقي المدينة واحدًا واحدًا ويهود المدينة وقبائلها، كل هذا تواتر النقل به، وعلمه عند كل أحد.

فكل نبي يجدد دعوة نبي سبقه ويصدقه فيما قال، وفيما أُنزل عليه، وآخرهم من شملت دعوته الأرض كلها، وستبقى إلى أن تقوم الساعة. فكل من حارب دعوة الأنبياء فالذلة عليه، والمسكنة وغضب اللَّه عليه وعلى ذريته ونسله وما تفرع عنه - إن سلكوا مسلكه- إلى أن تقوم الساعة، وإلى أن يدخل دار البوار جهنم يصلاها

(١) تفسير المنار (١/ ٣٣٢-٣٣٣).

وبئس القرار، فلذا لا يمكن أن تقوم لليهود قائمة، ولا تقوم لهم دوَلة ولا شوكة، مهما تعاظمت أحلافهم وأعوانهم، وأحيانا قد ينقلب السحر على الساحر، وقد يسري السرطان في الجسم كله إلى مخه ونخاعه، فتسري الذلة والمسكنة والغضب إلى من حالف وناصر وعاون. فلينتظر أحلاف هذه الشرذمة الحقيرة الذليلة ما يحل بهم من النقمات والنكبات، سواء كان المحالف شرقيًّا أو غربيًّا، فإن اللَّه ليس بينه وبين أحد نسب ولا مصاهرة، فالكل خلقه وعبيده. نسأل اللَّه السلامة والعافية.

ما جاء في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر فضائح بني إسرائيل

* عن عبد اللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي، وإمام ضلالة»**[1].

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: **«قتله نبي»**

قال أحمد عبد الرحمن البنا: «يحتمل أن يراد به جنس النبي ويحتمل أن يراد به نفس نبينا ﷺ وضعًا للظاهر موضع الضمير»[2]. اهـ

قال الوزير ابن هبيرة: «فإنه لما قتله في سبيل اللَّه أكرم أهل وقته على ربه بعد إظهار الدليل، فالنبي ﷺ خصمه في الحالتين، فلما أهانه اللَّه بيد أكرم أهل الوقت عليه اشتد عذابه؛ لأن النبي رحمة، فإذا جعله اللَّه ﷻ لواحد منهم نقمة كان ذلك الشخص أشد الناس عذابًا إذ أتاه اللَّه بالبلاء من حيث ترجى الرحمة»[3]. اهـ.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧) والبزار (كشف الأستار ٢/ ٢٣٨/ ١٦٠٣) والطبراني (١٠/ ٢٦٠/ ١٠٤٩٧) (١٠/ ٢٦٦/ ١٠٥١٥). من طرق عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٣٦): «رواه البزار ورجاله ثقات وكذلك رواه أحمد» وجود إسناد البزار المنذري في الترغيب (٣/ ١٦٨).

(٢) الفتح الرباني (١٦/ ٦).

(٣) الإفصاح (٢/ ٣٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هادوا: أي: الذين دانوا باليهوديّة. وفي سبب تسميتهم باليهود قولان:

أولهما: أنهم نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب عليه السلام. فقلبت العرب الذال دالًا لأن الأعجمية إذا عربت غيرت عن لفظها.

الثاني: أنهم سموا بذلك لتوبتهم من عبادة العجل، من هاد: إذا تاب والهَوْدُ: الرجوع برفق. وفي التنزيل: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]؛ أي: تبنا. قال زهير:

سِوى مَرْبَعٍ لم تَأْتِ فيه مخافَةً ... ولا رَهَقًا مِنْ عابِدٍ مُتَهَوِّدِ

النصارى: جمع واحده: نصرانيّ، سموا بذلك نسبة إلى (ناصرة) قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام. قاله ابن عباس وقتادة. وقيل: سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضًا.

الصّابئين: قال ابن جرير: «والصابئون جمع صابئ، وهو المستحدث سوى دينه دينا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه. وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره، تسميه العرب: صابئًا. يقال منه: صبأ فلان يصبأ صبأ. ويقال: صبأت النجوم: إذا طلعت. وصبأ علينا فلان موضع كذا وكذا، يعني به: طلع.

واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل، فقال بعضهم: يلزم ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين. وقالوا: الذين عنى اللّه بهذا الاسم، قوم لا دين لهم»[2].

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٦).

(٢) جامع البيان (٢/ ١٤٥-١٤٦).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «توسطت هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم اللَّه عليهم، وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران، وقلة الاكتراث، فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدركها كل بليغ، وهي أن ما تقدم من حكاية سوء مقابلتهم لنعم اللَّه تعالى؛ قد جرت عليهم ضرب الذلة والمسكنة، ورجوعهم بغضب من اللَّه تعالى عليهم، ولما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب اللَّه تعالى، لم يترك اللَّه تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم، وإرادته صلاح حالهم، فبين لهم في هاته الآية؛ أن باب اللَّه مفتوح لهم وأن اللجأ إليه أمر هين عليهم وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات، ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقية من الأمم، ليكون ذلك تأنيسًا لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية، وإنصافا للصالحين منهم، واعترافا بفضلهم، وتبشيرا لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومثل الحواريين، والموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد اللَّه بن سلام وصهيب، فقد وفت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدمة، مناسبة اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبة ذكر الضد بعد الكلام على ضده»[(٤)].

---

(١) يونس: الآية (٦٢).
(٢) فصلت: الآية (٣٠).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٩).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٥٣١).

وقال محمد رشيد رضا: «أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضرًا ولا غائبًا فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم، وبوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه، فذلك اللَّه الذي يقول: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات اللَّه، وانصراف عن العبرة، واستعصاء على الموعظة وخروج عن حدود الشريعة، واعتداء على أحكامها. اقترف ذلك سلفهم، وتبعهم عليه خلفهم، فحقت عليهم كلمة ربك، فلو قر الخطاب عندها، ولم يتلها من رحمته ما بعدها، لحق على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو اللَّه متنفس، بل كان ذلك القنوط لازمًا لكل عاص، قابضًا على نفس كل معتد، لا فرق بين اليهود وغيرهم، فإن سبب ما نزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع اللَّه لهم، وسنن اللَّه في خلقه لا تتغير، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل، لهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمنا لجميع من تمسك بهدي نبي سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية، ليدل على أن الجزاء السابق -وإن حكي على أنه من خطأ اليهود خاصة، لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر اللَّه وانتهاك حرماته، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب اللَّه ما سقط عليهم، وعلى أن اللَّه جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهود بل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

وأما أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة فكل ذلك لا أثر له في رضاء اللَّه ولا غضبه، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان باللَّه تعالى بأن يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان، أو جيشانًا في القلب من عين الوجدان، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليًا من شوب التشبيه والتمثيل، واليقين في نسبة الأفعال إليه خالصًا من وساوس الوهم والتخييل، ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهي. فإذا رفع بصره إلى الجناب الأرفع أغضى هيبة وأطرق إلى أرض العبودية خشوعًا، وإذا أطلق نظره فيما بين

يديه، مما سلطه اللَّه عليه، شعر في نفسه عزة باللَّه، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه، لا يعدو حدًّا ضرب له، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل إليها، فيكون عبد اللَّه وحده، سيدا لكل شيء بعده»[١].

وقال: «فالآية بيان لسنة اللَّه تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٢] فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل من آمن باللَّه واليوم الآخر الخ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، ولا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ؛ لأن الكلام في معاملة اللَّه تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها، الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة؛ لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلًا، فاللَّه يقول إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية، وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس، ولذلك نفى كون الأمر عند اللَّه بحسب أماني المسلمين أو أماني أهل الكتاب، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور دين النصرانية، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، ولهذا توجد في دمشق مساجد قديمة فيها قبلة إلى القطب الشمالي. وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالي كان لهؤلاء.

فإن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، فالأولون هم الذين أثنى اللَّه عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فأثنى على من آمن باللَّه واليوم الآخر وعمل صالحًا من هذه الملل الأربع: المؤمنين، واليهود، والنصارى والصابئين.

فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٣٣-٣٣٥).
(٢) النساء: الآيتان (١٢٣ و ١٢٤).
(٣) تفسير المنار (١/ ٣٣٦).

قبل النسخ والتبديل. والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء -صلى الله عليه وصلى الله على محمد وعلى آل محمد كما صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنه حميد مجيد- قبل نزول التوراة والإنجيل.

وهذا بخلاف المجوس والمشركين، فإنه ليس فيهم مؤمن. فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] فذكر الملل الست هؤلاء، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة. لم يذكر في الست من كان مؤمنًا، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط.

ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين. والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين. وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئا، ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم، ويقرون بمعاد الأبدان، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم.

ثم المشركون من الصابئة، كانوا يقرون بحدوث هذا العالم، كما كان المشركون من العرب تقر بحدوثه، وكذلك المشركون من الهند. وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هو أرسطو»[2].

ما جاء في قصة سلمان من العبر

* عن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي، حديثه من فيه، قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها، يقال لها جيّ، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته، أي ملازم النار، كما تحبس الجارية واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطِنَ النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة. قال: فشغل في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة

(١) الحج: الآية (١٧).
(٢) الرد على المنطقيين (ص: ٢٨٨-٢٨٩).

من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا واللَّه خير من الدين الذي نحن عليه، فواللَّه ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي، ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فواللَّه ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت: كلا واللَّه إنه خير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته، قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: واللَّه لا ندفنه أبدًا، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا

ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارًا منه قال فأحببته حبًّا لم أحبه من قبله، وأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبًّا لم أحبه قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر اللَّه، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني واللَّه ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلًا بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان: إن فلانًا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من اللَّه ﷻ ما ترى فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني واللَّه ما أعلم رجلًا على مثل ما كنا عليه إلا رجلًا بنصيبين، وهو فلان، فألحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته بخبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فواللَّه ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما نعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلًا بعمورية، فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر اللَّه، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، واللَّه ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء اللَّه أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارًا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب،

وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم، فأعطيتهموها وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى، ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي، فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فواللَّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث اللَّه رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ثم هاجر إلى المدينة، فواللَّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: فلان، قاتل اللَّه بني قيلة، واللَّه إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك ماذا تقول، ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبل على عملك؟ قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبت عما قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «**كلوا**» وأمسك يده فلم يأكل قال: فقلت في نفسي هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئًا وتحول رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها قال: فأكل رسول اللَّه ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، ثم جئت رسول اللَّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول اللَّه ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول اللَّه ﷺ: «**تحول**» فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول اللَّه ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللَّه ﷺ بدر وأحد، قال: ثم قال لي

رسول اللَّه ﷺ: «**كاتب سلمان**» فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**» فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر؛ يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية فقال لي رسول اللَّه ﷺ: «**اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي**» ففقرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته، فأخبرته، فخرج رسول اللَّه ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول اللَّه ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتى رسول اللَّه ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال: «**ما فعل الفارسي المكاتب**» قال: فدعيت له، فقال: «**خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان**» فقلت: وأين تقع هذه يا رسول اللَّه مما علي؟ قال: «**خذها فإن اللَّه، ﷻ، سيؤدي بها عنك**» قال: فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول اللَّه ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد(١).

★ غريب الحديث:

الدهقان: رئيس القرية.

عذق: العذق بالفتح: النخلة والعذق بالكسر: العرجون بما فيه من الشماريخ.

الودي: صغار النخل، الواحدة: ودية.

فقر: فقر لها: أي احفر لها موضعًا تغرس فيه، واسم تلك الحفرة: فقرة وفقير.

★ فوائد الحديث:

ذكر ابن جرير في تفسيره لهذه الآية -نقلًا عن السدي ومجاهد- أن هذه الآية

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤١-٤٤٤) والطبراني (٦/ ٢٢٢-٢٢٦/ ٦٠٦٥) وصححه ابن حبان (١٦/ ٦٤-٦٦/ ٧١٢٤) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٣٢) وقال: «رواه أحمد كله والطبراني في الكبير بنحوه بأسانيد وإسناد الرواية الأولى عند أحمد والطبراني رجالها رجال الصحيح غير محمد بن اسحاق وقد صرح بالسماع ورجال الرواية الثانية انفرد بها أحمد ورجالها رجال الصحيح غير عمرو بن أبي قرة الكندي وهو ثقة ورواه البزار».

نزلت في سلمان وأصحابه، ثم قال: «فتأويل الآية إذًا، على ما ذكرنا عن مجاهد والسدي: إن الذين آمنوا -من هذه الأمة- والذين هادوا والنصارى والصابئين - من آمن من اليهود والنصارى والصابئين باللَّه واليوم الآخر- فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1].

قلت: وفي هذه القصة:

١- فضيلة لسلمان ﷺ حيث أعطاه اللَّه تعالى نفسًا قويًا استطاع بفضل اللَّه أن يبحث عن الدين الحق، وأعطاه اللَّه من العقل والفراسة ما جعله اللَّه يصل إلى أعظم الأمور التي تدله على الطريق.

٢- ما كان عليه الواقع في ذلك الوقت من ذهاب الديانات الصحيحة وانتشار الكفر والفسوق والعصيان.

٣- صحة الديانة غير المبدلة؛ فإن الذين تقلب في أحضانهم سلمان ورافقهم وعبد اللَّه معهم لم يبطل عملهم، فسلمان ﷺ لم يرد عليه رسول اللَّه ﷺ هذا؛ بل أقره في جميع مراحله التي حكاها له. وهذا هو الذي جعل ابن جرير يستدل بهذه القصة عند هذه الآية. واللَّه أعلم.

٤- صحة نية سلمان وأن اللَّه تعالى يجازي على النية الطيبة جزاء لا يخطر بالبال؛ فإن نية سلمان ﷺ أخرجته من عبادة النار إلى عبادة الواحد القهار.

٥- أن الآباء مهما كانت عاطفتهم وحبهم لأبنائهم؛ فإنهم لا يطاعون إلا فيما يرضي اللَّه. فسلمان ﷺ لما أدرك ما عليه أبوه من شرك واضح وعبادة لغير الله؛ فارقه وهرب منه، ولم يُلَمْ على ذلك؛ بل حُمِد، وكان ذلك طريقًا إلى الخير والتوحيد.

٦- تواتر نبوة محمد ﷺ ومعرفته المعرفة التفصيلية لدى علماء أهل الكتاب من بداية حياته إلى نهايتها، فالراهب قد أخبر سلمان بما اختص به ﷺ من خاتم النبوة في ظهره، وبأنه لا يأكل الهدية ويأتي مهاجرًا من بلده الذي ولد فيه إلى المدينة التي وصفها له، وهكذا توجد أوصافه في كتبهم وفي قراطيسهم.

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٥٥).

٧- مساعدة الإمام لكل من به أزمة تحجزه عن التفرغ لطلب العلم، والدعوة إلى اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه. فقد تشرف سلمان بأن وضع ﷺ النخل بيده في حفرته، وأعطاه من المال ما خلص به من الرق، فهذا جزاء لسلمان على صدقه وحبه وإيمانه بالنبي ﷺ وطلبه للحق في زمن مبكر.

٨- فضيحة المدعين للصلاح باسم الإسلام؛ فيظهرون للناس الصلاح والعلم والدعوة، وهم في واقعهم لصوص وخونة، كما وقع لسلمان رضي الله عنه مع صاحبه الأول الذي تتلمذ عليه في الشام، وفِعلُ تلك الأمة بذلك الخائن من رجم بالحجارة ورفض لدفنه؛ فإنها أمة رشيدة صادقة بخلاف الأمم التي تتواطأ مع أهل النفاق من مرتزقة العلماء والدعاة؛ فإنها هي وهُمْ على الضلال.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مِيثاقَكم: الميثاق: العهد واليمين، أصله من الوثوق بالشيء، وهو الاطمئنان به. يقال: وثقت به ثقة: إذا سكنت إليه واعتمدت عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مذكرا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «أطمع اللَّه تعالى بالآية السابقة بني إسرائيل في رحمته بعد ما قرعهم بالنذر التي تكاد توقع اليأس في قلوبهم، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطمع بل الباب الذي يؤدي إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما الأنبياء عليهم السلام وهما الإيمان الصحيح اليقيني والعمل الصالح. وإشراك غير بني إسرائيل في هذا الحكم لا يقضي بانتهاء السياق، بل لا يزال الكلام في بني إسرائيل، ولذلك عقب ذلك الإطماع بالتذكير ببعض الوقائع التي استحقوا فيها العقوبة فحالت دون وقوعها الرحمة فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهو العهد الذي أخذه عليهم»[٣].

---

(١) الأعراف: الآية (١٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٢).

(٣) تفسير المنار (١/ ٣٤٠).

قال القرطبي: «﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: تدبروه واحفظوا أوامره ووعيده، ولا تنسوه ولا تضيعوه. قلت: هذا هو المقصود من الكتب، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها؛ فإن ذلك نبذ لها»[1].

قلت: رحمة اللَّه على أبي عبد اللَّه القرطبي في فهمه للآية، وأن العمل بالكتب هو المقصود الأعظم، والهدف الرئيس من النبوات والرسالات؛ فإن انقلبت النبوات والرسالات إلى مظاهر، وإلى نغمات وإلى أصوات تغنى وتطرب؛ فإن ذلك هو ضياعها كما وقع للنصارى، فأصبحت كنائسهم تعج بأصوات الأغاني، وانقلبت كلها إلى صور وأصلبة، فضاع دينهم وانقلب إلى لهو ولعب، وهكذا الزوايا الصوفية وكثير من مساجد المسلمين ومناسباتهم، انقلبت إلى أن صارت عامرة بالأغاني والأصوات والتطريبات والألحان، وأصبح القرآن لعبة في أيدي السفهاء، يقدم على أنه أغنية يتغنى بها، ويعزل الناس عن فهمه ووصاياه وتعاليمه، فما أشار إليه القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو واقعنا الذي نعيشه؛ فقد انقلب مفهوم الزهد والفقر إلى مفهوم الشطح والرقص، وإقامة المناسبات والمواسم والعوائد والحسينيات، والسرادق والمزامير والطبول، واختلاط الرجال بالنساء، وكل آلات اللهو واللعب، فلا تسأل عن رقصهم واختلاطهم، ولا تسأل عن أصواتهم المزعجة، إلى غير ذلك من أوصافهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الزجر عن حفظ حروف القرآن وتضييع حدوده

* عن عوف بن مالك، أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، فنظر في السماء، ثم قال: «**هذا أوان العلم أن يرفع**» فقال له رجل من الأنصار يقال له: زياد بن لبيد: أيرفع العلم يا رسول اللَّه وفينا كتاب اللَّه، وقد علمناه أبناءنا ونساءنا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن كنت لأظنك من أفقه أهل المدينة**» ثم ذكر ضلالة أهل الكتابين، وعندهما ما عندهما من كتاب اللَّه ﷻ.

فلقي جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلى، فحدثه هذا الحديث عن عوف بن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٩٧).

مالك فقال: صدق عوف. ثم قال: وهل تدري ما رفع العلم؟ قال: قلت: لا أدري. قال: ذهاب أوعيته. قال: وهل تدري أي العلم أول أن يرفع؟ قال: قلت: لا أدري. قال: الخشوع، حتى لا تكاد ترى خاشعًا[(١)].

* مالك عن يحيى بن سعيد أن عبد اللَّه بن مسعود قال لإنسان: إنك في زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه قليل من يسأل، كثير من يعطي، يطيلون فيه الصلاة ويقصرون الخطبة، يبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤهم، كثير قراؤه، يحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده. كثير من يسأل، قليل من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم[(٢)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال أبو عمر: «وفيه -أي أثر ابن مسعود- من الفقه مدح زمانه؛ لكثرة الفقهاء فيه وقلة القراء، وزمانه هذا هو القرن الممدوح على لسان النبي ﷺ. وفيه دليل على أن كثرة القراء للقرآن دليل على تغير الزمان وذمه لذلك. وقد روي عن النبي ﷺ: **«أكثر منافقي أمتي قراؤها»**[(٣)] من حديث عقبة بن عامر وغيره. وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: قد يقرأ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٦/ ٥٩٠٩) وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٣٣/ ٤٥٧٢) والحاكم (١/ ٩٨-٩٩) ووافقه الذهبي.

(٢) البيهقي في الشعب (٤/ ٢٥٨/ ٥٠٠٠) من طريق مالك بهذا الإسناد، ويحيى بن سعيد لم يسمع من عبد اللَّه شيئا. وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٨٢/ ٣٧٨٧) ومن طريقه: الطبراني في الكبير (٩/ ٢٩٨/ ٩٤٩٦) قال في المجمع (٢/ ١٩٠): «ورجاله ثقات». وأخرجه أبو خيثمة في كتاب العلم (١٠٩). والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٩) والدارمي (١/ ٦٤) والطبراني (٩/ ١٠٨/ ٨٥٦٧) والحاكم (٤/ ٤٨٢) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي من طرق عن عبد اللَّه ﷺ بألفاظ مختلفة. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٥): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أحمد (٤/ ١٥١، ١٥٥) والفريابي في صفة النفاق (٤٣) (٤٤) (٤٥) وابن بطة في الإبانة (٢/ ٧٠٣/ ٩٤٤) وابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ١٨٤/ ١١٠) وابن عدي (٤/ ١٤٨) والخطيب في التاريخ (١/ ٣٥٧) من طرق عن ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان عنه ﷺ وفيه ابن لهيعة وروايته ضعيفة إلا إذا روى عنه أحد العبادلة الثلاثة وهم قد رووا عنه هذا الحديث: فرواه عنه عبد اللَّه بن يزيد عند أحمد وابن قتيبة والفريابي، وابن المبارك عند الفريابي، وابن وهب عند ابن بطة. ومشرح بن هاعان مقبول كما في التقريب يعني عند المتابعة، وقد تابعه أبو عشانة حي بن يؤمن ثقة كما في التقريب عند: الطبراني(١٧/ ٣٠٥/ ٨٤١) وتابع ابن لهيعة الوليد بن المغيرة أبو العباس عند: الفريابي (٤٥) والوليد ثقة أيضا كما قال الحافظ في التقريب. =

القرآن من لا خير فيه، والعيان في هذا الزمان على صحة معنى هذا الحديث كالبرهان. وفيه دليل على أن تضييع حروف القرآن ليس به بأس؛ لأنه قد مدح الزمان الذي تضيع فيه حروفه وتقام فيه حدوده، وذم الزمان الذي يحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده»[١].

* * *

= قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢٩): «رواه أحمد والطبراني وأحد أسانيد أحمد ثقات». وفي الباب عن عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عباس وعصمة بن مالك.

(١) بغية المستفيد (١/ ٣٧٦-٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الخاسرين: جمع خاسر، وهو مَنْ نقص رأس ماله ولم يحصل له نفع أو ربح. يقال: خَسَرْتُ الشيءَ وأخسرته نقصته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ذكره-: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فلولا أن اللَّه تفضل عليكم بالتوبة -بعد نكثكم الميثاق الذي واثقتموه- إذ رفع فوقكم الطور- بأنكم تجتهدون في طاعته، وأداء فرائضه، والقيام بما أمركم به، والانتهاء عما نهاكم عنه في الكتاب الذي آتاكم، فأنعم عليكم بالإسلام ورحمته التي رحمكم بها- وتجاوز عنكم خطيئتكم التي ركبتموها - بمراجعتكم طاعة ربكم لكنتم من الخاسرين.

وهذا، وإن كان خطابًا لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ من أهل الكتاب أيام رسول اللَّه ﷺ، فإنما هو خبر عن أسلافهم -فأخرج الخبر مخرج المخبر عنهم- على نحو ما قد بينا فيما مضى، من أن القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره، بما مضى من فعل أسلاف المخاطب بأسلاف المخاطب، فتضيف فعل أسلاف المخاطب إلى نفسها فتقول: فعلنا بكم وفعلنا بكم»[1].

قال محمد رشيد رضا: «وبعد أن ذكر لهم تلك الآية، وما اتصل بها من الهداية، ذكرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والإعراض عن القبول، ثم امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة،

(١) جامع البيان (٢/ ١٦٤).

فقال ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثر في القلوب، وتستكين لها النفوس ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: أنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن حال دون نزوله بكم فضل اللّه عليكم ورحمته بكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن في الأرض المقدسة التي تفيض لبنًا وعسلًا، ثم خسرتم سعادة الآخرة وهي خير ثوابًا وخير أملًا، فمن فضله وإحسانه أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (١/ ٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

السَّبْت: أحد أيام الأسبوع. سمّي بذلك لأنه سُبِتَ فيه خلقُ كلّ شيء؛ أي: قُطع وفُرِغ. وقيل: لكون اليهود يسبتون فيه؛ أي: يستريحون ويقطعون أعمالهم. وأصل السبت: السكون والراحة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾(١).

خاسِئين: جمع واحده: خاسئ، وهو المبعد المطرود. تقول: خَسَأْتُ الكلب: إذا طردته.

نكالًا: النكال: العذاب، أصله المنع، مأخوذ من النِّكْلِ، بفتح النون وكسرها، وهو اللجام الثقيل يمنع الدابة من المشي. ونَكَلَ عن الأمر: امتنع.

موعِظة: الوعظ: التخويف. أصلها من الاتعاظ وهو الانزجار. والعِظَة الاسم، قال الخليل: الوعظ التذكير بالخير فيما يرق له القلب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الآية وآيات بعدها تتلوها، مما عدد -جل ثناؤه- فيها على بني إسرائيل الذين كانوا بين خلال دور الأنصار زمان النبي ﷺ، الذين ابتدأ بذكرهم في أول هذه السورة من نكث أسلافهم عهد اللّٰه وميثاقه ما كانوا يبرمون من العقود، وحذر المخاطبين بها أن يحل بهم بإصرارهم على كفرهم، ومقامهم على جحود نبوة محمد ﷺ، وتركهم اتباعه والتصديق بما جاءهم به من عند ربه مثل الذي حل بأوائلهم من المسخ والرجف والصعق، وما لا قبل لهم به من غضب اللّٰه وسخطه»(٢).

---

(١) النبأ: الآية (٩).

(٢) جامع البيان (٢/ ١٦٧).

وقال محمد رشيد رضا : «وأما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقي يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ويعظ بها غيره أيضًا ، ولا يتم كون تلك العقوبة نكالًا للمتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة في تربية الأمم وتهذيب الطباع ، وذلك ما هو معروف لأهل البصائر ، ومشهور عند عرفاء الأوائل والأواخر»[١] .

قال ابن كثير : «يقول تعالى : ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر اللَّه وخالفوا عهده وميثاقه ، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعًا لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك ، مسخهم اللَّه إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى : ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[٢] القصة بكمالها»[٣] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم وبيان جزاء المحرفين والظالمين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم اللَّه بأدنى الحيل**»[٤] .

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٤٤-٣٤٥) .

(٢) الأعراف: الآيات (١٦٣-١٦٥) . (٣) ابن كثير (١/ ١٨٣) .

(٤) رواه ابن بطة في جزء إبطال الحيل (ص: ٢٤) كما في آداب الزفاف (ص: ١٩٢) وجود إسناده ابن كثير (١/ ١٥٤) وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٥١٣) وحسنه أيضا ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٩) .

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «وقد عاتب اللَّه من أسقط الواجبات، واستحل المحرمات: بالحيل، والمخادعات، كما ذكر ذلك في سورة (ن) وفي قصة أهل السبت.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم اللَّه بأدنى الحيل**». وقال أيوب السختياني: يخادعون اللَّه كما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون علي»[١].

وقال ابن عثيمين: «ومنها تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[٢]؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثما من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المتحيلين: «إنهم يخادعون اللَّه كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون»؛ وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[٣].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٣٦).
(٢) البقرة: الآية (٦٥).
(٣) تفسير القرآن الكريم (١/ ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

★ غريب الآية:

الجاهلين: جمع واحده جاهل. والجهل نقيض العلم والحلم. وهو اعتقاد الشيء على خلاف حقيقته.

فارض: أي: مُسنّة هَرِمَة. من فَرَضَت البقرة تَفْرِضُ فُرُوضًا: إذا أَسَنَّتْ وكبرت. قال الشاعر:

لعمري قد أعطيت جارك فارضًا ... تُسَاقُ إليه ما تقوم على رجل

بِكر: البكر: الصغيرة التي لم تحمل. والبِكْرُ من كل شيء أَوَّلُه.

عوان: النَّصَفُ التي بين المسنة والصغيرة. قال الشاعر:

فرُحن عليه بين بِكرٍ عزيزة ... وبين عوانٍ كالغمامَةِ نَاصِفِ

فاقع: أي: شديد الصفرة. يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر.

ذَلول: يقال للدابة: ذلول: إذا ذللها الركوب والعمل.

تُثير: أصل الإثارة: إظهار الشيء بالكشف وأثار الأرض: كَرَبَها وقلبها. ومنه

قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾[١].

مُسَلَّمَة: أي: مبرّأة من العيوب.

لا شِيَةَ: أي: ليس فيها لون يُخالف لونَها. أصل ذلك من وَشَى الثوبَ: إذا نسجه على لونين فأكثر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه -من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم، من قولهم إن بني إسرائيل لو كانوا أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد اللّٰه عليهم- من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أن حكم اللّٰه، فيما أمر ونهى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، على العموم الظاهر، دون الخصوص الباطن، إلا أن يخص بعض ما عمه ظاهر التنزيل، كتاب من اللّٰه أو رسول الله؛ وأن التنزيل أو الرسول، إن خص بعض ما عمه ظاهر التنزيل بحكم، خلاف ما دل عليه الظاهر، فالمخصوص من ذلك خارج من حكم الآية التي عمت ذلك الجنس خاصة، وسائر حكم الآية على العموم.. وذلك أن جميع من ذكرنا قوله آنفا -ممن عاب على بني إسرائيل مسألتهم نبيهم ﷺ عن صفة البقرة التي أمروا بذبحها وسنها وحليتها- رأوا أنهم كانوا في مسألتهم رسول اللّٰه ﷺ موسى ذلك مخطئين، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر - إذ أمروا بذبحها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فذبحوها- كانوا للواجب عليهم من أمر اللّٰه في ذلك مؤدين، وللحق مطيعين، إذ لم يكن القوم حصروا على نوع من البقر دون نوع، وسن دون سن.

ورأوا مع ذلك أنهم -إذ سألوا موسى عن سنها فأخبرهم عنها، وحصرهم منها على سن دون سن ونوع دون نوع، وخص من جميع أنواع البقر نوعا منها- كانوا في مسألتهم إياه في المسألة الثانية، بعد الذي خص لهم من أنواع البقر، من الخطأ على مثل الذي كانوا عليه من الخطأ في مسألتهم إياه المسألة الأولى.

وكذلك رأوا أنهم في المسألة الثالثة على مثل الذي كانوا عليه من ذلك في

---

(١) الروم: الآية (٩).

الأولى والثانية، وأن اللازم كان لهم في الحالة الأولى، استعمال ظاهر الأمر، وذبح أي بهيمة شاؤوا مما وقع عليها اسم بقرة.

وكذلك رأوا أن اللازم كان لهم في الحال الثانية، استعمال ظاهر الأمر وذبح أي بهيمة شاؤوا مما وقع عليها اسم بقرة عوان لا فارض ولا بكر، ولم يروا أن حكمهم -إذ خص لهم بعض البقر دون البعض في الحالة الثانية- انتقل عن اللازم الذي كان لهم في الحالة الأولى، من استعمال ظاهر الأمر إلى الخصوص.

ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك -مع الرواية التي رويناها عن رسول اللَّه ﷺ بالموافقة لقولهم- دليل واضح على صحة قولنا في العموم والخصوص، وأن أحكام اللَّه -جل ثناؤه- في آي كتابه -فيما أمر ونهى- على العموم، ما لم يخص ذلك ما يجب التسليم له. وأنه إذا خص منه شيء، فالمخصوص منه خارج حكمه من حكم الآية العامة الظاهر، وسائر حكم الآية على ظاهرها العام، ومؤيد حقيقة ما قلنا في ذلك، وشاهد عدل على فاسد قول من خالف قولنا فيه.

وقد زعم بعض من عظمت جهالته، واشتدت حيرته، أن القوم إنما سألوا موسى ما سألوا بعد أمر اللَّه إياهم بذبح بقرة من البقر؛ لأنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها خصت بذلك، كما خصت عصا موسى في معناها، فسألوه أن يجليها لهم ليعرفوها.

ولو كان الجاهل تدبر قوله هذا، لسهل عليه ما استصعب من القول. وذلك أنه استعظم من القوم مسألتهم نبيهم ما سألوه تشددا منهم في دينهم، ثم أضاف إليهم من الأمر ما هو أعظم مما استنكره أن يكون كان منهم، فزعم أنهم كانوا يرون أنه جائز أن يفرض اللَّه عليهم فرضًا، ويتعبدهم بعبادة، ثم لا يبين لهم ما يفرض عليهم ويتعبدهم به، حتى يسألوا بيان ذلك لهم! فأضاف إلى اللَّه تعالى ذكره ما لا يجوز إضافته إليه، ونسب القول من الجهل إلى ما لا ينسب المجانين إليه! فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفرائض، فنعوذ باللَّه من الحيرة، ونسأله التوفيق والهداية»[1].

قال ابن القيم: «وفي هذه القصة أنواع من العبر:

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٠٧-٢٠٩ شاكر).

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول اللَّه ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارا وإنذارا للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر اللَّه تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد اللَّه عليهم.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر اللَّه الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار: وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وهذا من غاية جهلهم باللَّه ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر اللَّه لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وتيقنوا أن اللَّه سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها. فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال. ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح. فقد جاء رسول اللَّه بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلا منهم، وهفوة من هفواتهم.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القوم بعد أن أحيى اللَّه تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله. وقالوا: واللَّه ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا. فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه اللَّه تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل. ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون اللَّه، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي»[1].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٤٣٤-٤٣٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز ذبح ما ينحر ونحر ما يذبح

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد النبي ﷺ فرسًا فأكلناه[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قولها: (نحرنا فرسًا) وفي رواية البخاري: (ذبحنا فرسًا)[٢] وفي رواية له: (نحرنا) كما ذكر مسلم.

«فيجمع بين الروايتين بأنهما قضيتان، فمرة نحروها ومرة ذبحوها، ويجوز أن تكون قضية واحدة ويكون أحد اللفظين مجازًا، والصحيح الأول لأنه لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة، والحقيقة غير متعذرة بل في الحمل على الحقيقة فائدة مهمة وهي أنه يجوز ذبح المنحور ونحر المذبوح وهو مجمع عليه وإن كان فاعله مخالفًا الأفضل»[٣].

قال القرطبي: «لا خلاف بين العلماء أن الذبح أولى في الغنم، والنحر أولى في الإبل، والتخير في البقر. وقيل: الذبح أولى؛ لأنه الذي ذكره الله، ولقرب المنحر من المذبح. قال ابن المنذر: لا أعلم أحدًا حرم أكل ما نحر مما يذبح، أو ذبح مما ينحر. وكره مالك ذلك. وقد يكره المرء الشيء ولا يحرمه»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٥) والبخاري (٩/ ٧٩٨/ ٥٥١٠) ومسلم (٣/ ١٥٤١/ ١٩٤٢) والنسائي (٧/ ٢٦٠-٢٦١/ ٤٤١٨) وابن ماجه (٢/ ١٠٦٤/ ٣١٩٠).

(٢) صحيح البخاري (٥٥١١).

(٣) شرح مسلم (١٣/ ٨٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ادّارأتم: اختلفتم. وأصل الدرء: الدفع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «والصواب من القول عندنا في تأويل قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أن يقال: أمرهم اللَّه -جل ثناؤه- أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا في خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها، ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله»(١).

وقال ابن كثير: «﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه اللَّه تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيان، فنحن نبهمه كما أبهمه الله»(٢).

قلت: وهذه الطريقة التي سلكها الإمامان ابن جرير وابن كثير -رحمهما الله- في التنبيه على عدم البحث عن أي جزء من البقرة أمروا أن يضربوا به القتيل؛ هو

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٣١).   (٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

الفهم السلفي الصحيح، والدخول في تفاصيل لم يبينها اللَّه ولا رسوله هو من التقول على اللَّه بغير علم، فيدخل صاحبه في الذم الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وهكذا في بيان كلب أصحاب الكهف، وطيور إبراهيم، وعصا موسى وغيرها مما جاء مبهما في كتاب اللَّه، ولم يصح عن النبي ﷺ في ذلك حديث، فالعالم الحق هو الذي يقف عند كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ لا يتعداهما، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحكام القسامة

* عن سهل بن أبي حثمة أنه أخبره هو ورجال من كبراء قومه: (أن عبد اللَّه بن سهل ومحيصة خرجا إلى خيبر من جهد أصابهم، فأخبر محيصة أن عبد اللَّه قتل وطرح في فقير - أو عين - فأتى يهود فقال: أنتم واللَّه قتلتموه. قالوا: ما قتلناه واللَّه. ثم أقبل حتى قدم على قومه فذكر لهم فأقبل هو وأخوه حويصة - وهو أكبر منه - وعبد الرحمن بن سهل، فذهب ليتكلم - وهو الذي كان بخيبر - فقال النبي ﷺ لمحيصة: «كبِّر كبِّر» يريد السن. فتكلم حويصة، ثم تكلم محيصة. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إما أن يدوا صاحبكم، وإما أن يؤذنوا بحرب**»، فكتب رسول اللَّه ﷺ إليهم به، فكتب: ما قتلناه، فقال رسول اللَّه ﷺ لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن: «**أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم**»؟ قالوا: لا. قال: «**أفتحلف لكم يهود؟**» قالوا: ليسوا بمسلمين. فوداه رسول اللَّه ﷺ من عنده مائة ناقة حتى أدخلت الدار. قال سهل: فركضتني منها ناقة[4].

---

(١) الأعراف: الآية (٣٣).
(٢) الحجرات: الآية (١).
(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي (٤/ ٤٨٣/ ٢٣١٧) وقال: «غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥-١٣١٦/ ٣٩٧٦)، وصححه ابن حبان (١/ ٤٦٦/ ٢٢٩)، وحسنه النووي في الأربعين.
(٤) رواه أحمد (٤/ ٣) والبخاري (١٣/ ٢٢٨/ ٧١٩٢) ومسلم (٣/ ١٢٩١-١٢٩٢/ ١٦٦٩) وأبو داود (٤/ ٦٥٥-٦٥٨/ ٤٥٢٠) والترمذي (٤/ ٢٢-٢٣/ ١٤٢٢) والنسائي (٨/ ٣٧٧/ ٤٧٢٧) وابن ماجه (٢/ ٨٩٢-٨٩٣/ ٢٦٧٧) من طريقين عن سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

★ **غريب الحديث:**

فقير: أي: بئر، وقيل هي القليلة الماء.

يدوا: أي: يعطوا ديته.

★ **فوائد الحديث:**

قال البغوي: «أما حكم هذه المسألة في الإسلام: إذا وجد قتيل في موضع ولا يعرف قاتله فإن كان ثم (لوث) على إنسان -واللوث: أن يغلب على القلب صدق المدعي، بأن اجتمع جماعة في بيت أو صحراء فتفرقوا عن قتيل يغلب على القلب أن القاتل فيهم، أو وجد قتيل في محلة أو قرية كلهم أعداء للقتيل لا يخالطهم غيرهم، فيغلب على القلب أنهم قتلوه -فادعى الولي على بعضهم، يحلف المدعي خمسين يمينا على من يدعي عليه، وإن كان الأولياء جماعة توزع الأيمان عليهم، ثم بعدما حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادعوا قتل خطأ، وإن ادعوا قتل عمد فمن ماله، ولا قود على قول الأكثرين وذهب بعضهم إلى وجوب القود، وهو قول عمر بن عبد العزيز وبه قال مالك وأحمد، وإن لم يكن على المدعى عليه لوث فالقول قول المدعى عليه مع يمينه ثم هل يحلف يمينًا واحدة أم خمسين يمينًا؟ فيه قولان:

(أحدهما): يمينًا واحدة كما في سائر الدعاوى.

(والثاني): يحلف خمسين يمينًا تغليظًا لأمر الدم، وعند أبي حنيفة رضي الله عنه: لا حكم للوث ولا يزيد بيمين المدعي وقال: إذا وجد قتيل في محلة يختار الإمام خمسين رجلًا من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا عرفوا له قاتلًا، ثم يأخذ الدية من سكانها، والدليل على أن البداية بيمين المدعي عند وجود اللوث».

ثم ذكر بسنده حديث سهل المتقدم ثم قال: «وجه الدليل من الخبر: أن النبي ﷺ بدأ بأيمان المدعين لتقوي جانبهم باللوث، وهو أن عبد اللّه بن سهل وجد قتيلًا في خيبر، وكانت العداوة ظاهرة بين الأنصار وأهل خيبر، وكان يغلب على القلب أنهم قتلوه، واليمين أبدا تكون حجة لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث يقوى جانب المدعى عليه من حيث أن الأصل براءة ذمته وكان القول قوله مع يمينه»[1].

---

(١) معالم التنزيل (١/ ١٠٩-١١٠).

وقال أبو عمر: «كل من أوجب الحكم بالقسامة من علماء الحجاز والعراق، فهم في ذلك على معنيين وقولين، فقوم أوجبوا الدية والقسامة بوجوب القتيل فقط، ولم يراعوا معنى آخر، وقوم اعتبروا اللوث، فهم يطلبون ما يغلب على الظن وما يكون شبهة يتطرق بها إلى حراسة الدماء، ولم يطلبوا في القسامة الشهادة القاطعة ولا العلم البت، وإنما طلبوا شبهة وسموا لوثًا؛ لأنه يلطخ المدعى عليه، ويوجب الشبهة، ويتطرق بها إلى حراسة الأنفس وحقن الدماء، إذ في القصاص حياة، والخير كله في ردع السفهاء والجناة»[1].

قال المازري: «اختلف الناس في أيمان القسامة من يبدأ بها، فعند مالك والشافعي أولياء الدم، وعند أبي حنيفة المطلوبون بالدم يحلفون وتكون الدية على من أسس المحلة. واحتج أصحابنا عليه بهذا الحديث وقد قال ﷺ: «**أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟**» قالوا: لا. قال: «**فتحلف لكم يهود**» ولا معنى لقولهم: قد يحمل هذا اللفظ على النكير أن يخطر ببالهم أن يحلفوا لأنه خلاف ظاهر اللفظ، وقد قال في بعض طرقه: «**يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته**». ومثل هذا لا يكون في ألفاظ النكير، وإن تعلقوا في مقابلة هذا بما وقع من تبدئة اليهود، قلنا: لعل الراوي اختصر ذكرهم والزيادة من العدل تقبل.

وإذا ثبت القول بالقسامة فاختلف الناس أيضا: هل تستحق بها إراقة الدم أو الدية؟ ومذهبنا أنه يستحق بها إراقة الدم، وقد وقع في بعض طرقه: «**وتستحقون قاتلكم**». وفي بعض طرقه: «**دم صاحبكم**» ولا يصرف هذا للقتيل لأن دمه قد فات. وهكذا نمنعهم من حمل قوله: «**وتستحقون صاحبكم**» على أن المراد به: دية صاحبكم؛ لأن هذا خلاف الظاهر»[2].

قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله «**يحلف خمسون منكم خمسين يمينًا**» -كما جاء في رواية لمسلم- يبين معنى قوله: «**يحلفون**» وأن الأيمان لا تكون أقل من خمسين، وأنها لا يحلفها واحد وإنما يحلفها خمسون من أولياء المقتول، كل واحد يمين، فإن كانوا دون هذا العدد، أو نكل بعضهم ولم يكن ممن يجوز عفوه، أو صرف اليمين إلى غيره، ردت الأيمان عليهم حتى يتموا خمسين يمينًا. ويجزئ في ذلك رجلان، ولا يحلف في قتل العمد أقل من اثنين. هذا مشهور مذهب مالك، وعنه

---

(١) فتح البر (١١/ ٦٢٥-٦٢٦).

(٢) المعلم (٢/ ٢٤٥).

أن الأولياء إن كانوا أكثر من خمسين حلفوا كلهم يمينا يمينا ، ولا يحلف في ذلك عنده إلا الرجال البالغون من أوليائه ومن يستعينون به من عصبته، وهذا كله في العمد، وبهذا قال الليث وربيعة والثوري والأوزاعي وأحمد وداود وأهل الظاهر، وأنه لا يقسم النساء ولا الصبيان»[١] .

* * *

(١) الإكمال (٥/ ٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

★ غريب الآية:

قَست: القسوة: ذهاب اللين والرحمة من القلب. أصلها: الصلابة في كلّ شيء، ونقيضها الرّقّة.

يتفجّر: يتشقّق فينبع منه الماء ويسيل خارجًا. قال عمرو بن لحاء:

ولما أن قرنتَ إلى جرير أبى ذو بطنه إلا انفجارا

أي: خروجًا وسيلانًا.

غافل: الغفلة: السَّهو عن الشيء. والغافل: السّاهي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما وصف اللَّه تعالى ذكره الحجارة بما وصفها به من أن منها المتفجر منه الأنهار، وأن منها المتشقق بالماء، وأن منها الهابط من خشية اللَّه، بعد الذي جعل منها لقلوب الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل مثلًا؛ معذرة منه -جل ثناؤه- لها، دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بني إسرائيل، إذ كانوا بالصفة التي وصفهم اللَّه بها من التكذيب لرسله، والجحود لآياته، بعد الذي أراهم من الآيات والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم تعالى ذكره من صحة العقول، ومن به عليهم من سلامة النفوس التي لم يعطها الحجر والمدر، ثم هو مع ذلك منه ما يتفجر بالأنهار، ومنه ما يتشقق بالماء، ومنه ما يهبط من خشية اللَّه، فأخبر -تعالى ذكره- أن من الحجارة ما هو ألين من قلوبهم لما يدعون إليه من الحق»[1].

---

(١) جامع البيان (٢/ ٢٣٩-٢٤٠).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات اللَّه تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كله، فهي كالحجارة التي لا تلين أبدًا، ولهذا نهى اللَّه المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[(١)]. . فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية اللَّه وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال البغوي: «ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللَّه تعالى خلق علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقل، لا يقف عليه غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشية كما قال -جل ذكره-: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٤)] وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾[(٥)] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[(٦)] الآية، فيجب على المؤمن الإيمان به ويكل علمه إلى اللَّه ﷻ»[(٧)].

قلت: العقل السوي والفطرة السليمة والصدق والأمانة دائما تكون في عون الإنسان بعد توفيق اللَّه بالتصديق بالحجج والأدلة، ولهذا تجد في تاريخ البشرية أكثر الناس تصديقًا للرسل ﷺ وما جاءوا به من كتب وآيات هم النوع البريء من كل لوثات التغيير التي تطرأ على الإنسان بحكم الأبوة أو الأمومة أو بحكم الهوى والجهل، أو بحكم الهوى والكبر، أو غيرها من الحواجز التي تمنع صاحبها من التصديق بالحق، والعمل به والإيمان به، كما هو واقع لبني إسرائيل الذين ذكر اللَّه

(١) الحديد: الآية (١٦).
(٢) الإسراء: الآية (٤٤).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧-١٩٨).
(٤) الإسراء: الآية (٤٤).
(٥) النور: الآية (٤١).
(٦) الحج: الآية (١٨).
(٧) معالم التنزيل (١/ ١١١).

خبرهم في هذه الآيات. ولهم نظائر في هذه الأمة؛ فإن حجج اللَّه قائمة؛ وكتاب اللَّه واضح، وسنة نبيه ﷺ بينة، وعلماء الأمة لم يقصروا في البيان والبلاغ -وعلى رأسهم صحابة الرسول ﷺ- ومع ذلك تجد المعرضين عن دين اللَّه وعن الحق بكثرة، بداية من عصر النبوة وإلى يومنا هذا، وكل أساطين الفرق وأربابها من جهمية ورافضة ومعتزلة وصوفية ومقلدة المذاهب، والآن أتباع الجماعات التي هي امتداد لتلك الفرق الضالة، كلها من هذا، فلا يلتفتون إلى حجة ولا إلى دليل، فتجد قساوة القلوب -كما وصف اللَّه اليهود بذلك- هي منهاجهم وطريقتهم، فنعوذ باللَّه من الخذلان، ونرجو اللَّه أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن علم اللَّه المحيط بمخلوقاته، قد اختص به -تبارك وتعالى-، فيعلم تسبيح الجمادات والكواكب والحيوانات، ولا يشركه فيه غيره إلا ما أطلعه اللَّه عليه، كما سيأتي في صحيح السنة من أحاديث الرسول ﷺ التي أخبر فيها عما ليس للعقل فيه دخل، وإنما يجب التصديق بذلك كما أخبر، واللَّه أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات التمييز لبعض الجمادات

* عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»[1].

* عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ: كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة، قال رسول اللَّه ﷺ: «**اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد**»[2].

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «فيه معجزة له ﷺ وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٩) ومسلم (٤/ ١٨٨٠/ ٢٤١٧) والترمذي (٥/ ٥٨٢/ ٣٦٩٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٩/ ٨٢٠٧).

تَعۡمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[(١)] وفي هذه الآية خلاف مشهور والصحيح أنه يسبح حقيقة ويجعل اللَّه تعالى فيه تمييزًا بحسبه كما ذكرنا، ومنه الحجر الذي فر بثوب موسى ﷺ[(٢)] وكلام الذراع المسمومة[(٣)] ومشي إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ[(٤)] وأشباه ذلك»[(٥)].

وقال القرطبي: «وقد قدمنا: أن الصحيح من مذاهب أئمتنا: أن كلام الجمادات راجع إلى أن اللَّه تعالى يخلق فيها أصواتًا مقطعة من غير مخارج؛ يفهم منها ما يفهم من الأصوات الخارجة من مخارج الفم، وذلك ممكن في نفسه. والقدرة القديمة لا قصور فيها، فقد أخبر بها الصادق؛ فيجب له التصديق. كيف لا؟ وقد سمع من حضر تسبيح الحصى في كفه[(٦)]، وحنين الجذع[(٧)] والمسجد قد غص بأهله»[(٨)].

* * *

---

(١) الإسراء: الآية (٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٤-٥١٥) والبخاري (٦/ ٥٣٨-٥٣٩/ ٣٤٠٤) والترمذي (٥/ ٣٣٥/ ٣٢٢١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٧/ ١١٤٢٤).

(٣) أخرجه بمعناه: الحاكم (٤/ ١٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٣٠٦-٢٣٠٧/ ٣٠١٢).

(٥) شرح مسلم (١٥/ ٢٩-٣٠).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٦٢-٦٣/ ٤١٠٩) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٧٩): «وفيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف، وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة، وإسناده صحيح». ورواه البزار (٣/ ١٣٥-١٣٦/ ٢٤١٣ و ٢٤١٤) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٤٢-١٤٣/ ١٢٦٦) وقال في المجمع (٨/ ٢٩٨): «رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات وفي بعضهم ضعف».

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠) والبخاري (٦/ ٧٤٦/ ٣٥٨٤) من حديث جابر وفي الباب عن ابن عمر وأنس وسهل ابن سعد وأبي بن كعب وابن عباس وأبي سعيد وأم سلمة وعائشة ﷺ أجمعين.

(٨) المفهم (٦/ ٥١).

فهرس الموضوعات

مقدمة التفسير

الاستعاذة

سورة الفاتحة ٢١

سورة البقرة

* * *